الدكتور ابراهيم بيضون

تكوّن الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول

من دولة عمر إلى دولة عبد الملك



دار اقرأ

تكوّن الاتجاهات السياسية
في الإسلام الأول

من دولة عمر الى دولة عبد الملك

الدكتور ابراهيم بيضون

تكوّن الاتجاهات السياسية في الإسلام الاول

من دولة عمر إلى دولة عبد الملك

دار اقرأ
للنشر والتوزيع والطباعة

الطبعة الثانية

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

دار اقـــرأ
بيروت - الرملة البيضاء - سنتر ملكارت التجاري - ص.ب. : ١٣٥٨١٨ - هاتف : ٨٠٦٢٥٢

الاهداء

الى

سيرين

وكندة وعلياء

مقدّمة

يحتلّ القرن الأول الهجري ، حيّزاً هاماً في الدراسات التاريخية الاسلامية ، حيث المتّسع من القضايا الشائكة ، التي كان لبعضها نصيب من التقويم العلمي الجاد ، بينما الآخر مازال يؤخذ ، على الرغم من حداثته ، أو تحديثه ، على طريقة أهل الأخبار والحديث ، دون الغوص في تفاعلات هذه القضايا وخلفياتها السياسية والاجتماعيّة والاقتصادية . ولعل مشكلة السلطة ، كانت المعضلة الكبرى التي أخذت مساحتها الواسعة في الدراسات المعاصرة ، منطلقةً في الغالب من التفسير التقليدي لهذا الحدث المركزي ، بحيث تدور المسألة سباقاً بين مجموعة نخبوية من المسلمين الأوائل ، ويأخذ الصراع منحىً شخصياً شبه معزول عن المؤثرات الأخرى . ومن هذا المنظور ، فإن هذه الدراسة ، ستكون محاولة للخروج من هذه « المدرسة » ، التي تصدّت لقضايا القرن الأول ، بعيداً عن الاتجاهات السياسية والقبلية ، التي اخذت تطفو على السطح ، عشية وفاة النبي . فلم يعد جائزاً البحث في هذه المسألة ، من زاوية « الحق الشرعي » ، المبني على « القرابة » أو « الصداقة » فقط ، وتجاهل العوامل الاخرى ، التي كانت تحمل مضمون الاستمرارية للاسلام ، وفق « البداية » المثلى التي جسّدتها دولة « المدنية » .

وإذا كانت مشكلة الحكم ، سبباً في ظهور اتجاهات سياسية ، أو بدايات متواضعة لها ، فإن ثمة مشكلات اخرى ، كان لها تأثير جذري في أحداث القرن الأول ، وإن كانت تدور من حيث المبدأ في فلك الخلافة ، التي لم تنجح حتى في

عهدها الراشدي الذهبي ، في تشكيل تيّار سياسي ، أو تمثيل اتجاه شعبي واسع . ولعل حركة الفتوح ، هي إحدى القضايا المعقّدة ، المتصلة بالمشكلة السابقة ، حيث أوجدت من التناقض وانعدام التوازن ، ما جعلها تنحرف عن وجهتها الصحيحة في العهد الأموي . وهي بدورها انطوت على افرازات لا تخلو من التعقيد ، مثل مشكلة الأرض والضرائب والاستقطاع ، الى آخر ذلك من المشكلات التي بدأت ملامحها في العهد الراشدي ، وتفاقمت في عهد الخلفاء المروانيين الأوائل .

لقد استطاعت دولة الراشدين في بدايتها ، التصدّي لمشكلات لم تكن معقّدة كثيراً في حينها او بدت على الأقل كذلك ، معتمدةً على موروث العهد النبوي من ناحية ، وعلى شخصية الخليفة عمر ، الموازن بين الاتجاهات السياسية ـ القبلية في الحجاز والأمصار من ناحية أخرى . ولكن دولة الأمويين التي قامت على أنقاض الدولة الراشدية ، دون ان تحمل الا القليل جداً من مضمونها الاسلامي التوازني ، وضعت السلطة على منعطف جديد ، حيث القوة المسلحة اصبحت عنوان هذا النظام والانظمة التالية التي قامت بعده . فقد كان ثمة « رأي عام » ينمو ويتسع ، منذ الضربة الأولى التي تلقتها الخلافة (اغتيال عمر) ، وارتفاع القيود ، ومعها الامتيازات عن « الارستقراطية » الاسلامية ، التي مهّدت السبيل ، بصورة مقنّعة أو مُضَلّلة أمام الاتجاه القبلي ، لاستعادة مواقعه وتحقيق اهدافه السلطوية (خلافة عثمان) . وكانت الانتفاضة « اليمنية » ، التي قام بها الأشتر النخعي واصحابه في الكوفة ، ضد والي هذه الأخيرة « القرشي » ، ورضوخه لمطلب هؤلاء ، « قفزة نوعية » هامة في « الحركة الشعبية » ، التي كان لها دور بارز في التطورات السياسية خلال القرن الأول .

وكان من الواضح جداً ، أن حرب صفين ، على الرغم من التكوين القبلي لكلا المجموعتين المتصارعتين ، الشامية والعراقية ، ستشهد بدون ريب ، بداية النضج للتيّار الاسلامي ، الذي جسّد حينذاك ، الهمّ الشعبي العام إزاء الهجمة على الخلافة الشرعية وإسقاط واحد من الرموز الاسلامية البارزة . وكان التشيع ، الذي أصبح أقوى الاتجاهات السياسية في الدولة ، الاطار الذي استوعب هذا التيّار وقاده الى مقارعة الحكم الأموي ، كلما أمعن في مساره « الملكي » والقبلي ، وتخلّى في المقابل أو كاد عن التزاماته الاسلامية ، أمام السواد الجماهيري الأعظم .

وفي هذا الكتاب ، محاولة أيضاً للخروج من جمود النصّ ، الذي يُفترض أنه تأثر بانتماء صاحبه ، إذا كان ثمة انتماء سياسي له ، أو على الأقل خضع للتحريف أو الاجتزاء، أو الاسقاط بصورة ما ، وذلك في ضوء المتغيرات المختلفة ، سواء الأنظمة أو مراكز النفوذ في النظام نفسه . ولقد اجتهدتُ ما استطعت ، أن أحيط بأبعاد المشكلة المطروحة وخلفياتها ، دون التوكؤ على مضمون النصّ وجوهره الاساسي ، مراعياً في الوقت ذاته ، التطور المنهجي للكتابة التاريخية ، ومؤثراً الابتعاد عن المدرسة التقليدية ، التي تتناول الماضي معزولاً عن الحاضر ، من غير أن يعني ذلك التزامي بمدرسة أخرى ، الّا ما كان متوافقاً منها وخصوصية الحدث التاريخي « الاسلامي » .

ولعل هذا الكتاب امتداد لكتابي السابق « ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري » ، الصادر في العام ١٩٧٩ ، ولكن مع كثير من التعديل الذي بدا جذرياً في مكان وشبه جذري في مكان آخر ، دون أن ينجو من ذلك وجه الكتاب الذي سيحمل عنوان : « تكوّن الاتجاهات السياسية في الاسلام الأول ، من دولة عمر إلى دولة عبد الملك » ، متجنّباً استخدام « التيارات » التي قد لا تكون مصيبة في التعبير الدقيق عن التكتلات السياسية ، ذات الحضور المتواضع في ذلك الحين ، أي قبل أن يرهص بها النصف الثاني من القرن الأول الهجري .

ومن الناحية المنهجية ، ظلّ تبويب الكتاب موزعاً بين قسمين ، ولكن مع تغيير في الاسماء ، حيث حمل الأول عنوان **العهد الراشدي** ، مندرجةً تحته الموضوعات التالية : بداية أم أزمة ، ثورة القبائل ، حركة الفتوح ـ دافع وانتشار ، دولة عمر ، اغتيال الدولة الراشدية،المنعطف ، العصبيات الجديدة ، بينما حمل الثاني عنوان **العهد الأموي** ، متضمناً الموضوعات التالية : خلافة أم ملكية ، ثورات ، دولة عبد الملك ، العراق مركز المعارضة ، المحاولة اليائسة ، آخر الملك ، خراسان تسقط الدولة الأموية .

أما بالنسبة للمصادر ، فقد اعتمدت بصورة اساسية على الكتب الأصولية البارزة ، وفي الطليعة منها : « تاريخ » الطبري و « انساب » البلاذري و « فتوحه » ، و « فتوح » ابن عبد الحكم و « سيرته » و « خراج » أبي يوسف و « أخبار » الدينوري و « تاريخ » اليعقوبي و « مروج » المسعودي و « كامل » ابن الأثير وعدد آخر غير قليل

من المصادر المعروفة . وكذلك اعتمدت بصورة ثانوية على بعض المراجع ، لا سيما الدراسات الاستشراقية ، سواء العائدة الى اواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، مثل دراسات فلهوزن (Wallhausen) وفان فلوتن (Van Vloten) ولامنس (Lammens) وغولدزيهر (Goldzihar) ، أو الحديثة منها ، كتلك التي وضعها كيستر (Kister) ، أو فازيلي (Vezeli) أو دونر (Donner) وغيرهم .

وتبقى كلمة ختامية ، هي أن هذه الدراسة ، جزء من سياق عام ، كنتُ قد بدأتُ الاهتمام به في النصف الأول من السبعينات ، ولا زلتُ اتابعه على هذه المساحة الزمنية ، ولكن دون أن يكون بالضرورة خاضعاً لمساحة المكان . . فعسى أن أكون على الطريق الصحيح . .

ابراهيم بيضون

بيروت في ٢١ / ١ / ١٩٨٤

العهد الراشدي

- بداية أم أزمة ؟
- ثورة القبائل .
- حركة الفتوح ، دافع وانتشار .
- دولة عمر .
- اغتيال الدولة الراشدية .
- المنعطف .
- العصبيات الجديدة .

بداية أم أزمة ؟

كـان « اجتماع » السقيفـة الذي دعـا اليه مسلمـو « المدينـة » من « الانصار » ، المبادرة الأولى التي وضعت خلافة النبي موضع التداول والنقاش . فمن هناك تعالت الاصوات تنشر ما كان مطوياً، وتذيع ما كان همساً حتى ذلك الحين . على أن هذا التكتل لم يكن سيد الموقف حينذاك ، كونه الأقلّ استقطاباً بين اتجاهات المدينـة ، حيث افتقد اثنين من عناصره البارزة ، أو بمعنى أكثر تحديداً ، افتقد الوحدة والـزعامـة ، وهما من ركـائـز الـطمـوح الى السلطة ومن شـروطهـا المبـدئيـة . ولم يكن سعـد بن عبـادة « الخـزرجي » ، على الـرغم من دوره الاسلامي الـلافت ، في حجم المنصب الكبير ، بعد أن أعاقه المرض[1] ، وأضعفت موقعه المنافسة ، سواء من جانب « الأوس »[2] أو من جماعته « الخزرج »[3] . فالزعامة كانت غائبة عن تكتّل « الانصار » ، المطالب بأن تؤول اليـه السلطة ، مسوّغـاً مطلبـه بـذلـك المـوقف التـاريخي الـذي سجلتـه قبيلتـا « الانصـار » ، الى جانب النبيّ ، في وقت نبـذه حتى الأقربـون . ومن هنا بـدت هذه

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٣٢٨

(٢) إحدى القبيلتين اللتين تشكلت منها مجموعة الأنصار ، الى جانب الخزرج ، وكان أسيد بن حُضَير من ابرز زعمائهم ، ومن منافسي زعيم الخزرج سعد بن عبادة وقد كان له تـأثير في اضعـاف موقف الأخير ، من خلال ما سبب اليه ، محّذراً جماعته الأوس من تأثير الخزرج : «لئن وليتها الخزرج مـرة لا زالت لهم عليكم بذلـك الفضيلة ولا جعلوا لكم فيها نصيبـاً ابداً ، فقـوموا فبـايعوا أبـا بكـر» المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٣١ .

(٣) بشير بن سعد الأنصاري . الطبري ج ٣ ص ٢٠٩ .

المحاولة غير جدّية ، وبالتالي غير مؤهلة للمضي بعيداً في المطلب السلطوي للأنصار ، وهم فاقدون معظم شروطه(١) . ولعل موقفهم هذا كان أقرب الى المناورة ، وتلويحاً للمهاجرين بأهمية الدور الذي ينبغي أن يكون لهم في أية تطورات مستجدّة ، خاصة وأن الانصار اثناء وبعد « المؤتمر » كانوا أقرب الى الاتجاه الذي تزعمه عليّ بصورة غير مباشرة(٢) .

غير أن « الانصار » قدّموا بدون قصد ، خدمة كبرى لما يمكن ان نسمّيه بالاتجاه « الوسطي » المعتدل ، الذي أخذ يبرز في « المدينة » ، مستمداً قوته من عدة مصادر ، قد لا يكون بعضها منسجماً مع الآخر . فثمة مؤثرات قبلية (التركيز على العنصر القرشي) ، واسلامية (تنطلق من الأسبقية والريادة) ، وسياسية (التوازن النسبي بين اتجاهين متناقضين) . . الى آخر هذه المؤثرات التي جعلت لهذا الاتجاه ، دوراً ربما كان مفاجئاً في ذلك الحين ، الاّ أنه حمل الكثير من ظروف المرحلة وتعقيداتها ، في وقت كانت ترهص بهذا الفرز السياسي ، بعد غياب الشخصية المؤسسة والموحِّدة للمجتمع والدولة .

وإذا كانت المرحلة غير قادرة حينذاك ، على إحداث الفرز المطلوب وما يؤدي اليه من وجود فريق في السلطة وآخر في المعارضة ، أو بمعنى آخر تجسيد واقع المنتصر تماماً والمهزوم تماماً ، فإن حظاً وفيراً لهذا الاتجاه ، هيأته المرحلة للخروج من الأزمة السياسية ، بالقليل من الجدل والمعارضة . ولعل اصحابه (ابو بكر ، عمر ، أبو عبيدة) ، بما كان لديهم من رصيد معنوي وتراث نضالي في الاسلام ، كانوا الدعامة الاساسية لهذا الاتجاه ، حيث أصبح ارتباطه عضوياً بهم ، واستمراره مرهوناً لوجودهم ، مما شكّل أبرز نقاط الضعف فيه ، وأدّى الى أن يكون مرحلياً ، وأن تظلّ جذوره على وجه الأرض .

ومن هذا المنظور ، فإن هذا الاتجاه « التوفيقي » أو التوازني ، طرح نفسه بين

---

(١) يرى الشيخ محمد رضا المظفر «أن الانصار لا يكر ما هم عليه من استكانة واستحذاء وقصر الرأي والتدبير وضعف في العزائم ، ولا سيما أمام دهاء قريش وقوتها» . السقيفة ص ١٠١ .

(٥) «قالت الأنصار أو بعض الأنصار لا نبايع الا علياً» الطبري ج٣ ص ١٩٨

اتجاهين متناقضين في العمق : أحدهما يمكن أن نسميه « الاتجاه الاسلامي » ، الذي يمثّله عليّ واصحابه ، ممن كانوا على مقربة من النبي وعلى اتصال مبكّر بالدعوة ، وثانيهما يمثّل « الاتجاه القرشي » ، من بقايا حلف « المطيبين » الذي فقد نفوذه بعد فتح مكة (السنة الثامنة للهجرة) ، على الرغم من المحاولة لتمويه الهزيمة التي حلّت به .

وهكذا فإن قراءة متمعنة للوضع السياسي في « المدينة » عشية وفاة النبي ، تضعنا امام اتجاهات ثلاثة ، كانت تتجاذب بصورة مباشرة او خجولة ، من أجل السيطرة على الحكم :

١ ـ الاتجاه القرشي ، وهو في اساس تكوينه عبارة عن تحالفات مصلحية بين كبار التجار والأغنياء والصيارفة[1] ، الذين سيطروا على الاقتصاد المكيّ قبيل الاسلام . وكان أبو سفيان واجهة هذا التحالف وممثل « الارستقراطية » القبلية المهزومة من قريش وثقيف . ولقد نجح بما لديه من خبرة وعلاقات واسعة ، في ركوب الموجة والتسلّل الى مواقع النفوذ بعد وقت غير بعيد من قيام الدولة . .

٢ ـ الاتجاه الاسلامي ، الذي جسّد النزعة الجماعية[2] في الدولة الصاعدة ، واعتبر امتداداً طبيعياً» سميّ بـ« الجماعة الاسلامية » ، التي شكّلت جمهور الدولة الأولى ، أو بمعنى آخر ، كان المعبّر عن مصالح الفئات المتوسطة والمحدودة الدخل ، التي تحسنت أوضاعها المعيشية والاجتماعية بشكل جذري في المجتمع الجديد . وكان الممثل لهذا الاتجاه بصورة عفوية ، علي بن أبي طالب ، الذي اعتُبر أحد أبرز وجوه النخبة الاسلامية المناضلة ، والشخصية التي اجتمعت فيها مثالية المبدأ مع صلابة الممارسة . ولقد ضمّ هذا الاتجاه ، اضافة الى عليّ واسرته الهاشميّة ، مجموعة نخبوية اخرى ، كانت مقربة من النبيّ ، واحتلت مكانها اللافت في تاريخ الدعوة الاسلامية ، من امثال : سلمان الفارسي وأبي ذرّ الغفاري وعمّار بن ياسر والمقداد بن عمرو ، فضلاً عن الزبير بن العوّام وطلحة بن عبيد الله[3] . ولا يخفى ما كان لهذه

---

(١) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ١٧ LAMMENS, La République Marchande de la Mécque p 12 - 214, 223. O'LEARY, Arabia Before Muhammad, p. 182

(٢) أحمد عباس صالح ، اليمين واليسار في الاسلام ص ٧ ـ ٨ .

(٣) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ١٢٥ . راجع أيضاً ما أورده ابن الأثير بعيد البيعة لأبي بكر : =

المجموعة من ثقل معنوي في « المدينة » ، ومن تأثير في مسار التطورات السياسية ، التي تجري على أرضها في ذلك الحين . ولقد كانت كل السوانح في حوزة هذا الاتجاه ، للتحرك والسيطرة على الحكم ، انطلاقاً من هذا الموقع الذي احتلّه بين اتجاهات المدينة ، مما دفع ذلك الاتجاه القرشي الى تأييده في بداية الأمر ، اعتقاداً منه أن الورقة الرابحة في يده[1] .

٣ ـ الاتجاه الوسطي ، الذي تألف من شخصيات قيادية بارزة (أبو بكر ، عمر بن الخطاب ، ابو عبيدة بن الجرّاح) ، ساهمت بأدوار مؤثّرة وطليعية في نضالات الدعوة والدولة ، وكان عمر الشريان الرئيسي لهذا الاتجاه الذي ظلّ الى التكتل أقرب ، وظلّت قوته مرتبطة بقياداته ، دون ان يكون له امتداد بعيد في « الجماعة » ، التي التأمت حول أبي بكر في السقيفة ، حيث التقت « وسطيته » القرشية مع وسطية قريش نفسها ، التي كانت « أوسط العرب دارا ونسباً »[2] ، حسب الطرح الذي نُميّ اليه . وتجدر الاشارة الى أن سياسة هذا الاتجاه بعد ارتقائه سدة الحكم ، تقاطعت مع سياسة الاتجاه الاسلامي ، أو الكثير منها ، مؤدياً ذلك الى معادلة فريدة ، حيث التحوّل ، يتمّ عادة من موقع السلطة ، نحو الاتجاه المحافظ او التقليدي ، باعتبار ان الاخيرة تجد عادةً الكثير من القواسم المشتركة معه ، خلافاً للاتجاه الاسلامي الذي تعاطى مع القضايا المطروحة بصورة جذرية ومتماسكة .

كانت تلك ، هي اللوحة السياسية « القرشية » في « المدينة » عشية وفاة النبي .

= «وتخلّف عليّ وبنو هاشم والزبير وطلحة عن البيعة . وقال الزبير : لا أغمد سيفاً حتى يُبايع عليّ» الكامل في التارخ ج ٢ ص ٣٢٥

(١) يمكن أن نتوقف هنا عند موقف أبي سفيان الودّي ـ أو التظاهر به ـ من عليّ ، وما نسب اليه من القول بعد انفضاض المجتمعين في السقيفة على بيعة أبي بكر : «إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلاّ دم ، يا آل عبد مناف ، فيم أبو بكر من اموركم؟ اين المستضعفان؟ اين الأذلان عليّ والعباس ؟ ما بال هذا الأمر في أقل حيّ من قريش؟ ثم قال لعليّ ، ابسط يدك ابايعك ، فو الله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورَجلاً . . «فزجره عليّ وقال : والله ما أردت بهذا الا الفتنة ، وانك والله طالما بغيت للاسلام شراً ! لا حاجة لنا في نصيحتك» ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٣٢٦.

(٢) ابن شهاب الزهري ، المغازي النبوية ص ١١٣ . وردت «امة وسطاً» في الطبري ج ١ ص ٢٠٣

فهنالك اتجاهان متعارضان وتكتل وسطيّ ، احتدم التنافس بينها خفية وبشيء من الحذر . ولقد أغفلنا دور « الأنصار » من توزيعنا للقوى السياسية الفاعلة ، كونهم غير قادرين حينذاك ، أمام « وحدة » الموقف القرشي وضغطه ، على تمثيل اتجاه سياسي منفرد ومتكافىء مع الاتجاهات السابقة . ولعل هذا الوضع ، مرتبط بغياب التماسك على جبهتهم الداخلية ، فضلاً عن تأثير غياب النبيّ على موقعهم المعنوي في « المدينة » ، مما جعل تجمعهم عابراً ، وأقتصر على تفجير المشكلة ، ونقلها من الخفاء الى وضح النهار . وعبثاً حاول هؤلاء تحقيق مشاركة فاعلة في الدولة ، حيث كان لهم الفشل بالمرصاد ، بدءاً بالسقيفة وانتهاءً بالنكبة الكبرى التي حلّت بهم في « الحرّة »(١) . اما عصرهم الذهبي ، فقد تجلى في عهد النبي ، الذي كان شديد المراعاة لوضعهم السياسي والاجتماعي ، والتصدي ما أمكن لهيمنة « المهاجرين » من قريش عليهم(٢) .

ولعل الفرصة كانت مشرعة الأبواب امام الاتجاه الاسلامي ، لتحقيق السيطرة على الحكم ، وذلك بالقليل من الجهد والمبادرة . غير أن التردد والتباطؤ ، اللذين انطبع بهما سلوك قيادته ، ومن ثم إحجامها عن التحرك في وقت ربما كان في رأيها غير مناسب ، أضاع من يدها الفرصة التاريخية ، دون أن نسقط من الحساب ، أن هذا الموقف ربما كان مبنياً على قناعات محددة وعلى تقدير خاص ، بأن الطريق الى السلطة معبدة ومستقيمة لمصلحة هذا الاتجاه في ذلك الحين .

ومن جانبه كان التكتل « الوسطي » ، يدرك جيداً الاسباب المختفية وراء تردّد القيادة ، الممثلة للاتجاه الاسلامي ، ويعي بموضوعية ابعاد الفراغ المستجد في السلطة ، فحرص على الدخول اليها من هذا الباب ، والقفز فوق التردّد الجاثم على مواقف الاتجاه المنافس . وجاءت المبادرة الذكية والمبتكرة ، التي حملها عمر بن الخطاب الى تجمع « الانصار » في السقيفة ، حيث أصابت من تحالفهم المهزوز

---

(١) المعركة التي جرت في ضواحي المدينة بعيد انتفاضة الأخيرة على الأمويين ، واعتُبرت آخر المحاولات الجدّية لاسترداد السلطة الى الحجاز . راجع كتابنا : الحجاز والدولة الاسلامية ص ٢٥٠ وما بعدها .

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٥٩١ ـ ٦٠٥ ، ابن حزم ، جوامع السيرة ص ١٠٠ ـ ١٠٦

مقتلاً[1] ، ودفعتهم الى التراجع ، ومن ثمّ الى الانسحاب من حلبة المنافسة . ولقد عبّر عن ذلك أحد زعمائهم (بشير بن سعد) والرجل الثاني بين الخزرج ، معلناً انفراط العقد في جبهة الأنصار ، التي أظهرت من خلال تنافر قياداتها وتنافسهم ، انها أضعف من أن تتصدى لمعركة في مستوى الخلافة . فكانت الكلمة الأخيرة التي انهت الجدل المحتدم ، ووضعت حدّاً للمحاولة الفاشلة : « يا معشر الأنصار انا والله وإن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في الدين ، ما أردنا به الا رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا . فما ينبغي أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغي به الدنيا ، الا أن محمدا صلى الله عليه وسلم من قريش وقومه أولى به ، وأيم الله لا يراني الله انازعهم هذا الأمر ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم »[2] .

ومن الواضح أن الدور الذي قام به عمر في تفشيل اجتماع « الأنصار » ، أعطى لشخصيته ذلك البعد القيادي ، حيث تجلّت فيه وقتذاك زعامة سياسية غير عادية . فقد كانت مبادرة خطيرة ، تلك التي أقدم عليها في السقيفة ، مدركاً أن السرعة هي الحليف الأكثر أهمية في تحقيق هذا النوع من الأهداف الكبيرة . فما بين براعة الاسلوب وشكيمة القائد ، نجح عمر في تهيئة الأجواء لأبي بكر ، المتقدم عليه سناً وسابقةً ، ليكون أول خليفة في الاسلام ، دون أن يعبأ بتردده أو استنكافه أول الأمر[3] . كذلك فإن خطبة[4] أبي بكر في السقيفة ، كان لها وقعها المؤثر في نفوس المجتمعين ، حيث ركّز على أهمية الدور الذي قام به « المهاجرون » في الاسلام ،

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٣٢٧ - ٣٣٠

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٣٠

(٣) الطبري ج ٣ ص ١٩٩ . ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٣٢٥

(٤) «إن الله قد بعث فينا رسولا وشهيدا على امته ليعبدوه ويوحدوه ، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى من حجر وخشب . فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخص الله المهاجرين الأوائل من قومه بتصديقه والمؤاساة له والصبر معه على شدة أذى قولهم وتكذيبهم اياه وكل الناس لهم مخالف زار عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وتشنى الناس لهم . فهم أول من عبد الله في هذه الأرض وآمن بالله والرسول ، وهم اولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده لا ينازعهم الا ظالم . وانتم يا معشر الأنصار من ينكر فضلهم في الدين وسابقتهم في الاسلام رضيكم الله وجعل اليكم هجرته ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وانتم الوزراء ، لا تفاوتون بمشورة ولا تقضى دونك الامور». ابن الاثير، الكامل ج ٢ ص ٣٢٩

ومناصرتهم للنبي في الأيام الصعاب :«فمنهم أول من عبد الله في هذه الأرض وآمن بالله والرسول . . . »[1] ، دون أن يتجاهل دور « الانصار » في تثبيت جذور الدعوة ، ونقلها الى الإطار التنظيمي ، بوضع اسس الدولة الاسلامية الأولى في مدينتهم يثرب .

انفضّ المجتمعون وقد حُسم الأمر لكبير التكتل « الوسطي » أبي بكر ، الأكثر قبولاً والأقل اثارة للجدل . فقد كانت المبادرة سريعة وجريئة ، بحيث أربكت جماعة الأنصار وأفشلت مخططهم للسيطرة على الحكم أو المشاركة فيه ، ذلك الذي أدّى عملياً الى خدمة هذا التكتل ، المستفيد الأول من اجتماع السقيفة .

والواقع أن ثمة اختلافاً لدى المؤرخين ، حول تقويم الطريقة التي تمّت بها بيعة الخليفة الأول . فهي برأي بعضهم احدى « الفلتات »[2] في التاريخ ، حيث الصدفة والمناسبة ، كان لهما دور الحليف القوي ، بينما رأى الآخر ، أن ما جرى في السقيفة ، لم يأخذ بعده الجدّي ، الا مع تحوّل القرار الى أمر واقع[3] . فالعملية إذن ـ حسب الروايات المختلفة ـ كانت في ذاتها اشبه بـ « انقلاب » ابيض ـ إذا جاز التعبير ـ منها بأي إجراء « انتخابي » ، كما يزعم المتمسّكون بنظرية الشورى ، على أساس أن طرح البيعة لأبي بكر في السقيفة ، جاء متوافقاً والمؤشرات الواردة في بعض الآيات الكريمة[4] ، على الرغم من غموض المحتوى الشوروي فيها . ولعل الظروف التي اسفرت عنها هذه البيعة ، لم تكن متلائمة تماماً وتقرير مسألة مصيرية وخطيرة كالخلافة ، حيث أدت رغم الاجماع الظاهري ، الى اضطراب الجبهة الاسلامية ، التي لم تعد متماسكة كما في عهد النبي ، بعد « إحباط » الانصار وضياع فرصة المشاركة من يدهم ، فضلاً عن تجاهل مجموعة اساسية من « المهاجرين »[5]، كان لها نضالها التاريخي في الاسلام ، وكانت على صلة وثيقة بالنبي ، مما أدى الى غياب صوتها عن

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ج ٢ ص ٣٢٩

(٢) «وكانت فلتة كفلتات الجاهلية قام أبو بكر دونها». الطبري ج ٣ ص ٢٢٣ . تحقيق أبو الفضل ابراهيم دار المعارف بمصر ١٩٦٢ .

(٣) بيضون ـ زكار ، تاريخ العرب السياسي ، من فجر الاسلام حتى سقوط بغداد ص ٥٣ ـ ٥٤ .

(٤) [وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون] سورة الشورى، الآية ٣٨ .

(٥) راجع رواية الزهري في الكامل لأبن الأثير ج ٢ ص ٣٣١ .

« السقيفة » ، دون الاستهانة بما يحمله ذلـك من انعكاس عـلى تطورات الأحـداث في تلك المرحلة الدقيقة والحاسمة .

وهكذا فإن أصعب الحالات قد تنتهي الى حلّ مفاجىء وسريع ، إذا ما توفّـرت المعطيات أو بعضها لذلك . وخلافة أبي بكر ، التي أثارت من الجدل ، ما لم تصـل اليه قضية في التاريخ الاسلامي ، ربما انطبق عليها هذا الوصف . ومن ناحية أخرى ، فإن قراءة المستقبل لا يتم بالضرورة عبر النتائج الأولية ، التي قد تكون اداة موقوتة للتفجير عند أول اختلال أو تعثّر ، مهما كانت الخطوات ثابتة وقوية . ولعـل المحنة التي مـرّت بها الدولة الاسلامية في عهد الخليفة الراشـدي الثالث ، كـانت إحدى محصّـلات ذلك القـرار غير الاجمـاعي الذي اتخـذ في السقيفة قبـل أقـل من ربـع قـرن من عمـر هـذه الدولة . وإذا ما استطاع أبو بكر ، الذي كان مسؤولاً عن « العـدل »[1] في مجتمع مـا قبيـل الاسلام ، وكـذلك عمـر ، « الدبلومـاسي »[2] القـديم والاداري الصلب ، أن يقودا السفينة بحذق الى شاطىء الأمان ، فإن خليفتهـما المسنّ والمرتهن بـالتالي لأسـرته الأموية ـ الممثلة حتى ذلك الحين لمصالح كبار التجار والأغنياء ـ كان غـير قادر عـلى سدّ الثغرات التي أخذت في الاتساع ، مما جـرّ الى تلك النهايـة المأسـاوية للخليفـة وللدولة التي يحكم في نفس الوقت .

وقبل أن نطوي صفحة « السقيفة » ، لا بدّ من تسجيل بعض الملاحظات حـول نجاح الاتجاه الوسطي في استلام الحكم ، دون بقية الاتجاهات والقوى الاخرى :

ـ **الملاحظة الاولى** : السـرعة في التحـرك والاتفاق عـلى مـرشـح واحـد ، غـير مرفوض من الاتجاهات المختلفة ، إن لم نقل كان حائزاً على تقديرها . فأبو بكر ، كان صاحب شخصية هادئة ومعتدلة ، وأحد المشاركين الكبار والأوائل في النضال المستميت الذي قاده النبيّ ضد الوثنية والتخلف والفساد في الحجاز شبه الجزيرة .

ـ **الملاحظة الثانية** : على عكس الاتجاه الوسطي ، كان الاتجاه الاسلامي بطيئاً في

---

(١) كانت عشيرة تيم التي يتزعمها ابو بكر تتولى وظيفة «الاشناق» ، وهي الديـات والغرم . ابن عبـد ربه ، العقد الفريد ج ٣ ص ٢٣٥

(٢) كانت عَدّي عشيرة عمر بن الخطاب تتولى « السفارة » في الوقت نفسه . المصدر نفسـه ج ٣ ص ٢٣٦ .

تحركه السياسي وفي طرحه لمشكلة الحكم . ولم يكن ذلك من باب الزهد أو العزوف عن السلطة ، بل كانت لديه التصورات المستقبلية لها ، عبر برنامج خاص ، يرى أنه الأقدر على تحقيقه بعد النبي . ولكن المشكلة كانت في التوقيت ، حيث كان تردّد قياداته ، المقرّبة من الأخير والمعنية بغيابه ، على الصعيدين الديني والسياسي ، خاضعاً لتلك الظروف الدقيقة . ومن جهة ثانية ، فإنّ « الانصار » ـ على غير تخطيط ـ ساهموا باجتماعهم السابق الذكر ، في انفلات الموقف من قبضة هذا الاتجاه القوي ، مقدّمين خدمة كبيرة للاتجاه الذي فاز بالخلافة . ومن جهة ثالثة ، فإن هذا التردّد ومن ثمّ الاحجام عن المشاركة عملياً في معركة الخلافة في «السقيفة» ، ربما كان مبعثه الشعور بالقوة وبالثقة ، بأن هذا الاتجاه ، هو الوريث « الشرعي » لخطّ النبي ، وأن ما يجري من تحركات في هذا السبيل لن يكون برأي اصحابه ، أكثر من محاولات سطحية وعابرة .

الملاحظة الثالثة : الرضا والشعور بالارتياح ، اللذان قابل بهما الاتجاه القرشي ، وإن بصورة غير معلنة ، نتائج « السقيفة » ، مما أعطى للخليفة المُسّمى ، دعماً اضافياً لتثبيت اقدامه في السلطة ، دون متاعب ذات شأن . فقد ادرك اصحابه ـ وكانوا لا يزالون محتفظين ببقايا نفوذ معنوي ، أن تأمين مصالحهم او انقاذها ، يستوجب في المقام الأول ، منع الاتجاه الاسلامي القوي من التحرك الجدّي نحو السلطة .

الملاحظة الرابعة : خلافاً لما ورد في النصّ التاريخي(1) الذي يشير الى دعوة أبي سفيان لبيعة عليّ ، فإن العلاقة لم تكن ودية بين الاثنين ، وبالتالي لم تكن سيئةً بين أبي بكر وأبي سفيان ، زعيم الاتجاه القرشي ، الذي اندفع بكل قوته وراء الخليفة الأول ، الذي قابله ايضاً بمودة ظاهرة ، معيداً اليه اعتباره او البعض منه ، مكرّساً ذلك فيما نسب اليه من القول: « ان الله قد رفع بالاسلام قوماً وأذّل به آخرين »(2) . وهذه العلاقة تبدو استمراراً للسياسة المرحلية التي وضع لبنتها النبيّ ، لاجتذاب اعداء الاسلام في مكة الى جانبه ، في محاولةٍ لاحتوائهم « وتأليف »(3) قلوبهم مع المجتمع الجديد .

---

(1) ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٣٢٦

(2) المسعودي ، مروج ج ٢ ص ٢٩٩

(3) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٩٠

ـ **الملاحظة الخامسة** : من البديهي جداً ، ان تواكب عملية السباق الى الحكم ، ظروف ربما تكون أكثر تحالفاً مع المعتدلين ، الذين غالباً ما يتصدّرون الواجهة عبر أجواء هادئة وبعيدة عن الاثارة . ولعل في التاريخ نماذج شتى مماثلة ، حيث الحركات الكبرى بعد غياب مؤسسيها ، يأخذ بناصيتها من هم وراء الصفوف الأولى ، وذلك بعد اختراقها في الوقت المناسب ، دونما الكثير من الضجيج أو الارتياب .

ـ **الملاحظة السادسة** : على رغم نظرة الاتجاه القرشي الى ابي بكر ، بأنه الشخصية الأقل خطورة ، فهو ليس بالضرورة قريباً بأفكاره وممارساته من خطّ اصحابه ، أو منسجماً ، حتى بصورة غير مباشرة مع الحدّ الأدنى من مصالحهم وتطلعاتهم السياسية والاجتماعية . فهو ـ أي الخليفة الأول ـ لم يشارك سابقاً ، في التحالف التجاري المعروف بـ « حلف المطيِّبين »[1] ، وهذا أول ما يعني أنه لم يكن من فريق الثروة العظمى في مكة ، الذي قاده الأمويون مع بني نوفل عشية الدعوة ، وذلك في اعقاب خروج البطون الأخرى ، التي شكّلت حلف الوسط (الفضول)[2] ، الذي انعقد في دار عبد الله بن جدعان ، وهو من زعماء « تيم » الذي ينتمي اليها ابو بكر . وإذا ما اضفنا الى ذلك ، المبادرة السريعة التي قام بها الأخير ، بانضمامه المبكر والريادي الى الدعوة الاسلامية ، والثقة الكبرى التي حازها لدى النبي ، لوجدنا ان هذا الاتجاه كان أقرب عضوياً الى الاتجاه الاسلامي منه الى أي اتجاه آخر .

ـ **الملاحظة السابعة والأخيرة** : من الجائز أن نتساءل عن مدى تدخّل العصبية أو بعضها في الصراع على السلطة ، وهل كان للقوى القبلية المؤثرة ، دور في بيعة الخليفة الأول ؟ ذلك ان صعود عمر بن الخطاب الى واجهة الأحداث في اجتماع السقيفة واحتوائه السريع للتطورات السياسية التي اسفرت عنه ، قد لا يرتبطان فقط بشخصيته القيادية الفذّة ، بل كان عليه أن يقيم حساباً للتوازنات القبلية التي تحقق منها الكثير في

---

(١) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ١٧ .

(٢) كان الطرح الرئيسي لهذا الحلف كما ورد في **العقد** الثمين للفاسي : «لا يُظلم أحد في مكة الا كنا جميعاً مع المظلوم على الظالم ، حتى نأخذ له مظلمته ممن ظلمه ، شريفاً ووضيعاً ، منا أو من غيرنا »ج ١ ص ١٥١ .

عهده ، ولم يكن انتقال الخلافة اليـه ، في مثل ذلـك الهدوء من الأمـور اليسيرة ، دون تـدّخل مؤثـرات حاسمـة ، وذلك في وقت كـان ينـاهض هـذا التـدبـير ، أحـد اكبـر الاتجاهات السياسية التي أفرزها الصراع السلطة .

ويبقى أخيراً أن نتوقف عند « الوسطية » ، التي لم أشـأ من استخدامهـا ، وضع الاتجاه الذي مثله الخليفـة الأول في مكان متـوسط بين اتجـاهين متعـارضين ، بقـدر ما أردت التعبير عن نهج سياسي لـه امتداده الى مـا قبل الاسـلام ، ومحاكـاته للشخصيـة القرشية في العصر التجاري ، حيث كـان هذا النهـج من أبرز مقـومات النجـاح الذي اصابته مكة في ذلك الحين . على أن « الوسطية » الاسـلامية ، اختلفت عن سـابقتها ، بأنها كانت مجـرد مرحلة ، انتهت الى نهج سيـاسي آخر ، وهـو « التوازن » القـرشي ، الذي شكّل انطلاقة هامة ، الى دائـرة توازنيـة أوسع ، مـع حركـة الفتوح ومشكـلاتها المعقدة ، مما جعل هذا النهج يصطدم بحواجز ومعوقات ، حالت دون المضي بعيداً في هذا الاتجاه ، وفـرضت عليه حتميـة الاختيار بـين واحدٍ من الاتجـاهين المتعـارضين . وكان ذلك ما واجه الخليفة عمر خاصة في النصف الثاني من ولايته ، حيث لم يتردد في ضـرب مصالـح الاتجاه القـرشي والمتعـاطفـين معـه ، ممن عُـرفـوا بـ « الارستقـراطيـة الاسلامية »[1] الجديدة ، التي عبثاً ما حاولت في عهده التسلل الى مراكز النفوذ ، وهذا ما جعل المجابهة سافرة بين الخليفة ، وبين هذه القـوى ، وانتهت ربما بـاغتيالـه ، وفق تدبير محكم ومدروس .

---

(١) فلهوزن ، الدولة العربية ص ٣٧.

ثورة القبائل

كانت ثورة القبائل اول صدمة للمجتمع الاسلامي الجديد ، وتهديداً لمفهوم « الجماعة » ، الذي كان فاتحة منجزات « الهجرة » الى « المدينة » ، كما شكلّت المجابهة الأولى ومعها التجربة الصعبة للخليفة ، واضعةً كفاءته القيادية أمام الامتحان الكبير . لـذلك لم يتـردد في التصدي ، بـروح شجاعـة وتحرّك جـاد لتلك المحنة ، حـاصـراً نتائجها بـالسرعـة القصوى ، ومستعيـداً لديهـا الولاء السيـاسي للدولة ، ذلـك الولاء الذي تعمّق مع حـركة الفتـوح ، بعد أنـدراج القبائـل ، كمادة مقـاتلة ، في موجـاتها المتلاحقة ، في اعقاب القضاء على ما سُمِيّ بالردّة . ولعل ما رافق هذه الاخيرة ، من اضطراب مواقف القبائل وغموض بعضها ، بين متنبىء ومرتد وساخط ، وحّد الاتجاهات المختلفة في عاصمة الخلافة ، حيث التفّت جميعها حول أبي بكر ، متجاوزةً همومها السلطوية ، ومن ثمّ متفرغة الى الهمّ الاكبر ، الذي استهدف الدعوة والدولة في آن .

ذلك أن وفاة النبي أو الشعـور باقتـراب رحيله ، لم يترك انعكـاسه المبـاشر عـلى موقف المدينة واتجاهاتها السياسية ، ما يتجاوز التنـافس الهادىء عـلى السلطة ، خلافـاً لتأثير ذلك خارج العاصمة ، حيث القبائل ، أو معـظمها ، شعـرت بنوع من التحـرر والانفلات من التزاماتها المادية والمعنوية ازاء دولة المدينة . فجنحت الى قطع ما وجدت

فيه تبعية سياسية ، من خلال الامتناع عن تأدية الزكاة[1] ، التي رأت فيها ضريبة ، يدفعها الضعف المهزوم للقوي المنتصر . ومن البديهي أن هذه القبائل - سواء التي كانت لا تزال على البداوة ، مثل تلك المجاورة للمدينة ، أو التي أخذت نصيبها من الاستقرار ، مثل « حنيفة » ، تلك المحطة التجارية الهامة ، ما بين مكة من جهة والخليج ، فضلاً عن العراق من جهة ثانية - لم تكن غالبيتها متجاوبة مع الاسلام ، أو منصهرة فيه بصورة فعلية ، حيث ظلّت طويلاً على هامش الصراع بين المحورين : الاسلامي في يثرب والوثني في مكة ، مترقّبةً نتائجه النهائية قبل أن تحسم أمرها منه . وهذا يعني أن الارتباط القبلي بالاسلام ، بدأ عملياً في العام التاسع الهجري ، أو ما عُرف بعام الوفود[2] ، كما يعني من هذا المنظور ، أن المسافة الزمنية بين الأخير وبين عام الردّة (١١ هـ)، لم تكن كافية لإحداث التحوّل الإيماني الراسخ لدى هذه القبائل ، شأن «جماعة» الانصار والمهاجرين ، وبالتالي فإنها لم تأخذ الاسلام عن عقيدة أو معاناة ، وانما رضخت له بدافع الاستسلام للأمر الواقع[3] .

ويبدو أن التطورات السياسية في المدينة وما رشح من أخبارها الى الخارج ، كان لها تأثير ما على الوضع القبلي ، حيث البيعة لأبي بكر ، لم تأخذ طابعها الاجماعي العام . فكان لفريق أو اكثر ، موقف لا ينسجم تماماً مع الطريقة التي تمّ بها اختيار الخليفة ، دون أن يكون لها رأي في هذا الأمر . ومن هذا المنظور ، فإن لحركة الردّة أكثر من خلفية ، لا تبدو بالضرورة متجانسة ، ولكنها تضافرت معاً وأدّت الى تفجير الوضع في عدة بقعٍ من الحجاز وشبه الجزيرة . وفي مقدمة ما يعنيه ذلك ، أن الردّة (الكلمة المتداولة) ، لا تأخذ بُعدها الشمولي لدى مختلف القبائل ، المتمردة على

---

(١) اليعقوبي ، تاريخ ج ١ ص ١٢٨ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٢٨٦ - ٢٨٧

(٣) لقد ألمح القرآن الكريم الى هذا الموقف الذي ساد شبه الجزيرة بعيد وفاة النبي بقوله : [قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم ، وأن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً أن الله غفور رحيم]. سورة الحجرات ، الآية ١٣ .

سيادة « المدينة » ، لأن بعضاً منها كانت تحركه دوافع سياسية أو اقتصادية[١]، لم تُصب مطلقاً العقيدة على الرغم من غلبة التفسير الديني عند بعض المؤرخين لهذا التمرّد الذي تقنّع أحياناً بظاهرة التنبؤ .

وهكذا ، بعد هذه المقدمة ، فإنه بالامكان تقويم حركة الردّة ، من خلال ربطها بالعوامل التالية :

١ ـ الاعتراض على نتائج « السقيفة » ، دون ان يكون لذلك صلة ما بالعقيدة (موقف مالك بن نويرة الحنظلي التميمي) .

٢ ـ رفض الزكاة واعتبارها مظهراً للتبعية لدى بعض القبائل والارتهان لقريش لدى البعض الآخر (« ولكن قريش قوم لا يعدلون »[٢]، حسب القول المنسوب لمسيلمة ، زعيم حركة حنيفة) .

٣ ـ الضرر الذي حلّ ببعض القبائل ، لا سيما المقيمة في مراكز تجارية هامة ، بعد انتقال الحاضرة في الحجاز الى « المدينة » ، وتعديل خطوط القوافل ، فضلاً عن التهذيب الذي طرأ على المعاملات الاقتصادية في ظلّ الاسلام[٣] .

لعل هذه أهم الاسباب التي كانت وراء ثورة القبائل في شبه الجزيرة العربية ، التي اعلنت قطع علاقتها بالدولة الاسلامية وتخلت عن التزاماتها الأدبية والمادية نحوها ، مدفوعة باعتبارات ليست بالضرورة موحدة . وهي مهمة على جانب كبير من الخطورة كانت تنتظر الخليفة الأول ، الذي عمل بسرعة على مجابهة تطورات سريعة أيضاً ، قبل أن ينفلت زمام الأمر من يده . ولقد اثبت في الواقع ، أمام هذا التحدي ، أنه رجل الدولة القوي وصاحب القرار المسؤول ، مبادراً الى اتخاذ مقرّ له خارج « المدينة »[٤] لادارة العمليات الحربية. ومن هناك دفع بكبار القادة ، الذين هرعوا الى المعسكر ، في اتجاهات متعددة ، ومعهم اوامره المشدّدة ، بقمع ثورة

---

(١) ابراهيم بيضون ، الحجاز والدولة الاسلامية ص ١٣١. راجع ايضاً. E. SHOUFANY, AL - RIDDAH and the Muslim Conquest of Arabia. p 84

(٢) اليعقوبي ، تاريخ ج ١ ص ١٣٠.

(٣) Lammens, la mécque à la veille de l'hégire. p. 245

(٤) «ذي القصّة». ياقوت الحموي ، معجم البلدان ج ٢ ص ٣٤٥

القبائل ، دون تمييز بين دافع وآخر . وربما كانت لدى الخليفة مسوغاتـه لهذا القـرار ، بعد أن وجد في هذا التمرّد ، ضربة موجّهة للعقيدة والنظام في نفس الوقت ، ولذلـك يتردد في أخذها بالشـدّة ، واتهـام جميـع اطـرافه منها بالتآمر على الدولة واستهداف مضمونها الديني والسياسي .

ولم تكن ادارة المدينة ـ خلافاً لتصورات بعض القبائـل ـ رغم عزلتهـا حينذاك ، تعـاني اية مضاعفات سياسية في الداخل . فأزمة الحكم التي راهنت عليها الاخيرة، مرّت بهدوء وتجاوزتها الأطراف بروح من المسؤولية ، في الوقت الذي كان لدى « المدينة » قوة ذات شـأن ، يبـدو ان المتـمـردين استـخفـوا بهـا ، تجلّت في « الجهـاز » العسكري المتماسك ، وهو أحد انجازات الدولة الهامة ، حيث جمع بين مهـارة القيادة وبراعة التنظيم، فضلاً عن الخبرة في القتال التي صهرتها الأعمـال العسكـريـة المحـدودة (السرايا) والواسعة (المواقع والغزوات) التي تعدى بعضها شبه الجـزيرة ، ممـا جعله متفوقاً على اية قوة عسكرية في هذه الأخيرة .

ويبـدو أن وجود الخليفـة خارج « المـدينة » ، شجـع بعض المتمردين من قبـائل عبس وذبيـان على شنّ هجمـات استهدفت معسكـره في « ذي القصة» ، فـأنـزل بهم ضربة قوية ، دفعت من بقي منهم الى التراجع نحـو « عين بـزاخة » ، حيث بنـو أسد المتمردون ايضاً ، بزعامـة متنبىء منهم هو طليحـة من خويلد[1] الـذي كان قـد أعلن مـوقفه السلبي من « المـدينة » في اواخـر أيـام النبيّ[2] . ولقـد أعـطى هـذا الانتصـار السريع ، ثقة جديدة بالقوة الاسلامية ، التي اصبحت جاهزة حينذاك لتنفيذ مطاردتهـا للمتمردين ، حيث كان عـلى رأسها إحـدى عشر قـائداً حسب الـرواية التـاريخية[3] . وكانت الصدارة بين هؤلاء لخالد بن الوليد ، الذي أظهرته الحرب الاسلامية ـ الوثنيـة

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٣٤٥

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٤٣

(٣)برز الى جانب خالد عدد من القواد الأكفياء ، من امثال عكرمة بن أبي جهل ، شرحبيـل بن حسنة ، عمرو بن العـاص ، بالاضـافة الى عـدد آخر غـير معروف ، كخـالد بن سعيـد وحذيفـة بن محصن، وعرقجة بن هـرثمة ومعن بن حـاجز وسـويد بن مقـرن والعلاء بن عمـاد وعدّي بن حـاتم. الطبري ج٣ ص ٢٢٥ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٣٤٦

مقاتلاً محترفاً ، مما هيأه ذلك لممارسة مهام القائد العام في حروب الردّة[1] .

وما لبث خالد ، بفضل خططه المبتكرة ومداهماته الصاعقة ، التي ادارها ضد القبائل المتمردة ، أن حقق النجاح المطلوب في مهمته الصعبة . ففي أقل من عام ، كانت لديه القدرة لقمع حركة الردّة وتصفية جيوب التمرّد في كافة شبه الجزيرة ، بدءاً بالمعركة العنيفة التي اطاحت بحركة طليحة[2] ، قبل أن يتابع تحركه نحو بني تميم الى الشرق من « المدينة » . وكان على رأس المتمردين منهم ، مالك بن نويرة ، زعيم بني حنظلة ، والمعتمد من ادارة « المدينة » على جباية الزكاة لدى قبيلته[3] ، ولعل موقف الأخير ، انفرد في جوهره عن مواقف الآخرين من رؤساء القبائل في الثورة على الخلافة ، حيث المرويات لا تشير الى طعنها بسلوكه الايماني او ارتيابها به ، مما يدفع على الترجيح ، بأن الخلفيات التي تنازعته حينذاك ، انما هي غير عقائدية ، وتتصل بالتطورات السياسية في « المدينة » ، التي اسفرت عن بيعة ابي بكر بالخلافة[4] .

وكان توقف مالك عن دفع الزكاة ، ربما أحد مظاهر الاحتجاج على خلافة أبي بكر . كما أن علاقته بـ « سجاح » ـ المرأة التميمية ، القادمة من ديار بني تغلب في الجزيرة[5] ، التي اخذتها أيضاً موجة الزعامة والتنبؤ ما يشجع على الاعتقاد بهذا الرأي ، خاصةً وأن مالكاً رفض عرض التحالف معها ضد « المدينة »[6] . غير أن هذا الموقف الرصين ، لم يعفه من دفع الثمن باهظاً ، دون الالتفات الى العوامل التي قد تُسقط العقاب أو بعضاً منه عن مالك وجماعته ، لا سيما وأن هؤلاء في موقفهم ، كانوا أقرب الى السخط أو الاحتجاج ، منه الى الثورة أو الردّة . ولكن هذه الحادثة ، لم تمرّ دون ترك بصماتها على شخصية خالد ، بعد قتله والزواج من أرملته ، حيث وُجد من انتقده بشدة على هذا التصرف ، سواء من جانب الخليفة ، ام من جانب عمر بن

---

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٣٤٦، ٣٥٧

(٢) هرب طليحة الى الشام ثم عاد عن ارتداده وقاتل مع المسلمين في معارك الفتوح في العراق وفارس . اليعقوبي ، تاريخ ج ١ ص ١٢٩. ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩

(٣) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٧٦

(٤) ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٣٥٨

(٥) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٥٤

(٦) اليعقوبي ، تاريخ ج ٣ ص ١٣١ ـ ١٣٢ ، الطبري ج ٣ ص ٢٤٣

الخطاب ، الذي نُسب اليه القول ، بأن « سيف خالد فيه رهق »[(١)] ، مما الصق به تهمة القتل عمداً لأغراض خاصة والتخلص من رجل لم يتخل عن عقيدته[(٢)] .

ولقد ظلت هذه الحادثة ، من الثغرات البارزة في تاريخ القائد الشهير ، وبقيت أخبارها في التداول حتى بعد مجيء عمر الى الخلافة ، الذي قيل أنه كان لا يزال تحت تأثير الغضب من سلوك قائده المظفر حينذاك في حروب الشام ، عندما لجأ الى عزله عن القيادة . غير أن ذلك ، ربما خضع للاجتهاد ، لأن ثمة اسباباً اكثر وجاهة ، يُعتقد أنها كانت وراء هذا القرار ، خاصة وأن حالات مشابهة رافقته ، إزاء آخرين من القادة لم يقترف بعضهم مثل هذا الأخطاء في ذلك الوقت .

وكانت المعركة الحاسمة في حرب القبائل ، التي أعادت الأمور الى حجمها في شبه الجزيرة ، هي معركة « عقرباء » في طرف اليمامة ، حيث تمرّد بنو حنيفة بزعامة رجل اعتُبر من أشهر « المتنبئين » وأخطرهم ، وهو مسيلمة الكذاب[(٣)] (الأسم الغالب عليه في المرويات) . وكان هذا الأخير دائم التجوال في الأسواق والطرق ، داعياً الناس الى تأييده والاعتقاد بـ « نبوته »[(٤)] . ويبدو أنه كان على قدرٍ من قوة البيان والشخصية ، متجلياً ذلك في التأثير الواضح الذي تركه في اوساط بني حنيفة والقبائل المجاورة[(٥)] . ولعل هذه الحركة مرتبطة الى حدٍّ كبير ، بالمعطيات المستجدة التي رافقت

---

(١) ورد في لسان العرب ، أن الرهق هو الكذب والخفة والحدّة ج ١٠ ص ١٢٨

(٢) روى الطبري أن عمر بن الخطاب تكلم في مجلس الخليفة ، مؤنّباً خالد بن الوليد بقوله : «عدو الله عدا على امرىء مسلم فقتله ، ثم نزا على امرأته». ج ٣ ص ٢٤٣ . وفي «فتوح» البلاذري ، قول منسوب لعمر الى الخليفة : «بعثت رجلاً يقتل المسلمين ويعذب بالنار» ص ١٠٧

(٣) مسيلمة الحنفي الكذّاب» ، اليعقوبي ، تاريخ ج ١ ص ١٣٠ «مسيلمة الكذاب» الطبري ج ٣ ص ٢٤٣

(٤) قيل إن مسيلمة «زعم انه شريك لرسول الله في النبوة ، وكان قد كتب الى رسول الله : إني أشركت معك ، فلك نصف الأرض ولي نصفها ، ولكن قريش قوم لا يعدلون» . . فكتب اليه رسول الله . «أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين». اليعقوبي ، تاريخ ج ١ ص ١٣٠ . راجع ايضاً ابن سيد الناس ، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٥) «كان عدد بني حنيفة يومئذٍ اربعين الف مقاتل في قراها وحجرها» ، حسب رواية سيف في الطبري ج ٣ ص ٢٤٤ . راجع ايضاً ابن الأثير ج ٢ ص ٣٤٤ .

الاسلام ، والتي انعكست سلبياتها الاقتصادية بوجه خاص على حنيفة ،حيث الانتاجية الزراعية المتفوقة لليمامة ـ مركز الأخيرة ـ جعلت منها مصدراً هاماً لتموين مكة التي كانت السوق الرئيسية لمنتجاتها (الحبوب خاصة) قبل الاسلام(١) . وهكذا فإن ما يمكن تسميته بالوضع الاقتصادي المميز لهذه القبيلة قد تعرّض لاهتزاز كبير ، في اعقاب تحوّل هذه السوق الى « المدينة » ، قبل هجرة التجارة والاسواق معاً الى الأمصار(٢) .

ولقد جاء انتصار مسيلمة على عكرمة بن ابي جهل ـ القائد الذي عُهد اليه بالقضاء على حركة بني حنيفة ـ ليعطيه ثقة كبيرة بقوته القتالية وتفوّقها . ولكن خالداً ما لبث أن توجه بالجزء الرئيسي من قوات الخلافة الى اليمامة ، وخاض اعنف قتال وأشرسه ضد مسيلمة في « عقرباء » أو « حديقة الموت » ، كدلالة على العدد الهائل من القتلى الذين سقطوا في هذه المعركة ، حسب الرواية التاريخية .(٣) وكان لهذه الحادثة ، التي انهت اسطورة مسيلمة ، تأثير عميق على حركة القبائل ، حيث أوقعت الرعب في المواقع والجيوب المتبقية منها ، التي اخذ معظمها في التراجع والاستسلام . كما أظهرت هذه المعركة الألمعية العسكرية التي انطبعت بها شخصية خالد بن الوليد ، والتي ستتبلور خاصة في معارك الفتوح الأولى ، مرتفعاً بعدها الى مصاف عباقرة الحرب في التاريخ .

وكانت ثمة مهمة لاتزال بانتظار خالد ، بعد انتصاره الحاسم في « حديقة الموت » ، وهي القضاء على حركة البحرين(٤) وانقاذ أحد القادة المسلمين(٥) الذي

---

(١) ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٣٨ . جواد علي ، المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٧ ص ٣٨ .

(٢) Lammens, La Mécque à la veille de l'Hegire p 245 راجع ايضاً · ابراهيم بيضون ، الحجاز والدولة الاسلامية ص ١٣١. ومحمد عبد الحيّ شعبان ، تاريخ صدر الاسلام والدولة الأموية ص ٣٠

(٣) الطبري ج ٣ ص ٢٥٠ ـ ٢٥١

(٤) قامت بزعامة الحُطم بن ضبيعة الذي «اجتمع اليه من غير المرتدين ممن لم يزل مشركاً حتى نزل القطيف وحجر » ابن الأثير ج ٢ ص ٣٦٨

(٥) العلاء بن عماد الحضرمي .

حُوصر في حاضرتها (هَجَر) . ولكن هذه الحركة ، لم تكن شديدة الخطورة ، خاصة وإن كبرى القبائل (عبد القيس)[1] في المنطقة، لم تتحمس كثيراً في معارضتها للدولة الاسلامية . ولذلك لم يكد خالد يصل الى البحرين ، حتى سقطت حركتها بالقليل من الجهد ، حيث كانت آخر مهماته في شبه الجزيرة ، في وقت لفظت ثورة القبائل انفاسها او كادت ، مما دفعه الى التوّجه نحو العراق ، استجابة لأوامر الخليفة ، ليعلن بدء الأعمال العسكرية الموسّعة وراء الحدود .

ولم يعد من مواقع المتمردين ما يستحق الاهتمام ، غير جيوب محدودة ، لا سيما في الجنوب من شبه الجزيرة ، حيث ظهرت حركة «تنبؤ ية» منذ وقت مبكر في اليمن ، تعود الى أيام النبي .[2] ويبدو أن هذه الحركة قد حظيت بتأييد قبلي واسع ، خاصة وأنها اتخذت منحىً « قومياً » ـ إذا جاز التعبير ـ وذلك في تصدّيها للنفوذ الساساني القوي ، الذي كان من نتائج التطورات الأخيرة التي مرّت بها اليمن قبل الاسلام ، أي في اعقاب الغزو الحبشي وانتقال السلطة الفعلية الى الفرس ، التي مثّلها حينذاك ما سُميّ بـ « الابناء »[3] . ولعل ما يعزز هذا الاتجاه تلك التعبئة التي رافقت الحركة ، ضد هؤلاء، بل ضد الامتيازات الاجتماعية والسياسية التي احتفظ بها هؤلاء على الرغم من تحولهم الى الاسلام ، مما أثار سخط القبائل واندراجها تحت لواء هذا الحركة وزعيمها « العنسي »[4] . ولكن اليمن لم يطل غيابها عن السلطة المركزية ، حيث تمّ تدبير اغتيال متقن للأخير[5]، ومن ثم القضاء على حركته في وقت لاحق ، على يد عكرمة بن أبي جهل ، الذي كان قد أخضع أيضاً حركة الاشعث بن قيس الكندي في حضرموت[6]، المتأثرة على ما يبدو بحركة اليمن ، حيث كانت الاخيرة في نطاق موجة التمرد ، التي اجتاحت شبه الجزيرة بعيد وفاة النبي أو قبله بقليل .

ومن الواضح أن ثورة القبائل هذه ، كانت أخطر ما واجه الاسلام عقيدة

(١) الطبري ج ٣ ص ٢٥٥

(٢) تزعمها رجل من مذحج يقال له الاسود بن عنزة العنسي . اليعقوبي، تاريخ ج ١ ص ٣٠

(٣) الطبري ج ٣ ص ٢٦٦ شعبان ، صدر الاسلام ص ٣١

(٤) المكان نفسه

(٥) اليعقوبي ، تاريخ ج ١ ص ١٣٠ . الطبري ج ٣ ص ٢١٧

(٦) ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ١٨٤ ـ ١٨٦

ونظاماً ، في مطلع عهد الخلافة . وكان نجاح أبو بكر في قمع هذه الحركة ، التي كـان هـدفها تـدمير الـدولة الاسـلامية أو إربـاكها ، من خـلال الحصار الـذي فرضتـه على « المدينة » ، نجاحاً في تفشيل طموح القبائل ، للعودة الى « أيامها » السابقة وصراعاتها التقليدية . وفي المقابل كان ذلك انتصاراً للعقيدة وتكريساً لقيمها الانسانية ، تلك التي شكلت أحد أهمّ الحوافز ، لاندفاع المسلمين بكل ثقة وراء حدود شبه الجزيرة ، وقـد تحرروا من قيود العصبية ، التي انهارت ، ربما الى حين ، مع انهيار « ثورة القبائل » .

حركات الفتوح ، دافع وانتشار

قبل البحث في هذه الحركة ، التي اتخذت اطارها التوسعي المنظم في عهد الخليفة الأول ، لا بدّ من التوقف عند أسبابها المباشرة وغير المباشرة ، ومن ثمّ البحث في خلفياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . فقد أثارت هذه المسألة جدلاً واسعاً ولا تزال ، خاصةً وأن الانتصارات المذهلة التي سجلها المقاتلون المسلمون ، وما رافقها من انتشار غير عادي خلال مدة وجيزة من الوقت يجعلان الباحث امام قضية شائكة ، وهو يتحرى جوانبها المختلفة .

فإذا ما رجعنا الى المرويات التقليدية ، نلاحظ أنها تمحورت حول دافع رئيسي ، وهو العقيدة التي أحدثت انقلاباً ، ليس فقط في المجتمع الذي تحوّل من الوثنية الى التوحيد ، ومن الاستغلال والفئوية الى العدل والمساواة ، ولكن الانقلاب الأهمّ ، هو الذي أصاب عقول الناس ، التي اتخذت ابعاداً مختلفة وحملت مفاهيم جديدة متنورة . الا أن المؤرخ التقليدي ، ينساق أحياناً مع نزعته « الرومانسية » التي هي طابع ذلك العصر ـ رغم أنها في الشرق حينذاك ، أقل جموحاً منها في الغرب ـ حيث للغيبيات وللقوى الخارقة ، فضلاً عن الاساطير ، الدور الكبير في الذهنية العامة للمجتمع .

لقد أرجع المؤرخ الاسلامي حركة الفتوح ، الى قوى إلهية ، تدخّلت لمصلحة المقاتل المؤمن ، كما تدخّلت قبل ذلك في انتصار النبي بقوته المتواضعة ، على قوى الوثنية المتفوقة في شبه الجزيرة . ولعل المدخل الى هذا التصوّر الذي تبناه هذا

المؤرخ ، منبثق عن الآية الكريمة ﴿ **وما أرسلناك الا كافة للناس بشير ونذيرا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[١] . وهو يعني بذلك أن دعوة الاسلام ، لم تكن مجرد دعوة محلية لعرب الحجاز وشبه الجزيرة والتخوم ،ولكنها حملت في الذات بُعدها العالمي ، باحتوائها كافة البشر على اختلاف عروقهم ومشاربهم ، حيث تذوب الفوارق ومعها التمييز العنصري ، انطلاقاً من تساوي الجميع في العقيدة وفي حق الحياة بحرية وكرامة .

ذلك هو الجانب النظري في الاتجاه التاريخي الذي يعيد الاسباب الى جوهرها الديني ، دون التعامل مع أسباب أخرى قد تكون لها مسوّغاتها الموضوعية . اما الجانب التطبيقي ، حسب اعتقادي ، فتجسّده تلك الاستجابة العفوية لدعوة الخليفة أبي بكر الى المقاتلين ، بعيد القضاء على تمرد القبائل ، دون أن يسبق ذلك ترتيب ما أو تعبئة منظمة . فقد يجد الباحث بعض الغرابة في اندفاع هؤلاء الى التجمّع في معسكر « المدينة » ، تلبيةً لأوامر الخليفة ، وكان جلّهم لأيام خلت ، يشهر السيف ضد سيادة هذه الأخيرة . ولكن ثمة خياراً آخر ، لم يكن في متناول المسلم ، القادر على القتال ، لأن ذلك سيعرّضه للشك في ولائه وإيمانه . وهاتان الكلمتان، تلاحمت احداهما مع الأخرى بعمق وانسجام ، دون ثمة مجال للفصل بينهما في ذلك الحين . ومن هذا المنظور ، فإن قراراً سياسياً ، اتخذه الخليفة بالدعوة الى الجهاد ، ومن ثم كانت الاستجابة في المقابل سريعة وعفوية ، بينما القليلون جداً أدركوا مضمون القرار ، والمسوّغات التي كانت حينذاك في ذهن السلطة المركزية .

لقد كانت دعوة للجهاد من الخليفة الى المسلمين في شبه الجزيرة ، حيث أمر ـ حسب رواية البلاذري ـ « أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز ، يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم »[٢] . ولعل البلاذري ، يدفعنا الى افق آخر في الاطار التقويمي لحركة الفتوح ، يعلله ربما ذلك الذي انتهى اليه النص ، حول الاستجابة لقرار الخليفة : « فسارع الناس اليه بين محتسب وطامع ، وأتوا المدينة من كل أوب »[٣] . فهل كان صاحب « الفتوح » المتخصّص ـ إذا جاز التعبير ـ يدرك

(١) سورة سبأ ، الآية ٢٧

(٢) فتوح البلدان ص ١١٥

(٣) المكان نفسه

تماماً ما يعنيه قوله ، أم أنه كان مجرد اسهاب وتقويم غير دقيق ؟ لا سيما وأنه لا يختلف هنا عن زملائه المؤرخين في التفسير الديني لهذه الحركة . وقد نتساءل كذلك عن « الألوية الثلاثة »[1]، التي تمّ حشدها في « المدينة » ، إذا كانت بكاملها من المرتزقة أو من « المحتسبين الطامعين » ؟[2] على حدّ قوله . وفي هذه الحالة اين يقع دور العقيدة في دعوة الخليفة ، القائمة عملياً على أحد أركان الاسلام وهو الجهاد ؟ ولعل هذا المؤرخ الرصين ، كان متأثراً الى حدٍّ ما بأجواء الموقف السلبي الذي اتخذته قبائل شبه الجزيرة من الدولة الاسلامية عشية الفتوح ، مع الاشارة الى أن تمرّدها على الأخيرة ، لم تحرّكه الدوافع الدينية فقط ، وانما كان في الكثير من جوانبه سياسياً واقتصادياً، بما في ذلك الجانب « التنبؤي » كما اسلفنا القول .

ولكن البلاذري ، إذا كان يستثني ـ كما هو ظاهر في النصّ ـ قدماء المسلمين في مكة والمدينة ، أو ما عُرف بالمهاجرين والأنصار ، فإن عدداً من المستشرقين وآخر من المؤرخين والكتّاب المعاصرين ، كانت له نظرة اكثر تصميماً وشمولية ، حين رأى في هذا النصّ مدخلاً الى تأكيد اعتقاده ، بأن العامل الاقتصادي ، كان المحرّك الأقوى لدوافع حركة الفتوح عند العرب المسلمين . وقد بلغ الأمر ببعضهم الى اعتبار هذه الأخيرة ، وكأنها إحدى الهجرات السامية المتأخرة ، التي اعتادت على قذفها شبه الجزيرة الجدباء ، الى الهلال الخصيب[3] .

وإذا كان البلاذري ، قد شكك ـ مصادفة أو عمدا ـ في التزام القبائل بمبدأ الجهاد ، فإن المقولة التي أوردها الطبري في وقت لاحق ، تبدو اكثر وضوحاً في إبراز البعد الاقتصادي لسياسية الخلافة التوسعية . فالخطبة المنسوبة الى خالد بن الوليد أمام جنوده ، قبيل احدى المعارك ضد الفرس في العراق ـ « ولو لم يكن الا المعاش ، لكان الرأي أن نقارع هذا الريف ، حتى نكون أولى به ، ونولي الجوع والاقلال من تولاه ممن اثاقل عما انتم عليه »[4] ـ يكاد القارىء لها ، يعتقد بأن ثمة مجاعة قد احاطت

(١) فتوح البلدان ص ١١٥
(٢) المكان نفسه
(٣) من أبرز الذين قالوا بهذا الطرح المستشرق كيتاني Caetani, Studi di storia Orientale P. 831, 850
وكذلك روم لاندو ، الاسلام والعرب ص ٥٩
(٤) الطبري ج ٤ ص ٩

بشبه الجزيرة ، فدفعت بسكانها الى ركوب المغامرة طلباً للخلاص وتحسين الأحوال المعيشية .

وعلى هذه المؤشرات وغيرها ، بنى عدد من المؤرخين المعاصرين رأياً جازماً في تقويم حركة الفتوح ، دون أي اعتبار للعوامل الأخرى التي ساهمت بدور غير عادّي ، في تحريك دوافع القتال لدى العرب المسلمين . وإذا كنا لا نقلل مطلقاً من وجاهة الاسباب الاقتصادية ، التي تعتبر في مقدمة العوامل المحرّكة للأحداث ماضياً وحاضراً ، فإن الاصرار على طرح المسألة من زاوية واحدة ، قد يضعها أحياناً في المكان غير المناسب . . فأن يُقال مثلاً ، إن دافع الفتوحات « لم يكن من أجل فرض العقيدة أو نشر الديانة الاسلامية فقط . . . وإنما كان غرضها الاستيلاء وفرض السيطرة والحصول على المغانم بالدرجة الأولى »[1] ، ففي ذلك نوع من الاسقاط والحكم المطلق والنظرية المسبقة ، فضلاً عن إفراغ الفتوح من محتواها العقائدي ، الانساني ، بإرجاعها الى اسباب قد تصلح منفردة ، كدافع لاحدى الغزوات القبلية ، الهادفة الى السلب أو اخضاع الخصوم . وهذا الرأي الذي يبدو أنه توكأ خطأً على نصّ البلاذري السالف ، نجد له مثيلاً لدى مستشرق آخر (غولد زيهر)، الذي يقول بشيء من السخرية ، « لم يكن هذا الفتح موّجهاً نحو المثل الأعلى وحده ، لأن كنوز المدائن ودمشق والاسكندرية ، لم تسمح طبيعتها بايجاد ميول للزهد والتقشف »[2] . وهو رأي يمثلّ عقلية استشراقية متزمتة ، انتشرت في القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، دون ان تخلو مقاصدها من خلفيات سياسية معروفة .

لقد جرت الفتوح في لحظة خاصة من التاريخ ، حيث التطورات لا تخضع دائماً لقوانين الزمن ، وما يكون بديهياً في عصرٍ ما ، قد لا يكون كذلك في عصر آخر . فالظروف المتزامنة ، بمناخها السياسي العام وعواملها النفسية المختلفة ، تساهم بدور مؤثر أو مساعد ، في تحقيق هذا الحدث أو ذاك . ومن الطبيعي أن تخلق حركة الفتوح ـ وهي ظاهرة متميزة في التاريخ ـ وراءها عاصفةً من الجدل ، نتيجة السرعة المذهلة التي تمّ فيها للعرب المسلمين ، تحطيم امبراطورية عظمى وتحجيم اخرى ،

---

(١) حسين قاسم العزيز ، البابكية ص ٥٢

(٢) I. GOLDZIHER, Le dogme et la loi de l'Islam. p. 123

في نطاق الامكانات العسكرية المتواضعة ، المتوفّرة لهم في ذلك الحين .

وإذا اردنا تحديد مسارات الباحثين حول الدوافع الاساسية لحركة الفتوح ، سنجد هنالك أصحاب المدرسة التقليدية ، السردية ، الـذين أحاطـوا انتصارات المسلمين بشيء من الصوفية ، حيث كان المقاتل في المعركة ، وأمضى اسلحته الايمان والثقة بالحياة الأبدية بعد الموت . وهنالك ايضاً اصحاب المدرسة الاقتصادية ، الذين لجأوا في الغالب الى تجريد الفتوح تقريباً من أي مضمون ، يتجاوز الحاجة الى تطوير النظم الاجتماعية وتحسين الاوضاع المعيشية لعرب شبه الجزيرة ، الذين اندفعوا في موجات ، تشبه ـ حسب زعمهم ـ الموجات السامية القديمة ، أو في غزوات كالتي الفتها القبائل في مشاحناتها الضارية قبل الاسلام[١] .

والواقع أنني لا أرفض مطلقاً هذا الاتجاه أو ذلك ، ولكنني اعتقد أن احدهما لا يصلح منفرداً لمناقشة البواعث الموضوعية لحركة الفتوح ، التي قد تجمع بين الاتجاهين على نحو تكاملي أو الكثير منه . فالعرب في شبه الجزيرة ، لا سيما الشماليين ، كانوا عشية الدعوة وبعدها ، يتمتعون بمستوى اقتصادي واجتماعي ، لم يكن سيئاً أو متدهوراً ، لأن مكة ـ المحطة التجارية الكبرى في تجارة الشرق خلال القرن السادس الميلادي ـ كانت قد ورثت بريق اليمن في هذا المجال .[٢] ولم تكن حملة الحبشة ـ التي قيل أنها تزامنت والعام نفسه الذي ولد فيه النبي أو ما عُرف بعام الفيل[٣] ، وهي الحملة التي تمت بتحريض سافر من البيزنطيين ، لتحقيق اتصال مع الاسواق الشامية الواقعة تحت سيطرتهم ـ سوى محاولة من هؤلاء ، لضرب النفوذ الاقتصادي للحاضرة الحجازية ، ووضع طريق التجارة الشرقية في فلك سيطرتهم المباشرة[٤] .

وهكذا فإن الزعم بأن المقاتل العربي المسلم ، كان يبحث عن ضآلته في الحملات العسكرية وراء حدود شبه الجزيرة هرباً من الجوع والضائقة، لا يعبّر بدّقة

(١) روم لاندو ، الاسلام والعرب ص ٥٩

(٢) O'LEARY, Arabia, Before Muhammad p 181. LAMMENS, La République marchande de la mécque p 21

(٣) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٧

(٤) ابن اسحاق ، كتاب المغازي والسير ص ٦٢، ابراهيم بيضون، الحجاز والدولة الاسلامية ص ٦٠ وما بعدها .

عن واقع كان يختلف تماماً عن هذا التصور غير الدقيق . كما ان الاندراج تحت لواء العقيدة وفق مخطط تبشيري للدعوة الى الاسلام ، ليس كافياً بدوره لتعبئة جماعات كان يعوز بعضها الايمان الصحيح . ومن هذا المنظور ، فإن الاعتماد على دافع محدّد لمناقشة حركة الفتوح ، يبدو عقيماً ولا ينتهي الى نتائج ايجابية ، لان اكثر من عامل أسهم في تهيئة الأجواء المناسبة ، لتحقيق تلك الانتصارات الساطعة في العراق وفارس والشام ومصر وأفريقية ، وبالتالي ، فإن « أقصى ما يمكن قوله .. هو أن الدافعين الديني والدنيوي ، دعم أحدهما الآخر »[1] حسب تعبير المستشرق المعاصر « وات » .

ان القضايا الحيوية في التاريخ ، سياسية كانت أم اجتماعية ، تأخذ مسارها الخلّاق عبر تمازج عضوي بين المبدئية والواقعية ، والقضية الكبرى ، هي التي تكون عادة في ضمير الشعب وفي عمق همومه اليومية ، حيث تتحول تلقائياً الى ممارسة عملية ، منظمة ومبدعة ، تتلاشى معها النزعة الفردية الضيقة ، ويسود محلها الاتجاه الجُماعي الالتزامي ، لكافة الفعاليات في المجتمع الموحد والمتجانس . ولعل أفضل انواع العمل الهادف ، ذلك المنبثق عن « الجماعة » ، والمطروح في اطار « المؤسسة » ، حيث تكمن فيه أفضل السبل الى النجاح الكبير .

وقد تكون للعقيدة الاسلامية ، فرادة في اتخاذها البُعد « الجماهيري » في العصور الوسطى ، من زاوية الالتحام مع « المؤسسة » الحاكمة وتغليب مصلحتها العامة على المصالح الفردية لا سيما في تلك المرحلة المبكرة والمتوهجة ، كون المقاتل المسلم تجرّد من ذاته حتى الانصهار في « الجماعة » . فهو جندي مسيّس أو صاحب قضية - إذا جاز لنا القول - حيث يكمن في ذلك سرّ نجاحه وانتصاره ، دون ثمة ما يشعره بأنه مكره على المشاركة في قتال مجهولة اسبابه لديه ، على غرار ما كان يحدث غالباً في الازمنة الغابرة ، انطلاقاً من وعيه الناضج للأحداث ومشاركته المتكافئة في الاسباب والنتائج .

ويلاحظ شكري فيصل ، مدى هذا الترابط والالتحام في ظلّ العقيدة الواحدة ، بحيث اصاب ذلك كل القضايا المصيرية في حياة العرب المسلمين ، من

---

(١) مونتغمري وات ، الفكر السياسي في الاسلام ص ٢٩

خلال قوله : « اما العقيدة الاسلامية ، فقد كان من اثرها انها انارت بألقها كل جوانب الروح ، وأثارت في هزّتها كل أطراف النفس . . والتقى العرب هؤلاء المتفرقون ، على هزّة تناولت عندهم النزوع والتعقل والانفعال جميعاً ، فإذا هم من وحي العقيدة الجديدة في يقظة متنبهة . . لم ينطووا على الاسلام انطواء ضيقاً ، ولم يتناولوه من النبي أو من رسله على أنه شيء يحتفظ به في البيوت أو في الخيام ، ولم يروا فيه عقيدة يتحلون أو يتباهون بها كما الشأن في العقائد السابقة التي تحلّت بها بعض القبائل ، ولم تحسّ قبيلة ما أو جماعة ما ، أن هذا الدين هو لها دون الجماعات والقبائل الأخرى . . وانما كان الأمر على النقيض تماماً . . كان هناك نوع من مشاركة بعيدة الآماد في الايمان بهذه العقيدة بين العرب جميعاً ، وكان هناك التقاء متقارب الأبعاد على الاستجابة له والاندماج فيه . . وكان هناك صقل لكل مواهب النفس ولكل قواها . . وكان وراء ذلك شعور متوثب لا يقنع بالانطواء على هذه العقيدة ، ولكنه يريد أن يجاوز بها هذه الحدود الضيقة الى كل مجالات العرب الأخرى من هنا وهناك في الشرق والغرب »[١] .

وهكذا فإن الاسلام ، عقيدة ونظاما ، انطوى في الواقع على رؤية واضحة ، لها ابعادها التنظيرية والعسكرية ، اعني بها « الجهاد » ، ذلك الوجه التطبيقي أو الاداة العملية للنضال في شبه الجزيرة والاطراف الأخرى ، ولعل الجهاد كان في مقدمة الحوافز ، التي حرّكت غرائز القتال لدى العرب المسلمين ، ولامست في أعماقهم النزعة « الصوفية » أو شيئاً منها الى التضحية . وليس خافياً ما كان لذلك من تأثير ايجابي على نتائج العمليات العسكرية التي انعقدت في الغالب لمصلحة المسلمين . وليس خافياً كذلك ، أن الحروب الصليبية التي قامت بعد بضعة قرون ، كردّة فعل على الفتوحات ، لا سيما الاوروبية منها ، استمدت حيويتها واندفاعها ، من مبدأ « الجهاد » في الاسلام ، أو ما عُرف حينذاك بحركة « الإحياء الديني »[٢] اثناء القرن العاشر الميلادي .

ولم يكن الجهاد يعني فقط ، التضحية والتماس الحياة المثلى في الآخرة . فهو في

---

(١) شكري فيصل ، حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول ص ١٣ ـ ١٤

(٢) أرنست باركر ، الحروب الصليبية ص ٩

مضمونه يعني ايضاً وبشكل مباشر، الجانب الدنيوي في شخصية المقاتل المسلم، الذي وضع النصر في مقدمة حساباته، بما يعكسه ذلك من ايجابيات خاصة تعود عليه بالفائدة، حيث نجد اصداء هذه المسألة في مقولة أبي بكر لخالد بن الوليد خلال حروب الردّة: «اطلب الموت توهب لك الحياة». أي ان للجهاد محتواه الديني، هو التضحية، في الوقت الذي اتخذ بعده الدنيوي، متمثلاً في الغنائم وعائدات الحرب الأخرى. وهو بالاضافة الى ذلك، شكّل القضية الموحدة لآمال ومصالح المسلمين، الذين خرجوا من محنة الردّة أقوياء متلاحمين، في ظلّ عقيدة ونظام، هو الاسلام. والقضية هذه كانت السلاح القوي والمتطور، الذي أعطى للعرب المسلمين تلك الثقة الكبيرة والروح المعنوية المرتفعة، قبل أن يفتح أمامهم الطريق الى صنع تاريخهم العظيم.

ومن هذا المنظور، فإن الفتوحات الاسلامية، لم تكن عملاً خارقاً أو مدفوعاً بقوى غيبية، ولم تكن نمطاً جديدا من الهجرة أو الغزو، بحثاً عن مستويات أفضل للحياة وتخلصاً من جوع وجفاف. فهي ذات عمق أبعد بكثير من حاجات دنيوية وسطحية، كان يمكن أن تحدث خارج اطار الاسلام، على غرار الموجات العديدة التي قذفتها شبه الجزيرة باتجاه الشمال. ولأن المقاتل المسلم، تحوّل في ظل العقيدة الى انسان جديد، يحمل في وجدانه قضية مصيرية، استطاع قهر الصعوبات والتحديات، والانتصار على عدوه، بعد انتصاره على ذاته. إنها اللحظة التاريخية التي اختارها العرب المسلمون، كتوقيت للتحرك العسكري وضرب القوتين الأعظم في ذلك الزمن. وكانت الظروف بدورها متحالفة معهم، ضد دولتين نخرتهما الحروب الخارجية والأزمات السياسية والدينية[1] في الداخل، وفتك بهما نظام متخلف وعاجز، أمام الافكار الجديدة التي حملها المسلمون الى ساحات القتال. فكان لهذا

---

(١) لقد عانت كل من الدولتين الساسانية والبيزنطية ـ عدا الحروب المتواصلة بينهما ـ ظروفاً داخلية عصيبة. فمن حركات انشقاق في العقيدة الزرداشتية، الى استبداد الملوك والارستقراطية (المرازية) ورجال الدين (الموابذة) في الدولة الأولى، الى صراعات ضارية على الحكم وثورات محلية واضطهادات دينية في الثانية. عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية ج ١ ص١٩١ ـ ١٩٩.

التباين في التنظيم والاعداد النفسي ، وفي المفاهيم العامة ، وأخيراً في العلاقة بين الدولة والشعب ، المزيد من المساهمة في توجيه العمليات الحربية لمصلحة الدولة الاسلامية . ويعطي المؤرخ الفرنسي المعاصر « كلود كاهن » ، مثلاً على هذا الاختلال بين قوتي الأخيرة والدولة البيزنطية بقوله : « وكانت قوة العرب كامنة في موقعهم المركزي الذي توسّط مختلف الجبهات التي اغاروا عليها ، وهي كامنة أيضاً في استعداد جيوشهم استعداداً مستمراً للحرب . . . وقبالة المسلمين كانت جيوش الاعداء ثقيلة ، حافلة قواها المرتزقة فقط في دولة الروم . ولقد تدنّت معنوياتهم بسبب المنازعات الداخلية ، وبسبب عداء السكان لهؤلاء المرتزقة »[١] .

أهم الفتوحات الراشدية

لقد اصطُلح على تسمية حكم الأربعة الأوائل من الخلفاء ، بعصر الراشدين ، وهو امتداد لعصر النبي بمنهجيته وممارساته ، وكذلك بشخصيات قادته التاريخيين ، الذين عاشوا قريبا من صاحب الدعوة ، حائزين على ثقته . وللاعمال العسكرية أو الفتوحات في هذا العصر ، لا سيما الفترة الأولى منه ، لون خاص ، يختلف اسلوباً وهدفاً الى حدٍّ كبير عن الأعمال التالية التي تمت في العصر الأموي ، حيث فقدت بعض الأحيان ، محتواها الجهادي وخضعت لقرارات سياسية ، تتباين دوافعها بين خليفة وآخر . وسنحاول هنا تناول ابرز النشاطات العسكرية في العصر الراشدي ، مبتعدين ما استطعنا عن الاسهاب المطوّل والعرض السردي الرتيب .

١ ـ محور العراق وفارس

قُدّر لهذه الجبهة أن تشهد بواكير الانتصارات الاسلامية ، ضد القوى الكبرى ، المهيمنة على المنطقة ، حيث اتصلت بحروب الردّة التي انفجرت في مطلع خلافة أبي بكر . فكانت امتداداً عسكرياً لها ، حين أصبح العرب المسلمون على أبواب العراق ، بعد تحطيم ردّة البحرين . وهذه الجبهة مرتبطة تاريخياً بشخصية قيادية معروفة ، أعني بذلك المثنّى بن حارثة ، الذي ينتمي الى شيبان ، أقوى الفروع في قبيلة بكر بن وائل

---

(١) كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ص ٢٥

الشهيرة[١] . غير أن الغموض يحيط الى حدٍّ ما بظهور هذا القائد في العراق وتوقيت مبادرته العسكرية على أرضه . فمن غير المعروف تماما ، ان كان ذلك مجرد تصرف خاص ، أم ان تكليفه جاء من الخليفة . وإذا ما استبعدنا الفرضية الأولى ـ على الرغم من اعتقاد البعض بأن المسلمين من بني شيبان ، كان يغيرون على الأراضي الخاضعة للنفوذ الفارسي الساساني ، دون استشارة الخلافة ، مما شكل عنصراً لاجتذاب خالد بن الوليد اليهم ، حسب الاعتقاد نفسه[٢] ـ فلا ريب أن الثانية صالحة للنقاش ، لا سيما وأن الوقت الذي يُفترض انه انتقل فيه الى العراق ، لم يكن ملائماً لفتح جبهة جديدة خارج شبه الجزيرة ، ذلك المتزامن مع ثورة القبائل فيها .

بيد أنه من المحتمل أن يكون المثنّى ، قد التقى الخليفة في وقت سابق ، حيث أمره بالتوجه الى العراق فور استكمال المهمة التي كلف بها في البحرين ، الى جانب القائد الآخر العلاء بن عماد الحضرمي ، بعد أن برز حينذاك كمقاتل محترف وشجاع[٣] . ولقد قيل أنه « كان يغير على السواد في رجال من قومه »[٤] ، حسب البلاذري ، الذي اشار أيضاً الى قدوم المثنّى الى « المدينة » وقوله لأبي بكر : « استعملني على من أسلم من قومي ، اقاتل هذه الأعاجم من أهل فارس » ، حيث كتب اليه الخليفة « في ذلك عهداً »[٥]، او« ابعثني على قومي فإن فيهم اسلاماً أنال بهم أهل فارس واكفك أهل ناحيتي » حسب الأزدي[٦] . ولعل هذا الاعتقاد ، تسوّغه ايضاً رواية ابن الأثير ، الذي أشار الى أن القائد الشيباني ، قد « استأذن ابا بكر بأن يغزو بالعراق ، فأذن له ، فكان يغزوهم قبل قدوم خالد ، وأمر ابو بكر خالداً وعياضاً[٧] ، أن يستنفرا من قاتل أهل الردّة ، وأن لا يغزون معهما مرتدّ ، ففعلا وكتبا

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٣ .راجع ايضاً F. M DONNER' the Bakr B. wa' ıl tribes and Paliticus in noitheasterm Arabia on the Eve Islam. P 17

(٢) شعبان ، صدر الاسلام والدولة الأموية ص ٣٤

(٣) عبد الحميد بخيت ، عصر الراشدين ص ٧٩

(٤) البلاذري ، فتوح ص ٢٤٠

(٥) المكان نفسه .

(٦) تاريخ فتوح الشام ص ٥٣

(٧) خالد بن الوليد ، عياض بن غنم

اليه يستمدانه »[1] . والواقع أن اهمية هاتين الروايتين ، في القائهما الضوء على القرار السياسي ، الذي يُفترض ان ادارة « المدينة » قد اتخذته بعد وفاة النبي ، لتنفيذ مخططها التوسعي ، الذي بدأت ملامحه في الظهور منذ غزوة « مؤتة » في العام الهجري الثامن .

وإذا كانت ثورة القبائل ، قد أعاقت تنفيذ هذه السياسة لبعض الوقت ، فإن سلبياتها انحصرت في ذلك ، دون أي تعديل في القرار السابق . ولعل ما يشجع على الأخذ بهذا الرأي ، انتقال المثنى وعياض ومن ثم خالد ـ وجميعهم من كبار القادة في حروب الردّة ـ الى العراق ، في اطار هذه السياسة التوسعية ، التي سبقت الاشارة اليها . وكان هذا الاخير في ذلك الوقت ، تحت السيطرة المباشرة للنفوذ الفارسي ، بما فيه الدولة « الحاجزة » بزعامة المناذرة اللخميين في الحيرة . وعلى الرغم من التبعية التقليدية التي اتصفت بها الأخيرة لدولة الساسانيين ، الا انها استطاعت عبر حقبات تاريخها المديد ، تكوين شخصية حضارية شبه مستقلة ، حيث كان التأثير اليوناني ـ البيزنطي ، الأكثر بروزاً في هذه الدويلة العربية . وقد حدث في مطلع القرن السابع الميلادي ، ما جعل من العراق ـ مقرّ الأخيرة ـ الأرض الممهدّة والمهيأة ، للعمليات العسكرية ، في اعقاب انهيار العلاقة بين الفرس الساسانيين وبين عدد من القبائل العربية في العراق ، لا سيما بكر بن وائل ، التي تنتسب اليها شيبان ، قبيلة المثنى ، مما جرّ الى مجابهة مسلحة بين الطرفين ، تتوجت بالمعركة الشهيرة المعروفة بـ « ذي قار »[2] ، التي انتهت بانتصار بكر بن وائل وحليفاتها ، تلك المعركة التي يُنظر اليها كمقدمة للفتوحات الكبرى في العراق وفارس بعد ربع قرن من الزمن .

ولقد بدأت العمليات العسكرية المحدودة على الأرجح ، في مطلع السنة الثانية عشر للهجرة ، وذلك بقيادة المثنى ومعه ما يقارب الثمانية آلاف من المقاتلين[3] ، جلّهم من قبيلته الكبرى . وكانت المنطقة الفراتيّة[4] ، حيث الحيرة ، الموقع الذي

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٣٨٥

(٢) اسم لنبع ماء متاخم للسواد . الحميري ، الروض المعطار ص ٢٦٠ . عن هذه المعركة راجع : DONNER, the Bakr B. Wa'il p 22

(٣) ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٣٨٥

(٤) اتخذ المثنى معسكره في مكان يعرف بـ«خفّان»، على مقربة من الكوفة فيما بعد . راجع : =

اتخذه القائد الشيباني مسرحاً لنشاطه وتحركاته الأولى . ويبدو أن مهمته لم تكن توسعية في البدء ، بقدر ما كانت استطلاعية أو تمهيدية[1] ، انطلاقاً من معرفته الوثيقة بطبيعة المنطقة ، التي ربما كانت وراء اختياره لهذه المهمة المبكرة[2] ، مما يعني ان الحرب المسلحة الفعلية ، بدأت مع وصول خالد ، قائداً على هذا المحور بعيد ذلك بقليل[3] .

ويروي « الدينوري » ، أن المثنى ومعه قائد آخر من بكر بن وائل[4] نزلا فيمن جمعا بتخوم أرض العجم ، فكانا يغيران على الدهاقين ، فيأخذان ما قدرا عليه ، فإذا طُلبا أمعنا في البر فلا يتبعهما أحد »[5] . ولكن هذه التحركات ، على ضيق دائرتها ، كان لها تأثير كبير على وضع الجبهة العراقية الغامضة في ذلك الحين . فقد بات من الواضح ، أن ثمة مرحلة وشيكة أكثر جديّة ، تنتظرها هذا الجبهة ، مع قدوم خالد بن الوليد واستهدافه مباشرة الحيرة[6] ، عاصمة اللخميين السابقة ، حيث كانت وقتذاك تدور في فلك التبعية الفارسية المطلقة ، عبر زعيمها الجديد ، المنتمي الى « طيّ »[7] الذي يصفه البلاذري ، بأنه « عامل كسرى أبرويز على الحيرة »[8]، حيث شكّل ذلك احد أوجه الاسباب للمعركة السالفة الذكر ، التي جاءت بمثابة ثأر للقبائل العربية وأعادت اليهم الاعتبار السياسي والاجتماعي في تلك المنطقة .

وكانت أولى الأعمال المشتركة للقائدين (خالد والمثنى) ، موقعة « الّيس »[9]

= الدينوري ، الاخبار الطوال ص ١١١ ، الطبري ج ٤ ص ٣. محمد فرج ، الفتح العربي للعراق وفارس ص ٧٦.

(١) الدينوري ، الأخبار الطوال ص ١١١

(٢) الطبري ج ٤ ص ٣

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢ ـ ٣

(٤) سويد بن قُطبة العجلي ، الأخبار الطوال ص ١١١

(٥) المكان نفسه

(٦) البلاذري ، فتوح ص ٢٤٤ . اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ١٣١ .

(٧) أياس بن قبيصة الطائي

(٨) البلاذري ، فتوح ص ٢٤٤

(٩) قرية من قرى الأنبار في أول العراق من ناحية البادية . ياقوت، معجم البلدان ج ١ ص ٢٤٨

بعد أن تصدى لها صاحبها (جابان) ، مما دفع الأول الى ايفاد الثاني اليه « فهزمه وقتل جلّ اصحابه » ، قبل أن يصالح أهلها ، حسب رواية أبي مخنف[1] . غير أن ثمة روايات أوردها الطبري ، تشير الى عمليات حربية سابقة سابقة على هذه الموقعة ، منها « المذار »[2] أو ما يسميها ابن الأثير بوقعة « الثني »[3] ، التي حقق فيها العرب المسلمون انتصار كبيراً ، حسب الرواية التاريخية[4] . وكذلك وقعة « الولجة »[5] ، التي شهدت « قتالا شديدا »[6] ، حسب الطبري ، ومن ثم وقعة « أليّس » على الفرات التي أشرنا اليها ، و « أمغيشيا »[7] ، التي تجلّت فيها قيادة خالد وألمعيته العسكرية الفذة[8] . . وأخيراً « فرات بادقلى »[9] التي مهدت الطريق الى الحيرة ، حيث سارع اليه زعماؤ ها من الأزد وشيبان وطي . . « فصالحوه على مائة ألف درهم . . على أن يكونوا عيوناً للمسلمين على أهل فارس ، وأن لا يُهدم لهم بيعة ولا قصر »[10]، حسب ما أورده البلاذري . اما « الطبري » ، فقد أشار الى أن خالداً بعد انتصاره على « مرزبان الحيرة »[11] في موقعة « فرات بادقلى » ، تحصّن أهلها في داخلها واعتصم الزعماء في « قصورهم » ، محاصرين من جانب المسلمين بقيادة خالد وأربعة من كبار معاونيه[12] . وتتابع الرواية ، بأن المسلمين دعوا أهل الحيرة الى « إحدى ثلاث :

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٣

(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٧

(٣) هو منعطف النهر ، وحسب الطبري أن العرب كانت تسمي كل نهر بـ « الثني » . ج٤ ص ٧

(٤) المكان نفسه . ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٣٨٧

(٥) في أرض كسكر ، وقد وقعت في صفر من عام ١٢هـ . الطبري ج ٤ ص ٨ . معجم البلدان ح ٥ ص ٣٨٣

(٦) الطبري ج ٤ ص ٨

(٧) ذكر ياقوت أنها كانت مصراً كالحيرة وكان فرات بادقلى ينتهي اليها . معجم البلدان ج ١ ص ٢٥٤

(٨) نُسب الى أبي بكر عند بلوغه نبأ انتصار خالد في هذه الموقعة : «يا معشر قريش . . عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله ، اعجزت النساء أن ينشئوا مثل خالد» (رواية سيف ، الطبري ج ٤ ص ١١).

(٩) ابن الأثير ج ٢ ص ٣٩٠

(١٠) فتوح البلدان ص ٢٤٤

(١١) ابن الأزادبة . الطبري ج ٤ ص ١١

(١٢) ضرّار بن الأزور : الذي حاصر القصر الأبيض وفيه أياس بن قبيصة وضرار بن الخطاب =

الاسلام أو الجزاء أو المنابذة »[1] . فاختاروا الأخيرة بعد مهلة « يوم وليلة »[2] ، ولكنهم انقسموا على انفسهم تحت وطأة الحصار[3] ، حيث بادر كبيرهم (عمرو بن عبد المسيح بن قيس) - وكان في مواجهة المثنّى - الى طلب الصلح ، الذي تمّ الاتفاق عليه ، مقابل « مائة وتسعين الف درهم سنوياً »[4] ، وذلك في ربيع الأول من العام الثاني عشر للهجرة[5] .

وتأتي أهمية هذه الانتصارات ، في أنها شقّت الطريق أمام العرب المسلمين لتثبيت اقدامهم في العراق ، كما كانت بداية تجاربهم العسكرية المنظمة خارج نطاق شبه الجزيرة . ومن ناحية اخرى ، كان اتفاق « الحيرة » ، النموذج العام للعلاقات الانسانية بين المقاتلين المسلمين وبين اعدائهم ، حيث تحوّل هذا الاتفاق الى وثيقة في التشريع الحربي ، وذلك بوضعه اسس التعامل والعلاقات مع البلاد المفتوحة وشعوبها في المستقبل[6] .

=وضرار بن مقرن المزني والمثني بن حارثة الشيباني . الطبري ج ٤ ص ١٢ . ابن الأثير ج ٢ ص ٣٩ .

(١) الطبري ج ٤ ص ١٢

(٢) المكان نفسه

(٣) المكان نفسه

(٤) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٣ . وردت في الأخبار الطوال مائة ألف سنويا ص ١١٢ . وكذلك في فتوح البلدان ص ٢٤٤

(٥) ابن الأثير ص ٣٩٢

(٦) نصّ كتاب الاتفاق بين خالد بن الوليد وبين زعماء الحيرة ، كما ورد في «خراج» أبي يوسف: «إن خليفة رسولة الله امرني أن أسير بعد منصرفي من أهل اليمامة الى أهل العراق من العرب والعجم ، بأن أدعوهم الى الله جلّ ثناؤه والى رسوله عليه السلام وابشرهم بالجنة وانذرهم من النار ، فإن أجابوا فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين . وإني انتهيت الى الحيرة، فخرج اليّ أياس بن قبيصة الطائي في اناس من أهل الحيرة ، من رؤسائهم ، واني دعوتهم الى الله ورسوله فأبوا أن يجيبوا ، فعرضت عليهم الجزية أو الحرب . فقالوا لا حاجة لنا لحربك ولكن صالحنا على ما صالحت عليه من غيرنا من أهل الكتاب في إعطاء الجزية . وإني نظرت في عدّتهم فوجدت عدتهم سبعة آلاف رجل . ثم ميزتهم فوجدت من كانت به رمانة ألف رجل . فاخرجتهم من العدة فصار من وقعت عليه الجزية ستة آلاف . فصالحوني على ستين ألف وشرطت عليهم عهد الله وميثاقه الذي أخذ على أهل التوراة والأنجيل ، أن لا يخالفوا ولا يعينوا كافراً على مسلم لا من العرب ولا من العجم . فإن هم خالفوا فلا ذمة لهم ولا أمان ، وان هم حفظوا ذلك ورعوه وأدّوه الى المسلمين ، فلهم ما للمعاهدة وعلينا المنع لهم . فإن فتح الله علينا ، فهم على دينهم لهم بذلك عهد الله وميثاقه أشد ما أخذ على نبي=

وكان خالد قد اتخذ مقر قيادته في « الحيرة »[1] ، وربما انطلاقاً من وحدة المشاعر بين قبائلها اليمنية الأصل[2] وبين العرب المسلمين ، حيث كان ذلك من العوامل المشجعة على اقامة الحامية العسكرية فيها . ويبدو أن خالداً احتاج الى بعض الوقت لدراسة دقائق الموقف في امبراطورية الفرس ، خاصة وأن الاخيرة بادرت الى استنفار قواتها وإعلان التعبئة العامة ، بعد أن اصبح العرب المسلمون على أبوابها القريبة . وفي تلك الاثناء تمّت السيطرة على « الأنبار » و « عين التمر »[3] وبعض المواقع الهامة الأخرى ، قبل ركود العمليات العسكرية في اعقاب تطورات الموقف على الجبهة الشامية واستدعاء خالد بن الوليد قائداً لها[4] ، بينما عاد المثنى الى موقعه السابق في العراق[5] ، الا أنه كان غير قادر على القيام بعمليات كبيرة ، بعد استقطاب الشام الجزء الرئيسي من قوات الخلافة[6] . ولذلك فإن مهمته انحصرت في الدفاع عن المواقع الاسلامية وحمايتها من غزوات الفرس ، حيث تكللت هذه المهمة بالنجاح ، لا سيما بعد الانتصار الباهر الذي حققه في موقعة « بابل » ، التي فتحت الطريق الى « المدائن » ، أحد أهم مراكز النفوذ الفارسي ـ الساساني في العراق[7] .

ولكن التطورات السياسية في إدارة « المدينة » ، من وفاة الخليفة أبي بكر وبيعة عمر بن الخطاب في اعقابها ، كانت لها انعكاساتها الواضحة على القيادات العسكرية

من عهد أو ميثاق وعليهم مثل ذلك لانخالفة وجعلت ايما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ،طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين بالنفقة على عيالهم . وأيما عبد من عبيدهم أسلم اقيم في المسلمين فبيع بأغلى ما يقدر عليهم في وكن ولا تعجيل ودفع ثمنه الى صاحبه ، ولهم كل ما لبسوا من الزيّ الا زي الحرب». ابو يوسف ، كتاب الخراج ص ٨٤ ـ ٨٥.

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٤١٥

(٢) البلاذري ، فتوح ص ٢٤٤

(٣) تقع في طرف البادية غربي الفرات . الدينوري ، الأخبار الطوال ص ١١٢
ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٣٩٤ وما بعدها

(٤) ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٤١٥

(٥) المكان نفسه

(٦) المكان نفسه

(٧) المكان نفسه

في مختلف محاور القتال ، سواء في العراق أم في الشام . فقد أمر الخليفة الجديد ، بعزل القائدين الكبيرين ، المثنى وخالد ، تحت تأثير اسباب قيل في تعليلها الكثير ، خاصة المتعلقة بابعاد الاخير ، الذي اتهم - حسب بعض الروايات - بتجاوزه الخطّ المسموح به في حروب الردّة ، كما أسلفنا القول . ولكن تكرار هذه الحالة مع عدد من القادة العرب في عهد هذا الخليفة ، ربما أوحى بأن الاسباب الحقيقية اكثر عمقاً من حادثة فردية ، من المفترض أن تصيب صاحبها فقط . ويبدو ان العلاقة كانت غير ودية بين الرجلين (عمر وخالد) ، قبل تولّي ، الاول زمام الخلافة ، إذا ما توقفنا عند قول للثاني - وقد استاء من قرار نقله الى الشام - « هذا عمل عمر نفس علي ان يفتح الله على يدي العراق »[1] . ولعل المتتبع جيداً لاسلوب الخليفة الجديد ونهجه في الحكم ، حيث شخصيته القوية طغت على الدولة ، وحيث ادارته تعمل على تقوية « المؤسسة » على حساب الزعامات السياسية والقبلية ، فضلاً عن القيادات العسكرية ، التي كانت عرضةً للتغيير في عهده ، كونها تمتلك عناصر البروز والتألق من خلال ما تصنعه من الانتصارات الباهرة .

ففي العراق ، انتقلت القيادة الى قائد مغمور من ثقيف ، هو ابو عبيد بن مسعود[2] ، الذي لم يكن ، على الرغم من ثقة الخليفة به ، على مستوى قيادي يؤهله لملء فراغ سلفه المثنى . فقد بدا شديد الحماسة الى القتال على غرار الأخير ، الا أنه افتقد المعيته وحكمته ، بحيث جرّه تهوّره[3] الى هزيمة قاسية في معركة « الجسر »[4] غير المتكافئة ، التي كان من سلبياتها انها كادت تفقد المسلمين مواقعهم وحامياتهم في العراق ، لولا مبادرة المثنى ، في انقاذ الجزء الأكبر من الجنود والانسحاب الى الحيرة[5] . بالاضافة الى ذلك ، فقد أودت هذه المعركة بحياة ابي عبيد ، دون أن ينجو مساعده المثنى الذي اصيب بجراح بليغة[6] ، مثبتاً كفاءته كمقاتل محترف وقائد

---

(١) الأزدي ، فتوح الشام ص ٦٨

(٢) ابن الجوزي ، تاريخ عمر بن الخطاب ص ٦٧ . الدينوري ، الأخبار الطوال ص ١١٣

(٣) البلاذري ، فتوح ص ٢٥٢

(٤) وقعت هذه المعركة في سنة ١٣ هـ / ٦٣٤م ، في مكان يعرف بـ «قس الناطف» على نهر الفرات . المكان نفسه

(٥) ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٤٣٩

(٦) المصدر نفسه ج ٢ ص ص ٤٤٠

على درجة عالية من الخبرة والشجاعة .

وهكذا تتاح للمثنى العودة مرة أخرى الى الموقع الذي التصق به والى الدور الذي اختاره قدراً له ، منذ اتخاذه العراق ساحة لنشاطه الحربي ، بينما تفادى الخليفة تعيين خلف لأبي عبيد ، معبّراً بذلك عن تقديره لقائده الكبير ، بتكريس عودته الى موقعه السابق(١) ، ولم يلبث ان استأنف مهامه ، على الرغم من جراحه ، في محاولة للانتقام لهزيمة « الجسر » ، حيث شن سلسلة من العمليات الهجومية على الفرس ، تتوجت بموقعة « البويب »(٢) ، التي اسفرت عن هزيمتهم ودفعهم الى التراجع(٣) ، مؤدياً ذلك الى تصحيح الموقف العسكري في العراق ، وإعادة التوازن الذي أخلّت به موقعة « الجسر » السالفة(٤) . من جهة،والى فتح أبواب الحرب على مصاريعها بين العرب المسلمين والفرس الساسانيين من جهة ثانية . ولكن المثنى لم تتح له المشاركة أبعد من ذلك في هذا المحور القتالي ، حيث توفي بعد وقت قصير ، متأثراً بجراحه السابقة(٥) ، بعد أن نجح في وضع لبنة الاستقرار العربي الاسلامي في العراق والمشرق ، مما جعله مؤسس هذا الأقليم بشخصيته الجديدة ورائد الحركة التوسعية وراء حدود شبه الجزيرة .

لقد ترك غياب المثنى في الواقع فراغاً كبيراً في قيادة الجبهة الشرقية ، التي عادت همومها الى الظهور مجدّداً ، لتثير حالة نفسية قائمة في « المدينة » ، شبيهة بتلك التي سادت بعد هزيمة الجسر(٦) . وكان الخليفة شديد القلق وهو يتلقى انباء الحشد العظيم للقوات الفارسية المتقدمة نحو الحيرة ، معسكر العرب المسلمين . وكاد الوقت أن يخون الخلافة ، دون أن يتاح لها القيام بدور ما لتبديد هذا القلق وإنقاذ قواتها في العراق ، بينما كان الوضع على محور الشام لا يزال ساخناً وخطيراً ، بحيث استقطب طاقات الدولة واهتمامها طوال عامين متوالين . ولذلك ما كادت الضربة القاصمة ،

---

(١) ابن الاثير ج ٢ ص ٤٤١
(٢) نهر كان بالعراق موضع الكوفة ، معجم البلدان ج ١ ص ٥١٢
(٣) ابن الأثير ج ٢ ص ٤٤١
(٤) الطبري ج ٤ ص ٧٥
(٥) المصدر نفسه ج ٤ ص ٧٨ . راجع ايضاً البلاذري ، فتوح ص ٢٥٦
(٦) فتوح البلدان ص ٢٥٥

تحلّ بالقوات البيزنطية ، المرابطة في سورية بقيادة هرقل ، حتى تحولت الجهود الجدّية الى العراق ، في العام نفسه الذي جرت فيه معركة اليرموك الفاصلة[1] .

وما لبثت الخلافة أن اوفدت قائداً للجبهة العراقية ، هو سعد بن أبي وقّاص ، أحد التاريخيين في الاسلام ، والصحابة المقربين من النبيّ ، والمشاركين في العمليات العسكرية الأولى بين المدينة ومكة[2] . وكانت كفاءة القائد الجديد الذي يبدو أنه تمتع بها ، وراء اختياره لهذه المهمة ، كما كان لذلك دلالة على مدى الاهتمام بهذه الجبهة . ولعلّ الخليفة القوي ، تجاوز الحدّ من مزاجه ، الذي لا يستسيغ كثيراً هذا النمط من الشخصيات المتألقة ، بعد أن توسم المقدرة والكفاءة في القائد الجديد ، الذي جاء تعيينه تحت تأثير تلك الظروف الصعبة .

كان الموقف خطيراً كما أسلفنا في العراق ، وكان القائد الفارسي (رستم) ، يجتاح الاقليم بقواته الضخمة ، المعززة بالفيلة والأدوات الحربية المتطورة[3] ، قياساً الى الاسلحة المعروفة ، التي استخدمها العرب المسلمون في ذلك الحين . فالتفوق كان ملحوظاً لمصلحة الفرس ، الا أن هؤلاء لم يكن باستطاعتهم الارتقاء الى مستوى القضية ، السلاح الأقوى لدى المسلمين ، حيث بلغ النظام الساساني حينذاك ، حدّاً كبيراً من الانهيار ، وانحدرت معه قيم المجتمع ، بما فيها العقيدة التي أُفرغت من محتوياتها الانسانية والاصلاحية ، لتخدم فقط مصالح الفئة الحاكمة ، المرتبطة عضوياً بمصالح كبار رجال الدين (الموابذة) . وكان هؤلاء ضالعين في هذا التناقض الشاسع بين النظام والشعب ، الذي افتقد حتى قيمه الدينية المتوارثة . وبعبارة موجزة فإن « الزرداشتية »[4] ، التي ظهرت كدعوة الى الخير والى العمل وتشجيع الزراعة[3] ،

---

(١) تتداخل هذه المعركة مع سابقتها «اجنادين» عند بعض المؤرخين في الاسم والتحديد الزمني . على أن السائد والمرجح معاً أن هناك فارقاً بين اجنادين التي وقعت في نهاية عهد أبي بكر والثانية التي وقعت في سنه ١٥ هـ ، في وقت سابق على معركة القادسية في العراق . ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٤١٧ وما بعدها

(٢) الدينوري ، الاخبار الطوال ص ١١٩، ابن عبد البّر ، الاستيعاب في معرفة الاصحاب ج ٢ ص ٦٠٧

(٣) البلاذري ، فتوح ص ٢٥٥ وما بعدها ، الدينوري ، أخبار ص ١٢٠ . اليعقوبي، تاريخ ج ١ ص ١٤٥

(٤) تطور للمزدائية التي تعتقد بوجود الهين : هورا مزد، (الخير) وأهريمن (الشر)، وهما يجسّدان =

اصبحت اكثر خصوصية ودائرتها اكثر ضيقاً ، مما أدى الى انحسار تأثيرها الاجتماعي وانعزال تعاليمها عن الفئات الفقيرة والمسحوقة . وفي ضوء هذا الواقع ، أخذ يسود المجتمع الفارسي تيّار مضاد لهذا النظام الاستغلالي ، تترجم في نهاية القرن الثالث الميلادي ، في تلك الموجة من اللامبالاة والسلبية ، التي عكست عملياً النقمة ضد التخمة والترف والفساد . فكانت حركة « ماني » ، بافكارها الصوفية ، المتأثرة الى حدٍّ كبير بالفكر الهندي ، النازع الى الزهد والتقشف[١] . ولكن « المانوية » ، ظلت مجرد احتجاج على واقع مرفوض ، ولم تطرح البدائل المقنعة والملحّة لمشاكل المجتمع الفارسي . ولعل طبيعة الحكم المطلق ، كانت وراء ذلك الاتجاه السلبي في هذه الحركة ، التي انتهت مع إعدام زعيمها (ماني) في عهد الملك بهرام الأول[٢] .

ولكن العنف لم يوقف التيّار الاصلاحي والدعوة الى التغيير في الامبراطورية الفارسية . فظهر اصلاحّي آخر في نهاية القرن الخامس الميلادي ، كان أكثر واقعية من سلفه ، مع جنوح الى التطرف في الدعوة الى شيوعية الأرض والأموال والمظاهر الدنيوية المختلفة[٣] . ولاقت هذه الحركة ـ التي عرفت بـ « المزدكية » ، نسبة الى زعيمها « مزدك » ـ دعماً وتأييداً من الملك قباذ الأول ، الذي لم يكن على انسجام مع « الارستقراطية » السياسية والدينية ، حيث وجد ضالته في هذه الحركة ذات التأثير الشعبي الواسع ، لتحجيم خصومه والحدّ من نفوذهم . ومن هذا المنطلق قُدِّر للمزدكية أن تصبح ظاهرة ذلك العصر ، معتمدة على قوتها الشعبية الطاغية ، حيث كان لأفكارها المتطورة ، الصدى العميق ، والتجاوب الواسع ، وبالتالي معتمدة على غطاء السلطة العليا ، التي وفّرت لها المناخ المناسب للانتشار السريع[٤] .

غير أن هذه الحركة الجريئة، فقدت بعض دعائمها بعد وفاة قباذ الأول (٥٣١ م)

= النور والظلام . وقد سادت الزرداشتية خاصة في العصر الأشكاني ، السابق لعصر الساسانيين ، آخر عصور الأمبراطورية الفارسية القديمة . احمد لواساني ، الاشكانيون ص ١٩٠ .

(١) حسين قاسم العزيز ، البابكية ص ١٠٩

(٢) اليعقوبي ، تاريخ ج ١ ص ١٥٩ ـ ١٦١

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦١

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٤

(٥) المكان نفسه

ومجيء شخصية مختلفة منهجاً وذهنية الى السلطة . ولم يكن الملك الجديد (خسرو الأول أو انوشروان كما سيعرف فيما بعد) ، معجباً بأفكار « مزدك » التي وجد فيها نزوعاً نحو التطرف ، على نحو يتعارض مع نظرية الحكم المطلق المتمسك بها . فتضافر مع « الارستقراطية » (المرازبة والموابذة) ، وقضى على « مزدك » وجماعته[١] ، ممهداً لذلك بحملة واسعة ضد فكرة « الاباحية » في حركة « مزدك » ، التي لم تجد حماسة في اوساط الفقراء والفلاحين ، وهم الأغلبية الساحقة في الحركة . ولكن الأباحية ، ربما كانت احدى التهم التي رافقت الحملة التعبوية ضد مزدك وجماعته ، وهي تهمة لا تتغير ، حيث يُرمى بها دائماً من يتعرض لنظام الملكية الفردية ، حسب رأي مؤرخ معاصر[٢] ، كما شكك بها آخرون ، لا سيما برنارد لويس[٣] . ولكن افكار « مزدك » على الرغم من نهايته المأساوية ، عاشت طويلاً في وجدان الفرس ، دون أن تغيبها أو تحدّ من تأثيرها ، محاولة استقواء الحكم المطلق وادواته « الارستقراطية » ، مما جعل العودة الى الماضي ، وبالتحديد الى ما قبل المزدكية ، امراً بالغ الصعوبة إن لم يكن بالغ الاستحالة ، خاصة وأن هذه الموجة السلطوية المضادة ، تزامنت مع تحرك العرب وارتفاع دعوة الاسلام على ابواب الامبراطورية الهرمة ، التي باتت وشيكة السقوط .

وتأخذ الأزمات الداخلية في التفاقم ، وتعقبها الهزيمة القاسية على يد البيزنطيين ودخول امبراطورهم ظافراً الى العاصمة الفارسية . ولعل ذلك كان وراء الارتباك الذي سيطر على الموقف الفارسي ، إزاء الوجود العسكري الاسلامي في العراق ، بحيث كان التردد واضحاً في التصدي لهذا الخطر ، الذي أخذ في الاقتراب ، في الوقت الذي أضاع الفرس كلياً الفرصة النادرة لإيقافه ، خلال اعوام ثلاثة كانت كافية لذلك ، عندما كان المسلمون منصرفين بصورة شبه كلية الى المحور الشامي .

هكذا بدت امبراطورية الفرس ، قبيل توافد القوات العربية الاسلامية الى العراق، ومعها الانتصارات الباهرة في الشام ورصيد المعنويات المرتفعة ، وغير ذلك من العوامل المساعدة . وفي « القادسية » ، التي عُرفت بأنها « باب فارس »[٤] ، حيث

(١) اليعقوبي ، تاريخ ج ١ ص ١٦٤

(٢) حسين قاسم العزيز ، البابكية ص ١٢٣

(٣) اصول الاسماعلية ص ١٩٩

(٤) بخيت ، عصر الراشدين ص ١٠١

اتخذ سعد بن أبي وقّاص مركز قيادته ، سجّل التاريخ نصراً جديداً ورائعاً لقوات المسلمين ، المنسجمة والمتلاحمة ، التي تراوحت ما بين التسعة والعشرة آلاف من الجنود حسب البلاذري[1] ، كما سجّل بداية الانهيار لأمبراطورية الفرس ، التي فقدت قائدها الشهير (رستم) ، والجزء الاعظم من قواتها في هذه المعركة الخالدة[2] . وبعد انتصارها ، اندفعت قوات المسلمين باتجاه الشرق ، مستهدفة « المدائن » ،حيث كان الملك الفارسي (يزدجرد الثالث) ، منهمكاً في إعادة تنظيم جيشه الممزّق . ولكنه أدرك عدم جدوى المقاومة ، فتراجع الى الوراء دون أن يفقد الأمل الأخير في انقاذ امبراطوريته المنهارة[3] . وفي المقابل كانت القيادة الاسلامية تعمل على الافادة من الوقت بعد أن حاذت شواطىء الخليج ، وذلك باقامة معسكرات دائمة للتموين وتسهيل التحرك العسكري وحماية الخطوط الخلفية ، مما أدى الى ظهور معسكرّي الكوفة والبصرة تحقيقاً لهذا الهدف : الأول في منطقة الحيرة والثاني على مقربة من شطّ العرب[4] .

ولم يعد ثمة مجال لانقاذ النظام الفارسي الذي مادت تحته الأرض وهو يبحث عن وسائل المجابهة وايقاف المدّ ، الذي بات من الواضح أنه لا يستهدف العراق فقط ، وانما الأمبراطورية بكافة اجزائها المترامية . وكان ذلك نذيراً للمتمسكين بأمجاد الكسروية أن يتحسسوا فداحة الواقع المظلم ، وعبث التصدّي لحركة التاريخ . ولكن دعوة الملك الى تجديد التعبئة ، لم تعدم استجابة ما ، حيث تدفقت اعداد كبيرة نحو الغرب ، ومعها شبح الحرب الدامية ، واضعة القيادة السياسية في « المدينة » ، أمام موقف آخر خطير ، كان عليها مجابهته بوسائل اكثر جدّية وفاعلية .

ويبدو أن أكثر ما شغل الخلافة حينذاك ، هو قائد المهمة الجديدة ، بعد عزل سعد بن أبي وقاص من منصبه ،ربما للأسباب ذاتها التي اسلفنا شرحها، أو لأسباب

---

(١) فتوح البلدان ص ٢٥٦

(٢) ثمة خلاف حول السنة التي جرت فيها . فالطبري يضعها بين احداث العام ١٤ هـ، ولكنه يشير الى امدادات بعث بها ابو عبيدة بن الجرّاح الى سعد من اليرموك ، التي يفترض أنها وقعت بعد ذلك ج ٤ ص ١٣٧ . اما البلاذري فيقول أن «يوم القادسية في آخر سنة ست عشرة» فتوح ص ٢٥٦ وقد أوردها اليعقوبي أيضاً في احداث السنة نفسها ، تاريخ ج ٢ ص ١٤٥

(٣) الطبري ج ٤ ص ١٩٤ - ١٩٥

(٤) الاخبار الطوال ص ١١٦ - ١٢٧ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٥٢٧ وما بعدها .

أخرى تخضع للعلاقة بين القائد والخليفة . وهذا ما تعرضت له احدى الروايات التاريخية ، من أن الأول أثار غضب الثاني ، بتجاوزه الحدود في استخدام مركزه في العراق[1] . بيد أن للخليفة مسوّغات اكثر بعداً ، ربما تفاعلت مع أجواء القلق التي انتشرت في « المدينة » ، بعيد تناقل انباء الحشود الفارسية الجديدة . فقد توجس خطورة الموقف ، الى حدٍّ عزم معه على أن يشغل بنفسه هذه المهمة ، كما تشير المرويات ، قبل الاستجابة للاتجاه الذي نصح باختيار قائد من الجبهة نفسها[2] ، وهو النعمان بن مقرن المزني ، أحد القادة البارزين في العراق ، وأحد المشاركين في القادسية[3] وفي فتح جنديسابور والسوس[4] . ولعل هذا التدبير - أي عزل سعد -[5] يأتي ليؤكد مرة اخرى موقف الخليفة عمر من القيادات العسكرية ، الاكثر تهديداً لنفوذ القيادة السياسية ، انطلاقاً من فرص التألق والشهرة التي تجتنيها بفضل طبيعة الدور المناط بها ، مما كان يدفعه الى معالجة هذا الأمر بالتغيير ، والحؤول دون تحقيق انتصارات متكررة للقائد الواحد . وهو تقليد طالما اتبعته بعض الدول الحديثة ، التي تلجأ عادةً الى تحديد فترة زمنية محددة للقائد العسكري ، خوفاً من استثمار انتصاراته في التأثير على السلطة السياسية .

وكانت أولى مؤشرات الصدام الدموي في ظلّ القيادة الجديده ، إيفاد مجموعة من الجنود في عملية استطلاعية ، لمراقبة قوات الفرس ورصد تحركاتها ، وذلك بالقرب من معسكرها الذي اتخذته أمام « نهاوند »[6] . وكان قائدها (الفيرزان)[6] ،

(١) ينسب الى سعد زواجه من إمرأة المثنى بعيد وصوله الى العراق ، والى حدوث نفور بينهما في وقت لاحق . الدينوري ، الأخبار الطوال ص ١٢٤/١١٩ ، البلاذري ، فتوح ص ٢٥٦ . ابن سعد الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٢٨٧ .

(٢) الدينوري ، الاخبار الطوال ص ١٣٥

(٣) ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٤٥٦

(٤) المصدر نفسه ج ٣ ص ٩

(٥) يعتقد المؤرخ المعاصر محمد عبد الحي شعبان أن سعداً لم يتمتع بتفوق عسكري خاص ، وقد عُين في مصبه بسبب علاقاته الواسعة في شبه الجزيرة الوسطى . صدر الاسلام والدولة الأموية ص ٤١ . ولكن هذا التصوّر يتنافى مع رأي لعمر بن الخطاب في قائده ، عندما سئل عن رأيه فيه كخليفة من بعده : «انه لصاحب مقتل يقاتل عليه فأما وليّ أمر فلا» . الماوردي ، قوانين الوزارة وسياسة الملك ص ١٤

(٦) مدينة كبيرة تقع الى الجنوب من همذان ، ياقوت ، معجم ج ٥ ص ٣١٣

على ما يبدو شديد الانفعال ، وتوّاقاً الى الانتقام من المسلمين ، تدّل على ذلك طريقته الجافة في مخاطبة النعمان[1] . ولم يكن الاخير أقل اندفاعاً من عدوه الى الحرب ، حيث شهدت « نهاوند » ، معركة ضارية ، خاضها المسلمون بجرأة وبسالة ، وراء قائدهم النعمان ، الذي دفعته شجاعته الى اختراق صفوف اعدائه بفروسية ورباطة جأش ، قبل أن يسقط بجواده صريعاً في قلب المعركة[2] . فتسلّم راية القيادة ، معاونه حذيفة بن النعمان (قائد الميمنة التي كان قوامها من أهل الكوفة)[3] ، دون ان يُحدث مقتل القائد أي ارتباك في صفوف العرب المسلمين . وكانت المعركة حينذاك في طريقها الى الحسم ، الذي تتوّج بانتزاع النصر في اليوم نفسه ، وتدمير القوة الفارسية بصورة كاملة[4] .

وبعد « نهاوند » ، لم يعد ثمة شك في انهيار امبراطورية الفرس ، خاصةً بعد هرب « يزدجرد » الثالث متخفياً ، ورضوخ « الارستقراطية » الحاكمة للأمر الواقع وطويها لفكرة الحرب ومقاومة الزحف الاسلامي . أما قوات الخلافة المظفرة ، فقد اعقبت انتصارها الكبير ، بزحوف منظمة في عمق الامبراطورية المتهاوية ، حيث سقطت الأقاليم والمدن الهامة ، التي اصبحت جزءاً من الدولة الاسلامية ، مثل اصبهان وهمذان والريّ وخراسان وغيرها[5] . اما « يزدجرد » ، آخر الأكاسرة ، فقد ظلّ سنوات طويلة يعيش في الظلام على حدود مملكته الضائعة ، وقد أخذته لحين « المكابرة » ساعياً الى ملك الترك المعروف بـ « الخاقان » ، من أجل مدّه بالمساعدة لمقاومة العرب المسلمين . ولكن هذا الأخير ، لم يمضِ طويلاً في تحالفه مع الملك الفارسي ، الذي انتهى به الأمر الى التخلي عن احلامه الكسروية واللجوء الى

(١) الطبري ، ج ٤ ص ٢٣٥ . ابن الأثير ج ٣ ص ١٣ . يذكر الدينوري أن اسمه: «مروان شاه بن هرُمزد». الاخبار الطوال ص ١٩٥

(٢) محمد فرج ؛ الفتح العربي للعراق وفارس ص ٢٣٥

(٣) الدينوري ، الأخبار الطوال ص ١٣٦

(٤) الطبري ج ٤ ص ٢٣٤ ، الأخبار الطوال ص ١٣٤

(٥) وقعت هذه المعركة في سنة تسع عشرة للهجرة ، حسب البلاذري ، فتوح ص ٣٠٢ أو سنة احدى وعشرين حسب الطبري ج ٤ ص ٢٣١

(٦) البلاذري ، فتوح ص ٣٠٤، ٣٢١، ٣٣٠، ٣٧٨، ٣٨٥، ٣٩٤

سمرقند ، ليواجه مؤامرة على يد حلفائه من « الارستقراطية » الفارسية التي تخلت عنه ، حين اقدم على اغتياله أحد « المرازبة »[1] في وقت لاحق .

محور الشام

يكاد يتفق الباحثون في تاريخ الفتوحات العربية الاسلامية ، على أن بلاد الشام ، كانت في مقدمة اهتمامات الخلافة ، الهادفة الى التوسع عبر المناطق المألوفة لديها بوجه خاص . وكانت الشام أكثرها التصاقاً بذاكرة العربي التاجر ، حيث سعى اليها في « رحلة الصيف الشهيرة »[2] ، أو سمع الكثير عنها من رجال القوافل ورواة الأخبار وحملة النوادر . وتعود بواكير السياسة التوسعية في هذه المنطقة الى السنة الهجرية الثامنة ، عندما خرجت أول حملة وراء الحدود ، معبّرة عن هذا الاتجاه في الدولة الصاعدة ، تلك المبادرة التي ربما بدأت قبل ذلك ، مع غزوة « دومة الجندل »[3] التي وصفها « ابن سعد » ، بأنها « طرف من افواه الشام »[4] . وعلى الرغم مما قيل عن حملة مؤته ، التي تصدرها بعض مشاهير المسلمين[5] قد حرّكتها دوافع انتقامية ضد عرب الشام ، المتحالفين مع الدولة البيزنطية[6] ، فإن لها ابعاداً اخرى أكثر جدّية ، تصب في الاتجاه التوسعي ، الذي كان النبي يضع لبنته الأولى في ذلك الوقت المبكر ، حيث تعارض ومصالح تلك القوى القبلية ، استناداً الى دوافع هذه الغزوة « إن بدومة الجندل جمعاً كثيراً يظلمون من مرّ بهم ، وانهم يريدون أن يدنوا من المدينة » حسب الرواية التاريخية[7] .

---

(١) ماهويه ، مرزبان خراسان . البلاذري ، فتوح ص ٣١٢

(٢) راجع كتابنا ، الحجاز والدولة الاسلامية (التكوين الأقتصادي) ص ٥٤ ـ ٨٢

(٣) حدثت «في شهر ربيع الأول على رأس تسعة واربعين شهراً من مُهَاجرة». ابن سعد ، غزوات الرسول وسراياه ص ٦٢

(٤) المكان نفسه . راجع أيضاً : ابن سيد الناس ، عيون الأثر ، ج ٢ ص ٥٤

(٥) كانت هذه الحملة بقيادة زيد بن حارثةومعه عدد آخر من امثال : جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحه وخالد بن الوليد . ابن سيد الناس ، عيون الأثر ص ١٥٣

(٦) تقول المصادر إنّ النبيّ اراد الثأر لموفده الحارث بن عمير الأزدي الذي قتل على يد امير مؤته شر حبيل بن عمر الغساني . راجع الواقدي ، كتاب المغازي ج ٢ ص ٧٥٥

(٧) ابن سيد الناس ، عيون الأثر ج٢ـص ٥٤

ومن المفترض أن الدولة الاسلامية ، التي كانت حينذاك تعيش ما قبل الحسم النهائي في الصراع ضد الوثنية المتراجعة في مكة ، لم تكن على قدر من القوة العسكرية ، التي تؤهلها لفتح جبهة جديدة ، خارج دائرة الأهداف المباشرة لها . ولكن النظرة البعيدة لتجربة « مؤتة »(١) ، التي انتهت بهزيمة المسلمين عند قرية تحمل نفس الاسم في البلقاء(٢) ، انها كانت في جوهرها ، مبادرة تستهدف إبراز الحضور المعنوي للقوة الاسلامية الجديدة . وكان النبي مطمئناً ، الى ان هذه العملية لن يكون لها مردود عكسي على أوضاعه في شبه الجزيرة ، بعد أن اصبحت شبه محسومة لمصلحته . ذلك أن البيزنطيين على الرغم من قوتهم العسكرية الضاربة ، كانوا غير متحمسين ، إن لم نقل غير مؤهلين للقيام بمغامرة تتعدى حدود الشام ، انطلاقاً من التجارب الماضية غيرالمشجعة .فهم على اهتمامهم بشؤون المنطقة الحجازية ، الا ان ذلك لم يصل الى مستوى التدخل المباشر(٣) ، فضلاً عن أن الحملة الحبشية التي استخدمت كأداة لسياسة البيزنطيين في شبه الجزيرة ، في محاولة لربطها مباشرة باسواق الشام الخاضعة لهؤلاء ، لم تستطع متابعة هذا الدور ، بعد الخسائر الجسيمة التي لحقت بمحاولتها الفاشلة(٤) . بالاضافة الى ذلك ، فإن النبي ، كان حريصاً على تحقيق علاقة ودية مع الحبشة ، كانت من نتائجها السريعة والايجابية ، هجرة المسلمين الأوائل اليها ، هرباً من الأضطهاد القرشي في مكة(٥) .

وجاءت الحملة الثانية التي قادها النبي بنفسه ، في العام التاسع الهجري ، وهي المعروفة بـ« غزوة تبوك »(٦) ، التي انتهت الى غير ما انتهت اليه الحملة السابقة ، حيث كانت أكثر استيعاباً لدوافع التحرك في هذا الاتجاه ، التي كانت سياسية في المقام

(١) ابن سعد ، غزوات الرسول ص ٦٢

(٢) «من قرى البلقاء في حدود الشام» معجم البلدان ج ٥ ص ٢٢٠

(٣) كانت للبيزنطيين محاولة مع عثمان بن الحويرث الأسدي ، من زعماء مكة ، لتنصيبه ملكاً على الأخيرة والسيطره على تجارتها من خلاله . ابو الطيب الفاسي ،شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ص ١٠٨ - ١٠٩

راجع ايضاً : Lammens, L'Arabie occidentale p 38 — 39

(٤) ابن اسحاق ، السير والمغازي ص ٦٢

(٥) ابن الأثير، الكامل ج ٢ ص ٨٠

(٦) تبعد عن المدينة اثنتا عشر مرحلة على طريق الشام . معجم البلدان ج ٢ ص ١٥

الأول . ومن هذا المنظور ستقتصر أهداف الحملة على عمليات محدودة وحذرة وعلى معاهدات جوار بين المسلمين والقبائل العربية المتاخمة ، لا سيما المقيمة في جرباء وأذرح وأيلة وتبوك ودومة الجندل[1] . وإذا كان هدف الحملة الأولى ، خروج الدولة الناشئة من عزلتها ، وتحقيق الاتصال التمهيدي مع عرب الشام ، وصولاً الى فرض وجود معنوي الى جوار الدولة الكبرى في المنطقة ، وهي الدولة البيزنطية ، فإن هدف الثانية كان بدون ريب ، التمهيد لطموح اكبر ، تجسّد في توسيع نطاق الدعوة ، ورسم الاطار العام للحركة التي عُرفت بالفتوح .

ولعل هذه الرؤ ية ، كانت حاضرة في ذهن الخليفة ابي بكر ، الحريص بكل طاقته على انتهاج السياسة نفسها التي ظهرت ملامحها الاولى في عهد النبي[2] . واذا كان تنفيذها على الأرض . قد تمّ أولاً في العراق لأسباب ربما كانت جغرافية أو قبلية ، فإن المحور الشامي ، استقطب الجانب الأكبر من اهتمام الخلافة ، على الرغم من استمرار التنسيق بين المحورين . ولقد أشرنا سابقاً الى اوامر الاخيرة الى خالد بن الوليد ، للالتحاق بالشام ، في اعقاب تعيينه قائد عاماً للقوات الاسلامية ، التي تحركت الى هذه المنطقة ، مثبتاً أنه رجل المهمات الصعبة ، منذ حروب شبه الجزيرة ، التي أبرزته مقاتلاً من طراز نادر .

وكانت خطة التحرك نحو الشام ، قد تمّ تنفيذها في غياب خالد عن « المدينة » ، أي في حوالى السنة الثالثة عشر للهجرة . وهي تقضي بتشكيل عدة « ألوية » من المقاتلين ، تتولى مهمات محدّدة ، قبل أن تلتئم أخيراً تحت قيادة واحدة . اما « اللواء » الأول ، فكان بقيادة خالد بن سعيد بن العاص ، وهدفه المرحلي المرابطة في « تيماء »[3] ، دون أن يشتبك في أي قتال قبل إخطار الخلافة بذلك . واللواء الثاني ، بقيادة عمرو بن العاص ، الذي تحرك بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر الأحمر ،

---

(١) الطبري ج ٣ ص ١٤٦

(٢) اصرار أبي بكر على انفاذ بعث اسامة بن زيد ، الذي أمر به النبيّ قبل وفاته. ابن سعد ، غزوات الرسول ص ١٩١

(٣) الى الجنوب الشرقي من تبوك في جنوب الشام ، وعلى سبع ليال من المدينة . الحميري ، الروض المعطار ص ١٤٦

على أن يكون محوره المفترض في فلسطين . . والثالث والرابع ، بقيادة شرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان ، حيث سار كلاهما معاً عبر البلقاء الى الأردن ، على أن يتخذ الأول معسكره الى الشرق من النهر ، بينما يتابع الثاني مسيرته نحو دمشق . وفي اعقاب هؤلاء ، سار أبو عبيدة بن الجرّاح ، على رأس متطوعين جدد وفدوا على « المدينة » ، دون ان تكون مهمته عسكرية على الأرجح ، بقدر ما كان شاغلاً دور « الارتباط » بين قيادة الشام وبين الخلافة[1] .

وكان على هذه الألوية أن تتحدى كثيراً من العوائق ، وفي مقدمتها الاصطدام بمقاومة ، القبائل العربية الحليفة للدولة البيزنطية . ولكن قادتها نجحوا في اختراق العائق الأول والانتهاء الى جنوب الشام ، باستثناء خالد بن سعيد الأموي ، الذي لم تشر المرويات الى ما يوحي باشتراكه في حروب الشام ، وقيل إن ثمة اسباباً كانت وراء استبعاده ، وهي شخصية في رواية « أبي مخنف » حيث وصفه ابو بكر ، بأنه « يحمل امره على المغالبة والتعصب »[2] ، وسياسية في رواية « ابن اسحاق » ، بأنه « تربّص بيعته شهرين »[3] للخليفة . ولعل الأخير قد رابه الأمر في انضباطه ، فأعاد النظر في المهمة الموكولة اليه ، واستدعاه الى « المدينة » .

وما لبث خالد بن الوليد أن وصل الى الشام ، منجزاً عملية عبور غير عادية للصحراء عن طريق تدمر وفرقيسيا[4] ، قبل أن ينتهي الى بصرى ، باكورة المواقع الشامية الهامة التي فُتحت على يده[5] . وفي تلك الأثناء ، كان الامبراطور البيزنطي (هرقل) ، يتابع الموقف العسكري عن كثب ، متخذاً من حمص[6] مقرّاً له قبل الانتقال الى انطاكية[7] ، نتيجة الضغط العربي الاسلامي باتجاه الشمال . ويبدو أنه تجاهل أول الأمر ، أهمية الحشود القادمة من الحجاز ، يؤكد ذلك غياب المقاومة

---

(١) البلاذري ، فتوح ص ١١٥ ـ ١١٦ . بيضون ـ زكار، تاريخ العرب السياسي ص ٦٤
(٢) البلاذري ، فتوح ص ١١٦
(٣) الطبري ج ٤ ص ٢٨ ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٤٠٢
(٤) فتوح البلدان ص ١١٨
(٥) ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٤٠٩
(٦) فتوح البلدان ص ١٢٠
(٧) المصدر نفسه ص ١٢١ ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٤١٤ .

الجدية لدى الجانب البيزنطي في هذه المنطقة ، أو أنه لم يعط هذا الأمر ، ما يستحقه من الاهتمام ، وهو المنتشي حينذاك بخمرة انتصاره الكبير على الفرس واستعادة الصليب المقدس(١) . على أن هرقل حين ادرك خطورة الموقف وابعاده ، سارع الى حشد قواته الضخمة ، بقيادة تيودوروس (Theodoros) في معسكر « اجنادين »(٢) ، الذي كان على الارجح ، أحد الحصون البيزنطية في ذلك الوقت . وليست هنالك تقديرات حول كثافة هذه القوة ، التي كانت خليطاً من البيزنطيين وحلفائهم ، لا سيما القبائل الشامية . ولكن يبدو أن العدد التقريبي ، لا يتجاوز الأربعين أو الخمسين ألفاً(٣) ، أي ما يعادل ضعف القوة الاسلامية ، التي لم تزد في أحسن الحالات عن خمسة وعشرين الفاً(٤) . بيد أن هذه الأخيرة ، كانت لديها الكفاءة التنظيمية والقيادية العالية ، التي تجلّت في توزيع خالد لها ، وفقاً للتقليد الحربي القديم ، ولكن مع تعديل أكثر مرونة ، مما يجعل تحرك الجنود في المعركة ، يتمّ بالسرعة المطلوبة ، وذلك في اعقاب اجتماع القادة الكبار في « بصرى » ، الذي نوقشت فيه ترتيبات المعركة المنتظرة(٥) .

وما لبث الطرفان ، ان اشتبكا في ملحمة عظيمة(٦) ، تجلّت فيها الشخصية القتالية المتطورة للعرب المسلمين ، على الرغم من الاختلال الواضح بينهما ، حيث كان البيزنطيون اكثر كثافة وتفوقاً في التسلّح ، وكذلك عراقة في الحرب ، بينما كانت القوات الاسلامية ، محدودة الامكانات والخبرة ، فضلاً عن العدد . على أن هذه المجابهة ، كانت تجربة غير عادية للمقاتل العربي المسلم المتحرر من رواسبه وعقده ، والمتحفّز للعطاء بسخاء ومن دون تهيب أو تردّد . فكان من الطبيعي

---

(١) دامت الحرب بين هرقل والفرس من سنة ٦١٠ حتى سنة ٦٣٠ م ، عندما تسلم عود الصليب في منبج في شمالي الشام وانتقل به الى بيت المقدس ، أي قبل وقت قصير جداً من تحرك ألوية المسلمين نحو الشام . راجع : اسد رستم ، الروم ج ١ ص ٢٢٠ ـ ٢٢٨

(٢) من أعمال فلسطين . معجم البلدان ج ١ ص ١٠٣

(٣) وردت مائة ألف لدى البلاذري ، فتوح ص ١٢٠

(٤) ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٤١٠

(٥) البلاذري ، فتوح ص ١٢٠

(٦) وقعت في جمادي الأول من سنة ١٣ هـ . المصدر نفسه ص ١٢١

أن تـأتي النتيجة مـذهلة للأمبـراطور البيـزنـطي ، وهـو يتلقى انبـاء تحـطيم قـواتـه في « اجنادين »، بعد أن كان مطمئناً الى قدرتها على دفع العـرب المسلمين ،خلف حدودهـم في شبـه الجزيـرة ، من دون كثير عنـاء . ولكن هـذا الانتصـار عـلى أهميتـه ، لم يحسم الـوضع العسكـري في بلاد الشـام ، حيث النفـوذ البيـزنـطي لا زال قـويـاً في الـوسط والشمال منها ، باستثناء فلسطين التي كان سقوطها نهائياً ، مما جعلها المدخل الذي غيّر مجـرى الأحداث في هـذه المنطقـة ، بعد أن أخـذت تنـطلق منهـا القـوات الاسـلاميـة نحو الأردن[1] ودمشق[2] ، محاولة الاستفادة من انتصارها الكبير .

بيد أن ما حملته انباء « المدينة » عن وفاة الخليفة أبي بكر ،بعد اسـابيع قليلة من المعركة ، ساهم ، ليس فقط في تجميد المـوقف الحربي عـلى الجبهة الشـامية ، ولكن في تـراجـع العـرب المسلمـين وخسـارتهم بعض الحـاميـات والمـواقـع الهـامـة . ذلـك أن « المدينة » ، التي حسمت مسألة الخليفة الجديد بالسرعة القصـوى ، أجرت في الـوقت نفسه ، تغييرات في القيادات العسكرية على مختلف المحاور ، كان من بينها عزل خـالد عن جبهة الشام وتعيين أبي عبيدة مكانه ، وهو أحد المقرّبين من الخليفة الجديد والركن الثالث في التكتّل الذي آلت اليه الخلافة في « السقيفة » . وكان لـذلك بـدون ريب ، تأثيره غير الايجابي على تطورات الحرب في الشام ، مؤدياً الى ذلك الـركود فضـلاً عن التراجع المحدود الذي أشرنا اليه . على أن الوضع لم يصل الى مرحلة الارتباك ، حيث ظلّ خالد ، من الناحية العملية ، شاغلاً معظم صلاحيـات القائـد العام ، في الـوقت الذي حرص فيه ابو عبيدة على الافادة ما أمكن من كفاءة وخبرة القـائد المعـزول[3] . وكـان لهذا المـوقف الايجابي ، تـأثير كبـير على مسـار الحرب الشـاميـة ، حيث استعـاد المسلمـون زمام المبـادرة ، واستأنفـوا تقـدمهم المبـرمـج ، فـزحف خـالـد نحـو دمشق وحـاصرهـا بالتنسيق مـع أبي عبيدة ، بينـما اتجه الأخـير نحو حمص[4] ، حيث تـراجع

---

(١) مهدت للسيطرة عليه موقعة «فحل» بعد خمسة شهـور على ولايـة عمر بن الخـطاب . فتوح البلدان ص ١٢٢

(٢) تمت السيطرة علمها بعد معركة مـرج الصفـر (محرّم ١١٤ هـ). المصـدر نفسه ص ١٢٥ راجع الأزدي ، فتوح الشام ص ٩٦ ـ ٩٧ . . .

(٣) البلاذري ، فتوح ص ١٢٢

(٤) الأزدّي، فتوح الشام ص ١٠٤، ١٤٥ ـ ١٤٦ .

الامبراطور عنها كما يبدو الى انطاكية[1] .

غير أن هرقل ، العسكري المحترف ، لم يدع الهزائم تدفعه الى القنوط والتراجع ، ولكنه شغل وقته بعد « اجنادين » ، في إعادة تشكيل قواتها وتكثيفها ، على نحو يضمن معه تعديل المؤقف لمصلحة قواته في الشام[2] . ولذلك فهو يحيط الحملة الجديدة التي اعدّها ، بهالة من الضخامة والدعاية ، فضلاً عن تعيين قائد أرمني الأصل عليها (باهان) ، وُصف بأنه « من عظمائهم وأشرافهم »[3] ، وذلك في محاولة لتعبئة شعوب المنطقة وقبائلها ، لا سيما التي تشترك في العقيدة نفسها التي يدين بها البيزنطيون ، مما جعل لهذه الحملة طابعاً صليبياً ، يشبه الطابع الذي غلب عليها في الحرب المقدسة السابقة مع الفرس . ومرة اخرى نصطدم بالأرقام التي توردها الروايات التاريخية ، من أن الجيش البيزنطي بلغ نحو مائتي الف مقاتل ، حسب اليعقوبي[4] ، تمّ حشدهم في وجه قوات المسلمين ، التي يبدو أن وضعها لم يتحسن الا قليلاً عن « اجنادين » . وعلى الرغم من قدرة البيزنطيين على التعبئة والاستقطاب ، بما يفوق كثيراً القدرات الاسلامية ، الّا أن هذا الرقم مبالغ فيه الى حدّ كبير ، في ضوء ما نعتقده من استحالة التحرك بهذا العدد الهائل ، ضمن الوسائل المحدودة المتوفرة في ذلك الوقت . ومن ناحية أخرى ، فإن مسألة الاحصاءات في التاريخ ، لا تبعث على الثقة في الغالب ، كونها تخضع عادة لتقدير سريع وغير دقيق ، دون ان نستثني من ذلك الاحصاءات الحديثة ، التي تأخذ ارقامها أحجاماً ، لا تتلاقى والواقع في معظم الأحيان .

وكان لا بدّ أن يؤدي هذا الاختلاف الظاهر في حجم القوتين البيزنطية والاسلامية الى اضطراب في الموازين والمعادلات ، حيث الأخيرة فاجأتها الجحافل المتدفقة نحو الجنوب ، مما دفع قيادتها الى اتخاذ قرار بالانسحاب ، والتخلي عن دمشق وبعض المواقع الأخرى . وعلى مقربة من « اليرموك » ، أحد روافد من الأردن ،

---

(١) الازدي ، فتوح ص ١٤٩ .
(٢) اسد رستم ، الروم ج ١ ، ص ٢٤٥ .
(٣) الأزدي ، فتوح ص ١٥٢
(٤) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ١٤١

توقف الانسحاب بانتظار قرار نهائي ، في ضوء المعطيات المستجدة . فاحتدم حينذاك الجدل في المعسكر ، ما بين اتجاه تراجعي ، نصح بالانكفاء الى الحجاز ، حيث احتمالات النجاح معدومة برأيه ، وما بين اتجاه آخر مؤيد للحرب قاده خالد بن الوليد ، ما لبث أن رجّح القرار الأخير الذي التزم به الجميع ، دون الاهتمام بالتفاوت الكبير في موازين القوى بين الطرفين[1] .

وفي السهل المجاور لليرموك ، اتخذ المسلمون معسكراً لهم بعد مسح دقيق لجغرافية المنطقة ، الواقعة في دائرة المناخ شبه الصحراوي . . وفي الوقت الذي اقتربت فيه « القوات البيزنطية » بحجافلها الثقيلة ، تدخلت الطبيعة ايضاً برياحها الساخنة[2] ، ولكن لغير مصلحة هؤلاء ، الذين وصلوا في يوم لاهب من شهر آب ، منهوكي القوى بعد مطاردة طويلة ، وفاتري العزائم ، تحت تأثير ظروف جغرافية ، لم يألفوها تماماً في تجاربهم السابقة . بالاضافة الى ذلك ، فإن ثمة مؤشراً سلبياً ، تعلق بتركيبة القوات البيزنطية ، التي كانت خليطاً غير متجانس[3] ، مما أسفر عنه غياب التعاون وفقدان الانسجام ، وأدى الى ان يتحرك الجنود ، ببطء وتثاقل وقد فتكت بهم حرارة الشمس القوية . اما المؤشر الاخير ، فهو ان العرب المسلمين ، على رغم التفاوت العددي بينهم وبين اعدائهم ، خاضوا حرباً جريئة وبطولية ، حيث خيارهم الوحيد في تلك المجابهة القاسية وغير المتكافئة .

ولعل المسلمين عاشوا حينذاك لحظات الفداء ، ووضعوا سلفاً حساب التضحية ، قبل أي حساب آخر . فقد كانت تلك الروح المتوثبة العالية ، في مقدمة الاسباب التي حققت النصر الكبير للعرب المسلمين في اليرموك[4]، اعظم معارك التاريخ العسكري ، انطلاقاً مما حققته من تغيير جذري في الشام والمناطق المتاخمة لها ، التي خضعت في وقت لاحق للمسلمين . ويعطي المستشرق المعروف لامنس (Lammens) ، في تقويمه لاسباب هزيمة البيزنطيين ، الأولوية للتناقضات التي سادت العناصر المقاتلة ، خاصة مع حلفائهم الأرمن ومن ثم الغساسنة[5] ، الذين يبدو أنهم

(١) البلاذري ، فتوح ص ١٤٣

(٢) الأزدي ، فتوح الشام ص ١٠٤

(٣) البلاذري ، فتوح ص ١٤١

(٤) حدثت هذه المعركة في رجب من العام ١٥ هـ . البلاذري ، فتوح ص ١٤٢، اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ١٤١

(٥) LAMMENS, La Syrie, précis historique p 56

عدّلوا موقفهم في آخر ساعات المعركة[1] .

ولم يعد ثمة ما يعيق العرب المسلمين ، من التقدم السريع نحو الشمال ، في الوقت الذي انفتحت فيه أمامهم ، أبواب المدن الكبرى ، بعيد تدمير القوة البيزنطية وما أعقب ذلك من قرار هرقل بالانسحاب من انطاكية والتراجع الأخير الى القسطنطينية ، ومعه ذكريات هزيمته الحزينة والأولى في حياته العسكرية[2] . اما المسلمون فقد انتشروا في كافة الأراضي الشامية حتى جبال طوروس ، بعد استسلام كافة المدن والحاميات ، باستثناء بيت المقدس (ايلياء)[3] ، التي اشترطت تسليم نفسها مباشرة للخليفة[4] . ولم يشأ الأخير التردد إزاء هذا الأمر ، حيث قدم الى الشام في اول مهمة له خارج الحجاز ، تاركاً لعليّ بن أبي طالب مسؤولية القيام بشؤون الخلافة اثناء غيابه[5] . فتسلّم مفاتيح المدينة من البطريرك « صفرنيوس »[6] ، وعقد معه اتفاق الصلح الشهير ، الذي نصّ على حماية ارواح وكنائس وممتلكات سكانها النصارى[7] .

ولم يكن مجيء عمر بن الخطاب الى الشام ، من أجل هذه المهمة فقط ، لأن مهمات أشدّ خطورة كانت في انتظاره للبتّ بشأنها واتخاذ قرار سريع بها . ذلك ان العرب المسلمين ، بعد انتصاراتهم الباهرة في الشام والعراق ، وجدوا انفسهم في مأزق الاختيار ، بين التوقف عند هذا الحدّ من المنجزات ، والاهتمام بشؤون البلاد التي خضعت لهم ، وبين المضيّ في الاتجاه التوسعي الى مناطق جديدة ، حيث كان يصعب

---

(١) البلاذري ، فتوح ص ١٤١

(٢) نُسب اليه القول في هذا الموقف: «عليك يا سوريا السلام ، ونعم البلد هذا للعدو» . البلاذري ، فتوح ص ١٤٢ . راجع ايضاً الطبري ج ٤ ص ١٥٥ وكذلك A. GHEIRA, La Lutte en Arabes et Byzantins p 45.

(٣) البلاذري ، فتوح ص ١٤٤

(٤) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ١٤٧

(٥) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ص ١٩٦ ، ابن الاثير ، الكامل ج ٢ ص ٥٠٠ . ذكر اليعقوبي أنه استخلف عثمان ، تاريخ ج ٢ ص ١٤٧

(٦) اسد رستم ، الروم ج ١ ص ٢٤٧

(٧) الطبري ج ٤ ص ١٥٣

على القيادة العسكرية في الشام ، اتخاذ قرار ما في هذا السبيل . من هنا تكتسب رحلة الخليفة الى الشام أهميتها البارزة ، على صعيد حركة الفتوح ، التي نوقشت ابعادها وتطوراتها في اجتماع عسكري لكبار القادة في « الجابية » ، تمّ خلاله تعيين « الأمراء في الولايات والاجناد »(١) ، والانتهاء الى قرار باستئناف الفتوح ، حفاظاً على الانتصارات الكبيرة من جهة ، ومحاولة للافادة من ظروف الدولة البيزنطية وما اصابها من ارتباك وتمزق في الداخل ، من جهة ثانية .

ومع عودة الخليفة الى « المدينة » ، كانت ثمة خطط قد أُعدت في الجابية لاستئناف الحركة التوسعية على مختلف الجبهات المتاخمة . ولعل النتيجة الاولى في هذا السبيل ، كانت السيطرة على « الجزيرة »(٢) ، التي تقع ما بين النهرين (دجلة والفرات) ، وتشتمل على ديار مضر وبكر وربيعة . اما أشهر مدنها فهي الرقة وحران والرها وسنجار ونصيبين وماردين وآمد وميّافارقين والموصل ، التي افتُتحت جميعها من دون صعوبة ، و « صُولحت » على الجزية والخراج ، كما أورد البلاذري في « فتوحه »(٣) .

محور مصر وافريقية

كانت مصر بظروفها السياسية والدينية ، امتداداً لتلك التي كانت سائدة في بلاد الشام ، ربما على نحو يماثل الظروف الطبيعية ، ولكن مع قليل من الاختلاف في المدى الذي ارتبطت به هذه او تلك بالسلطة المركزية البيزنطية . فقد وحدّت بينهما دينياً ، العقيدة المسيحية ، ولكن في ظل مفهوم لا يتفق كثيراً مع مذهب الدولة ، صاحبة السيادة(٤) ، حيث أدّى الى ما عُرف باليعقوبية(٥) ، التي اعطت المسيحية في جنوب

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٥٠٠

(٢) تمّ فتح اقليم الجزيرة في سنة ١٨ هـ / ٦٣٩م ، على يد عياض بن غنم الذي ورد اسمه في سجلات الفتوح الاولى في العراق الى جانب المثنى بن حارثة . ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٥٠٠

(٣) البلاذري ، فتوح ص ١٧٦ وما بعدها . راجع ايضاً معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ١٣٤

(٤) كان معتقد البيزنطيين يؤمن بطبيعتين للمسيح : إلهية وبشرية . اسد رستم ، الروم ج ١ ص ٢٣٠

(٥) سميت بهذا الاسم نسبة الى مؤسس الكنيسة السورية المستقلة في عهد جستينان وهو =

الشام ومصر ، شخصية خاصة وشبه مستقلة . ولم يمـرّ هذا الوضع دون إثارة السخط لدى البيزنطيين ، واضـطهادهم لليعـاقبة بـين حين وآخـر ، على الـرغم من الاعتراف الرسمي بكنيستهم منذ منتصف القرن السادس الميلادي[1] .

ومن نـاحية أخـرى ، فإن الفـارق الرئيسي بـين الشام ومصـر ، ربما كـان أكثر تجسيـداً في العلاقـة الادارية مـع الحكم البيزنـطي . فهو غـير مباشـر في بعض أجـزاء الأولى ، حيث قامت دويلة عربية حليفة له (الغساسنـة) ، فضلاً عن تنـاثر عـدد من القبـائل عـلى تخوم الاخيـرة ، بينما كـان مباشـراً في الثانيـة ، يتولاه حـاكم من التبعيـة البيزنطية . بيد أن الحضور السياسي للدولـة الحاكمـة في مصر ، شهـد انكفاءً في تلك الفترة ، بحيث اقتصر النفوذ البيزنطي أو كاد عـلى مراكـز عسكريـة وبعض الحاميـات المنتشرة في الداخل ، التي كانت المظهر اللافت حينذاك ، للسيادة البيزنطية .

والواقع ان مصر ، شأن الشام ، لم تكن متحمسة لانتمـائها البيـزنطي ، الـذي اخفقت مغه في الوصول الى حدٍ معين ، من الانصهار الاجتماعي ، فضلاً عن الـولاء السيـاسي ، الذي بقي واهيـاً ، ويفتقر الى مـا يمكن أن نسميهبـالـدافـع« الوطني » إزاء الدولة البيزنطية ، في وقت سادت فيه موجـة من اللامبـالاة ، جعلت ما بـين مصالـح الدولة وقضايا المصريين ، مسافة بعيدة . وثمة ما جعل هذا الشعور قـوياً ، أن تـزامن مع الانتصارات الباهرة على الدولة البيزنـطية في الشـام ، والتي أدت الى اهتزاز صـورة الأخيرة في ممتلكاتها الشرقية ، كما تزامن مع حملة قمعية ، ارتبطت خاصة بآخر الحكـام البيزنطيين في مصر (قيروس Cyrus)[2] . الذي سعى الى تنفيذ برنـامج « هـرقل » ، الهادف الى تدعيم السلطة المركزية ، بما في ذلك الحدّ من الحركات الدينية المعـارضة ، لمذهب الدولة الرسمي[3] ، حيث ترافق هذا الموقف على ما يبدو ، مـع تدابـير التعبئة لحرب « الصليب المقدس » التي سبقت الاشارة اليها .

= يعقوب البرادعي JACOBUS BARADAEOS حيث تؤمن بـالمشيئة الـواحدة للمسيـح ، نورمـان بينز ، الدولة البيزنطية ص ١٠٦ .

(١) نولدكة ، امراء غسان ص ٢٠ . اسد ورستم ، الروم ج ١ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١

(٢) كان حاكم مصر يلقب بالمقوقس . فتوح البلدان ص ٢١٧ .

(٣) اسد رستم ، الروم ج ١ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١

وهكذا ، يمكن القول ، إن الأجواء السياسية والاجتماعية في مصر كانت مهيأة الى حد كبير ، لإنجاح المشروع التوسعي الجديد ، الذي قام به العرب المسلمون ، بعيد اتمام السيطرة على بلاد الشام ، حيث شكّلت مصر امتدادها الطبيعي ، كما العكس يصح ايضاً ، من وجهة النظر « الاستراتيجية » . ولعل في ذاكرة التاريخ ، النماذج الكافية لهذا الواقع ، الذي جعل الارتباط عضوياً بين الأقليمين ، تحتّمه الضرورات الجغرافية والاقتصادية والعسكرية . ومن هذا المنظور ، يصبح فتح مصر احدى العمليات الأكثر اهمية بعد سقوط الشام ، ذلك الأمر الذي تنّبه له « مؤتمر » الجابية وناقشه بجدّية .

وثمة جانب آخر ، ربما ارتبطت به خطة الاستيلاء على مصر ، يتصل بموقف الحاكم البيزنطي لبيت المقدس وقراره ـ حسب الرواية التاريخية[1] ـ اتخاذ مصر مركزاً لمقاومة المسلمين واسترجاع الاخيرة ، مما دفع قيادة هؤلاء في الشام الى مطاردته ، استجابة لاقتراح عمرو بن العاص في « الجابية »[2] . ويعود اسم هذا القائد الى التداول مرة اخرى في رواية « ابن عبد الحكم » ، الذي يورد اقتراح ابن العاص[3] على الخليفة ، وتقريره حول اهمية مصر وضرورة السيطرة عليها ، وذلك لما تملكه من خصائص وما توفره من امكانات على جانب كبير من الأهمية[4] . فإن صحت هذه الرواية ، وأن هذا الفتح تمّ استجابة لاقتراح أحد كبار القادة المسلمين في الشام (عمرو بن العاص)، فإن الاخير كان يملك على الأرجح معلومات مفصّلة ودقيقة عن الاوضاع الداخلية لهذا الأقليم ، حيث قيل انه وفد عليه تاجراً قبل الاسلام ،

---

(١) كان يدعى «ارطبون». الطبري ج ٤ ص ١٥٩

(٢) المكان نفسه .

(٣) يعتقد مؤرخ معاصر أن فتح مصر تمّ بمبادرة من عمرو بن العاص . شعبان ، صدر الاسلام والدولة الأموية ص ٤٣ . ولكن هذا الاعتقاد قد لا يعبّر تماماً عن الواقع ، خاصةً وأن الخليفة بادر الى نجدة قائده بحملة ، على رأسها حجازي (الزبير بن العوام) وتعدادها اكثر من ضعفي حملة ابن العاص

(٤) يروي ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص اشار على الخليفة عمر بقوله : انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم ، وهي أكثر الأرض اموالاً وأعجزها عن القتال والحرب . فتوح مصر وأخبارها ص ٥٦ . راجع أيضاً MAURICE LAMBARD, L'Islam dans sa premiere grandeur p 22 — 26

ووصل الى الاسكندرية استناداً الى رواية ابن عبـد الحكم[1] . فثمة هوة عميقة ، فصلت بين الدولة الحاكمة ، وبين المصريين ، الأكثر تأثراً بتراثهم التليد ، ذلك الذي اخفق البيزنطيـون في القضاء عليـه أو ملء فـراغه ، ممـا أدى الى استحكام السلبيـة في علاقات الطرفين ، وطغيان شعور من التجاهل للأحداث المتواترة على الأرض المصرية والاعتزال عنها . بالاضافة الى ذلك فإن حركة «وطنية» ـ إذا جـاز التعبير ـ منـاوئة للدولـة البيزنطية ومذهبها ، كانت قـائمة حينـذاك بزعـامة البـطريرك المصـري بنيامـين[2]، ربما شجعت المسلمين على تنفيذ خطتهم بالاستيلاء عـلى مصر ، دون ان نتجـاهل في هـذا السبيل ، التأييـد الذي صـادفه عمـرو بن العاص خـلال سيره لـدى بعض الاقباط ، وتحديداً في الفرما ، الذين كانوا « اعواناً » حسب رواية ابن عبد الحكم[3] .

لقد كانت مصر في ذهن المسلمين « من أكثر الأرض اموالاً واعجزها عن القتال والحرب »[4] ، ، حسب تعبير المؤرخ المصـري ابن عبد الحكم . ولعـل الأخير الـذي ينتمي الى جيل القرن الثالث الهجري ، كان يدرك جيداً ابعاد الدوافع ، التي شجعت هؤلاء على اتخاذ قـرارهم بالـزحف على مصـر ، انطلاقـاً من الحاجـة الى مصادر هـذه البلاد الغنية والى مواردها الغذائية ، لا سيما الحبوب ، التي كانت تمدّ بهـا الحجاز منـذ مـا قبل الاسـلام[5] . ولا ننسـى هنـا ، الـظروف المهيأة ، كـما جسّدهـا « ابن عبـد الحكم » في عبارته الآنفة ، وهي ليست طعناً بالروح القتالية لدى المصريـين[6] ، بقدر ما كانت تصويراً واقعياً للعلاقـة السلبية ، بـين هؤلاء والحكم البيزنـطي . وسنرى أن التجاوب مع الفتح العربي ، ومن ثمّ التحوّل السريع الى العقيدة الاسلامية في مصر ، كان أحد أبرز ظواهر تلك العلاقة الواهية بين الطرفين . ويبقى أخيـراً ، ذلك الـوهج الـذي امتازت بـه العمليـات المبكـرة لحـركـة الفتـوح ، حيث القضيـة النـابضـة

---

(١) فتوح مصر واخبارها ص ٥٤ ـ ٥٥

(٢) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ج ١ ص ٢١٤

(٣) فتوح مصر ص ٥٨ ـ ٥٩

(٤) فتوح مصر ص ٥٦

(٥) ابراهيم بيضون ، الحجاز والدولة الاسلامية ص ١٤٢ . راجع ايضـاً : بلييايف ، العـرب والاسلام والخلافة العربية ص ١٨٠ .

(٦) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ج ١ ص ٢٤٤

والمشتركة للمقاتلين ، الذين حملوا الاسلام في القلوب وعلى الرايات .

وبعد عام ونيف على « مؤتمر » الجابية[1] تقرّر تنفيذ فتح مصر ، بقيادة عمرو بن العاص نفسه ، الذي يبدو انه كُلّف قبيل ذلك بدراسة الأوضاع الداخلية فيها ، خاصة وأنه كان قائداً للحامية الجنوبية الغربية (فلسطين)[2] المتاخمة لمصر . وما كاد يستكمل ذلك ، حتى تحرك ومعه نحو اربعة آلاف من الجنود ، حيث اعتاد المسلمون عدم المجازفة بأعداد كبيرة من قواتهم ، الاّ بعد اختبار لدقائق الموقف العسكري . فسار جنوباً الى رفح ومنها الى العريش ثم الى الفرما ، التي واجه فيها مقاومة عنيفة من جانب البيزنطيين،« فهزمهم وحوى وعسكرهم »[3] حسب البلاذري . ومكث بعدها شهراً في بلبيس ، بانتظار تعزيز قواته[4] ، قبل متابعة الزحف الى بابليون في قلب الدلتا ، حيث اصطدم بمقاومة جديّة وطويلة ، انتهت برضوخ هذا الحصن والمفاوضة على استسلامه[5] . ولعل هذا الحصار ، كان تجربة جديدة على الصعيد العسكري للعرب المسلمين ، الذين لم يمارسوا قبل ذلك سوى الحرب التقليدية واساليبها المعروفة . وفي المقابل شعرت الحامية البيزنطية بعقم محاولاتها الدفاعية لاحباط الحصار الشديد ، في وقت كانت القسطنطينية تعاني سلبيات الهزائم الشامية ، مما كان له انعكاسه الواضح على معنويات المقاتلين التي اخذت تنهار ، مع انحسار الدعم البيزنطي . وكان لسقوط موقع حربي ، مثل حصن بابليون ، حشدت فيه أعظم الطاقات العسكرية في مصر ، التأثير الجذري على مسار المعركة . فلم يعد ثمة مجال للشك ، بأن المبادرة قد اصبحت في أيدي العرب المسلمين ، وأن ابواب السيطرة قد انفتحت أمامهم على هذه البلاد الواسعة . وفي رأي بعض المؤرخين المعاصرين ، بأن سقوط بابليون ، كان بمثابة

---

(١) حدثت الحملة في سنة ١٨ هـ ، حسب ابن الحكم (فتوح ص ٥٣) أو سنة ١٩ هـ ، حسب البلاذري ، (فتوح) ص ٢١٤ .

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح ص ٥٦

(٣) فتوح البلدان ص ٢١٤

(٤) امده الخليفة باربعة آلاف أخرى ، وقيل أن تعزيزات اضافية امدّه بها فيما بعد ، كان بينها عدد من كبار الصحابة . ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٥٩ ، ٦١ .

(٥) فرض المسلمون دينارين على كل رجل منهم . ابن عبد الحكم ص ٦٣ . راجع ايضاً : بتلر ، فتح العرب لمصر ص ٣٧٥

انهيار خط الدفاع الأول في مصر[١] ، حيث الطريق الى الاسكندرية التي يفترض انها خط الدفاع الثاني أو الأخير ، وفقاً لهذا التصوّر ، باتت سالكة بدون تعثر .

وفي الاسكندرية ، كبرى المدن المصرية ، تعرضت حامية البيزنطيين لحصار طويل ، تراوح في المرويّات بين الثلاثة أشهر ، [٢] وبين السنة أو أكثر بقليل[٣] . ولم يكن سقوط العاصمة المصرية القديمة بالأمر اليسير ، خاصة وأن موقعها البحري المحصّن ، كان من الممكن أن يساهم بدور كبير في صمود المدينة . ولكن معركة الاسكندرية ، كما المعركة السابقة ، اثبتت كلتاهما أن فتح مصر ، انعكست عليه بصمات الهزيمة البيزنطية في الشام ، لا سيما في الوقت الذي حاصر فيه المسلمون هذه المدينة ، حيث كانت القسطنطينية ، التي افتقدت حينذاك امبراطورها المهزوم (هرقل) ، وحملت حفيده (قنسطانز الثاني) الى العرش[٤] ، بصورة غير عادية ، كانت متثاقلة الخطى ، منكفئة على معالجة شؤونها الداخلية[٥] . وهذا ما أوجد الفرصة الجيدة للمسلمين ، من أجل الدخول في مفاوضات نهائية ، تمّ خلالها الاتفاق على الاستسلام بشروط محدّدة ، « على ان يخرج من الاسكندرية من أراد الخروج ويقيم بها من أحب المقام ، وعلى ان يفرض على كل حالم من القبط دينارين »[٦] ، حسب ما جاء في وثيقة الصلح بين عمرو بن العاص وبين « المقوقس » حاكم مصر .

استئناف التوسع نحو الغرب

من الصعب الاجتهاد في دوافع المبادرة التوسعية ، التي قام بها عمرو بن العاص باتجاه الغرب ، في اعقاب سقوط الاسكندرية . فقد تكون جزءاً من الخطة التي استهدفت مصر ، او نتيجة لظروف طارئة جابهت القيادة العسكرية ، ارتأرت معها

---

(١) عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ص ٤٨٨

(٢) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ١٤٨

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٨٠ . المقريزي ، المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٦٥

(٤) اورد ابن عبد الحكم أن حصار الاسكندرية دام تسعة شهور بعد موت هرقل وخمسة قبل ذلك» فتوح ص ٨٠

(٥) فتوح البلدان ص ٢٢٢

(٦) المكان نفسه

تأمين غطاء دفاعي للحدود الغربية ، وذلك باحتلال مواقع جديدة ، تشغلها حاميات اسلامية ومراكز مراقبة . فالحملة التي قام بها عمرو بن العاص في هذا الاتجاه ، وهي التي اثمرت عما يعُرف بفتح برقة وطرابلس ، لم تكن عملاً توسعياً منظماً ، اقترن بجهود استيطانية أو تبشيرية ، على غرار ما سيحدث في مصر ، بل كانت مجرد محاولة ، تبعتها محاولات متقطعة ، لفرض هيبة الدولة وتعزيز الدفاع على تخومها الغربية . على أن هنالك ما يدفعنا الى الافتراض ، بعدم وجود خطة مسبقة تتعدى مصر في تلك الفترة ، كون الجنود الذين قاموا بالسيطرة على هذه الاخيرة ، شكلوا جزءاً من القوات العامة ، التابعة للخلافة ، مما حال قطعاً دون القيام بعمل عسكري جديد في أرض غير معروفة . وفي مقدمة ما يعنيه ذلك ، أن أية مساعدات اضافية ، لا بد أن تكون مصدرها اجناد الشام أو العراق ، وليس مصر ، الحديثة العهد بالحكم الاسلامي[1] ، خاصة بعد اغتيال الخليفة ، الذي تزامن مع هذا التحرك ، وما رافق ذلك من اضطراب خطط الدولة لا سيما التوسعية منها .

وتعود الى التساؤل مرة اخرى ، عن الطريق الذي استخدمه المسلمون في هذه المهمة الجديدة ؟ فلعله كان الطريق المحاذي للساحل الشمالي ، كما هو سائد في المرويات ، لا سيما وأن هذه الحملة انطلقت على الأرجح من الاسكندرية . ولكن هذا الاعتقاد يفترض غياب البحرية البيزنطية الذي يبدو أمراً غير طبيعي ، الاّ إذا سلمنا بأن هذه السواحل كانت خالية من القواعد[2] ، وأن البيزنطيين تابعوا هنا سياسة التجاهل ، أو الكثير منها ، التي ظهرت في مصر . ويشير ابن « عذاري » المراكشي[3] ، الى أن عقبة بن نافع ـ أحد مشاهير القادة المسلمين في المغرب لاحقاً ـ قام بعملية استطلاع الى برقة ، وعاد يحمل تشجيعاً للقيادة ، بتنفيذ مهمتها التي اعدّتها في هذا السبيل . وما لبثت القوة الرئيسية ، أن اتخذت طريقها الى برقة ـ البوابة الأولى للمغرب الكبير ـ التي كانت على الأرجح تتمتع باستقلال ذاتي ، بزعامة القبيلة « البترية » لواته[4] . وكما يحدث عادة ، حيث الدول الكبرى لا تشجع على هذا النوع

(١) ابراهيم بيضون ، الدولة العربية في اسبانيا ص ٢٢ .

(٢) من المعتقد أن التواجد العسكري البيزنطي ، كان محصوراً بشكل اساسي في قرطاجة ، القاعدة البحرية الكبرى في المغرب .

(٣) البيان المغرب في اخبار المغرب ج ١ ص ٨

(٤) كان سكان الداخل في المغرب من البربر ، الذين شكلوا ، على غرار العرب ، نمطين=

من العلاقة ، فإن هذه القبيلة ، كما يبدو ، كانت على غير وفاق تام مع الدولة البيزنطية ، مما دفعها الى الترحيب بالمسلمين والاستسلام لهم ، ربما مع الاحتفاظ باستقلالها الذاتي ، وذلك مقابل ضريبة سنوية عالية[1] .

ثم تابعت قوة المسلمين بقيادة عمرو بن العاص ، تقدمها الى طرابلس ، التي كانت اكثر مناعة وتحصناً من برقة، وبالتالي قرباً من مناطق النفوذ البيزنطي ، التي كان تواجدها الفعلي الى الغرب منها ولعل هذا الوضع ، ادى الى ان تكون الاخيرة اكثر صعوبة من سابقتها ، مما جعل لعنصر المفاجأة دوره في اسقاط المدينة ، التي هاجمها المسلمون من ناحية البحر[2] ، بعد حوالى شهر من الحصار[3] . وبعد السيطرة على طرابلس ، توقفت العمليات الحربية غرباً ، لتستأنف نشاطها نحو الجنوب ، حيث الواحات التي اتخذها البربر ، مراكز استقرار تحصنوا بها في الداخل . وكان عقبة بن نافع ، قد دأب منذ سقوط برقه ، وذلك بالتنسيق مع القوة الرئيسية ، على إحباط العمليات المضادة والمفاجئة ، التي كانت تقوم بها بعض قبائل البربر ، حيث اسفرت جهوده عن احتلال « زويلة » . وبينما عاد عمرو بن العاص الى الفسطاط ، المعسكر الجديد الذي أقامه على مقربة من حصن بابليون ، ظلّ عقبة في أفريقية[4] ، متفرغاً لنشاطه التوسعي في هذه المنطقة ، حيث تلازم اسمه بشكل عضوي ، مع حركة الفتوح التي شهدتها الاخيرة في السنوات الطويلة اللاحقة .

وفي الفسطاط ، انصرف عمرو بن العاص وقتاً قصيراً للشؤون الداخلية وتنظيم الادارة والخراج والجيش ، بعد أن اصبح أول ولاتها المسلمين . وعلى الرغم مما قيل في شخصية هذا القائد ، من نزوع الى المغامرة وتربص بالسوانح ، الى الحدّ الذي يرى فيه البعض انه مجرد انتهازي كبير[5] ، فإن الانجاز العسكري البارز الذي حققه ،

=اجتماعين : احدهما حضري (البرانس) والثاني بدوي (البُتر). راجع ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٧٠

(١) يحدّدها البلاذري بثلاثة عشر الف دينار ، فتوح ص ٢١٥

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٧١

(٣) المكان نفسه

(٤) المكان نفسه . البلاذري ، فتوح ص ٢٢٦ ، حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ٦٠

(٥) بتلر ، فتح العرب لمصر ص ١٨٤

بسيطرة المسلمين على مصر وبعض افريقية ، قد رفعه الى مصاف الكبار من القيادات السياسية والحربية في ذلك العصر . ولعل التساؤل يفرض نفسه هنا ، عن علاقة هذا القائد ـ الذي أظهرته الأيام ومعه نزعته الوصولية والسلطوية بالخليفة القوي عمر بن الخطاب ؟ وإذا ما كان سيحتفظ بمنصبه طويلاً في مصر ، أم انه سيلقى مصيراً لا يختلف عن الذين سبقوه من القادة الكبار ، من امثال خالد والمثني وسعد ؟ . . ولكن ما حدث في « المدينة » حينذاك ، أبقى هذه الاسئلة دون جواب ، حيث تمّ اغتيال الخليفة بعد وقت قصير ، من عودة عمرو بن العاص من مهمته الاخيرة الى الفسطاط .

ويبدو أن هذه الحادثة ، لم تكن عادية في اسبابها وملابساتها ، لا سيما الظروف الغامضة التي رافقتها وكذلك البراعة المدهشة في حَبك خيوطها ، مما يبعث على الاعتقاد بأن وراء الاغتيال اسباباً سياسية ، تتعدى التعليل الرسمي الساذج ، الذي صدر عن الخلافة في اعقاب ذلك . وسنعود الى مناقشة هذه القضية مفصّلةً ، بعد الانتهاء من الفتوح الراشدية في افريقية ، حيث استؤنفت بشكل محدود في عهد الخليفة الثالث .

تسلّم عثمان الخلافة في ظلّ أجواء غير عادية ، ربما شابهت في بعض جوانبها ، تلك التي أعقبت وفاة النبي . فالخليفة الجديد جمع بين الصفتين : القبلية ، من خلال انتمائه للبيت الأموي ، صاحب النفوذ التجاري الاقوى في العصر القرشي ، وبين الصفة الاسلامية ، التي منحته موقعاً مميزاً ، ليس في بيئته فقط ، حيث كان رائدها الى العقيدة الجديدة ، ولكن ايضاً في اطار النخبة الأولى ، المناضلة مع النبي في بدايات الدعوة . وإذا كانت صفته الثانية قد رشحته أو دعمته ، لهذا المنصب ، فلقد زكّت هذا الترشيح ووضعته موضع التنفيذ ، فئة معينة ، كان من أهدافها أن تمدّ خطوطاً الى مراكز النفوذ في الدولة ، عبر الهوية الأولى للخليفة الجديد ، في وقت نجحت فيه العصبيات التي ضاقت بسلفه ، في اختراق الجبهة الاسلامية ، المتماسكة حتى ذلك الحين ، وتضليل بعض وجوهها البارزة ، التي لم تكن في منأى تام ، عما يجري من احداث خطيرة سواء في « المدينة » أم في الامصار . ذلك ان التيار القرشي ، الذي كان لا يزال يمثّله الامويون وحلفاؤهم ، كان تأثيره واضحاً ، وإن بصورة مقنّعة ، في

مـا سُمي بمجلس الشـورى أو مجلس الستّة[1] ، الـذي نيط بـه « انتخـاب » خليفـة لعمـر بن الخطاب . وجـاءت النتيجة كـما توقعهـا العارفـون بالخلفيـات المحركـة لهـذا المجلس وظهـوره المفاجىء ، لمصلحـة شيخ الأمـويين وكبيـرهم ، عثمان بن عفـان ، سواء شاء الخليفة الجديد هذا الموقع أم استدرج اليه ، حيث كـان « انتخابـه مصطبغـاً بصبغة التحيّز نحو الأمويين » ، على حدّ تعبير مؤرخ معاصر[2] .

وهكذا ، لأول مرة في تاريخ الدولة الاسلامية ، سجّـل الصراع عـلى السلطة ، انتصـاراً لتيّار وهـزيمة لآخـر ، على هـذا النحو السـافر ، والمخـالف تمامـاً لما جـرى في السقيفة أو البيعة الثانية ، حيث الاتجاه الوسطي الذي آلت اليه الخـلافة ، حـافظ على تـوازن محسوس بـين الاتجاهـات السيـاسيـة المختلفـة . فقـد كـان كـل من الخليفتـين السابقين ، انطلاقاً من التزامهما بهذا الاتجاه التوازني ، قادراً على الاستقطاب دون اثارة المعـارضة ، كـما كان لكـل منهما ارادتـه الصلبة وقـراره الخاص ، فضـلاً عن الشدّة في تطبيق القوانـين والاحكام ، دون ثمـة استثناء ، لعشيـرة أو فرد ، بمـا في ذلك الـذين يمتّون بصلات من القـربى للخليفة . وخـلافاً لهـذا الواقـع ، جاءت خـلافة عثمـان ، مـرتهنة لأولئـك الذين سـاهموا بشكـل أو بآخـر في بيعته اوتمهيـدالأمر لها . فكـان من الطبيعي أن تشرّع الادارة الجديدة ابـوابها للعـديد منهم ، يتقـاسمون النفـوذ فيها دون مراقبة أو حساب . وإذا كان أي نظام يقوم من خلال الأدوات البشريـة البارزة فيـه ، فـإن عهد عثمـان يمثّل ذروة التـدهور السيـاسي في ذلك الـوقت . ومن هؤلاء ، كان مروان بن الحكم ، ابن عم الخليفة ، رجـل العهد القـوي في المدينـة ، فهو المستشـار الأول ورأس السلطة التنفيذية ، وهو الذي يعيّن الولاة والمـوظفين ويعـزلهم ، الى آخر ذلك ، دون أن يملك من مقومات هذا الدور ، ما يتجاوز الانتماء للأسرة الحاكمة[3] . وفي المقابل ، تجاهل عثمان ، كافة الشخصيات التاريخية التي عاصرت النبي ونـاضلت معه في سبيل الدعوة والدولة ، وتجاهل كذلك الخبرات الادارية والعسكرية ، منصـرفاً

---

(١) الزبير بن العوام ، طلحة بن عبيد الله ، علي بن أبي طـالب ، عثمان بن عفـان ، سعد بن أبي وقّاص ، عبد الرحمن بن عوف .

(٢) محمد جمال الدين سرور، الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية ص ٥٧

(٣) المسعودي ، مروج ، ج ٢ ص ٣٣٤ .

الى اختيار معاونيه من بين اتجاه معروف بغير المودة للاتجاه الجذري ، الذي أخذ يتبلور في السنوات الاخيرة من العهد السابق .

وإذا كان الاعتقاد، بأن اختيار عثمان الذي تمّ « بصفته قائد قبيلة كبيرة »[1] ـ كما يقول المؤرخ محمدعبدالحيّشعبان ـ يسوّغ إقامة إدارة اموية ، فإن ثمة معطيات قد لا تجعل هذا الرأي مقنعاً، ـ لا سيما وأن الخليفة لم يكن « قائد القبيلة » ، الفعلي ، وانما كان أبو سفيان في هذا الموقع قبل انتقاله الى ابنيه (يزيد ومعاوية) في صدر الاسلام . بالاضافة الى ذلك ، فإن هذه البيعة ، لم تنطلق من « قبيلة » عثمان فقط ، ولكن من « اسلاميته » ايضاً التي كان لها حضورها التاريخي في الدولة الصاعدة . ومن هذا المنظور ، فضلاً عن احتواء الخلافة مبدئياً للعصبية وليس العكس ، كما جرى في العهد العثماني ، تصبح غير مسوّغة تماماً تلك السياسة الفئوية ، التي يبدو أن الخليفة وُضع اليها ، تحت ضغوط الفئويين الكبار من اسرته (معاوية ـ مروان) . وتعدّى الامر ، الاسرة الاموية التي امسكت بناصية الادارة الى الاستعانة بقيادات من أهل الردّة (تعيين الاشعث بن قيس الكندي على اذربيجان)[2] ، مخترقاً بذلك التقليد السابق ، الذي حال دون وصول مثل هؤلاء الى المراكز القيادية . واتخذ الحكم كذلك هويته الاموية السافرة في بقية المراكز في الدولة ، فاذا بالخليفة المسن الذي جاء لتنفيذ دور معين ، قد أصبح أسير مجموعة[3] ، اثارت بسلوكها المشبوه ، النقمة والكراهية ضد الخليفة نفسه ، الذي كان عليه ان يدفع ثمناً باهظاً لاخطاء جماعته في السلطة .

بيد أن هذا العهد اقترن بجوانب ايجابية ذات أهمية ، ربما كان ابرزها مبادرة جمع القرآن في كتاب واحد ، بعد أن كانت سوره وآياته متناثرة في ذاكرة الصحابة والتابعين والكتّاب . ولقد جاء هذا الانجاز في اعقاب الفتح الاسلامي لأرمينيه [4] ،

---

(١) صدر الاسلام والدولة الأموية ص ٧٦

(٢) البلاذري ، فتوح ص ٣٢٤

(٣) من أبرز معاوني عثمان الذين اثاروا السخط عليه الى جانب مروان : معاوية ابن ابي سفيان ، واليه على الشام ، عبد الله بن سعد بن أبي سرح (مصر)، عبد الله بن عامر (البصرة)، الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص (الكوفة). وجميع هؤلاء من الأقارب المباشرين للخليفة . المسعودي ، مروج ج ٢ ص ٣٣٤

(٤) فُتحت ارمينيه على يد حبيب بن مسلمة الفهري سنة ٢٥ هـ . البلاذري، فتوح ٢٠٠ .

حين لاحظ أحد القادة ، وهو صحابي كبير[1] ، التفاوت الواضح في قراءات الجند للقرآن . فأسر بمخاوفه بعد عودته الى الخليفة ، كيّ يتدارك التغيير او التحريف في الآيات القرآنية ، في ضوء تباين اللهجات والقراءات لها بين المسلمين . فاستجاب عثمان لذلك ، ودعا كبار الصحابة الذين يحتفظون بالنصوص الكاملة للقرآن ، من أجل الشروع في تدوينه ، ليخرج من بين أيديهم كتاب موحد ، حمل الاسم المعروف حتى اليوم ، وهو « مصحف عثمان » تخليداً لمبادرة الخليفة الهامة .

وإذا ما رجعنا الى تتبع حركة الفتوح الراشدية ، لا بدّ من التوقف عند منجزات « العهد العثماني » في هذا السبيل ، على الرغم من تواضعها ، قياساً الى اعمال سلفية . فعلى الساحل الشامي ، الذي كان لا يزال مكشوفاً للسفن البيزنطية المعادية ، ظهرت نواة البحرية الاسلامية ، التي كانت من انجازات والي الشام ، معاوية بن أبي سفيان ، حيث أدرك الأخير منذ وقت مبكر ، خطورة هذا السلاح ، فدأب على إنشاء دار لصناعة السفن ، معتمداً على الخبرات المحلية في الشام ومصر . وكان معاوية منذ أن تسلّم مهام الأولى ،بعيد وفاة أخيه يزيد (٨هـ / ٦٣٩م) وهو يعمل على تثبيت اقدامه في تلك الأرض ، التي ارتبطت بعلاقة مميزة قبل عشرات السنين مع البيت الأموي[2] . ويبدو ان الحاجة الى الخبرة الادارية التي تمتع بها معاوية وما رافق خلافة عثمان من انحسار للسلطة المركزية ، فضلاً عن المظلة التي وفرّتها القرابة مع الأخير ، قد جعل ذلك كله من والي الشام ، قوة تتجاوز كثيراً حدود الدور العادي ، مما كان يدفعه الى اتخاذ مبادرات ، لم تكن الخلافة بالضرورة على معرفة بها ، ولكنها كانت تعكس طموحه البعيد ، في أن تكون الشام مركز استقطاب رئيسي للبيت الأموي ، ومنطلق مشاريعه السياسية المستقبلية . ولقد وجد أولى الخطوات في سبيل ذلك ، هي تدعيم اوضاعه القبلية في ادارته وإنشاء قوة عسكرية ضاربة ، تتولى حماية هذا النمط الرائد في الدولة الاسلامية ، ومن ثمّ الدفاع عن شواطىء ولايته المهدّدة بين حين وآخر ، بغارات الاسطول البيزنطي ، المهيمن على مياه البحر المتوسط ، بحيث

---

(١) حذيفة بن اليمان . راجع السيوطي ، كتاب الاتقان في علوم القرآن ص ١٠٢

(٢) عدا هجرة ، أمية بن عبد شمس القسرية الى الشام ورحلات ابي سفيان العديدة قبل الاسلام ، فإن معاوية شارك في حملة أخيه يزيد في مطلع الفتوح. ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٤٠٦

يستطيع توظيف هذه السياسة الدفاعية ، في خدمة اهدافه السلطوية المركّزة .

وكان من حسن المصادفات ، أن لا يكون للبحرية البيزنطية ، أي دور ملحوظ، خلال العشرين عاماً التي اعقبت هزيمة « هرقل » في اليرموك وانسحابه الى القسطنطينية . فقد عانت الاخيرة من الشلل الذي أصاب مؤسساتها ، لا سيما العسكرية في ذلك الحين ، تحت تأثير الهزيمة المدمرة التي وضعت حدّاً لكبرياء هرقل وحياته ، وأحدثت فجوة في النظام الامبراطوري ، حيث الانقسامات في الاسرة الحاكمة(١) ، ذرّت قرنها حيناً ، مما أدّى الى بعثرة طاقات الدولة في مشاكل داخلية ، وأضاع من يدها فرصاً لن تعوض في الصراع بينها وبين المسلمين .

غير أن الأوضاع البيزنطية ، تستعيد مسارها الطبيعي بعد انحسام الأمر لمصلحة حفيده قنسطانز الثاني(٢) . وكان الامبراطور الجديد متأثراً شأن سلفه بالكارثة التي نزلت بدولته ، جاعلاً في صلب اهدافه الحيوية ، الانتقام من القوة الجديدة التي فرضت نفسها على الساحل الشامي . ولكن قنسطانز على الرغم من نجاحه في تطويق الأزمة السياسية في الداخل ، فإن هموماً اخرى كانت تعيق تحركّه بحرية ، وفي طليعتها التهديدات السلافية لحدوده في البلقان(٣) . لذلك كان عليه أن يصرف وقتاً الى معالجة مشاكله الحدودية في الغرب ، قبل أن يلجأ الى الاهتمام بمشاكله الشرقية مع المسلمين ، حتى إذا تجاوز هذه المسألة ، خرج على رأس قوة بحرية بمحاذاة الساحل الشامي ، وقد تنازعته احلام العودة الى هذه المنطقة . بيد أن « استخبارات » الامبراطور ـ إذا جاز التعبير ـ وضعته على حقيقة الموقف الدفاعي المنيع للولاية الشامية ، مما دفعه الى تجنب الاقتراب منها والتحوّل الى الاسكندرية ، ذلك الثغر الهام الذي نال حظّه ايضاً من التحصين ، في وقت أوعز فيه معاوية الى والي مصر ، أن

---

(١) لقد حدث خلاف بين قسطنطين ابن هرقل ووليّ عهده ، وبين زوجة ابيه مرتينا التي كانت تسعى للمجيء بابنها هرقلوناس الى الحكم ، تحت تأثير علاقاتها القوية في الدولة . بيد أن مشاريعها أحبطت لمصلحة ولي العهد المحبوب شعبياً، ولكن دون أن يدوم حكمه سوى شهور قليلة ، حيث توفي في ظروف غامضة ، وانتقل الحكم بعده الى ابنه قنسطانز الثاني (٦٤٢ م). ابراهيم العدوي، الأمويون والبيزنطيون ص ٧٤ ـ ٧٦

(٢) اسد رستم ، الروم ج ١ ص ٢٥٥

(٣) العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ص ٧٧

يحول دون اقتراب سفن البيزنطيين من سواحله ، وما لبث أن تحرك الأخير على رأس قوة بحرية ، معظمها من الاسطول الشامي ، متعقّباً سير الأمبراطور البيزنطي ، وفق خطة متقنة ، سرعة وتنظيما ، مما اربك قوات الاخير ودفعتها الى التراجع ، وربما صرف النظر عن مهمتها ، إذا ما أخذ بالاعتبار جغرافية المكان الذي جرت فيه المعركة الشهيرة ، المعروفة بـ « ذات الصواري »[1] . وكانت هذه تجربة فريدة للاسطول الشامي ، الذي انتزع النصر في معركة مبتكرة ، خاضها المقاتلون على متون سفنهم ، باسلوبهم التقليدي المعروف في الحرب .[2] وجاءت نتائجها المذهلة ، صدمة لاحلام الامبراطور وخلفائه فيما بعد ، بالعودة الى المنطقة الشامية ، التي اثبتت انها قوية ومنيعة ، بقدر ما اثبتت سياسة واليها ومؤسس بحريتها ، أنها ناجحة وبعيدة النظر ، مما سيكون لها تأثير واضح على تطورات الأحداث خلال السنوات القليلة اللاحقة .

وإذا تخطينا الجانب البحري لسياسة الخليفة التوسعية ، حيث كان لمعاوية الدور الريادي في المقارعة البحرية مع البيزنطيين في الشام ، فإن ملامح هذه السياسة قد تجلت وقت سابق ، واتخذت محورها الرئيسي على الجبهة الأفريقية . ولعل عثمان اراد التمثّل بنهج سلفيه ابي بكر وعمر ، حيث نجح كلاهما في تحويل حركة الفتوح الى قضية محورية مبرمجة ، في وقت كان لهذه السياسة اهداف اخرى ، ربما تجاوزت كثيراً المسار المألوف لهذه الحركة ، بعد أن وجد فيها الخليفة وكبار معاونيه ، تغطية للأخطار والتجاوزات ومن ثم اسكاتاً للضجيج الذي أخذ يثار حولهم في ذلك الحين . وكان من بين هؤلاء ، والي مصر ، عبد الله بن سعد ، الاكثر حماسة لهذه السياسة التوسعية وفق هذا المنظور ، ممهداً لذلك بسلسلة من الحملات الاستطلاعية الصغيرة ، باتجاه هذه الجبهة الواسعة والغامضة .

وفي ذلك الحين ، تقرر بدء التحرك غرباً ، في اعقاب المساعدات العسكرية من « المدينة »[3] . بيد أن الترتيبات التي سبقت هذا التحرك ، وما رافقها من ضجة

---

(١) وقعت في سنة ٣١ هـ على مقربة من سواحل آسيا الصغرى . الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١١٧ - ١١٩

(٢) المكان نفسه

(٣) ٢٧ هـ / ٦٤٧ م.

اعلامية ، أدت الى اتخاذه صبغة سياسية أكثر منها جهادية ، حيث شجع على هذا الاعتقاد ، اصرار الخليفة على اشراك أكثر عدد من ابناء الصحابة البارزين(١) ، بعد أن كان سلفه ، قد جمّد نشاطهم ، سياسياً وعسكرياً ، خارج « المدينة » طوال عهده . وفي تلك الاثناء ، كان الحاكم البيزنطي في افريقية(٢) الذي امتدّ نفوذه الى الغرب من طرابلس ، قد اتخذ مقرّه في قرطاجة ، كبرى القواعد البحرية للبيزنطيين في هذه المنطقة(٣) . ويبدو أن ظروف دولته غير المواتية ، حالت دون تدخله قبل ذلك واعتراضه تقدم المسلمين ، قبل نحو خمسة اعوام قريباً من منطقة نفوذه . فعمل على الافادة من غياب الوجود الفعلي لهؤلاء في طرابلس والأراضي المتاخمة لها ، مستدرجاً سكان هذه المدينة الى التمرد ، وذلك في محاولة لإشغال اعدائه بمعركة جانبية(٤) . ولكن خطة الحاكم البيزنطي لم تحقق النجاح المطلوب ، بعد نجاح المسلمين ، رغم مفاجأتهم ، في قمع عصيان المدينة ومتابعة الزحف دون تعثر حتى معسكر البيزنطيين في سبيطلة (٥) ، حيث جرت معركة عنيفة انتهت بانتصار المسلمين ومقتل القائد البيزنطي وتدمير قوته الاساسية(٦). على ان نتائج هذا النصر، كانت متواضعة في الجانب السياسي ، دون أن تؤدي في هذا المجال الى اي تغيير جغرافي في المنطقة ، بعد انسحاب المسلمين ، وقد اكتفوا بغنائم المعركة واهدافها الآنية المحدودة .

ولم تندرج هذه الحملة في عمليات الفتوح المنظمة ، التي استهدفت افريقية الشمالية حقبة طويلة من الزمن . فقد انعكست عليها في المقام الأول ، شخصية قائدها المترف ورغبته في الاكتفاء بعمل استعراضي محدود الأهداف . وربما أدى ذلك

---

(١) من امثال : عبد الله بن الزبير ، عبد اللهبن عمر ، عبد الرحمن بن أبي بكر . البلاذري ، فتوح ص ٢٢٨

(٢) جرثيوريوس أو جُرجير في المصادر العربية . ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٨٣

(٣) المكان نفسه

(٤) ابراهيم بيضون ، الدوله العربية في اسبانيا ص ٢٣

(٥) تقع الى الغرب من صفاقس في تونس حالياً . كما تقع الى الجنوب من القيروان ، القاعدة العسكرية الأولى للعرب المسلمين في افريقيه التي انشأها عقبة بن نافع الفهري في وقت لاحق . الحميري ، الروض المعطار ص ٣٠٢

(٦) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٣ ابن عذاري ص ج١ ص ١١

الى خطأ « استراتيجي » من وجهة النظر العسكرية ، حين تجاهل عبد الله بن سعد ومعه الخلافة ، الظروف المشجعة حينذاك ، للتوسع الاسلامي في هذا الاتجاه، بعد الضربة الموجعة التي تلقاها البيزنطيون في سبيطلة ، فضلاً عن الغياب الملحوظ لمقاومة البربر حتى ذلك الحين . ولعل العودة الى حيث البدء ، دون المحاولة لتعزيز النوفذ الاسلامي ، من خلال حاميات عسكرية ومراكز استقرار دائمة ، ستؤدي الى نتائج سلبية طوت معها بريق الانتصار ، وما اعقبه من تعثر الحركة التوسعية في افريقية ، تلك الجبهة التي قُدّر لها أن تشهد المحاولة الأطول في التاريخ العسكري للعرب المسلمين .

وباستثناء عمليات محدودة قام بها عقبة بن نافع ، انطلاقاً من حامية برقة ، والتي تركت بعض التحفظ لدى قبائل البربر - المتذبذبة حينذاك في مواقعها إزاء العرب المسلمين ، ما بين الترحيب والحذر والعداء - فإن جموداً طرأ على هذا المحور العسكري ، فضلاً عن المحاور الأخرى في المشرق والمغرب، وذلك في اعقاب الاضطراب الذي عصف بالسلطة المركزية ، والذي كان اخطر ما فيه ، انصراف القادة في الامصار عن دورهم الذي الفوه سابقاً ، الى مراقبة اخطاء العهد والانغماس في الشؤون السياسية . ولعل موقف هؤلاء كان نابعاً من الشعور بالغبن والحرمان ، وهم صانعو الانتصارات وفاتحو البلاد ، وشتى المنجزات التي سُخّرت لمصلحة ذوي القربى والنفوذ في « العهد العثماني » . فكانت تلك المحنة ، التي يصطلح الفقهاء على تسميتها بـ « الفتنة » ، التي فجرت ، لأول مرة ، ما تفاعل في النفوس من انتقاد، أخذ يتمحور تدريجياً - وبصورة جريئة - حول مركز الخلافة ، الذي اصبح في موضع التهمة المباشرة .

دولة عمر

لم تكن الخلافة في الوجهين اللفظي والمعنوي ، أكثر من اصطلاح تمّ التداول به عفوياً في مستهلّ العهد الراشدي ، أما دلالتها المباشرة ، فتعني أن حاملها هو خليفة النبي ، بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، ينتهج نهجه ويسير مساره دون تعديل أو تغيير . ولعل فقيه القرن الهجري الرابع « الماوردي » ، كان الأكثر دقة في تحديد المفهوم الاسلامي لهذه الوظيفة بقوله : « الامامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا ، وعقدها لمن يقوم في الأمة واجب بالاجماع »[1] . فالنبي قبل موته ، لم يحدّد المضمون ولا الشكل ، للمنصب الذي تولاه كرجل دولة اضافة الى صفته النبوية ، ولكنه ترك وراءه تراثاً غنياً ، كان بمثابة الضوء الذي تلمّس أثره واستهدى به الخلفاء الأوائل . وكان هذا الأزدواج المتقن بين السلطات الروحية والزمنية ـ الذي مارسه النبي منذ تكوين الدولة في المدينة ، كأول ظاهرة في تاريخ الفكر السياسي ـ قد حدّد الاطار العام لمؤسسة الخلافة ، عبر هذا الانسجام المطلق في الصلاحيات الدينية والدنيوية . ولقد حافظ الخليفة الأول ابو بكر على روحية هذا التلاحم ، وأعطى ـ رغم التمثل الدقيق بالعهد الذي سبقه ـ للخلافة مضمونها الخاص ، الذي اتخذته عبر القرون المتتابعة من التاريخ الاسلامي .

ومن الانصاف القول ، انه لم يكن مطلوباً من ولاية أبي بكر القصيرة والمتخمة

(١) الاحكام السلطانية والولايات الدينية ص ٣ عن شروط الخلافة راجع ايضاً A. R. SANHOURY, Le Califat Tome 4 p 53 - 61

بالاحداث الهامة ، أن يكتسب هـذا المنصب خلالها سماتـه الواضحـة ، حيث ستقع هذه المهمة على عاتق الولاية التـالية التي انعقـد امرهـا لعمر بن الخـطاب . فقد وجـد الأخير نفسه امام ظروف مستجدة وقضايا شائكة ، لا يمكن معها السير وواقع الحـال ، مما تطلّب جرأة ومجابهة ، لا سيما إزاء حـالات خاصـة ، ليست لها سـابقات في العهـد الأول من الاسلام . وكان ذلك حافزاً للخليفة ، كـونه رأس السلطتـين معاً ، لاتخـاذ مبادرات تشريعية ، بغية معالجة المواقف الطارئة التي واجهت الدولـة في ذلك الحـين ، بحيث كان ذلك الخطوة الأولى ، في عملية المزاوجة العضـوية ، بـين فكرة الخـلافة في مفهـومها الـديني في المقام الأول ، وبـين الدولـة كنظام زمني ، معني بـالادارة والجيش والاقتصاد والفتوح وبقية المهام الدنيوية .

ولكن يجب عـدم الانسياق وراء الـظن ، بأن عمـر كان مبتـدعاً أو رائـداً لفكرة الدولة ـ المؤسسة في الاسلام ، بقدر ما كان المنفّذ العملي لها ، حسب مفهومها المتطور في ذلك العصر . فقـد تسلّم تراثـاً غنياً في هـذا المجال ، اتضحت معـه كافـة الاسس والملامح لدولة الغد وكل الأيام ، منذ اعلان « الصحيفة » في المـدينة . ولكن التـطوير الذي طرأ على اجهزة الحكم في هذا العهد ، اعتُبر أيضاً نقله غـير عاديـة في اطار بنـاء الدولة ، بما يتجاوز المفهـوم السطحي ، الـذي كان لـدى العرب قبـل الاسلام ، إزاء هذه المسألة . فبعد « هجرة » النبي وظهور نواة الدولة الاسلامية في « المدينة » ، كانت المبادىء الاساسية لهذه الأخيرة ، قد أخـذت في الوضـوح ، بعد أن تمّ وضـع قواعـد التعايش بين افراد المجتمع الجديد ووضـع اسس العلاقـات الخارجيـة وشؤون الحرب الى آخر ذلك . ولكن هذا النظام ، رغم الحاجة الماسة اليه في حينه ، ورغم الانقلاب الذي أحدثه في قوانين التعامل الاجتماعي والعـلاقات السيـاسية ، فـإنه ظـلّ محصوراً لفترة ما ، في نـطاق الأقليمية الحجـازية والـظروف الخاصـة المتزامنـة معه . ومن هـذا المنظور ، فهو يبقى شاغلاً دوره الطليعي في شبه الجزيرة ، دون أن تكون حاجة ملحة لتطويره ، في ظلّ مجتمع متجانس ، لازال رجل الـدولة فيـه ، جامعـاً في قبضته كـافة المهام والمسؤوليات .

وإذا كان من البداهة أن عهد أبي بكر ، في الجانب السياسي ـ الاجتماعي ، لم يكن أكثر من استمرار للعهد الأول وتطبيق مطلق للنهج السابق ، فإن عهد عمر كـان أكـثر تعقيداً ، وذلـك بفعل الانتشـار الواسـع لـدائـرة النفـوذ الخـلافي ، والاحتكـاك

بشعوب، كانت لهـا تجـربتها وسـابقتها في شؤ ون الحكم والادارة والعـلاقات السيـاسية . وهكذا فإن التنظيمات التي احدثها عمر في أجهزة الـدولة ، جعلتهـا قادرة عـلى القيام بدورها المـطلوب في الظروف البيئيـة والاجتماعيـة ، القديـمة والمستجدة ، التي هي في حدّ ذاتها استجابة لتحديات أفرزتها الفتوحات الكبرى التي تمت بسرعة مذهلة(١) .

ولقـد اكتسبت المرحلة جـذريتها مـع الوقت ، حيث كـانت ابرز مـلامحهـا عـلى صعيد الادارة ، تلك المحاولـة التي استهدفت تـوطيد السلطة من خـلال الاستعانـة بشخصيات صحابية معروفة . من امثال عمّار بن ياسـر الذي تـولى شؤ ون الكوفـة في بدايات هذا العهد . ولكن اخفاقه في مهمته ، كان بمثابة ضـربة لهـذه الجذريـة ، بعد اضطرار عمر الاستعانة بشخصيات مساومة ومخضرمـة ، كالمغيـرة بن شعبة (الكـوفة) الذي كانت له خبرة قديمة ، ومعـاوية بن أبي سفيـان (الشام) ، الـذي جاء تثبيتـه في منصبه ـ على الرغم من اختلاف النهج ما بينه وبين الخلافة ـ معبّراً عن ازمة الاخيرة في هذا المجال ، وإخفاقها في إقامة القيادة الاسلامية المطلوبة . على سيـاسة الـولاة ، بمن فيهم معـاويـة ، لم تكن تمـر دون نقـد الخليفـة او محـاسبتـه عن الضـرورة ، حيث أشار الى ذلك مؤرخ دمشقي من القرن الماضي ، بأن « بعض أحواله »(٢) ـ والمقصود هنا معاوية ـ لم ترق عمر بن الخطاب ، دون أن ننسى في هذا السياق ، حادثة « الاداهم » والأموال التي أرسلها معاوية مع أبيه الى الخليفة القوي ، وإيصاله الأولى دون الثانية ، مما حدا بالخليفة الى وضع الأخير (ابو سفيان) في الأدهم (الفلق) ، حتى يسترد المال منه(٣) .

وكان الديون أول اشكال الادارة الجديدة ، المتـأثرة بـالتجربـة المتقدمـة لشعوب البلدان المفتوحة أو المجاورة لها ، حيث الكلمة في ذاتها فارسية الأصـل ، تعني السجل أو الجـدول(٤) . على أن للكلمـة مفهومـاً أوسع في اللغـة العربيـة ، يتـرادف والجهـاز

(١) يرفض المؤرخ الفرنسي المعاصر « كلود كاهن » القول بأن عمر كان صاحب المبادرة في معظم المؤسسات التي نشأت في العالم الاسلامي ، إذ من المسلم به حسب رأيه ، المباشرة منذ زمن الفتوح بتنظيم الأوضاع الجديدة الناجمة عنها . تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ص ٢٧ .

(٢) الحصني ، منتخبات التواريخ لدمشق ص ٨١ .

(٣) البلاذري انساب ج ١ ص ٩ .

(٤) يروي ابن طباطبا ان بعض مرازبة الفرس في « المدينة » نصح الخليفة عمر بقوله : « يا أمير المؤمنين انه للأكاسرة شيئاً يسمونه ديوان ، جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه لا يشذ منه =

الأداري ، المنوط به تنفيذ اعمال الدولة ، الادارية والمالية والعسكرية . فكانت مهمة « الديوان » من هذا المنظور ، متوافقة مع وصف ابن خلدون ، وهي « القيام على اعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج ، واحصاء العساكر باسمائهم وتقدير ارزاقهم وصرف اعطياتهم في اباناتها ، والرجوع في ذلك الى القوانين التي يرتبها قومة تلك الأعمال وقهارمة الدولة ، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحساب ، لا يقوم به الا المهرة من أهل تلك الأعمال ويسمى ذلك الكتاب بالديوان[1] .

كانت تلك بداية التحوّل الاداري ، والانتقال من القاعدة البسيطة والعفوية في معاملات الدولة ، التي بدأت بالتوزيع الفوري والمباشر لمواردها المالية بين « مواطنيها » المسلمين ، متأثرة بالتقليد المتداول حينذاك ، في توزيع الغنائم في شبه الجزيرة . فلم يكن هنالك اختلاف ، بين ما يعود لهؤلاء « المواطنين » ، وما يعود لبيت المال ، الذي بقي خارج دوره الطبيعي ، كمؤسسة عامة تنطوي على جهاز اداري وتخضع لنمط اجرائي معقد ، وذلك انطلاقاً من هذه النظرة السائدة الى « بيت المال » ، بأن كل عائداته المالية والعينية ملك للمسلمين ، وفق المعنى المجرّد الذي ترمي اليه هذه العبارة[2] .

ولم يعد ممكناً استمرار هذه القاعدة ، بعد مستجدات الفتوح على كافة الصعد ، الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية ، مما شكلّ حافزاً ملحاً ، لظهور ادارة مالية ، تعمل على تنظيم تلك العائدات الضخمة ، وتوزيعها حسب جداول ثابتة ، على نحو تتجاوز معه ، دائرتها الضيقة المتبّعة، الى اطار اكثر تنظيما وشمولية . وهكذا ظهر « الديوان »، باكورة هذا التحول الاجرائي في الدولة وأول اشكال الادارة العربية الاسلامية ، ومن ثمّ الخطوة التنفيذية الهامة ، في الطريق الى « المؤسسة » ، التي اخذت في النمو والاستقرار التدريجي في ذلك الحين .

وكان « بيت المال » في عهد عمر ، يستمد موارده الاساسية من الغنائم ،

= شيء ، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق عليها خلل » . الفخري في الآداب السلطانية ص ٨٣ .

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٤٣٠ .

(٢) ابن طباطبا ، الفخري ص ٨٣ .

فضلاً عن الزكاة والعشر والجزية والخراج وغيرها من الضرائب النقدية والعينية[1]. ولعل الأخيرة ، كانت على جانب من الأهمية ، بعد قرار الخليفة بابقاء الاراضي الزراعية في ايدي اصحابها الاصليين ، مما اسهم في توفير مناخ تشجيعي للاستقرار في البلدان المفتوحة من جهة ، وفي دعم عائدات الدولة الثابتة من جهة أخرى . وكان هذا القرار يعكس في الواقع ، النظرة البعيدة للخليفة ، الرامية الى تحقيق الانصهار والتلاحم السياسي والاجتماعي بين مختلف الفئات في الدولة الاسلامية ، خاصة وأن القبائل العربية التي شاركت في الفتوح ، لم تكن لمعظمها تجربة زراعية كافية . غير أن مسألة الارض واستثمارها خارج القطاع العام ، غدت مطلباً لما يسميه البعض بـ « الارستقراطية » الحجازية ، التي كان لجلّها امتداد الى عصر التجارة المكية ، مما سيؤدي الى تحفّظها إزاء قرار الخليفة والى تباين ملحوظ مع مصالحها في نهايات عهد الأخير . فقد شكل بالنسبة لفئة من قريش ـ بما في ذلك بعض الصحابة الكبار ـ كبحاً لطموحها ـ الذي لم تكن قد خبت فيه النزعة الفردية تماماً ـ في استقطاع الأرض الخصبة في السواد[2] والافادة من الظروف المستجدة ، خاصة بعد تطبيق الجانب العملي من القرار ، بالابتعاد عن البلاد المفتوحة والاقامة الدائمة في الحجاز .

هذا العائدات ، على تنوّعها ، كان يجري تسجيلها في « بيت المال » ، باشراف ومسؤولية جهاز ينتدبه الخليفة لهذه المهمة ، وفي مقدمته المسؤول الأول أو ما عُرف بـ « صاحب » بيت المال . وكانت عمليات التوزيع قد بدأت تتخذ شكلها المنظم ، الذي تعدّى الهبة أو المكافأة ، الى ما يشبه الرواتب الثابتة أو « العطاء » (الأسم المتداول) ، فضلاً عن الأموال المحولة بأمر الخليفة الى مشاريع ذات خصائص عامة .

(١) الزكاة ، ضريبة يدفعها المسلمون . وكانت غالباً على الابل والخيول في بعض الأحيان . اما العشر ، فهو الضريبة المفروضة على الضياع الكبيرة ، وفي عهد عمر ، فرضت ايضاً على التجار في شبه الجزيرة ، والجزية هي ضريبة الرؤوس على غير المسلمين ، وكانت تتأرجح قيمتها بين عهد وآخر ، وكذلك بين شخص وآخر تبعاً للدخل ، والخراج ، ضريبة الأرض على غير المسلمين ايضاً وتختلف باختلاف الفتح ، فإذا كان صلحاً اتفق على قيمتها ، وإذا كان عنوة ـ أي بالقوة ـ اعتبر البلد المفتوح غنيمة للمسلمين او ما يعرف بالفيء . غير ان هذا النوع الأخير لم يطبق في الغالب . راجع ابو عبيد ، الاموال ص ٢٦ وما بعدها . مولوي حسيني ، الادارة العربية ص ٨٤ ـ ٩٢ .

(٢) ابو عبيد ، الأموال ص ٨١ . ابن رجب ، الاستخراج في احكام الخراج ص ١١ .

اما القاعدة التي اعتمدت مقياساً لتوزيع العطاء ، فكانت متصلة بالعقيدة أي بالاسبقية والجهاد[1] ، فضلاً عن خلفياتها السياسية ، المتجلية في احتواء المعارضة ، خاصة من بني هاشم (اسرة النبي) ، وذلك بتقديمهم على غيرهم في العطاء[2] ، مما جعل هذا التدبير يتعرض لانتقاد بعض المؤرخين ، الذين تعرضوا له من منظور « طبقي » دون مراعاة الخصوصيات القرشية ، التي فرضت هذا التدبير ، حيث كانت له خلفية توازنية ، تدخل في اطار نهج سياسي عام اكثر ما تدخل في التوزيع الاجتماعي أو الفئوي لهذا العهد . فعلى الرغم من التصنيف الذي جعل لنبي هاشم ، هذا الامتياز ومعه تلك الافضلية ، الا انه أوجد الفرصة المتكافئة لأولئك الذين صنعوا الاحداث الكبيرة ، بمعزل عن أي اعتبار قبلي أو اجتماعي . ومن هنا يكتسب نظام العطاء أهمية خاصة ، قياساً الى ظروف تلك المرحلة ، حيث أوجد القاعدة السليمة للمواطنية ، التي تقررها واجبات الفرد وحقوقه في المقام الأول .

وقد نتساءل عن الطريقة التي سادت توزيع العطاء ؟ وعن العملة الرسمية المتداولة ؟ اما الجواب على ذلك ، فهو أن اية نقود خاصة لم تكن تصدر باسم الدولة ، التي اعتمدت على النقد الاجنبي ، تبعاً للموقع الجغرافي ، في هذه الولاية أو تلك . فالمعروف أن العرب قبل الاسلام ، على الرغم من شهرتهم التجارية ، كانوا تابعين نقدياً للامبراطورية البيزنطية بوجه خاص . ولا ريب أن ظروفاً معينة ، كانت تحول دون اصدار نقد مستقل في دولتي النبي والراشدين ، حيث ان اولويات هامة كانت تفرض الانصراف اليها ، مما أدى الى تأخير ذلك واستمرار النقود البيزنطية والكسروية في التداول ، حتى توافر الأجواء والشروط اللازمة . بيد أن الأولى ، كانت اكثر استخداماً في شبه الجزيرة والشام ومصر (الدينار) ، بينما الثانية انتشرت في

(١) يروي ابن الأثير ان الخليفة عمر « بدأ بالعباس - عم النبي - ثم الأقرب فالأقرب . . ثم فرض لأهل بدر خمسة آلاف . . ثم فرض لمن بعد بدر الى الحديبية اربعة آلاف . . . ثم فرض لمن بعد الحديبية ، الى أن أقلع ابو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف . . ومن شهد الفتح وقاتل عن أبي بكر ومن ولي الأيام قبل القادسية ،كل هؤلاء ثلاثة آلاف.ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين». الكامل ج ٢ ص ٥٠٢ - ٥٠٣ .راجع القائمة التي أوردها وات في الفكر السياسي في الاسلام ص ٧١ .

(٢) قيل أن نصيب العباس بن عبد المطلب كان سبعة آلاف درهم ، بينما زوجات النبي تحدى عطاؤهن العشرة آلاف ، ابن طباطبا، الفخري ٨٢ - ٨٤ . ابن الأثير الكامل ج ص ٥٠٢ .

العراق والمشرق (الدرهم)[١] ولكن الخلافة لجأت في الوقت نفسه الى تدبير يحفظ للعملة مستواها ويحميها من محاولات التلاعب والتزوير ،وذلك بإحداث جهاز للمراقبة ، وإضافة بعض الشعارات الاسلامية الى نقوشها ، أو الاكتفاء بوضع كلمة « جائز »[٢] على أحد وجهيها لإعطائها الصفة الرسمية .

وإذا بحثنا في نظام الحكم في عهد عمر ، نجد أنه من حيث المضمون كان استمراراً لـ « الثيوقراطية »[٣] التي سادت في العصر الاسلامي الأول (النبوي) ، أي أن الخليفة جمع في يده السلطة المطلقة ، دون أن يكون لهيئة ما دور في قراره . كان ذلك من حيث المبدأ ، الذي يمنح النبي هذا الحق ، وفقاً لشروط وأعراف غير مكتوبة ، وهي محصّلة في النهاية لممارساته اليومية كرجل دولة . بيد ان خلفاء العهد الراشدي ، على الرغم من الهالة التي احيطوا بها لدى جماهير المسلمين وقياداتهم ، فإن قراراتهم لم تأخذ طابعها الفردي الجاف ، بل كان هنالك ما يشبه المستشارين، وإن بصورة غير رسمية ، يمثّلون بعض كبار الصحابة وذوي التجربة والمعرفة ، غالباً ما زودت الخليفة بالنصيحة[٤] وناقشته في القضايا الهامة ، حيث كان المسجد (المدينة) ، المقر التقليدي لهذا النوع من الاجتماعات والمداولات المختلفة . وربما وصل الأمر الى حدّ المبالغة في تقويم نشاطات المجلس السياسية ، إذا ما توقفنا عند قول المؤرخ « امير علي » ومقارنته لها مع مجالس الشيوخ ، التي تستقطب عادة زعماء الدولة وشخصياتها ، حيث ان الخليفة ، لم يكن يقطع برأي دون استشارة « المجلس » حسب قوله ، قبل ان يستطرد في محاولته ، مؤكداً على هذا الشكل « الديمقراطي » للمرحلة الاولى من الاسلام ، واصفاً اياها بقوله : « إنها اقرب ما تكون الى النظام الجمهوري »[٥] .

---

(١) البلاذري ، فتوح ص ٤٥٣ . الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ١٤٨ .

(٢) المقريزي ، النقود الاسلامية ص ٩ .

(٣) المقصود بالحكم الثيوقراطي بان كل شيء في الدولة مرده الى الله . والخليفة في هذه الحالة هو المنفّذ لارادة الله والرسول . اما الأصل اليوناني لهذه الكلمة THEOCRATIA ، المشتقة من THEOI (الآله) و Cratia (السلطة) . راجع كتابنا ، الحجاز والدولة الاسلامية ص ١٤٦ .

(٤) أبو يوسف ، كتاب الخراج ص ١٢ ، ١٦

(٥) أمير علي ، مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ص ٥٠

ولعل هذا التصوّر لا يرقى كثيراً الى الواقع الذي ساد نظام الحكم في العهد الراشدي ، لا سيما عهد الخليفة عمر ، الأكثر تعبيراً عن هذا الأخير ، حيث كان لشخصيته القوية ، الحضور البارز في شتى مرافق الدولة وسياستها الداخلية والخارجية . وما يقال عن « مجلس » شوروي ، لم يكن على الأرجح متواجداً بصفته الهيكلية المجردّة ، فإن ذلك لا يخرج عن تقليد مألوف ، كان متّبعاً في دولة النبي واستمرّ في دولة الراشدين . وإذا ما رجعنا الى قول القاضي الشهير « ابي يوسف » ، لا نجد ما يقطع بوجود هذا « المجلس » من الناحية العملية التي يفترضها المؤرخ « أمير علي » ، سوى مجرد ايحاء بدور شيوخ الصحابة وكبارهم الى جانب الخليفة . وهؤلاء ، حسب ما جاء في « كتاب الخراج » « مجلس من من الكبار المسنين ، هم أهل الشورى ، وكان يتألف من كبار الصحابة ، وكانت جلساته تعقد في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي أغلب الأحيان كان يساعد هذا المجلس أعيان « المدينة » وزعماء البدو ، الوافدون الى « المدينة » ، فضلاً عن أنه كان في مقدور كل فرد ممن حضر المجلس أن يدلي برأيه »[١] . فالعبارات الواردة في هذا النص ، ينبغي أن لا تؤخذ في معزل عن محتواها الحقيقي ، وأن لا تتداخل الالفاظ في المعاني الى حدٍّ تنوء به الأخيرة . فكلمة « مجلس » هنا لا تنطوي على أي مدلول تنظيمي أو سياسي ، بقدر ما تعني الفئة أو المجموعة ، إن لم نقل « الجماعة » ، الأكثر تداولاً في ذلك الحين . كما أن الكلمة الثانية المستخدمة على نطاق واسع ، أي أهل الشورى[٢] ، المترادفة على ما يبدو مع المسلمين الأوائل ، لا سيما « المهاجرين » ، كانت لها دلالة نوعية في المقام الأول ، في تمثيلها للجماعة التي يستأنس اليها الخليفة بالمشورة والرأي ، دون أن ننسى الاطار العام الذي حدّده « أبو يوسف » لهذا الأمر في قوله السالف ، حيث كان ما يفترض انه « مجلس » ، يضم من حيث المبدأ ، كل من خوّلت له النفس في المشاركة ، بصرف النظر عن المستوى الذي يؤهله للقيام بهذا الدور الاستشاري ، المقتصر عملياً على شيوخ الصحابة او أهل الشورى .

وهكذا يتضح لنا ، أن أي « مجلس » - كهيئة مستقرة ذات دور محدّد - لم يكن له

(١) ابو يوسف ، كتاب الخراج ص ٣٠

(٢) الامامة والسياسة ج ١ ص ٤٤

وجـود محسوس في نـظام الحكم الراشـدي ، دون أن ننفي بأنـه كان حـاضـراً بصـورة معنوية ، من خـلال لقاءات المسجـد التقليديـة والدائمـة ، وذلك بـالقدر الـذي يُتاح للزعماء ، المشاركة في مناقشة القرارات الهامة ، انـطلاقاً من الـدور البارز للمسجـد في حياة المسلمين السياسية والعسكـرية ، الى جـانب دوره الديني المـألوف كبيت للصـلاة والعبادة . وكانت ثمة اسماء قيادية لافتة ، تألقت في العهد الراشـدي ، وتحمّلت اعباء مهمات دقيقة وخطيرة . فعمر مثلاً ، تولى القضاء في عهد ابي بكر ، فضـلاً عن قيامـه بما يشبه مهام المستشار الأول للخليفة[1] . وبعد أن آلت اليه السلطة ، قُدّر لعلي ـ على الرغم من فتور العـلاقة بـين الرجلين في مـطلع العهد ـ أن يشغـل دوراً غير عـادي ، سـواء كمستشـار أو مسؤ ول عن القضـاء وأسـرى الحـرب[2] ، أم كنـائب للخليفـة نفسه[3]، اثناء غياب الأخير في الشام ومشاركته في « مؤ تمر » الجابية .

ومن الجـائز القـول ، إن دولـة لهـا ذلـك الاتسـاع وتلك الـطاقـات ، كـان من الصعوبة ادارتها بقبضة واحـدة ، مهما كـانت قويـة وشديـدة . فعلى الـرغم من مفهوم السلطة لدى الخليفة عمر ، المستمد من ايمانه بـالنظريـة « الثيوقـراطية » ، التي كـانت طابع الدولة الراشدية بشكل عـام ، ذلك المفهـوم الذي تجـلّى خاصـة في عدم تسـاهل الخليفة إزاء قيام مراكز قوى داخل الحكم ، فإنه الى جانب ذلك ، لم يكن كثير الجنوح الى الفردية ، حيث كان ميالاً الى مناقشة كبار الصحابة في المواقف الصعبة (استشاراته بصدد فتوح العراق على سبيل المثال) واتخاذ اعوان له من بين الصفوة منهم (ما أشـرنا اليه سابقاً في هذا الصدد) . وليس ثمة شك ، انه كان يحسن جيداً الاختيـار ، سواء في الادارة العسكرية أم المدنية ، بحيث كان القادة والولاة والكتّاب وبقيـة الموظفـين ، الصورة المثلى ، سلوكاً وانضباطا ، لعهده القوي والمتماسك .

كـانت تلك ملامـح الحكم المركـزي في « المدينـة » ، حيث تمتّع الخليفـة بنفـوذ كبـير ، استمده في الـواقع من سلطتـه الواسعـة ، الجامعـة لكافـة الـوظـائف المـدنيـة والعسكرية . اما خارج هـذا النطاق ، فقـد جرى تقسيم الـدولة الى ولايـات ثمان : اثنتان منها في الحجاز (المدينة ومكة) ومثلهما في العراق (البصرة والكوفة)، بالاضافة

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٢٤٣، ابن خياط ، تاريخ ج ١ ص ٩٩

(٢) الطبري ج ٤ ص ٨٢

(٣) ابن الأثيرج ٢ ص ٥٠٠ . مولوي حسيني، الادارة العربية ص ٧٩

الى الشام والجزيرة ومصر وفلسطين[1] . وقد تُقسم الولاية أحياناً الى وحدات محلية ، تتبع « الوالي »، الذي كانت ادارته صورة مصغرة في هيكليتها عن النظام المركزي في « المدينة » . فإلى جانب الوالي او « الامير » كما أُطلق عليه احياناً، كان القاضي الذي بسلطة واسعة ذات صفة استقلالية في الغالب ، ثم « صاحب بيت المال » و « صاحب الديوان » ، المسؤول المباشر عن مرتبات (اعطيات) الجنود[2] . ولا بدّ من الاشارة الى أن الوالي ، كان القائد العسكري من حيث المبدأ ، حيث يختار القادة وينظّم الحملات ، ومن ثمّ يشارك فيها أو ينتدب عنه من يقودها ، وذلك بالتنسيق مع السلطة المركزية في « المدينة » .

ومن البديهي ، ان العرب المسلمين ،وقدغادروا شبه الجزيرة كمجموعات وقبائل مقاتلة ، أن لا يُحدث انتشارهم في الامصار اية تعديلات جذرية في التكوين السكاني لهذه الأخيرة ، حيث ظلّت المدن والقرى على سابق عهدها ، مقتصرة على سكانها الاصليين ، دون ثمة تمازج او تخالط حتى ذلك العهد بين هؤلاء وبين المسلمين ، بعد ان حرص الخليفة ، على أن يكون العرب المادة المقاتلة ، في وقت لم يكن فيه اسلام الشعوب التي خضعت بلدانها لهم ، قد طرح جدّياً في تلك المرحلة المبكرة . وفي المقابل كان ثمة قرار حاسم ، بإبعاد العرب عن المراكز الحضارية ذات الجذب والاستقطاب ، مثل المدائن والاسكندرية ودمشق ، بغية المحافظة على الروح القتالية لدى الجنود ، في وقت كانت لا تزال حركة الفتوح في اوج التألق والاندفاع . ولذلك اقتصر الوجود العربي حينذاك ، على القواعد (الامصار) والحاميات (الاجناد) ، حيث كان يتمّ اختيار الأولى عادة على شواطىء الانهار الكبيرة ، بينما الثانية كانت داخل المدن وعلى التخوم ، فضلاً عن الخطوط العسكرية المتقدمة .

وكانت قاعدة « البصرة » في جنوب العراق ، من أقدم هذه الأمصار ، حيث يُنسب بناؤها الى القائد عتبة بن غزوان[3] في سنة تتراوح بين الرابعة عشر او الخامسة عشر من الهجرة[4]. وتأتي بعدها «الكوفة»، التي انشئت في اعقابها

(١) مولوي حسيني ، الادارة العربية ص ٨٠

(٢) الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ٢٠٣ وما بعدها

(٣) الدينوري ، الاخبار الطوال ص ٢٠٣ وما بعدها

(٤) تتراوح بين سنة ١٤ هـ (الطبري ج ٤ ص ١٤٨ ـ معجم البلدان لياقوت ح ١ ص ٤٣٣) وبين سنة ١٥ (ابن حوقل، صورة الأرض ص ٢١٢).

على يد قائد المسلمين في القادسية ، سعد بن أبي وقاص ، وذلك في سنة سبع عشرة للهجرة[١] . وما لبثت كلتاهما أن تطورت بصورة غير عادية ، واصبحت بعد خلال السنوات العشرين اللاحقة مكتظة بالسكان ومزدحمة بالعمران ، ما يفوق الحواضر العراقية القديمة . وعلى الرغم من نشأتها (البصرة والكوفة) في ظروف متشابهة في المكان والزمان ، فقد انفردت كل واحدة بسماتها الخاصة والمتميزة عن الأخرى . فبينما عاشت الأولى في ظلّ الموالاة بصورة شبه دائمة للسلطة في العصرين الراشدي والأموي ، وذلك تحت تأثير مصالحها الاقتصادية والقبلية التي كانت أكثر انتعاشاً من الكوفة ، عاشت الثانية اوضاعاً متناقضة ، من السلطة القصيرة الى المعاناة الطويلة ، بعد أن حملت لواء المعارضة واستقطبت معظم الحركات الثورية المعادية للحكم الأموي[٢] .

اما القاعدة الثالثة فقد ظهرت في اعقاب السيطرة على مصر بقيادة عمرو بن العاص . وحملت اسم الفسطاط[٣] . وقد نمت هذه القاعدة أيضاً وتحولت بسرعة الى مدينة كبيرة على غرار البصرة والكوفة ، حيث ظلّت حتى انشاء القاهرة في العصر الفاطمي المركز الاداري ، ليس فقط لهذه الولاية ، ولكن لما سُمي ايضاً بولاية أفريقية ، التي كانت تابعة لمصر خلال العهد السفياني وجزء من العهد المرواني من تاريخ الدولة الأموية . ولعل هذه القواعد الثلاث اسهمت معاً بدور حيوي في خدمة السياسية التوسعية ، حيث الاختيار الجغرافي لمواقعها الحساسة ، وذلك في مناطق قائمة على تخوم دول وشعوب لم تخضع لسيادة الدولة الاسلامية . فقد انطلقت تباعاً من هذه القواعد (الامصار) ، الحملات العسكرية ، سواء في العراق ، مطاردة ملوك الفرس الساسانيين في المشرق ، أو في مصر ، حيث زوّدت الفسطاط أطول عملية توسعية ضد البيزنطيين والبربر في المغرب[٤] .

وكان يتفرع عن هذه القواعد الكبرى ، مناطق عسكرية (اجناد) ، أشبه ما

---

(١) البلاذري ، فتوح ص ٢٧٤

(٢) I. BEYDOUN, Elements D'analyse de L'irédentisme iraqien sous les Omayyades, p. 29 - 31. Grénoble. 1971. M. s

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٩١ وما بعدها

(٤) ابراهيم ببضون ، الدولة العربية في اسبانيا ص ٢٠ وما بعدها

تكون بثكنات أو حاميات يتجمع فيها الجنود ، اتخذت اماكنها في المدن الكبرى بصورة عامة[1] . ولعل هذا الاجراء ، تأثر بحدود ما بالنظام العسكري لدى البيزنطيين ، الذين درجوا على إقامة هذا النوع من الحاميات ، المعروفة لديهم باسم (Thema)[2] ، في المواقع نفسها التي أقام فيها العرب المسلمون « اجنادهم » فيما بعد . ولكن هذه الأخيرة ، فيما يبدو ، كانت لها اصول عربية اسلامية ، انطلاقاً من مؤشرات قرآنية لافتة في الدلالة على ذلك ، حيث وردت « جنود »[3] في معرض التعبير عن القوة العسكرية المقاتلة . وتبقى أخيراً « الثغور »[4] ، أي المعاقل الحربية الواقعة على الحدود مع العدو ، وهي عبارة عن نقاط عسكرية ثابتة كان الغرض منها مراقبة القوات البيزنطية ورصد تحركاتها في ذلك الحين ، متطوراً هذا النظام في وقت لاحق الى حرب تقليدية بين الأمويين والبيزنطيين ، عُرفت بـ « حرب الثغور »[5] الشهيرة .

ولعل الخليفة عمر ، نجح من خلال منجزاته المدنية والعسكرية، في أن يتجاوز الاطار الحجازي الضيق للسلطة ، الى الاطار الاسلامي الشمولي للدولة ، التي قطعت شوطاً هاماً على طريق المؤسسة ، ذات النظم الادارية والمالية والحربية المستقرة . والواقع أن هذه المحاولة ، جاءت تعبيراً عن حاجة شديدة الى متطلبات ، لم تعد تفي بها التنظيمات المحلية القائمة في الحجاز وشبه الجزيرة . فهذا المجتمع الجديد ، الذي خرج به الاسلام ، من موقع التخلف الديني والاستغلال الاجتماعي والاقتصادي ، الى موقع المبادىء والقيم والتحرر من الرواسب القديمة ، بات مطلوباً منه ، القيام

---

(١) من ابرز هذه الاجناد . دمشق ، حمص ، قنسرين ، فلسطين ، الأردن

(٢) هونجمان E. HONIGMAN دائرة المعارف الاسلامية ج ٦ ص ٢٠٣ - ٢٠٥

(٣) راجع سورة البقرة ، الآية ٢٤٨ : فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني الا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه الا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه ، قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون انهم مُلاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة باذن الله والله مع الصابرين . والآية ٢٤٩ : ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا افرغ علينا صبرا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. وكذلك بحث الجيش وتمويله للدكتور محمد بطاينة : مجلة دراسات . الجامعة الاردنية - المجلد الثامن . العدد ٢ كانون الاول ١٩٨١ . ص ٥٤ .

(٤) البلاذري ، فتوح ص ١٨٧ وما بعدها

(٥) المكان نفسه . عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي ج ٢ ص ٣٦ .

بدوره الحضاري الساطع، النافذ الى وجدان الشعوب التي سيطر عليها العرب المسلمون ذلك أن حركة الفتوح ، اصبحت في ذاتها القضية ، بالنسبة لمقاتل ذلك العهد ، ولم تعد مجرد رغبة في التوسع أو نزوع الى الغنيمة أو عطش الى الحرب ، التي اصبحت حرفة العربي « المهاجر » الى الأمصار وجبهات القتال . أي أن هذه الحركة ، اصبح لها مفهوم يرقى الى استقطاب الانسان نفسه ، بما لديه من تراث وتاريخ ، وذلك في اطار مجتمع واحد وعقيدة مشتركة . ومن هذا المنظور ، كانت تلك المحاولة الى تحقيق مزيد من التكافؤ ، بين القضية والنظام وبين الفكرة والممارسة ، مكرّسة المعادلة الفذّة التي تبلورت حينذاك ، ومعها ملامح الدولة ـ المؤسسة .

وإذا كانت شخصية عمر القوية ، قد وفّرت الأرضية الجيدة لهذه التجربة المتطورة والهامة ، فمن البداهة أن هذه المحاولة ، كانت موصولة بخطوات اوسع على الصعيد التنظيمي ، لولا الضربة القاضية التي تلقتها الدولة الاسلامية ، بافتقاد الخليفة ، بعد أن اثبتت التطورات المعاكسة أن التجربة لم تكن متكاملة ، بل كانت تستمد حياتها من حضوره ، حتى إذا غاب عن السلطة ، بدا وكأن هجمة مضادة ، اغتالت بالذات انجازات الخليفة ، وبعثت الحياة مجدداً في ذهنية ، اعتقد البعض عن خطأ ، انها اضمحلت وغابت في التاريخ . غير أن اصحابها ، الذين استكانوا حيناً وتراجعوا مكرهين الى الوراء ، ما لبثوا أن تحركوا في الوقت المناسب ، مدركين تماماً ماذا يريدون وما يخبئونه للغد . فلم يكن غيابهم من هذا المنطلق ، سوى هدنة مؤقتة ، أو مجرد انكفاءة يتربصون وراءها بهدوء الخصم القوي . . ولم يطل الأمر، حتى سقطت هذه المحاولة ، ومعها تراث السنوات الأولى العظيم .

« اغتيال » الدولة الراشدية

. . وفجأة سقط عمر بن الخطاب ومعه منجزاته ، في مسجد « المدينة »[1] . وكان القاتل شخصاً مغموراً ، لا يعرف الناس من أمره ، الا أنه خادم للمغيرة بن شعبة ، من زعماء ثقيف في الطائف . أما اسمه فهو ابو لؤلوة المجوسي . . وبقية التفاصيل تشير الى أنه فارسي الأصل من نهاوند، وأنه كان قد شكا الى الخليفة ثقل خراجه[2] . . وأما المبلغ موضوع التذمر فلا يتجاوز الدرهمين[3] . وتتابع الرواية سرد الحادثة بغير وضوح ، وأحياناً من غير تسويغ ، فتنتهي الى « انتحار » المتهم[4] أو مقتله[5] ، ومن ثم انتقام عبيد الله ابن الخليفة ـ الضحية من « الهرمزان » ، أحد رجالات الفرس في المدينة ، فضلاً عن امرأة القاتل وابنته[6] . وتنطوي القضية ويتوقف التحقيق[7] ، مكتفياً أو متظاهراً بالاسباب المعللة المعروفة ، ويُسدل الستار على الحادثة الغريبة ، وتشخص بعدها الانظار الى الخليفة الجديد .

وإذا كانت الرواية متداولة ومعروفة ، فسأكتفي منها بالتوقف عند نقطتين ، يجدر

---

(١) سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤ م .
(٢) المسعودي ، مروج ج ٢ ص ٣٢٠
(٣) الطبري ج ٥ ص ١٢
(٤) المسعودي ، مروج ج ١ ص ٣٢١
(٥) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ١٦٠
(٦) المكان نفسه
(٧) الطبري ج ٥ ص ٤١

بـالباحث المـوضوعي عـدم المرور بهـما مروراً عـابراً وسـطحياً : الاولى تتعلق بـاسباب الاغتيال ، والثانية بدور عمر في اختيار هيئـة « السنة » من الصحـابة ، المـوكول اليهـا انتخاب خليفة له .

وبالنسبة للنقطة الأولى ، فإن الحادثة كـما نقلتها المـرويات ، تبـدو على كثـير من الابهام ، لا سيما وأن حادثة عـلى هذا المسنـوى ، تحتاج الى ادّلـة ثبوتيـة مقنعة ، قبـل دخـولها في دائـرة المنطق والمـوضوعيـة . ذلـك ان اقـدام مـولى كـأبي لؤلؤة من تلقـاء نفسـه ، عـلى اغتيـال الخليفـة وأقـوى شخصيـات الـدولـة في حينـه ، ربمـا كـان خـارجاً عـلى القواعـد المألـوفة ، الا اذا كـان مدفـوعاً بمسّ او لـوثة ، وهـو ما لم تشـر اليـه الروايـة التاريخيـة . وفي هذه الحـالة لا تكـون ثمـة دوافـع وجيهـة وراء المتهم ، لاقتحام هذه المغـامرة الجـريئة ، في وقت لا يسـتـطيع أحـد ربط هذه القضيـة بعوامـل خـارجية ، مبنيـة على هـوية القـاتل الفـارسية . وفي حـالة انتفـاء الـدافـع الشخصي السـاذج ، ومعه الدافع « القومي » الأكثر سذاجة ، يبقى الافتراض الواقعي ، هـو أن تكون للقضية خلفية سياسية . فقد لا يكون بعيداً عن الاحتمال ، وجود « مؤامرة » ، محبوكة الخيوط ، استهدفت الخليفة القوي ، كان ابو لؤلؤة اداتها المنفّذة ، وهـو اعتقاد مبني في المقـام الاول ، عـلى رفض الاسبـاب الهـزيلة التي تنـاقلهـا المـؤرخـون التقليـديون[1] ، التي تتعـارض مع الجـو السياسي ، غـير الـودّي المحيط بـالخليفـة في السنوات الأخيرة من عهده .

وإذا كان لهذا التصوّر حظّه من الموضوعية ، فإن الاتهام لا بدّ أن يتجه الى الفئة المستفيـدة من اغتيال عمـر ، ومحاولـة تفسير الفتـور الذي سـاد علاقتـه بالأخيرة عشية اغتياله . ولعـل تصرّف عبيـد الله بن عمر ، ومـا تفوّه بـه من كلمات غـير عفويـة في اعقاب الحادثة ، تعزّز هذا الاعتقاد ، وذلك بما نسب اليه : « لأقتلن رجالاً ممن شـرك في دم أبي »[2] . والـواقع أن الخليفـة ، لم يكن بعيداً عن سخط المتـذمرين من بقـايـا التجـار وذوي الثـراء ، الـذين وجـدوا في « شـدّته » ضـربـة لمصـالحهم الفئـويـة أو الشخصية ، دون أن يكون هؤلاء منتمين بالضرورة الى الاتجاه القـرشي ، حيث وُجد

(١) الطبري ح ٥ ص ١٢

(٢) المصدر نفسه ج ٥ ص ٤١

بينهم ، سواء عن اختيار أو تضليل ، من كان في مقدمة الصفوف في الاسلام .

ومن هذا المنظور ، تعارضت الأهداف والمواقف ، بين عمر الملتزم بفكرة الدولة وقوانينها حتى التصلّب ، وبين الاتجاه القرشي والمتحالفين معه عضوياً أو مرحلياً ، وبقية المرتهنين لتراثهم القبلي ونزعاتهم الفردية الخاصة . ولعل أبرز مؤشرات الافتراق بين الطرفين ، اندماج الخليفة بصورة عفوية في هموم ومعاناة الفئات المتوسطة والفقيرة ، خاصة الأخيرة ، الأكثر افادة من نظام العطاء الذي اقرّه الخليفة ، وفق المفهوم ، المجسّد عملياً لأمال ومصالح الاتجاه الاسلامي ، من خلال المقولة المنسوبة لعمر في « خراج » أبي يوسف : « لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه »[1] .

اما النقطة الثانية ، فهي محصّلة لسابقتها بدون ريب ، حيث إن الفئة المتهمة بأنها ربما حاكت « مؤامرة » الاغتيال ، من المفترض أيضاً ، أنها نسجت باتقان مشابه شخصية البديل ، بما يتوافق والحوافز المحركة لهذه الفئة ، التي جمع بينها الموقف المشترك من الخليفة ، دون أن تكون بجميع عناصرها منتمية الى اتجاه سياسي واحد . ولعل السؤال البارز هنا . يتصل بالظروف التي أدت الى ظهور هيئة الصحابيين الستة ، وهو ما عُرف بـ « مجلس الشورى » بالطريقة الفجائية نفسها . فهل كان ذلك « المجلس » الذي ظهر من دون مقدمات فور اغتيال عمر ، قائماً بصورة ما قبل ذلك ؟ . أم أن عمر ، قبيل وفاته سعى الى تشكيله ، تفادياً للانقسام والصراع على خلافته ؟ والواقع ان أي جواب قاطع ، قد لا تحمله لنا المرويات المعروفة ، حيث نلاحظ في « مروج الذهب »عزوف عمر عن تسمية مرشح ما أو حتى هيئة مؤقتة ، على الرغم من الحاح ابنه عليه (عبيد الله)[2] . ، بينما نرى رواية الطبري ، قد ارتدت مسحة من الخيال[3] من خلال الإيحاء بأن الخليفة الذي أصيب بست طعنات قاتلة[4] ، كان في وضع ، قد

(١) كتاب الخراج ص ٤٣

(٢) وأن اتركهم فقد تركهم رسول الله (ص) . من قول عمر الى ابنه عبد الله قبيل وفاته . المسعودي ، مروج ج ٢ ص ٣٥١

(٣) انظر حوار عمر وكعب الاحبار الذي اسّر الى الخليفة بخبر موته بعد ثلاثة أيام ، دون أن يتدارك الخليفة النتائج على معرفته بها ، حسب زعم الرواية . الطبري ح ٥ ص ١٣

(٤) المصدر نفسه ج ٥ ص ١٢

لا يمكّنه من تشكيل المجلس المذكور . ومع ذلك فإن الخليفة ، وهو على فراش الموت ، يتخطى النزف الشديد والآلام المبرحة بضعة أيام ، استطاع خلالها ، حسب الرواية ، أن يتناقش بأمر الخلافة مع الصحابة الكبار(١) .

ويجد الباحث نفسه ، ربما تحت الحاح فضوله ، في مواجهة مواقف ، قد لا تكون عفوية الى هذا الحدّ ، حيث أن تركيبة « المجلس » الذي قيل إن عمر قد وضع ثقته فيه ، لا تحمل مطلقاً على هذا الاعتقاد ، ذلك ان جميع اعضائه باستثناء عليّ بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص ، لم يكن لهم دور لافت في الحياة السياسية والعسكرية . كما أن معظمهم بمن فيهم سعد ، كان من أقطاب المجموعة التي لم تستسغ كثيراً اجراءات الخليفة (عمر) وقوانينه الصارمة ، حتى إنه لا ينجو من تهمة الاستغلال(٢)، التي كلفته منصبه كحاكم على العراق وقائد للقوات الشرقية . كذلك فإن هؤلاء الستة الكبار من الصحابة ، كانوا غير حائزين بمجملهم تماماً على رضى الخليفة ، إذا ما توقفنا عند رواية الزهري ـ شأن الرواية السالفة التي اوردها المسعودي ـ المتعارضة مع ظهور المجلس على النحو الذي صار اليه(٣) .

ومن ناحية أخرى ، فإن البروز المفاجىء لعبد الرحمن بن عوف ، بعد حادثة

---

(١) الطبري ج ٥ ص ١٢ ـ ١٣ . ابن طباطبا ، الفخري ص ٩٦ ـ ٩٧ .

(٢) ابن سعد، الطبقات ج ٣ ص ٢٨٧

(٣) ذكرت الرواية أن ابن عباس قال : «وجدت عمر ذات يوم مكروباً ، فقال ما أدري ما أصنع في هذا الأمر! أقوم فيه وأقعد؟ فقلت هل لك في عليّ ، فقال أنه لها لأهل ولكنه رجل فيه دعابة وإني لأراه لو تولى أمركم لحملكم على طريقة من الحق تعرفونها . قال قلت فأين انت عن عثمان؟ فقال ، لو فعلت لحمل ابناء ابي معيط على رقاب الناس ثم لم تلتفت اليه العرب حتى تضرب عنقه . . فقلت فطلحة؟ قال إنه لزهوّ ما كان الله ليوليه أمر محمد (ص) مع ما يعلم زهوه . . قلت فالزبير؟ قال انه لبطل ولكنه يسأل عن الصالع والمدّ بالبقيع بالسوق ، افذاك يلي من امور المسلمين؟ . . فقلت سعد بن ابي وقّاص؟ قال ليس هناك ، انه لصاحب مقتل يقاتل عليه ، فأما ولي امر فلا . . فقلت فعبد الرحمن بن عوف؟ قال نعم الرجل ذكرت ولكنه ضعيف». الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ١٢ ، وعن رواية ابن اسحاق، نسب لعمر القول مستنكراً على عثمان، عندما طُلب اليه استخلافه : «كيف، انه يحب المال والجنة». وعن عليّ «يحملكم على طريقة هي الحق . قال عبد الله بن عمر ، فانكأت عليه عن ذلك وقلت يا أمير المؤمنين وما يمنعك عنه؟ فقال يا بني اتحملها حياً وميتاً» . المصدر نفسه ص ١٣ . راجع ايضاً مقدمة الدكتور رضوان السيد لقوانين الوزارة وسياسة الملك للماوردي ص ١٤ .

الاغتيال ، وظهوره في الوقت المناسب الى جانب عمر في ساعاته الأخيرة ، حيث دعاه لأن يؤم الصلاة بعد طعنه[1] ، يحتاج ايضاً الى بعض المناقشة . فقد انتقل هذا الصحابي الشديد الثراء[2] ، فجأة الى واجهة الاحداث ، بعد أن عاش في الظلّ طويلاً ، منصرفاً الى شؤونه المالية والتجارية التي اصاب فيها الموقع الأقوى منذ الهجرة الى « المدينة » ، ليقوم بالدور الأول في تسمية الخليفة ، دون ان تكون مجرد مصادفة أن يكون أول المتنازلين عن « الحق » ، الذي منحه له « المجلس » في ترشيح نفسه للخلافة ، لمصلحة عثمان بن عفان .

وتبقى فصول البيعة معروفة لا تحتاج الى مزيد من التوضيح ، حيث جرى اختيار عثمان لخلافة عمر . فهو على الرغم من المكانة التي اتخذها لنفسه بين صفوف التاريخيين في الاسلام ، فإن عقبات ربما حالت دون وصوله الى هذا المنصب ، لو اتخذت الأمور مسارها الطبيعي . ذلك ان عثمان كان متقدماً في السنّ على اقرانه « المرشحين » ولا يتمتع بصفات القيادة السياسية ، مما جعله غير قادر تماماً لعدة اعتبارات على ملء فراغ سلفه القوي . ولقد اثبت بعد قليل من الوقت ، بأنه لم يكن صاحب قرار حتى في اسرته الأموية ، التي حذّر من تسلطها الخليفة السابق ، إن جرى اختيار عثمان ، حسب الرواية التاريخية[3] ، خاصة وأن الأخير لم تكن له الزعامة الفعلية في هذه الاسرة ، التي توزعت حينذاك بين مروان (بنو العاص) في الحجاز وبين معاوية (بنو حرب) في الشام . وكان أول امتحان على مستوى المسؤولية لكفاءته في السياسة ، تلك المهمة التي قام بها في مكة ، حين اوفده النبي للتفاوض مع أبي سفيان ، والتي كادت أن تجرّ الى الحرب مع قريش ، لولا انقاذ الموقف عبر صلح الحديبية الشهير[4] .

وهكذا ، مع المداولات الأولى ، شعر علي بغربته في « المجلس » ، وبأن اتجاه الرياح التي كاد يطمئن اليها في اواخر ذلك العهد ، تحوّلت الى مسار آخر ، وسط غموض ، كانت السنوات اللاحقة ، بتطوراتها السريعة والخطيرة ، كفيلة باجلائه أو

---

(١) الطبري ج ٥ ص ١٢
(٢) الامامة والسياسة ج ١ ص ٢٧
(٣) الماوردي ، احكام ص ١٢
(٤) ابن سعد ، غزوات الرسول وسرياه ص ٩٧

الكثير منه . ولم يعد ثمة امل في تغيير النتائج التي بدت واضحة لغير مصلحة علي ، في وقت توحّدت إرادة الخمسة الآخرين ، حول قاسم مشترك ، يحول دون إيصاله الى الخلافة . ولقد عبّر الأخير عن معاناته إزاء هذا الموقف لابن عباس ، الذي عاتبه على الدخول في الشورى ، بما نسبه اليه الماوردي : « كان أمراً عظيماً من امور الاسلام ، لم أر لنفسي الخروج منه »[1] . ومن الواضح أن علياً ، الذي مثّل دائماً الاتجاه الصلب في الاسلام ، ذلك المستقطب بصورة عامة ، الفئات المتوسطة والفقيرة ، والمعبّر عن مصالحها وأفكارها ، كان يثير مخاوف هذه المجموعة ، التي انتقل الى يدها القرار بطريقة ما ، ذات المنحى الآخر والهموم المختلفة . ولذلك أُبعد علي عن السلطة للمرة الثالثة ، ليست فقط بسبب انتمائه الهاشمي ، ولكن بسبب افكاره المتشددة والتزامه المطلق بالاتجاه الاسلامي ، ذلك الموقف الذي دفع عمر الى القول فيه « يحملكم على طريقة هي الحق »[2] ، الموقف نفسه ، الذي أثار هذه « الارستقراطية » الجديدة أو المتجددة ضد الخليفة المقتول .

(١) الاحكام السلطانية ص ١٠

(٢) المصدر نفسه ص ١٣

المنعطف

لعل عثمان جاء الى الخلافة ، وهو لا يعرف الكثير عن دور القوى الخفية التي مهّدت له الطريق ، فالقوم ، اصحاب الرأي ، وجدوا في شخصيته المتردّدة ، وفي انتمائه الأموي ، المدخل الى تحقيق طموحهم في السلطة والثراء وحرية الحركة . ومن هذا المنظور ، فإن اعتلاءه سدّة الحكم في تلك الظروف ، كان يحمل معه انتصاراً مقنّعاً للتيار القرشي ، الذي ما لبث ان تسلل من خلال رؤوسه البارزة ، الى مراكز النفوذ في السلطة ، بصورة متقنة وذكية . ولو أردنا معرفة أوضاع المجموعة التي اسهمت ، كواجهة على الأقل ، في صنع ذلك الحدث الخطير ، نجد أنها كوفئت بأجمعها ، بعد اصابتها ذلك الحدّ البالغ من الثراء ، خلال سنوات قليلة فقط من عهد الخليفة الجديد . فالزبير بن العوّام مثلاً ، كان أول المهاجرين الى العراق ، بعد إبطال قرار الخليفة السابق ، فإذا به يمتلك ثروة ضخمة ومزارع في « السواد » وبيوتاً في الكوفة[1] ، وكذلك طلحة بن عبيد الله ، الأكثر حظوة ربما في هذا العهد ، حيث قيل إن آخر ما ناله، كان مبلغ خمسين الفاً جعله عثمان « معونة له»[2]، بالاضافة الى اقطاعه اراضٍ في السواد[3] ، وكذلك عبد الرحمن بن عوف ـ عرّاب البيعة العثمانية ـ الذي كان الأوسع ثراء ، كما سبق أن أشرنا ، وأخيراً سعد بن أبي وقاص ،

(١) المسعودي ، مروج ج ٢ ص ٣٣٢
(٢) الطبري ج ٥ ص ١٣٩
(٣) ابو عبيد ، الأموال ص ١٢١

المتهم بالثراء والاستغلال منذ القادسية[1] . هذا عدا عن حياة الترف والليونة التي عاشها هؤلاء وفي مقدمتهم الخليفة ، المختلفة عن حياة البساطة والعفوية ، التي اتسمت بها الدولة حتى ذلك الحين[2] .

وإذا كانت « النخبة » التي وضعت في يدها تقرير مسألة كالخلافة ، قد انزلقت بعد ارتقاء عثمان السلطة ، في شرك الاثراء غير العادي ، إن لم نقل غير المشروع ، فكيف بالجماعات الأخرى المغمورة أو ذات الايمان السطحي . وإذا تجاوزنا هؤلاء الكبار ، الى اعوان الخليفة ومساعديه ، الذين شكّلوا جهاز الحكم في عهده ، سنجد أن غالبيتهم المطلقة ، كانت تمتُّ اليه بالقرابة بشكل أو بآخر[3] ، على نحو نقض تماماً سياسة الخليفة السابقة ، الذي تعمدّ استبعاد عشيرته (عديّ) عن مراكز النفوذ[4] . فهي عودة إذن الى مرحلة ما قبل الدولة أو تكاد ، حيث ملكية المال هي المحور وهي الهدف لكبار الساسة والقيادات القبلية البارزة . ومعنى ذلك ان ملامح العهد السابق أخذت تدريجياً في الانهيار ، وتضاءلت حتى الاختفاء ، القضية المشتركة ، مع بداية تفسّخ المجتمع وتراجع القيم . وإذا كان الرافضون في « المدينة » لممارسات العهد ورجله البارز مروان بن الحكم ، قد انكفأوا وراء جدران الصمت ، بعد أن ضلّت

---

(١) ابن سعد، الطبقات ج ٣ ص ٢٨٧

(٢) ذكر السسعودي «ان عثمان يوم قتل كان له عند خازنه من المال خمسون ومائة الف دينار وألف ألف درهم ، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة الف دينار . . وامتلك الزبير في أيام عثمان «دارة» بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت (٣٠٢ هـ) تنزلها التجار وأرباب الأموال . . وابتنى ايضاً دوراً بمصر والكوفة والاسكندرية . . وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين الف دينار والف فرس وألف عبد وأمه . . وكذلك طلحة ابتنى دارة بالكوفة المشهورة به هذا الوقت . وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار(؟) اما عبد الرحمن بن عوف ، ابتنى دارة ووسعها ، وكان على مربطه مائة فرس ، وله ألف بعير وعشرة آلاف شاة من الغنم . . وابتنى سعد بن أبي وقّاص دارة بالعقيق فرفع سمكها ووّسع فضاءها، وجعل اعلاها شرفات» مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٢ - ٣٣٣. راجع ايضاً : بلياييف، العرب والاسلام والخلافة العربية ص ١٦٦، محمد عماره ، مسلمون ثوّار ص ٣٢ ـ ٣٥

(٣) من ابرز هؤلاء : معاوية بن أبي سفيان (الشام)، سعيد بن العاص (الكوفة) وقد استبدل بأبي موسى الأشعري ، أول يمني في ادارة عثمان ، الوليد بن عقبه بن أبي معيط (الكوفه)، عبد الله بن عامر بن كريز (البصرة) ، فضلا عن استيلاء مروان بن الحكم على زمام الامور في عاصمة الخلافة . راجع خليفة بن خياط ج ١ ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ١٥٣ ـ ١٥٦.

طـريقها النصيحـة والكلمـة المخلصـة ، فـإن « الأمصـار »، حيث تعيش الصفـوة من المقاتلين وصانعي الانتصارات ، كانت أسرع الى تسجيل موقفها السلبي من المتسابقين على الثراء والمتطاحنين على السلطة .

وثمة ما يستوقف الباحث هنا ، أن ثمة موقفين للمعـارضة التي بلغت حـداً من النضج ، في تلك الفترة الراهصة بالاحداث الخطيرة ، حيث تجمعهـما مساحـة الزمـان دون المكان ، فضلاً عن تباين الاسلوب بين هذا الموقف وذاك : احـدهما : سيـاسي - اجتماعي ، عبّرت عنه انتفاضة ابي ذرّ الغفاري ، الـداعية الى التقشف ومحـاربة الغنى واكتناز المال ، وثـانيهما صـدامي ، عندمـا رفض الكوفيـون ، ولاية سعيـد بن العاص الأموي ، صاحب المقولة الشهيرة « السواد قـطين لقريش »[1] حيث خـرج اليه الأشتر (زعيم نخع)[2] على رأس مجموعة مسلحة ومنعه بالقوة من دخول المدينـة ، معترضـاً على ذلك بمـا نُسب اليه : « اتجعـل من مراكـز رماحنـا وما أفاء الله علينا بستـاناً لـك ولقومك ، والله لو رامه أحـد لقرع قـرعاً يتصـاصاً منـه »[3] . ولعل هـذه الحادثـة وما أسفرت عنه من رضوخ عثمان لمطالب الاشتر وأصحـابه[4] ، كـانت المؤشر الخـطير في المجابهة الاولى ، التي خرجت الخلافة منها مهزومة[5] .

وإذا كانت الكوفة سبّاقة الى تسجيل مـوقفها من ممثّـل الخليفة المتغـطرس ، فإن حركة أبي ذر الغفاري ،أحد كبار الصحابة ، حملت معاناة الأغلبية من النـاس ، وكانت صرخة شجاعة في وجه طغيان الفئوية والتخمة . وقد تسلّح الغفاري في حملته التعبوية هذه ، بما جاء في الآية الكريمة ﴿ . . **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقـونها في سبيل الله فبشرهـم بعذاب اليم** ﴾[6] ، وكذلـك بالآيـة الكريـمة ﴿ **يوم يحمى عليهم في**

---

(١) أي بستـان لقريش ، المسعـودي مروج ج ٢ ص ٣٣٧. وقـد وردت هذه العبـارة عند ابن الأعثم الكوفي : «انما السواد كله لقريش فما نشاء قطعنها» الفتوح ج ٢ ص ١٧١

(٢) مالك بن الحارث وهو احد ابرز قادة الحركـة التي اطاحت بـالخليفة عثمـان ، وابرز اعـوان عليّ فيما بعد

(٣) البلاذري ، انساب ج ٥ ص ٤٠

(٤) عينّ الخليفه ابا موسى الأشعري (اليمني)، بعد موافقة الكـوفيين الـذين كانـوا في غالبيتهم من القبائل اليمنية . المسعودي، مروج ج ٢ ص ٣٣٨

(٥) المكان نفسه

(٦) سورة التوبة ، الآية ٣٣

نار جهنم فتكوى بهم جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾[1]. ومن الواضح أن هذه الحملة أكثر ما تستهدف الثراء الفاحش والاستغلال والترف ، الذي انغمست فيه ادارة عثمان ، على حساب السواد الأعظم من المسلمين . وكان لهذه الصرخة دويّها العميق لدى الفئات التي جسّد الغفاري همومها ومعاناتها بجرأة متناهية ، مما حمل الخلافة على الضيق بنشاطه ، ورأت أنه تجاوز التحرك العفوي ، الى دعوة تعبوية علنية ضد الاتجاه القرشي ، المستأثر بالسلطة وكافة ادوات النفوذ .

وفي ضوء هذه المخاوف ، تُقرر الخلافة إبعاد الغفاري الى الشام[2] ، ليكون تحت مراقبة واليها القوي معاوية بن أبي سفيان ، الذي تحوّل في نهايات هذا العهد الى شرطي الادارة العثمانية إذا جاز التعبير ،وإذا ما أخذ في الاعتبار نفي الغفاري من المدينة، وبعض الزعماء اليمنيين من الكوفة[3] الى هذه الولاية ، التي يسكنها النظام ولا تتشاحنها السياسات المحلية . ولكن الغفاري الذي قرّر عدم التوقف فيحركته،تابع ما بدأه في المدينة ، بالجرأة نفسها[4] إزاء نمط سلطوي أكثر تعبيراً عن الفئوية القبلية ، التي استهدفتها هذه الحركة . ولعل معاوية الذي امتاز بالمرونة في علاقاته السياسية والاجتماعية ، تطلّع الى احتواء الاخيرة ، مستخدماً أنجع الوسائل لديه ، خاصة وأنه ينتمي الى بيت عريق في التجارة ، حيث المال اقرب الطرق الى القلوب ، ذلك الاسلوب الذي غالباً ما كان له تأثيره في اجتذاب الانصار والمؤيدين ، فضلاً عن الخصوم . فقد قيل إنه بعث سرّاً الف دينار لشراء سكوت الغفاري ، الذي فاجأ

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٤

(٢) يشكك ابن الأثير في هذه الرواية ويعطي للإمام العذر في تأديبه إذا صح ذلك: «كان ما ذُكر في أمر ابي ذرّ واشخاص معاوية اياه من الشام الى المدينة ، وقد ذكر في سبب ذلك امور كثيرة ، من سب معاوية اياه وتهديده بالقتل وحمله من الشام بغير وطاء ونفيه من المدينة على الوجه الشنيع ، لا يصح النقل به ، ولو صح لكان ينبغي أن يُعتذر من عثمان ، فإن للإمام أن يؤدب رعيته وغير ذلك من الأعذار ، لا أن يجعل ذلك سبباً للطعن عليه ، كرهت ذكرها» الكامل ج ٣ ص ١١٣ ـ ١١٤ .

(٣) سيف بن عمر ، الفتنة ووقعة الجمل ص ٣٧. الطبري ج ٣ ص ٨٦

(٤) راجع ما جاء في «التذكرة الحمدونية» عن دخول أبي ذّر الى «خضراء» معاوية ، وما قاله للأخير «ان كنت قد بنيتها من مال الله عَزَ وجّل فأنت من الخائنين وإن كنت بنيتها من مالك فأنت من المسرفين». ابن حمدون الأندلسي ، التذكرة ص ١٣٨ ـ ١٣٩

معاوية بقبوله المال ، ولكن ليقوم بتوزيعه على الفقراء[1] الذين التفوا حوله في منفاه، في منطقة نائية من الشام[2]، مما أفقد معاوية صبره، وحمله على إعادة هذا الثائر الى الحجاز ، قبل أن يفسد عليه هدوء ولايته المستقرة .

ومن جديد يعود الغفاري الى « المدينة » ، ومعه تعود هموم الخلافة ، التي ازدادت مع إخفاق معاوية في احتواء حركته أو الحدّ من تأثيرها ، في وقت تجنّب فيه المضيّ بعيداً في عقابه أو « تأديبه »[3] ، حسب تعبير ابن الأثير ، دون أن يكون مضطراً الى هذا الأمر مع صحابي له تاريخه ومكانته لدى المسلمين ، مما سيكون له انعكاسه السلبي على وضعه السياسي في تلك المرحلة الدقيقة . ويبدو أن الخلافة ، قررت وضع حدٍّ لحركة الغفاري ، ربما استجابة لنصيحة والي الشام ، حيث انتهى الاخير محكوماً عليه بالنفي الحقيقي الى « الربذة »[4] . ومحظوراً على الناس الاتصال به ، وهو في الطريق الى مستقره الأخيرة . ولم يجرؤ على خرق هذا القرار ، سوى بضعة اشخاص[5] . ممن ينتمون الى الاتجاه نفسه ، دون ان يأبهوا لتحذير مروان بن الحكم ، الذي أراد لهذا الصحابي الكبير ، الخروج من « المدينة » كأي سجين عادي يأخذ طريقه الى المنفى ، فالموت [6] .

لقد جاءت انتفاضة أبي ذرّ ، ضد طغيان الأقلية ، أول مصادمة علنية بين الاتجاه الاسلامي ، وبين الخلافة التي فقدت مع عثمان هالتها الكبيرة ، بعدما أصبحت مظلة لأصحاب الاتجاه القبلي . وسواء كان عثمان راضياً عن هذا الواقع ، الذي انزلقت اليه السلطة العليا ، أم كان مرغماً على اتخاذ مواقف لا تنسجم وتراثه الاسلامي ، وذلك تحت ضغط « الارستقراطية » التي تقاسمت النفوذ الفعلي في الدولة ، فلا شك أنه كان المساهم الرئيسي في الانهيار الذي تعرضت له « مؤسسة »

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ١١٤

(٢) قيل أنه نفي في الشام الى ما يسمى بجبل عامل في لبنان مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٠

(٣) ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ١١٣

(٤) احدى قرى الحجاز ، على مسافة غير بعيدة من المدينة . معجم البلدان ج ٣ ص ٢٤

(٥) عليّ بن أبي طالب، وابناه الحسن والحسين وأخوه عقيل وعبد الله بن جعفر وعمّار بن ياسر . مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤١

(٦) المكان نفسه . راجع ايضاً التذكرة الحمدونية ص ١٢٩ ـ ١٣٠

الخلافة ، وأدّى الى زعزعة الثقة بها لدى غالبية المسلمين .

ولم يكن موقف أبي ذرّ ، الوحيد في التصدّي لسياسة عثمان واصحابه . فما لبث تأثير حركته أن امتدّ الى داخل السلطة ، عبر صاحب بيت المال في المدينة ، عبد الله بن الأرقم الزهري ، حيث أورد أبو مخنف ، ان الخليفة « استسلف منه مائة ألف درهم وكتب عليه بها عبد الله بن الأرقم ذكر حق للمسلمين ، وأشهد عليه علياً وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، فلما حلّ الأجل ردّه عثمان ، ثم قدم عليه عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص من مكة وناس معه غزاة ، فأمر لعبد الله بثلاث مائة الف درهم ، ولكل رجل من القوم بمائة الف درهم وصك بذلك الى ابن أرقم ، فاستكثره وردّ الصك له . ويقال سأل عثمان أن يكتب عليه ذكر حق ، فأبى ذلك ، فامتنع ابن الأرقم من أن يدفع المال الى القوم ، فقال له عثمان : انما أنت خازن لنا ، فما حملك على ما فعلت ؟ فقال ابن الأرقم ، كنت اراني خازناً للمسلمين ، وانما خازنك غلامك ، والله لا ألي لك بيت المال ابداً . . »[1]. ولعل هذه الحادثة خير معبّر عما أصاب ادارة الدولة في عهد عثمان ، لا سيما في الفترة الأخيرة منه ، حيث هجرتها الفئة المتنورة والمخلصة ، من امثال : ابن الأرقم وإبن مسعود ، اللذين رفضا الاستمرار في الصمت أمام تلك الممارسات والاساليب .

وإذا كان الأول قد اكتفى من جراء موقفه بالعزل ، فإن الثاني ، ناله فوق ذلك ، الضرب والاضطهاد من جانب الخليفة ، الذي لم يتسع صدره لانتقاداته بعد رجوعه الى « المدينة »[2] . وثمة اشارة أخرى في رواية « الزهري » الى سياسة عثمان المالية ، التي كانت السبب الرئيسي في الأزمة ، بينه وبين هذه المجموعة

---

(١) البلاذري ، انساب ج ٥ ص ٥٨ . وقد حدث ما يشبه ذلك بين الوليد بن عقبة والي الكوفة وبين صاحب بيت المال فيها ، عبد الله بن مسعود الهذلي، عندما ألقى الأخير المفاتيح الى الوالي - حسب أبي مخنف وعُوانه - وقال له «من غيّر ، غيّر ما به ومن بدّل أسخط الله عليه ، وما أرى صاحبكم الا قد غيّر وبدل » ، كما رفض أن يستقرضه من بيت المال ، فكتب الوليد الى عثمان ، الذي كتب بدوره الى ابن مسعود - حسب روايه أبي مخنف - «انما انت خازن لنا فلا تعرض للولد فيما أخذ من المال». البلاذري ، انساب ج ٥ ص ٣٠ ، ٣١ ، ٣٦ . راجع ايضاً السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٥٧

(٢) الانساب ج ٥ ص ٣٦

المتنورة ، التي لم تكن تمثّل نفسها فقط ، بقدر ما كان لها ارتباط وثيق بجمهور المسلمين ، المتذمر من سياسة الخليفة . فقد أورد « الزهري » : وكان في الخزائن سفط فيه حليّ وأخذ منه ، فحلّى به بعض أهله ، فأظهروا عند ذلك الطعن عليه ، وبلغه ذلك ، فخطب فقال : « هذا مال الله اعطيه من شئت وأمنعه من شئت ، فارغم الله أنف من رغم . فقال عمّار : انا والله أول من رغم أنفه من ذلك . فقال ، لقد اجترأت عليّ . . وضربه حتى غشي عليه »(١) . وهكذا كانت الكلمة المخلصة ، التي تتوخى الاصلاح والتغيير ، مرفوضة كل الرفض لدى الخليفة ، الذي وقع أخيراً أسير هواجسه وتحريض اقاربه ، فعمل على اسكاتها وقمع المتفوهين بها ، حتى من بين الصحابة الكبار ، من امثال عبد الله بن مسعود وعمّار بن ياسر وابي ذرّ الغفاري وغيرهم .

ولعل هذا الخليفة وجد مسوّغاً لسياسته، في نظرية « الحق الإلهي » في السلطة ، بعد أن أخذت تتضح لدى الاتجاه القرشي ، الذي أصبح يمثّله بالكره أو بالاختيار . فقد حملت النصوص السالفة ، بعض المؤشرات في هذا السبيل : « إنما أنت خازن لنا »..« هذا مال الله اعطيه من شئت » . ثم تتبلور الصورة في قول عثمان ، عندما حُمل على التنازل عن الخلافة : « لست خالعاً قميصاً كسانيه الله » ، فضلاًعن القول المنسوب لمعاوية ، وهو من أبرز الممثلين لهذه النظرية في عهده : « بنى هذا الملك فيهم - أي قريش - وجعل هذه الخلافة فيهم ولا يصلح ذلك إلا عليهم »(٢) . فمن خلال هذا المفهوم ، بانتفاء دور الشعب في اختيار الحاكم أو محاسبته ، كان يرفض عثمان ومن وراءه ، أيّ شكل من اشكال الاحتجاج على سياسته أو النقد لها . ولعل هذه النزعة ، كانت تتغذى من الشعور الذي أخذ يسود اسرته الأموية ، بأنها استعادت أو كادت « ملكاً » مفقوداً و « حقاً » قديماً في السلطة والنفوذ .

ومن هذا المنظور ، فقدت خلافة عثمان الثقة التي أُعطيت لصاحبها كمناضل قديم في الاسلام ، وليس كرئيس لقبيلة أو زعيم لأسرة نافذة وغنية . كذلك تشعبت ضدها حملة المعارضة ، ممتدّة جذورها الى مختلف الاتجاهات السياسية ، بما فيها التي

---

(١) الانساب ج ٥ ص ٨٨ .

(٢) سيف بن عمر ، الفتنة ووقعة الجمل ص ٧١

اسهمت في قيام هذا العهد ، حتى إذا حقق اصحابها اهدافهم الخاصة ، تخلّوا عنه بعد اشتداد المحنة وتركوه أمام مصيره . ولم يبق معه في النهاية، سوى جماعته المقرّبين الذين كانوا أكثر تصّلباً في مواجهة المعارضة ، خاصة مروان بن الحكم ، المسؤول الفعلي عن تدهور الموقف والمصير المأساوي الذي انتهى اليه الخليفة[1] .

ومع ازدياد العزلة التي اختارها لعهده ، أخذت بوادر الانفجار الشعبي والعسكري تقترب من « المدينة » . بيد أننا نخطىء في التقويم إذا اعتبرنا الاتجاه الاسلامي ، هو المحرض الرئيسي على خلافة عثمان . فقد قاوم هذا الاتجاه بوسائله السلمية ، عبر الغفاري وعمّار وابن مسعود وابن‌الأرقم، وكذلك عبر انتفاضة الأشتر النخعي ضد الوالي « الأموي » في الكوفة ، ولكنها كانت بمجملها مقاومة ايجابية ، تستهدف الخلل والاستغلال والتسلط الفئوي ، دون اللجوء الى العنف أو المسّ بالشرعية التي يمثلها الخليفة . على أن اشتداد النقمة واتساع دائرة المعارضة ، اديا الى فتح المجال ، كما يحدث عادة ، أمام محترفي السياسة والانتهازيين وهواة الشغب ، لركوب الموجة والقفز الى الاتجاه ، الذي يحمي مصالح البعض منهم ويفتح آفاقاً جديدة للبعض الآخر .

وكان أن ادرك عثمان ، ربما متأخراً ، جسامة الخطأ الذي دُفع اليه ، ولكن دون أن يكون بعدُ في موقع القرار ، أو تغيير النهج . فقد وجد نفسه متأرجحاً بين موقف وآخر ، وبين نصيحة وأخرى مخالفة ، قبل التورط حتى اللاعودة مع الاتجاه الذي قوي على حساب نفوذه ، والاستسلام لمشيئة أصحابه . ولعل الدلالة الأكثر تعبيراً عن هذا الواقع ، هي بدعوة رؤوس ادارته الى الاجتماع في المدينة[2] ، ملقياً الازمة على عاتقهم وكذلك الحل . ففي موسم الحج من العام قبل الأخير لخلافة عثمان ، التأم الاجتماع الذي تجاهل أو كاد الاسباب الحقيقية للمشكلة ، محاولاً تحجيمها والتقليل من اخطارها الى حدّ كبير . . من ناصح[3] بالهاء المعارضة بالحملات العسكرية، الى مطالب[3] باسكات احتجاجها بالمال ، الى ثالث[4] يرى أن القمع خير الوسائل وانجع

(١) الطبري ج ٥ ص ٨٦

(٢) عام ٣٤ هـ . ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ١٤٩

(٣) عبد الله بن عامر

(٤) عبد الله بن سعد بن أبي سرح

الاساليب . . الى آخر هذه الطروحات ، التي كانت تخفي وراءها أفكاراً غير بريئة ، زادت في تعقيد الأزمة وأدت الى اهتزاز الثقة بالخليفة ، مما سيشكل سابقة خطيرة في الدولة الاسلامية . ولعل معاوية كان الأكثر حضوراً في هذا الاجتماع ، ومعه دهاؤه وطموحه البعيد ، اللذان دفعاه الى أن يشير على عثمان بالانتقال الى الشام، للدفاع عن مركزه ، حيث الولاء المطلق والنظام الصارم[1] . ولعل معاوية كان يأمل في استخدام هذه الورقة الهامة ، في وقت ادرك فيه سقوط الخليفة الوشيك ، وبالتالي فإن ذهابه الى الشام ، وقد جاوز الثمانين من عمره ، لا بدّ أن يطرح جدياً مسألة الخلافة ، وإعلانها باسم « الحق » الوراثي في الأسرة الأموية .

واشتدّ على عثمان الحرج وهو يتلمس البحث عن حلّ للأزمة ، في الوقت الذي حاول فيه بعض وجوه « المدينة » من المهاجرين والأنصار[2] ، الاتصال به والبحث عن حلول مجدية ، في الموسم نفسه، أو أن الخليفة نفسه كان المبادر الى هذا الاجتماع حسب رواية اخرى ، حين دعا الثلاثة الكبار من الصحابة (علي وطلحة والزبير)[3] الى بيته بحضور معاوية[4] . ولم يكن تفسير مشاركة الاخير ، الا بأن زمام الأمور قد أُفلت من يد عثمان ، وبأن رجل المرحلة لدى البيت الأموي الحاكم ، قد أصبح والي الشام ، مما كان له تأثير مباشر على اخفاق المحاولة التوفيقية الاخيرة، لانقاذ عثمان والخلافة الراشدية من السقوط . ولكن ذلك لم يؤد الى نتائج تذكر ، حيث اكتفى علي الذي تحدث باسمهم ، باثارة مشكلة الازدواجية في السلطة وبروز معاوية المتصاعد في الدولة ، الى درجة طغت فيها شخصيته على الخليفة نفسه[5] . وفي تلك الاثناء كانت المعلومات عن اجتماع « المستشارين » ، تتسرب الى الامصار ، وتثير معها شعوراً من

---

(١) معاوية بن أبي سفيان وسعيد بن العاص

(٢) سيف بن عمر الفتنة ص ٥٣ . ابن الأثير ج ٣ ص ١٥٧

(٣) الطبري ج ٥ ص ٩٦

(٤) كان قد توفي عبد الرحمن بن عوف واعتزل سعد بن أبي وقاص

(٥) ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ١٥٦ ـ ١٥٧

(٦) تمحور النقاش حول ضعف الخليفة وسيطرة معاوية على قراره ، فقد نسب الى عثمان قوله لعلي « هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها ، فقد وليته . قال عليّ فإن معاوية يقتطع الامور دونك وأنت تعلمها فيقول للناس هذا أمر عثمان » راويه الواقدي في الطبري ج ٥ ص ٩٧ .

التململ ، خاصة لدى الفئات التي كانت لها الصدارة في الفتوح ، نحو اولئك الذين يعيشون مترفين على حسابها ، ويتخذون توصيات بقمعها وتأديبها ، في وقت ركدت فيه العمليات العسكرية مع بدء الثلاثينات ، متأثرة بالأزمة السياسية المتصاعدة . فالمسألة إذن كانت تعني مباشرة أهل الامصار الذين رأوا أنهم اولى الناس بالتحرك دفاعاً عن حقوقهم ومكتسباتهم ، فضلاً عن امتلاكهم القدرة على تحقيق هذا الأمر، كونهم الأدوات الفاعلة ـ كمقاتلين ـ على حسم الوضع بالسرعة الممكنة . وهكذا فإن انجازاً آخر ، ارتبط بالخليفة السابق (عمر) ، الذي حرص على ابعاد الجيش عن السياسة ، سقط في تلك التجربة القاسية ، لتصبح أخيراً هيبة الخلافة في المواجهة العسيرة .

وكانت المجموعة الكوفية ، الاسبق دائماً الى التحرك والمبادرة الى إعلان موقفها الحازم ، قبل أن تلحق بها البصرة ثم الفسطاط ، على نحوٍ بدا غير عفوي ، سواء في التنسيق أو في سرعة الحركة والاستقطاب ، أو في المطلب السياسي ـ الاجتماعي المشترك للأمصار الثلاثة . ويبدو أن حملةً معادية واسعة ضد عثمان ، أخذت تنتقل من « المدينة » الى الامصار[١] ، محرّضةً الناس عليه ، حيث كان لها على الأرجح دور تعبوي في هذه الأخيرة ، التي اصبحت مهيأة لذلك التحرك المسلح نحو الحجاز[٢] . ولم تكن « المدينة » في وضع عسكري معزّز ، وذلك في اعقاب التفريغ السكاني[٣] الذي تعرضت له شبه الجزيرة بعد حركة الفتوح ، ومن ثم ارتباط القوة المقاتلة بأماكن استقرارها الجديدة في القواعد والأجناد والثغور . ومن هنا كانت غير عسيرة مهمة المجموعات التي اتجهت الى « المدينة » ، حيث دخلوا اليها وتنقّلوا بين أحيائها وأجروا الاتصالات مكثفة مع بعض الصحابة[٤] ، دون أن يعترضهم معترض . بيد أن أحداً من هؤلاء لم يجرؤ على مناقشة عزل الخليفة ، وما يتبعه من تفجير مشكلة الحكم . كان ذلك على الأقل هو الموقف العلني ، لأن بعضهم كانت لديه مصلحة في الاطاحة

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ١٥٤ ـ ١٥٥

(٢) شارك كل من الأمصار الثلاثة ، حسب رواية سيف ، بستمائة متطوع . وقد خرجوا الى المدينة في شوال من سنه ٣٥ هـ . الفتنة الاولى ووقعة الجمل ص ٥٧ .

(٣) ابراهيم بيضون ، الحجاز والدولة الاسلامية ص ١٨٧

(٤) ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ١٨٣ .

بعثمان[1] . والواقع كان الغموض سائداً في « المدينة » ، حيث المفاجأة اربكت الجميع ، بما في ذلك المجموعات المسلحة ، المسيطرة عليها ، دون أن يكون للكثيرين التصوّر الواضح ، إذا ما كانت حدود هذه الحركة ستنتهي عند الاصلاح المنشود ، أم تتجاوز ذلك الى الخليفة نفسه ويكون في النتيجة الضحية المطلوبة لأكثر من فريق .

وقد نفترض هنا أن الأطاحة بالخليفة ، لم تكن هدف المسلمين في بادىء الأمر ، بل الضغط عليه من خلال وسائل استعراضية مختلفة ، وذلك لحمله على تعديل نهجه السياسي ومحاسبة المسؤولين عن الأخطاء والتجاوزات العديدة . ولعل هذا ما توحي به على الأقل ضآلة القوة العسكرية الوافدة الى « المدينه » ، والمحاولات الدائبة التي قامت بها لتحقيق هدفها الاصلاحي قبل اللجوء الى الحصار . كما أن الاجراء الاخير ، ربما كان مجرد مناورة أخيرة ، لحمل الخليفة على الرضوخ والاستجابة ، حيث امتد الحصار وقتاً طويلاً[2] دون تسجيل ما يشير الى استعمال العنف .

غير أن تواتر الأحداث وفشل الصحابة ، وعلى رأسهم علي ، في تعديل موقف الخليفة ، بغية الوصول الى تسوية ما بين السلطة والمعارضة ، بعد أن بلغ التشنّج حدّاً ، صعب معه العودة الى ما قبل خروج المقاتلين الى « المدينة » ، وذلك بعد رضوخ عثمان لرأي جماعته ، المحرّض على الصمود في وجه حملات الضغط التي تقوم بهاالامصار، مع تعاطف ما من عاصمة الخلافة ، في الوقت الذي كان يماطل فيه معاوية في ارسال قوة عسكرية لحماية الأخيرة من السقوط ، دون ثمة ما يوحي بأن هذا الوعد قابل للتنفيذ[3] . وكان التلويح بالقوة الشامية ، قد زاد الأمور تعقيداً ، وأدّى الى انهيار الثقة بالخليفة المتراجع عن التزاماته أمام ممثلي الأمصار ، خاصة بعد اكتشاف نواياه وما تخبئه الخطة « الأموية » ، من خلال الكتاب المُرسل الى والي مصر ، وقد حوى من الحقائق ما يتناقض ووعود الخليفة التي قطعها على نفسه في مسجد « المدينة »[4] . وسرعان ما تطورت الأمور نحو حسم الموقف المتذبذب ، عندما اقتحم

(١) راجع موقف طلحة التحريضي من عثمان واتهام الأخير له . ابن الاثير، الكامل ج ٣ ص ١٨٣ .

(٢) دام نحو أربعين يوماً ، اليعقوبي، تاريخ ج ٢ ص ١٧٦ . او تسعة وأربعين . الطبري ج ٥ ص ١٢٢

(٣) الطبري ج ٥ ص ١١٥ - ١١٦ الأمامة والسياسة ج ١ ص ٢٩

(٤) جاء في الكتاب: «إذا أتاك محمد بن أبي بكر وأصحابه، فاقتلهم وابطل كتابهم ، وأقر على عملك حتى يأتيك رأيي». الامامةوالسياسة ج ١ ص ٣٩

بعض المتطرفين دار عثمان وقتلوه ، وهو يتلو آيات من القرآن[1] . مؤدياً ذلك الى نهاية الجدل العقيم الذي تراوح مكانه لشهور خلت في « المدينة » ، والى حسم الموقف بالعنف ، الذي كان خاتمة فصل مثير من تاريخ الخلافة الراشدة ، وبداية المنعطف الاخطر في الدولة الاسلامية .

لم تكن هذه الحادثة التي عُرفت بـ « الفتنة » في المروّيات ، مجرّد انقلاب على السلطة أو تمرّد على الخليفة ، المتّهم بممالأة الأقارب ، ولكنها جسّدت الواقع المأساوي ، المنذر بالتمزق والانقسام في المدى القريب ، ربما على نحو أشد سوءاً من حركة الردّة ، التي واجهتها السلطة موحدة متماسكة ، بينما وصلت « الفتنة » هذه المرّة الى الخلافة نفسها وأصابت « الجماعة » الاسلامية في الصميم . ذلك أن المعركة الشرسة التي خاضها الاتجاه القرشي ، الذي نجح في تسخير هذا العهد ، لمنافعه الخاصة وأهدافه السياسية البعيدة ،[2] انتهت به الى كشف اوراقه أو ما كان مختبئاً منها وراء « المظلة العثمانية » ، لا سيما التي ترى في الشيخ الأموي رجلاً مرحلياً ، له ارتباطاته الوثيقة بأسرته ، ذات الامتداد القبلي الواسع الذي مثله « الايلاف » في العصر القرشي الغابر ، حيث وجدت في وصول أحد ابنائها الى السلطة ، نوعاً من الأرث الخاص ، أو من وظائف الكعبة في مكة القديمة .

والواقع أن تاريخ هذه المرحلة الدامية ، جدير بالمزيد من الاهتمام والتقويم ، وذلك خارج نطاق المفهوم التقليدي الذي اقتصرت عليه الدراسات او كادت حتى الآن . فما بين صفحات هذه الحادثة ، يكمن الخلل الذي دمّر الطاقة العربية الاسلامية ، الخلّافة والمعطاء ، وشلّ نهوضها السياسي والحضاري ، بما يتماثل والفترات القصيرة السابقة التي توكأت عليها « الدول الاسلامية » المتلاحقة . ولعل « المؤامرة » التي استهدفت الخليفة عمر ، ومعه « النموذج » ، الذي انطلق من« البداية» العظمى (دولة النبي) ، كانت الحلقة الأولى في هذا الانهيار ، الذي كان محصلاً لاهتزاز وحدة « الجماعة » ، بعد اغتيال الخليفة الراشدي الثاني .

ولعل أعجب ما يواجه الباحث ، ذلك التناقض أو التمويه اللذين انطوت عليهما

(١) في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ . الامامة والسياسة ج ١ ص ٣٩

(٢) الطبري ج ٥ ص ٨٨

معظم المرويات ، بما في ذلك جلّ الدراسات الحديثة ، التي كـان واضحاً فيهـا النَفَس الاخباري وغياب العنصر النقدي التحليلي ، بحيث جاءت تكراراً لأحـداث لم تصـوّر تمامـاً الحقائق التـاريخية . ففي الـوقت الذي يُسهَب فيـه عن مظاهـر البـذخ والترف والاستغلال ، وكل ما أُدين بـه العهد « العثمـاني » ، تصُب التهم كذلـك على أهل « الفتنة » ، الذين تمردوا على « الشرعيـة » وأصابـوا منها مقتـلاً ، الى الحدّ الـذي يصعب معـه التمييز لاحقـاً بـين الكلمتـين ، بعـد أن تعمّق الانقسـام بـين المعـارضـة والسلطة ، وانعكاسه على مواقف الفقهاء والمرويات التاريخية .

العصبيات الجديدة

بعد مصرع عثمان ، وفي اجواء الذهول التي سادت عاصمة الخلافة ، كان لا بدّ من الخروج بحلّ سريع من هذه المحنة ، يعيد الاوضاع الى مسارها العادي قبل خلافة عثمان . غير أن جماعات الأمصار الذين أقدموا تحت ضغط الأحداث المتواترة الى قتل الأخير ، لم يكن بيدهم الحلّ ، وان كان باستطاعتهم فرضه بالقوة ، بعد أن أصبحت السلطة في أيديهم ، طوال الأيام الخمسة التي اعقبت الحادثة الدموية[١] . ولعل هذه المسألة ، كانت الخطأ المحوري في حركة الامصار ، حيث لم تضع قيادتها في الحساب ، ما سيعترضها من مشاكل قبل مصرع الخليفة وبعده ، ولم تهيء الأجواء الهادئة والموضوعية للبديل . فإذا بقتل عثمان ، يأتي وكأنه عقاب على سلوكه ، حاصراً المسؤولية بكاملها فيه ، دون أن يطال أياً من اصحابها الحقيقيين ، الذين طوّعوا العهد لأغراضهم ونزعاتهم السياسية والقبلية .

وهكذا فإن النتائج الأخيرة للحركة ، لم تحقق هدف المتذمرين من سياسة عثمان ، ولكنها خلافاً لذلك تعدّت الواقع الذي أُثير حوله النقد ، لتجر الدولة بكاملها الى المفترق الخطير . ولعل أحداً لم يكن في موقع الحسم ، حيث الغموض سيد الموقف ، والسياسيون (الصحابة) ، تجاذبوا ما بين الصمت والمناورة ، مبعثرة اوراقهم متخالطة ، بينما « الحكومة المؤقتة » - إذا جاز التعبير - عاجزة بدورها عن الخروج من المحنة بحلول جذرية . ومن هذا المنظور ، فإن هذه الحركة التي استهدفت

---

(١) سيف بن عمر ، الفتنة ص ٩١

تحرير الخلافة من الطغيان العائلي وكسر الاحتكار الفئوي ، تحوّلت من دون أن تدري الى إسقاط آخر الاشكال « الشورويه » للنظام الخلافي ، الذي حافظ الى حدّ معين ، على صورته الجماعية حتى ذلك لحين ، والى استبداله بالسلطة الفردية ، المعتمدة اساساً على التوازن القبلي ، ذلك الذي تبلور نهائياً بعد انتقال الحكم الى الأسرة الأموية في الشام .

وفي الوقت الذي أخذ معظم الساسة يتوارون فيه عن الانظار في عاصمة الخلافة ، تنكباً من التطورات التي افلتت من قبضتهم ، كان الفراغ السلطوي ينذر باسوأ النتائج ، وتشتد الحاجة الى منقذ تفزع اليه الاغلبية من الاتجاهات السياسية ، لا سيما الحركة المهيمنة على السلطة في « المدينة » . ولمّا كان المطلب الرئيسي لهذه الأخيرة ، هو اسقاط العائلية والفئوية ، فإن الانظار شخصت حينذاك الى عليّ ، الذي لم يغادر ، شأن معظم الصحابة الكبار ، « المدينة » ، ولم ينفك شاغلاً دوره البارز ، منذ تفاقم الوضع في أواخر العهد السابق . فقد كان علي ، وهو أحد القلائل من سياسيي الصف الاول ، خارج نطاق الاتهام والشك بسلوكه ، في الوقت الذي انهارت فيه شخصيات صحابية معروفة ، أمام شهوات الحكم والثراء ، كما سبقت الاشارة . ولكن علياً الذي خانته الظروف وحالت دون وصوله الى الحكم ثلاث مرات متوالية منذ وفاة النبي ، لم يكن من جانبه شديد الحماسة لهذا الأمر[1] ، بعد أن فقدت الخلافة الكثير من بريقها ، وبعد أن تلاشت العوامل ، المساعدة على اقامة نظام اسلامي عادل ومتكافىء . لقد حدث ذلك ، على الرغم من ممارسة علي - بصورة غير رسمية - لبعض شؤون الخلافة منذ الحصار على بيت عثمان[2] ، دون أن يكون في وضع من يمتلك القرار أو شيئاً منه . ولكنه من منظور التزامه باتجاه سياسي عريض ،

---

(١) بعد مقتل عثمان ، اجتمع «اصحاب الرسول (ص) من المهاجرين والانصار ، وفيهم طلحة والزبير ، فأتوا علياً فقالوا له : إنه لا بّد للناس من إمام . قال لا حاجة لي في أمركم ، فمن اخترتم رضيت به . فقالوا : ما نختار غيرك ، وترددوا اليه مرارا وقالوا له في آخر ذلك : إنا لا نعلم أحداً احق به منك ولا أقدم سابقة ولا أقرب قرابة من رسول الله (ص) . فقال لا تفعلوا فإني أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً . فقالوا : والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك» ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٧ ص ١٧٧

كان الأكثر تضرراً في العهد السابق ، ذلك الذي عبّر عن همومه ابو ذرّ الغفاري في حركته الجريئة التي اشرنا اليها ، كان علي حريصاً على عدم التخلي عن الفئات التي يسكنها الخوف على مصيرها ومكتسباتها المهدّدة . بالاضافة الى ذلك ، فإن ثمة تراثاً نضالياً كبيراً ، كان قد تزوده علي منذ نشأته ، ايماناً وتعايشاً والتزاماً ، كان يحول دون تردّده في اتخاذ الخيار الصعب ، والاستجابة لدعوة جماعة الامصار الى البيعة ، حيث الخيار الأصعب ، يعني التخلي عن التزاماته ومسؤوليته التاريخية .

وتولى عليّ الخلافة[1] دون اجماع ، كسابقة ، ربما من حيث الشكل ، لم تعرفها الدولة الراشدية . فالسياسيون الذين شغلوا دور المحرّض في أواخر عهد عثمان أو دور المتفرّج المراقب قبل أن يتحمسوا لبيعة علي[2] ، كان لهم موقف غير وديّ ، إن لم نقل سلبي من الأخير ، وفي الطليعة منهم الزبير وطلحة . ولكنها كانت بيعة الأمر الواقع ، حيث سارع الاثنان الى التراجع عنها ، بينما اختفى الكثيرون من شخصيات « المدينة »[3] ، يحدوهم الموقف نفسه ، أو التهيب من الأوضاع التي كانت من الخطورة ، ما جعلتهم يؤثرون الاعتزال وعدم التورط . وفي المسجد ، الذي كان شاهداً على أخطر التطورات في ذلك الوقت ، ألقى عليّ خطبة البيعة[4] ، التي كانت في مضمونها دعوة الى التهدئة والى تقويم المسار الذي تعثّر والى المبادىء التي انهارت أو كادت . ولكن على الرغم من كفاءة الخليفة الجديد وخبرته الطويلة ، ومقدرته على اتخاذ المبادرات الاصلاحية المطلوبة ، وما رافق ذلك من ثقة عامة به ، فإن الأجواء السياسية كانت ملبدة والأوضاع مضطربة ، مما جعل مهمة الخليفة على جانب كبير من الصعوبة والتعقيد .

ولعل العقبة الظاهرة للعهد الجديد ، أنه كان يفتقد الى الدعم السياسي

---

(١) بويع في مسجد المدينة فى الخامس من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ . سيف بن عمر ، الفتنة ص ٩٥ . تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ١٩٩

(٢) ابن الأثير ج ٣ ص ١٩٠ - ١٩١

(٣) من هؤلاء : سعد بن أبي وقّاص ، عبد الله بن عامر ، اسامة بن زيد ، زيد بن ثابت ، حسان بن تابت ، النعمان بن بشر الأنصاري وغيرهم . الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ١٥٣، ١٥٥، ١٥٦

(٤) سيف بن عمر ، الفتنة ص ٩٥

المطلوب ، لتثبيت شرعيته وترسيخها في وجه العواصف التي هبت عليها من شتى الجهات . فقد استعداه معظم زعماء المهاجرين ، الذين كان لهم طموحهم من حيث المبدأ الى الخلافة ، انطلاقاً من تجنب هؤلاء العودة الى « شدّة » عمر أو ما هو أكثر منها ، حسب الرواية التاريخية[١] ، بما لذلك من انعكاس سلبي على امتيازاتهم التي حافظ عليها العهد السابق . وإذا ما استثنينا الفئات غير الميسورة[٢] ، سواء ـ في المدينة او الامصار ـ وهي في طبيعة تكوينها الاجتماعي ، تفتقر الى التعبئة والتنظيم في معظم الحالات ، حيث يكمن ضعفها وعجزها عن اتخاذ الدور المطلوب ، فإن الذين وقفوا الى جانب عليّ ، هم الانصار[٣] بشكل عام والقليل جداً من المهاجرين[٤] ، فضلاً عن حركة الامصار التي اطاحت بعثمان وجاءت به الى الحكم . وكان مالك بن الحارث (الاشتر النخعي)[٥] ، القائد الكوفي اليمني ، أحد أبرز رجالات هذه الحركة ، وأكثرهم حماسة للخليفة الجديد ، حيث سيتضح ذلك من الموقف الكوفي المتعاطف ، الذي كان وراءه الاشتر قبيل اتخاذ القرار بنقل مقر الدولة الى العراق .

كانت الخطوة الأولى في برنامج الخليفة ، العمل على الغاء مظاهر الانحراف واسبابه ، وكل ما انتهى بالعهد السابق الى تلك النهاية . وكان تنفيذ هذا الأمر مقروناً بتغييرات جذرية في سياسة الدولة الادارية والاقتصادية والعسكرية ، غير ان التصدي لرواسب النظام السابق ، ممارسات واشخاصاً ، كان يعني المجابهة مع قوى نافذة وصلبة ، بلغت شأنها على حساب الفراغ المركزي الذي اصاب الخلافة زمن المحنة ، فضلاً عن الاصطدام بعدد من كبار الصحابة ، الذين سجلوا موقفهم السلبي بالخروج من العاصمة ، وقيامهم باتصالات ليست خارج دائرة الشك في ذلك الحين .

ولعل القرار التغييري ، الأكثر الحاحاً حينذاك ، هو إعادة النظر في الجهاز

---

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص ٢٦
(٢) الطبري ج ٥ ص ١٥٦
(٣) خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٣٠
(٤) راجع كتابنا ، الحجاز والدولة الاسلامية ص ١٧٧
(٥) سيف بن عمر ، الفتنة ص ٩٣ ـ ٩٤ .

الاداري ، كونه الاداة التنفيذية المسؤولة للخلافة . وكان يفترض تلازم هذا القرار مع خطوات تمهيدية ، لتحقيقه دون ضجيج أو اعتراض . وكان ذلك ما أشار على الأخذ به كل من عبد الله بن عباس (أحد المقربين من علي) والمغيرة بن شعبة (وهو سياسي محترف ومحنك من الطائف) . فقد رأى كلاهما ، التمهّل في عزل جماعة عثمان ، وبالتحديد معاوية والي الشام القوي : « اقرر معاوية وابن عامر وعمّال عثمان على اعمالهم حتى تأتيك بيعتهم ويسكن الناس ثم اعزل من شئت »[1] ، حسب القول المنسوب للمغيرة ، أو فانزع من شئت واترك معاوية ، فإن فيه جرأة ، وهو في اهل الشام يستمع منه ، ولك حجة في اثباته ، كان عمر بن الخطاب قد ولّاه الشام »[2] حسب قول ابن عباس ، ونحن لا نستطيع الافتراض بأن ذلك لم يدر في خلد عليّ ، الذي كان اعرف الناس بمشاكل عهده ، ولكن النقمة التي اجتاحت الأقاليم ضد ولاة الخليفة السابق ، كانت لا تزال تتفاعل ، وتصبح مطلباً ضاغطاً على الحكم الجديد . ومن ناحية اخرى ، فإن علياً الذي جاء في هالة المنقذ ، كان الأخذ بالمبدأ الواحد ، يعني لديه الشمول وعدم التجزئة ، وما يجري على الكل لا بدّ ان يصيب الجزء في مطلق الأحوال[3] ، فضلاً عن ذلك فإن موقف حركة الامصار ، كان واضحاً في هذا الشأن ، وميّالاً الى حسم الأمور بالسرعة القصوى .

وفي ضوء هذا الموقف المبدئي ، صدر الأمر بعزل الولاة وعمّال الخراج وبقية المسؤولين في العهد السابق ، واستبدالهم بفئة جديدة غير متورطة في السياسة ، وليست لاسمائها شهرة كبيرة خارج « المدينة » . ولم تقم عقبات تذكر في وجه الولاة الجدد ، باستثناء ما كان منتظراً في الشام ، حيث الخصم الذكي ما برح يعمل بطريقة لا مركزية ، ويجتهد الا تفوته الفرصة النادرة ، لتحقيق طموحه الكبير في السيطرة على زمام الأمور، وفق منطق الاستمرارية في البيت الأموي . بيد أن الشام ، على خطورتها ، لم تكن الشاغل الوحيد للخليفة . ففي مكة ، التقى الرافضون لحكم علي ، متخذين من الاسلوب نفسه الذي تمت فيه المتغيرات الاخيرة ، ذريعة للاحتجاج والمعارضة . ولم يلبث أول تكتل مناهض لعلي ، أن ظهر في المدينة

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ١٩٧
(٢) المكان نفسه
(٣) « لا استعمل معاوية يومين » . من جواب عليّ لابن عباس . المكان نفسه .

المقدسة ، وعلى رأسه طلحة والزبير وعائشة (زوج النبي) ، التي سارعت الى تحديد موقفها من الخليفة في ضوء اعتبارات ، قد لا يكون لها صلة بالاسباب التي حرّكت شريكيها في التحالف . ذلك ان عائشة لم تكن يوماً من مؤيدي عثمان الذي اثار سخطها قبيل مصرعه[1] ، ولكنها كانت ضد عليّ بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، دون أن تتورع عن اتخاذ كافة السبل للقضاء على حكمه .

وعلى الرغم من استقطاب التحالف الثلاثي لعدد غير قليل من المؤيدين ، لا سيما المنتمين الى قريش ، الا أن موقعهم في مكة كان مضطرباً ، واحتاج الى دعم لم يتوفر لهم في الحجاز . فقرروا اتخاذ البصرة منطلقاً لحركتهم ، حيث فرص النجاح كانت في رأيهم اكثر وضوحاً ، لا سيما بعد التحاق يعلي بن منية التميمي بمكة ، وتمويله الحركة من خراج اليمن ، حيث كان عاملاً لعثمان على صنعاء[2] . وكانت البصرة حينذاك متذبذبة في موقفها ، ولم تتوصل ، خلافاً للكوفة ، الى تحديد قرار من الخليفة الجديد . وقيل إن واليها في عهد عثمان (عبد الله بن عامر)[3] ، كان يشجع على اختيارها مركز استقطاب لهذه الحركة . وإذا كانت انتفاضة عائشة مع المنتفضين على خلافة علي ، قد اثارت الدهشة والاعتراض ، الاّ أن مشاركتها بدون ريب ، دفعت في تسريع الأزمة والسيطرة على البصرة[4] .

ولكن اولى حركات المعارضة المسلحة التي رفعت شعاراً لا ينسجم مع الموقف المعروف لزعمائها ، وهو محاكمة المسؤولية عن مقتل عثمان[5] ، كانت بحاجة الى مسوّغات اكثر موضوعية ، لانتزاع التأييد السياسي المطلوب . لذلك اخفقت في أن تكون أحد المحاور الاساسية المتجاذبة لأطراف السلطة ، مقتصراً تأييدها الفعلي على فئة محدودة من البصرة ، كانت دوافعها قبلية في المقام الأول[6] . وفي الوقت نفسه ، لم

---

(١) طه حسين ، عليّ وبنوه ص ٢٩

(٢) قيل أنه أمّد طلحة والزبير باربعمائة الف دينار . اليعقوبي، تاريخ ج ٢ ص ١٨١

(٣) سيف بن عمر ، الفتنة ص ١١٣

(٤) المصدر نفسه ص ٩٧

(٥) الطبري ج ٥ ص ١٧٠ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٩٢

(٦) سيف بن عمر، الفتنة ص ١٥٢ ـ ١٥٣. خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٠٢. ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ٢٣٦ .

يعدم الخليفة تأييداً له في معقل هذه الحركة ، لا سيما عبد القيس وبكر بن وائل[١] . بينما فئة ثالثة (الأحنف بن قيس وجماعته)[٢] ، ارتضت لنفسها الابتعاد عن هذا الصراع . وهكذا فإن موازين القوى بين قوات الخلافة وبين تمرد الثلاثي « القرشي » في البصرة ، لم تكن متعادلة ، بحيث استطاعت الأولى، التي اعتمدت اساساً على « الأنصار » والكوفيين[٣] ، القضاء على هذه الحركة من دون صعوبة ، وذلك في الموقعة المعروفة بـ « الجمل » ، بالقرب من البصرة ، دون أن تجدي نفعاً جهود الخليفة ، من أجل تفادي الحرب وتحقيق وفاق مع رؤوس الحركة[٤] .

ولقد اسفرت هذه الموقعة ، عن مصرع طلحة والزبير ، وأسر عائشة التي اعتزلت الحياة السياسية إثر عودتها الى المدينة [٥] . كذلك فإنها أول حرب تدور بين طرفين ، كلاهما يدين بالاسلام ، مما دفع عليّ الى خوضها بروح عالية من المسؤولية ، دون أن تتحكم فيه خلفية ما ، شخصية كانت أم سياسية[٦] . ومن ناحية أخرى ، فإن هذه الموقعة كانت مقدمة الصراع الحتمي بين علي ومعاوية ، وفي نفس الوقت ، بداية المجابهة السافرة ، بين الاتجاه الاسلامي والحلفاء العضويين الذين انصهروا فيه ، فضلاً عن المرحليين من زعماء القبائل وغيرهم ، وبين الاتجاه القرشي والمتعاطفين معه ، من اصحاب الثراء وذوي النفوذ ، فضلاً عن قبائل الشام الأكثر بداوة ، وبقية المرتبطين مصيرياً بهذا الاتجاه ، الذي كان في رأيهم الضمانة لمصالحهم الشخصية والقبلية . وأخيراً فقد اسفرت موقعة«الجمل»عن تحجيم « المدينة » وانهاء الدور السياسي للحجاز ، بعد انتقال عليّ في اعقاب انتصاره ، الى الكوفة في العراق ،

---

(١) تزعمها حكيم بن جبلة العبدي . خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٠٢ ، ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ٢٣٦

(٢) سيف بن عمر ، الفتنة ص ١٥٢ - ١٥٣

(٣) الغلابي البصري ، وقعة الجمل ص ٣١ - ٣٣. المسعودي ، مروج ح ٢ ص ٣٥٩ . ابن الأثير الكامل ج ٣ ص ٢٣١

(٤) المسعودي ، مروج ج ٢ ص ٣٦١

(٥) سبف بن عمر ، الفتنة ص ١٨٣ . اليعقوبي، تاريخ ج ٢ ص ١٨٣

كان عليّ أول من تصدّى لهذه المشكلة ، بتشريعه المعروف : «لا يُجهز على جريح ولا يتبع مُوَّل ولا يُطعن في وجه مدبر . ومن ألقى سلاحه فهو آمن ومن اغلق بابه فهو آمن» اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ١٨٢ . الدينوري ، الأخبار الطوال ص ١٥١ .

واتخاذها مقراً لخلافته القصيرة ، مؤثراً الابتعاد عن شحناء الحجاز وتطاحن الاتجاهات السياسية . وكان ذلك سبباً في ولادة محور جديد للاتجاه المؤيد لعلي ، على حساب البصرة التي عاشت في ظل الكوفة زمناً طويلاً ، وعلى حساب الحجاز عامة ، الذي أفرغته الفتوح من طاقاته ، ولم يعد صالحاً لاتخاذه مقراً للخلافة ، حيث اصبح خروج السلطة منه امراً حتمياً ، لتفادي انقسام الدولة أو تأخير انقسامها على الأقل .

صفّين والتحكيم :

لعل المقارنة غير جائزة بين الشام وبين أية منطقة أخرى من « امصار » الخلافة ، في معرض الحديث عن الصراع الدموي الذي جرّ اليه المسلمين في صفين . فقد ارتبطت الأولى بعلاقة خاصة وقديمة مع البيت الأموي ، بدءاً بأمية بن عبد شمس[1] (جدّ الأمويين) ومروراً برحلة الصيف الشهيرة ، التي كان لهذا البيت دور الزعامة التجارية فيها[2] ، وصولاً الى العهد الاسلامي ، حيث قدّر لهذه العلاقة أن تنمو أيضاً وتتخذ حجماً غير عادي ، بعد أن أتيح للأمويين ، توظيفها في خدمة الصراع الاسلامي - البيزنطي في بلاد الشام . فقد عهد الخليفة ابو بكر الى يزيد بن أبي سفيان ، بقيادة أحد الجيوش الرئيسية الثلاثة ، التي كانت طليعة القوات العربية الاسلامية ، المتحركة الى هذه المنطقة متخذاً من دمشق محور المهمة المكلّف بها في ذلك الحين[3] . وبعد سقوط الشام ، كان يزيد أول عمالها ، بالاضافة الى مهامه العسكرية ، حتى إذا توفي بعد سنوات قليلة (١٨ هـ) ، احتفظ الأمويون بهذا المنصب ، الذي انتقل الى أخيه معاوية بصورة شبه وراثية[4] . ولقد تبلورت حينذاك هذه العلاقة ، وبدأت الشام تأخذ تدريجياً سماتها الأموية ، بالكثير من الهدوء والذكاء ، وهما من صفات واليها الجديد . ولم يشأ معاوية أن يكون على غرار الآخرين من الولاة ، مجرد موظف يخضع مباشرة للخلافة ، ويُعزل متى شاءت له العزل ، حين

---

(١) اضطر أمية الى مغادرة مكة بعد فشله في منافسة عمه هاشم على النفوذ . المقريزي ، النزاع والتخاصم بين أميه وبني هاشم ص ٨٠

(٢) ابراهيم بيضون ، الحجاز والدولة الاسلامية ص ٩٠

(٣) البلاذري ، فتوح ص ١١٦

(٤) ذكر خليفة بن خياط ان يزيداً «استخلف اخاه معاوية فأقرّه عمر» تاريخ ج ١ ص ١٥٧

لجأ الى تدعيم وضعه السياسي ، بانشاء قوة عسكرية ضاربة ، برية وبحرية[1] . وكان لهذه الأخيرة ، التي أقيمت تحت شعار الدفاع عن شواطىء الدولة وثغورها ، الدور البارز في صدّ محاولات الأمبراطورية البيزنطية ، لاستعادة نفوذها المفقود في الشام ، ومن ثمّ إلحاق ضربة كبيرة باسطولها في وقت لاحق ، وذلك في معركة « ذات الصواري » التي مرّ ذكرها[2] .

لقد أعطى هذا النمو المتصاعد في القوة العسكرية ، حجماً غير اعتيادي لمعاوية واسرته في الشام ، ما لبث أن وظفه في سياسته الداخلية ، مترصداً الفرص المواتية لتحقيق طموحه السلطوي المتوارث والمتأصل فيه[3] . وجاء تنصيب عثمان على سدّة الخلافة ، وهو أحد أركان البيت الأموي ، ليفتح أبواب هذا الطموح في وجه زعيم الشام ، ومعها حرية التحرك والغطاء الواقي الفسيح . وبعبارة أخرى ، فقد توفرت لدى معاوية الأرضية المناسبة ، مضافاً اليها الموقع العسكري المتطور ، ومن ثم لعبة التحالف القبلي المتوازنة التي اتقنها ، ومصاهرته لبني كلب ، اقوى القبائل اليمنية في الشام ، وهي جميعها شروط « هامة » للزعامة السياسية وصناعة النفوذ .

في مثل هذه الظروف ، حيث كانت تخالج معاوية اللحظة التاريخية باستلام الحكم بعد عثمان ، كان عليّ ينتقل مع متاعبه الى الكوفة ، عاصمته الجديدة ، لينصرف الى معالجة المعضلة الشامية فقد غادر الحجاز ، وقد انهارت الدولة ، ساعياً الى إعادة بنائها مجدداً في العراق ، بينما كانت ثمة «دولة» قائمة في الشام ،بكل مقوماتها الادارية والعسكرية والاقتصادية . ولم تلبث الاخيرة أن صعّدت حملتها ، المطالبة بمحاكمة المتهمين بقتل الخليفة السابق ، ان اتخذت بعداً آخر ، تجاوز ما طرحته الحركة السابقة التي انتهت من غير صعوبة في موقعة الجمل ، حيث رافقها جو من التعبئة النفسية والعسكرية في اوساط قبائل الشام ، التي استدرجها معاوية الى هذه المعركة ،

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٨٩ ـ ١٩١ ، Jean-Paul Roux ، L'Islam au proche orient p 133

(٢) البلاذري ، فتوح ص ١٥٧ ـ ١٥٩

(٣) راجع قول ابي سفيان في ابنه معاوية «ليسودن ابني هذا قريشاً والعرب» البلاذري ، انساب ج ١ ص ٥٠

بمبتكر اساليبه و « نعومة » سياسته[1] ، الى القول بمقولته والتكتل معه حول قضية مفتعلة . فقد كانت لدى الزعيم الأموي ، الذي احترف شتى الوسائل في اجتذاب الأعوان والانصار ، المقدرة على اغراق الناس في جدل عقيم وساذج ، في الوقت الذي استبطن فيه قضيته الخاصة على المدى الأبعد .

وفي ضوء هذا الواقع ، فإن المجابهة الجديدة بين الخليفة والوالي المتمرد ، لم تكن مهمة سهلة على غرار معركة البصرة . ففي الشام ، استطاع معاوية القبض بإحكام على زمام الأمور ، سواء بتطويع زعماء القبائل القوية[2] ، أو باعداد جيش متماسك وانضباطي ، بينما الجبهة العراقية ، كانت لاتزال حديثة العهد مع الخليفة ، وفاقدة الكثير من هذه الشروط ، فضلاً عن الموقف الفاتر لبعض الزعامات القبلية من الطريقة الصارمة التي مارسها عليّ في السلطة . أما على الصعيد العسكري ، فقد كانت القوة المقاتلة[3] الى جانب الأخير ، هي قوات الخلافة ، المكوّنة من القبائل المشاركة في الفتوح والمستقرة في الأمصار ، حيث انتقلت اليه برواسبها وأمراضها وتناقضاتها المختلفة . وعلى الرغم من تفوقها العددي ، الا انها كانت غير مؤهلة تماماً لخوض معركة طويلة الأمد ، بعد ان خبت فيها النزعة القتالية ، منذ انغماس أكثريتها في شؤون السياسة والمحاور والعصبيات بعد اغتيال عمر .

ولقد كان علي من موقع المسؤول ، حريصاً على توسل المرونة في محاولة إنهاء التمرد الشامي ، حين ارسل موفداً الى الشام[4] ، بغية اقناع معاوية بالتخلي عن موقفه السلبي والاعتراف بشرعية الخليفة . وجاء اختيار جرير بن عبد الله البجلي ، من قبيلة يمنية غير متورطة في الصراعات القبلية القديمة ، ومن موظفي العهد السابق[5] ، لهذه المهمة ، يؤكد المحاولة وتغليب الاتجاه السلمي لدى الخليفة ومن ثم العمَل على تفادي

---

(١) أحمد فريد الرفاعي ، عصر المأمون ج ١ ص ١٧

(٢) كانوا يمثلون بصورة خاصة : فهر ومرّة وحمْيَر وكلب وجذام ، الطبرى ج ٦ ص ٦، نصر ابن مزاحم، وقعة صفين ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧

(٣) من أبرز القبائل التي شاركت كوحدات قتالية مع علي : نخع ، كندة ، خزاعة ، همدان . وقعة صفين ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧ . خليفة بن خياط ، تاريخ ج ١ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢

(٤) الدينوري ، الاخبار الطوال ص ١٥٦ ، ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ٢٧٦

(٥) كان عاملاً لعثمان على همذان . ابن الأثير ج ٣ ص ٢٧٦

الحرب الأهلية . ولكن مهمة جرير ، اصطدمت برفض معاوية وإصراره على موقفه المعروف من عليّ ، حيث يلقى الشبهة على الأخير ، متهماً اياه بتمييع قضية سلفه وحماية المسؤول عن قتله[1] . وجاء ذلك ، مؤشراً الى اقتراب شبح الحرب ، متزامناً مع بعض الاجراءات التي شهدتها الجبهة الشامية ، وكان آخرها استدعاء عمرو بن العاص المعتكف في فلسطين[2] ، بعد خلافه مع عثمان ، دون أن يكون في المقابل على مودة مع عليّ ، مما ساهم في تصعيد حالة التعبئة للحرب المرتقبة . ذلك أن استقدام أحد كبار قادة اليرموك ، وأحد أكفأ الانداد السياسيين لمعاوية ، واتخاذه دور الشريك المساهم الى جانبه ، كان يخفي الكثير من المساومات ، التي تتوجت أخيراً بالتحكيم[3] . فما لبث ابن العاص ان رفع بدوره شعار المطالبة بدم عثمان ، مسوّغاً لمعاوية « حقه » في السلطة عبر هذا المدخل الذي كانت الشام أحد أبوابه العريضة . ويكفي أن نشير الى حجم هذه « الصفقة » بين الرجلين ، في انتقال ابن العاص المثير ، من موقع الساخط المتمرد على الخليفة السابق ـ معبّراً عن ذلك بعد خروجه من الحجاز بقوله : « كنت لألقى الراعي فأحرّضه على عثمان »[4] ـ الى مطالب بدمه ومدافع عن قضيته تحت اللواء الأموي في الشام .

وهكذا تغلبت حتمية الحرب بين موقفين مختلفين ، وبين اتجاهين متناقضين ، في المنهج والطرح والاسلوب . وما لبث معاوية أن استنفر انصاره وحلفاءه من قبائل الشام ، وخرج بهم نحو العراق ـ المقر الجديد للخليفة ـ مقرناً تمرّده بالفعل ، في الوقت الذي اتخذ فيه علي معسكراً لقواته في « النخيلة »[5] ، إثر المعلومات التي بلغته عن تحرك القوات الشامية ، حيث كانت صفين[6] ـ المدينة الفراتية القديمة ـ ساحة الصراع بين الطرفين . وتشير المرويات الى معارك عديدة طاحنة ، رافقتها حملات نفسية

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦

(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ٢٧٤

(٣) اصرار عمرو بن العاص على أن يكون مصر من نصيبه ، شرطاً لتحالفه مع معاوية . اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ١٩٣

(٤) الطبري ج ٥ ص ١١٩

(٥) موقع قرب الكوفة على طريق الشام ياقوت ، معجم ج ٥ ص ٢٧٨

(٦) قرب الرّقة على شاطيء الفرات من الجانب الغربي . المصدر نفسه ح ٣ ص ٤١٤

لتدعيم المعنويات وجذب الانصار من هذا المعسكر أو ذاك . كما تشير الى رجحان الموقف العسكري على الجبهة العراقية(١) ، التي كادت أن تحسم الحرب لمصلحتها ، لولا التطورات التي اسفرت عن الدعوة الى التفاوض ، بعد أن مُهّد لها برفع المصاحف ، في الوقت الذي كانت فيه قوات الأشتر ـ كبير قادة هذه الجبهة ـ تخترق صفوف الشاميين وتدفع بهم الى الوراء(٢) .

ولعل هذه المبادرة التي طرحت شعار « التحكيم » ، أي الاحتكام الى القرآن ، كانت مداهمة للموقف العراقي الذي أخذ يسوده الارتباك ، إذا ما أخذنا في الاعتبار ، ما لهذه الدعوة من تأثير على المقاتلين ومسار الحرب . وترى المصادر أن عمرو بن العاص الذي كان صاحب هذه الفكرة(٣) ومنفذها فيما بعد ، أعطى للموقف الشامي - الأموي ، دعماً وتعزيزاً ما كانا يتوفران ، لولا هذه المناورة الذكية ، حيث تم انقاذ حلفائه من الهزيمة(٤) ومفسحاً لهم المجال لاعادة تنظيم قواتهم ، دون أن ينطبق ذلك على الموقف العراقي ، حيث لم يكن تجميد الوضع لمصلحته ، بل سيؤدي خلافاً لذلك الى انهيار الجبهة غير المنضبطة والمتماسكة ، وسرعان ما ظهرت بوادر التفكك في اعقاب هذه الدعوة ، وما رافقها من ارتخاء الموقف العسكري وانكفاء النزعة القتالية تدريجياً ، بعد أن خرقت الأصوات الداعية الى التحكيم ، الانسجام السطحي بين قوات الخليفة(٥) .

وكان من البداهة أن يعارض عليّ وأركانه هذه الدعوة ، حيث كانت بنظرهم مجرد مناورة ، لا تخدم في النهاية سوى الجبهة الشامية(٦) ، بما في ذلك اعطاء معاوية فرصته التاريخية للظهور ، لأن يكون في موقع الندّ للخليفة ، وما يترتب عليه من تغيير

---

(١) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ١٨٨ . المسعودي، مروج ج ٢ ص ٣٨٩، ٣٩٠. ابن الأثير ج ٣ ص ٢٨٥

(٢) يروي ابن الأثير أن علياً حذّر اصحابه من هذه الخديعة وأكد لهم أن معاوية وعمرا واصحابهما «ليسوا باصحاب دين ولا قرآن ، أنا اعرف بهم منكم . قد صحبتهم اطفالاً ثم رجالا ، فكانوا شر أطفال وشر رجال . ويحكم والله ما رفعوها الاّ خديعة ووهنا ومكيدة» الكامل ج ٣ ص ٣١٦

(٣) الدينوري ، أخبار ص ١٨٨ ، ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ٣١٦

(٤) الدينوري ، اخبار ص ١٨٨ . ابن الأثير ، الكامل ح ٣ ص ٣١٦

(٥) المسعودي ، مروج ج ٢ ص ٣٩٠

(٦) ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ٣١٦

في الموازين السياسية والمعنوية والعسكرية . غير أن ذلك لم يكن مُلزماً لجميع قيادات الجبهة العراقية ، التي سرعان ما ارتفعت فيها الأصوات المتعاطفة مع التحكيم أو المحرِّضة عليه . وكان أكثر ما راقت هذه الدعوة ، للقيادات القبلية البارزة ، غير المؤهلة عملياً للصمود في حرب نظامية طويلة الأمد ، وتستدعي الانضباط فضلا عن الرضوخ للقوانين العسكرية الصارمة . ولم يكن موقف القوى أو معظمها ، بعيداً عن التأثر بالأجواء التحكيمية التي أخذت تسيطر على الجبهة ، على حساب الاتجاه القتالي المتراجع . ولم يكن ما يثير الدهشة أن يقترن ذلك الموقف ، ليس بالتأييد فقط ، ولكن بالأصرار والتهديد ، لحمل القيادة على الاستجابة والرضوح لهذا الأمر[1] . وما لبث أحد أكثر المتحمسين للتحكيم من جماعة علي ، وهو الأشعث بن قيس الكندي ـ أول موفد الى معاوية لاستطلاع غرضه من التحكيم ـ[2] أن عاد الى معسكره ، وهو أشد اقتناعاً بهذا الدعوة ، ليقوم بدوره في خلخلة الجبهة العراقية وتثبيط معنوياتها بصورة لا تدعو الى الريب .

وفي ضوء هذا الواقع ، يصبح عليّ وبعض أركانه المخلصين ، قلّة امام التيار الاستسلامي الذي سيطر على معسكره وفرض رأيه لمصلحة التحكيم . على أن المسألة لم تتوقف عند حدود الاستجابة التي كانت حذرة لدى علي ، حيث إن القوة التي نجحت في تحويل التوجّه العام لقبائل العراق من الحرب الى الجمود ، كانت لديها القدرة أيضاً على التدخل في النتائج ايضاً والسيطرة على الموقف ، في ضوء ما يعنيه ذلك من تعزيز لمواقعها الذاتية والتقاطع المصلحي مع جبهة الشام . وبدت مؤشرات هذا التفكك على الجبهة العراقية ، تتجلى في اختيار ممثلها الى « مؤتمر » التحكيم الذي اتُفق على عقده في أذرح[3] ، وفق معاهدة ضمت الشروط المبدئية[4] للمفاوضات ،

(١) المسعودي، مروج ج ٢ ص ٣٩١

(٢) نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ص ٤٩٨ . ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ٣١٨

(٣) ثمة التباس في تحديد المكان الذي اجتمع فيه «الحكمان»، أو بين أذرح ودومة الجندل ، حيث خلطت الروايات بينهما أو انفردت بذكر أحدهما دون الآخر . وقد تكون أذرح من وجهة النظر الجغرافية ، أكثر ملاءمة لذلك الأجتماع ، وهو ما يعزّزه نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ص ٥٧ . راجع أيضاً ياقوت الذي يصف أذرح بأنها «بلد في اطراف الشام وكان منها أمر الحكمين» معجم البلدان ج ٢ ص ١٢٩ ـ ١٣٠

(٤) نصّت المعاهدة على «ان يحيي الحكمان ما احيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن ، ولا يتبعان=

حيث انتدب معاوية كبير معاونيه وبطل هذه المناورة ، عمرو بن العاص ، بينما كان أبو موسى الاشعري ، الذي أُدين في موقف مشبوه ضد عليّ في الكوفة[1] بعيد توليه الخلافة ، موفد الأخير الى أذرح . ويبدو أنه كان ميّالاً الى اختيار أحد خلصائه لهذه المهنة ، لا سيما عبد الله بن عباس ، الا أنه اضطر للتراجع مرة أخرى تحت ضغط الأشعث ، الذي رفض هذا الاقتراح لأسباب قبلية حسب زعمه ، كون الأشعري اليمني الأصل شأن الأخير ، كان اكثر مرونة على التفاوض وفي منتصف المسافة بين الطرفين[2] . والواقع أن الأشعري الذي كان من قادة الفتوح في العراق ، قبل تعيينه والياً على البصرة والكوفة ، تمتع برصيد كبير لدى القبائل اليمنية ، الأكثر عدداً وقوةً ، حيث تجلى ذلك سابقاً ، حين فرضته هذه القبائل والياً على الكوفة في اعقاب تمردّها على واليّ عثمان ، سعيد بن العاص .

ولم يزل الأشعث يمارس دوره غير البريء في التأثير على المترددين من جماعة عليّ ، مروّجاً للمعاهدة المذكورة ، التي اعتبرت وثيقة للمناقشة في أذرح[3] ، بعد جدال عاصف أثاره الاتجاه الرافض مبدئياً للتحكيم ، وبالتحديد لما ورد في حيثيات الوثيقة من تساوٍ بين موقعي علي ومعاوية ، مؤدياً ذلك الى تسجيل نقطة هامة للثاني في مرمى الأول ، بعد تجريده عملياً من اقوى اسلحته ، وهي الخلافة[4] ، ووضعه في موقع الندّ أمام والي الشام المتمرد من حيث المبدأ على الشرعية[5] . على ان الأشعث لم يُنج

= الهوى ولا يداهنان في شيء من ذلك ، فإن فعلا فلا حكم لهما» الطبري ج ٢ ص ٣٠. المسعودي ، مروج ج ٢ ص ٣٩٢

(١) اليعقوبي ، تاريخ ج ٦ ص ١٨٩ . المسعودي ، مروج ج ٢ ص ٣٩١

(٢) نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ص ٥٠٠ . الطبري ج ٦ ص ٢٨ .

(٣) نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ص ٥٠٤ ـ ٥٠٨

(٤) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ص ٥٠٤

(٥) روى اليعقوبي أن علياً ومعاوية «كتبا كتابين بالقضية ، كتاباً من عليّ بخط كاتبه عبد الله بن أبي رافع ، وكتاباً من معاوية بخط كاتبه عمير بن عبّاد الكناني ، واختصموا في تقديم عليّ أو تسمية عليّ بأمير المؤمنين . فقال أبو الأعور السلمي : لا نقدّم علياً . وقال اصحاب عليّ : ولا نغير اسمه ولا نكتب الا بإمرة المؤمنين . فتنازعوا على ذلك منازعة شديدة حتى تضاربوا بالأيدي . فقال الأشعث : امحوا هذا الأسم! فقال الأشتر : والله يا أعور لهممت أن املأ سيفي منك ، فلقد قتلت=

من إدانه أنصار هذا الاتجاه وإتهامه بالتواطؤ والتنسيق مع الجبهة المعادية فبعد تهديده بالقتل من جانب الأشتر[1] ، الذي كان من فرسان معركة اليرموك الكبار وآخر المطاردين لغلول البيزنطيين في شمالي الشام[2]، وكان كذلك أحد ابرز القادة المتحمسين لعليّ في صفين[3] ، انتفض في وجهه عروة بن أدية (من زعماء تميم) وكاد أن يفتك به ، لولا أن هوت ضربة السيف على مؤخرة فرسه[4] ، مما أدى الى تكتل كندة اليمنية حول زعيمها الأشعث ، في الوقت الذي أخذ فيه بنو تميم ، يندرجون في تكتل آخر أكثر تماسكاً ، ولكن على حساب هذه الجبهة . ولنا أن نتصور تأثير هذا الانقسام على وحدة الأخيرة ، التي ستفتقد اثنتين من أكبر القبائل المقاتلة ، بعد أن اندراجهما في التطرف المتناقض الذي جاء في النهاية لمصلحة الجبهة الشامية . فبينما تعاطفت الأولى (كندة) مع التحكيم ، الذي تبنّته هذه الجبهة وراهنت عليه ، تمادت الثانية (تميم) في خطّها المعارض لهذا المبدأ ، معبّرة عنه بالقول الشهير - على الرغم من تعدد دوافعه - « لا حكم الا لله »[5]، مشكلة نواة ما عرف لاحقاً بـ « الخوارج »، الذين اتخذوا هذه العبارة شعارهم الرئيسي .

وكانت هذه الحادثة سبباً في تجميد المفاوضات ، وذلك في اعقاب الفوضى التي سيطرت على المعسكر ، من ساخط ، الى رافض . . الى موصوم بالخيانة ، حتى أن

= قوماً ما هم أشرّ منك . وإني أعلم انك ما تحاول الّا الفتنة وما تدور الا على الدنيا وإيثارها على الآخرة . فلما اختلفوا قال عليّ : الله أكبر! قد كتب رسول الله يوم الحديبية لسهيل بن عمرو : هذا ما صالح رسول الله . فقال سهيل: لو علمنا انك رسول الله ما قاتلناك . فمحا رسول الله اسمه بيده وأمرني فكتبت : من محمد بن عبد الله ، وقال ان اسمي واسم أبي لا يذهبان بنبوتي . . . وإن اسمي واسم أبي لا يذهبان بإمرتي . وأمرهم فكتبوا : من عليّ بن أبي طالب . وكتب كتاب القضية على الفريقين يرضون بذلك بما أوجبه كتاب الله واشترط على الحكمين في الكتابين أن يحكما بما في كتاب الله من فاتحته الى خاتمته، لا يتجاوزان ذلك ولا يحيدان عنه الى هوى ولا إدهان ، وأخذ عليهما أغلظ العهود والمواثيق ، فإن هما جاوزا بالحكم كتاب الله من فاتحته الى خاتمته فلا حكم لهما» تاريخ ج ٢ ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٨٩ .

(٢) راجع الأزدي ، فتوح ص ٢٣٣ ، ٢٣٧

(٣) الطبري ج ٦ ص ٦

(٤) المصدر نفسه ج ٦ ص ٣٠ - ٣١ . المسعودي، مروج ج ٢ ص ٣٩٣

(٥) الطبري، ج ٦ ص ٣١. المسعودي، مروج ج ٢ ص ٣٩٣

بعض الـذين دافعوا عن « التحكيم » ، عـادوا الى نفض ايديهم منـه، وآخر بـالـغ في مـوقفه ، الى حـدّ اتهام عـليّ بالتخـاذل[1] . وكان ذلـك كـافيـاً ، لأن يقـرر الأخـير ، انسحابه الى الكوفة ، لاعادة تقويم الوضع ومعالجة الخلل المـريع الـذي أصاب جبهته وقادها الى التمـزق . ويبدو أن أكـثر همومـه الحاحـاً في تلك الاثناء ، كـانت في اتساع دائرة الرافضين في معسكره ، الذين استهوتهم مقولة الـزعيم التميمي ، لينفضّوا تبـاعاً عنه ، الى معسكر اتخذوه في حروراء ـ احدى قرى الكوفة ـ وذلك بقيادة تميمي آخـر ، هو شبث بن ربعي[2] .

على أن علياً لم يفقد زمام الموقف على الـرغم من تكاثـر هؤلاء « الخارجـين » ، حيث نـاقشهم في الحجج التي تـذرعوا بهـا ، مشيـراً الى رفضـه المبـدئي للتحكيم والى الاسباب التي حملته على الأخذ به . فنجح في التأثير عـلى قياداتهم ، التي استجـابت له بعد لأي وعادت عن اعتصامها الى الكوفة[3] . ولكن تسويغ الخليفـة لم يكن مقنعاً في نـظرهم ، ممـا جعـل هـذا الاتفـاق واهيـاً ، لا سيـما بعـد وضـوح الالتـزام بـوثيقـة « التحكيم » ، ودفعهم الى الانفصال مجدداً ، حيث تمّ ذلك عشية اجتماع المتفاوضين في أذرح[4] . وفي تلك الاثناء ، كان هؤلاء الذين سيعرفـون بـ « الخوارج » ، تعبيـراً عن خروجهم الاحتجاجي عـلى دعوة التحكيم ، ينتقلون في معـارضتهم الكلاميـة الى المجابهة المسلحة ، بينما كـان علـيّ شديد الحرص على تطويق هذه الأزمة ، والحؤول دون خروج هذه المجمـوعة الكبيـرة وعدم استعـدائها ، في وقت كـان الموقف يتـطلب تجنيد كافة الطاقـات لمعركتـه الصعبة والـطويلة ، وفي وقت ادرك فيه عبث المفـاوضات وعقم الحلول الـوسطيـة[5] . فالحملة النفسيـة المتصاعـدة التي بثّها الـزعيم الأموي في اوساط المعسكر العـراقي ، والوسـائل التي رافقت اختيـار الموفـدين وانتشار الـوثيقة ، كانت كلها مؤشـرات تبعث على اليقـين ، بأن اجتمـاع أذرح ، لن يتعدى المنـاورة أو

---

(١) فلهوزن، الخوارج والشيعة ص ٥

(٢) «الأمـرشورى بعـد الفتح والبيعـة لله عزّ وجـل والأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر».. من اقوالهم في حروراء . ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧

(٣) المصدر نفسه ح ٣ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٨

(٤) المصدر نفسه ج ٣ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٧ .

(٥) بدأت المفاوضات في رمضان سنة ٣٨ هـ . ياقوت ، معجم البلدان ج ١ ص ١٢٩ ـ ١٣٠

يختلف عن الابتزاز السياسي ـ إذا جاز التعبير ـ لكسب الوقت وحمل الخليفة على المزيد من التنازل والتراجع .

وهكذا فإن جبهة اخرى استجدت ضد علي ، بانفصال الخوارج وانسحابهم الى النهروان[1] ، بقيادة تميمي ايضاً ، هو عبد الله بن وهب الراسبي[2] . وما لبث أن تحوّل هؤلاء الى قوة سياسية وعسكرية معارضة ، احتلت فيما بعد حيزاً غير عاديّ بين الحركات الثورية ، التي استهدفت دولة الأمويين بشكل خاص .

ولعل الدافع الانفصالي تعدّى في اسبابه الاحتجاج على التحكيم او الرفض له ، انطلاقاً من بضعة مؤشرات يمكن ربطها بذلك التحرّك غير العفوي ، الذي أوقع علي والجبهة العراقية في غاية الحرج . فهؤلاء الذين كانت نواتهم من تميم ، لم ينظرو بعين الرضى كثيراً الى الخلافة ، شأن معظم قبائل الأمصار ، ذلك الموقف الذي أخذ يتبلور في الثلاثينات ، مع الشعور بتراجع دورهم وانحسار نفوذهم ، أمام « الهجمة » القرشية الواسعة التي اجتاحت الأمصار في عهد عثمان . ومن ناحية ثانية ، فإن هذا الموقف ربما كان موصولاً بحركة الردّة ، التي كان لتميم ، النازلة حينذاك على امتداد الطريق التجاري قبل الاسلام (مكة ـ اليمامة ـ العراق) شأن خطير فيها ، حيث تأثر هذا الطريق بالتحولات التي قادت الثقل السياسي والاقتصادي الى « المدينة »[3] ، مما حدا بهذه القبيلة الكبيرة الى القيام بدور بارز في تطورات تلك المرحلة . ولم يكن مصادفة ، قيام القبيلة نفسها ، بالتمرد على الخلافة مرة اخرى، في وقت تولّاها أحد أبرز وجوه الاتجاه الاسلامي ، وذلك عبر المنظور ذاته ، المتعارض مع توجهاتها ونمط سلوكها المتأثر بالبداوة[4] ، فضلاً عن مصالحها التي « استهدفتها » قريش ، سواء في استملاك الأرض أو في مراكز النفوذ ، حيث سيترك ذلك تأثيره على الفكر السياسي الخوارجي ، وبالتحديد النظرية الداعية الى إسقاط قرشية الخلافة حسب تقليد « السقيفة » .

---

(١) وصفها ياقوت بأنها كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي . معجم البلدان ج ٥ ص ٣٢٥ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ٣٣٦

(٣) ابراهيم بيضون ، الحجاز والدولة الاسلامية ص ١٣١ ، ٢٠٨

(٤) المرجع نفسه ص ١٣١

وفي تلك الاثناء كانت مفاوضات التحكيم تتم وفق طريقة يشوبها الارتياب بعدم الجدّية ، حيث استأثرت قضية عثمان بالنقاش ، دون التوقف عند القضية الاساسية ، سوى « الاتفاق » على ادانة كل من عليّ ومعاوية ، بخلعهما وترك الأمر « شورى بين المسلمين[1] » ، حسب الرأي الذي انتهى اليه الاشعري ، تحت ضغط محاورة ، الذي اثبت جدارة والمعية ، لم تتوفرا له ، فضلاً عن التزامه ، أي عمرو - بالموقف الشامي ، خلافاً للأشعري الذي كان على مسافة من جبهته ، مما أدّى الى تخليه عن قضية صاحبه في أول سانحة ، وذلك عندما طرح اسم صهره (عبد الله بن عمر) ، حلاً وسطاً بين الاثنين[2] . وكان واضحاً ان الرابح الكبير ، هو الزعيم الاموي بعد نجاح ممثله في استدراج الاشعري ، الى التنازل عن حق يتمتع به عليّ دون خصمه ، وهو الخلافة .

وانفضّ « المؤتمر » على غير وفاق ، كما كان متوقعاً ، حيث انعكس الفشل بصورة واضحة على الجبهة العراقية بينما تعزّز موقع معاوية ، الذي حاز على اعتراف « المؤتمر » في ندّاً لعليّ ، بينما الأخير وجد في هذا خرقاً للوثيقة ، ولحكم القرآن الذي التزم المتفاوضان بتنفيذه[3] . ولم يجد بداً من الانصراف بعد ذلك ، الى إعادة تنظيم قواته وتحسين اوضاعها القتالية[4] ، غير أن اتساع نفوذ الخوارج في منطقة النهروان ، وانتشارهم في اطار عصابات مسلحة ، تقطع الطرق وتعتدي على الناس[5] ، حال دون المضي بعيداً في هذه المهمة ، قبل التصدي لهؤلاء واقتلاع خطرهم . وفي المعسكر الذي التجأوا اليه ، نجح عليّ في استعادة قلة منهم[6] ، بينما أوقع الهزيمة بالآخرين ، المتشبثين بآرائهم ، وقتل بعض زعمائهم الكبار[7] ولكن دون أن يتمكن

---

(١) الطبري ج ٦ ص ٣٩

(٢) المكان نفسه

(٣) ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ٣٣٨

(٤) المصدر نفسه ج ٣ ص ٣٤٠

(٥) كان من بين ضحايا الخوارج ، عبد الله بن خباب ، أحد الصحابة المقرّبين من عليّ. المصدر نفسه ج ٣ ص ٣٤١

(٦) الدينوري ، الأخبار الطوال ص ٢١٠

(٧) من بينهم عبد الله بن وهب الراسبي . المسعودي ، مروج ج ٢ ص ٤٠٢ . ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ٣٤٦ - ٣٤٨

من القضاء عليهم . فما لبثوا أن استردوا انفاسهم بعد قليل ، وأعادوا تنظيم قواتهم ، مصعّدين نضالهم ، بعد اغتيال علي وسقوط دولة الراشدين ، ضد معاوية ونظامه ، بالعداء نفسه إن لم يكن بصورة أكثر شراسة .

وعلى الرغم من رفض الخوارج المبدئي لموقف معاوية ، فقد ساعدوه بطريقة غير مباشرة على تعزيز مواقعه السياسية والعسكرية . ذلك أن حرب الخوارج في العراق ، أتاحت لمعاوية الفرصة من أجل توسيع دائرة نفوذه خارج الشام ، حيث سقطت في يده مصر واليمن وبعض نواحي الحجاز ، فضلاً عن الجزيرة ، دون أن يصبح العراق نفسه في منأى عن الهجمات الشامية المتكررة[1] . وكان ذلك التحوّل في الموقف الأموي من الدفاع الى الهجوم ، يقابله انكفاء في المستوى العسكري للجبهة العراقية ، التي عجزت حينذاك عن تعويض النقص في العدد والمعنويات اللذين ظهرا في صفين . والواقع أن هذه الجبهة التي أفرزت الخوارج ، فأصبحوا أكثر عداءً لها من الامويين ، والتي جمعت في صفوفها عدداً غير قليل من الانتهازيين ممن كانت لبعضهم الكلمة النافذة . . أن جبهة لها هذه السمات ، كانت غير قادرة على الصمود في حرب طويلة الأمد ، كتلك التي ذرّت قرنها بين الشام والعراق . فقد أفسدت السياسة جنودها ، وفتكت بهم العصبية القبلية ، وانتشرت بينهم روح التخاذل ، بعد أن كان هؤلاء المقاتلون ، الى وقت غير بعيد ، يضمّون الطليعة الاسلامية التي صنعت اعظم الانتصارات في العقد الثاني من الهجرة .

ان انهيار « المؤسسة » العسكرية للخلافة ، كان مرتبطاً بانهيار النظام السياسي الى حد كبير في العهد السابق ، فانحراف كبار الموظفين ، بمن فيهم الولاة ، حرّك في نفوس أهل الامصار الذين شكّلوا مادة الجند الأساسية ، الرغبة في استثمار جهودهم التي استأثر بها المدنيون ، وذلك تحت شعار الاصلاح والتغيير ، الذي انتهى بهم الى التورط في قتل الخليفة وما رافقه من توجيه ضربة قاصمة للدولة الراشدية بكافة أجهزتها المدنية والعسكرية . فقد انغمست هذه « المؤسسة » ، تحت تأثير تلك المتغيرات في حبائل السياسة ، في صراعات الطامحين الى السلطة وتكوّنت لديها ، بعد

---

(١) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ١٩٥ . ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ٣٧٩

الحركة الدموية التي قامت بها ضد الخليفة ، سابقة خطرة ، حيث القيادات التي ذاقت مؤقتاً طعم السلطة (سيطرة مجموعات الامصار بضعة ايام على المدينة بعد مقتل عثمان) اخذت تتوسل القوة والضغط لتمرير مصالحها الحيوية[1] متجاوزة . . الى حد كبير ، حدود الدور الذي رسمته لها السلطة المدنية في عهد عمر ، بأن تسير في فلك القيادة السياسية وتخضع لها بصورة مطلقة .

وفي ضوء هذه الاعتبارات ، اعتكف عليّ في عاصمته وطوى مشاريع القتال بعض الوقت ، بانتظار ظروف مختلفة وفرص مؤاتية . وكان شاغله الاكبر الذي استنفد وقته وتفكيره ، هو إعادة بناء قواته المتفسخة ، وفق مقاييس جديدة ولاءً وتجانساً وانضباطاً ، تلك الصفات التي غابت عنها في صفين[2] . وفي خلال السنتين الأخيرتين من حياته ، دأب على تنفيذ خطته بهدوء وصبر ، دون أن يتوقف الصراع بين الشام والعراق ، وذلك عبر الهجمات الاموية ، التي نجح في صدها وتجميد خطرها[3] ، حتى قيل انه توصل الى حشد عدد كبير من المقاتلين ، ناف على الاربعين ألفاً ، حسب رواية الزهري[4] وبعض الروايات الاخرى[5] .

غير أن القوة التي انهمك عليّ في إعادة تشكيلها ، لم تكتمل إعداداً وتنظيماً ، ومشاريع الحرب الجدّية انطوت الى الأبد . فقد سقط الخليفة فجأة في مسجد الكوفة ، وكان المتهم باغتياله رجلاً مغموراً ، يدعى عبد الرحمن بن ملجم المرادي[6] . فكان ثالث الخلفاء الراشدين الذين لاقوا المصير نفسه ، اثنان منهم (عمر وعليّ) ، قُتلا اغتيالاً في ظروف غامضة ، والآخر (عثمان) ، سقط في انتفاضة مسلحة ، لا تخلو فصولها الاخيرة ايضاً من من الابهام . وقد حملت لنا المرويّات بضعة أسباب وراء اغتيال عليّ ، ولكن أكثرها تردداً ، تلك الرواية المحبوكة[7] ، التي ربطت الحادثة

(١) راجع الموقف من عليّ عندما اعترض على التحكيم . ابن الأثر ، الكامل ج ٣ ص ٣٧١

(٢) راجع رسالة عليّ بعد عودته الى الكوفة المصدر نفسه ج ٣ ص ٣٤٩

(٣) الطبري ج ٦ ص ٧٧ ـ ٧٩

(٤) المصدر نفسه ج ٦ ص ٩١

(٥) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٣٤

(٦) قتل عليّ في رمضان سنة ٤٠ هـ . خليفه بن خياط ج ١ ص ٢٢٧

(٧) تقول الرواية أن ثلاثةً من الخوارج اجتمعوا بعد معركه النهروان واتفقوا على الانتقام ـ

بمؤامرة مثلّثة دبّرها الخوارج[1] ، وكان اداتها المنفّذة احد عناصرهم المتطرفة. ولكن الغريب في الامر ، أن الرواية نفسها تبرز الحادثة ، وكأنها مجرد قرار فردي من دون خلفية سياسية ، ربما كان لها مايسوغها بالنسبة للخوارج كحركة ثورية معادية للخليفة .

لعل أي متتبع لهذا الشريط من الأحداث ، من غير العسير عليه أن يلمح مرة أخرى شبح « المؤامرة[2] التي أوشكت على استكمال فصلها النهائي ، بسقوط عليّ ومعه البقايا الأخيرة من الدولة الراشدية . ولقد جاء انتصار معاوية ، أحد أقوى ممثلي الاتجاه القرشي ، يكرس بصورة أكثر وضوحاً سيادة الذهنية القديمة ، القائمة على تحالف القبائل و « الارستقراطية » الحجازية ،من خلال الصيغة المعدّلة التي أخذت في الظهور ، مع نجاح هذا الاتجاه في استرداد نفوذه « المفقود » . ذلك ان كبار التجار في مكة الوثنية الذين استسلموا للأمر الواقع واعترفوا بالاسلام في اعقاب « فتح » الاخيرة ، فقدوا نفوذهم الكبير ، ولكن دون الطموح الذي بقي في النفوس ومعه إرادة العودة الى الواجهة ، بدءاً بالسلطة الاموية المقنّعة في عهد عثمان، الى الدولة الاموية « الملكية » في عهد معاوية .

وفي الوقت نفسه حلّت بأصحاب الاتجاه الاسلامي ضربة أخرى قاصمة ، بمقتل ممثله وأبرز زعمائه ، وتبخّرت آماله في قيام السلطة العادلة ، في وقت بدأ يتلمس أبعاد الدور الكبير المعطى له في الدولة، منذ أن وضع عمر بن الخطاب « نموذجها » على أرض الواقع . ثم جاء عليّ بعد انهيار الجزء الأكبر من دولة الأخير ، ومعه الآمال

=لقتلاهم، وذلك بالقضاء على الثلاثة المسؤولين عن «الفتنة»: وهم عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص. «فقال ابن ملجم أنا اكفيكم عليا وقال الآخر أنا اكفيكم معاوية وقال الآخر أنا اكفيكم عمرا». . ومضى كل منهم الى تنفيذ ما اتفقوا عليه ، فلم ينجح في مهمته سوى ابن ملجم ، بينما الثاني (الحجاج بن عبد الله الصيرمي) لم يصب من معاوية مقتلاً ، اما الثالث (عمرو بن بكر التميمي السعدي) فلم يلتق عمرا لعدم خروجه الى الصلاة تلك الليلة . الدينوري ، الاخبار الطوال ص ٢١٣ . الامامة والسياسة ج ١ ص ١٤٧ . ابن طباطبا ، الفخري ص ١٠١

(١) ثمة رواية يوردها الدينوري تقول إن ابن ملجم خطب فتاة في الكوفة تدعى الربّاب، وكانت امها قطام ترى رأي الخوارج وقد كان عليّ قتل اباها وأخاها يوم النهر فقالت لأبن ملجم: «لا ازوجك الا على ثلاثة آلاف درهم ، وعبد، وقينة ، وقتل عليّ بن أبي طالب». الأخبار الطوال ص ٢١٣

(٢) راجع موقف أبي الاسود الدؤلي وتحمله معاوية مسؤولية قتل عليّ .
H. LAMMENS, Etudes sur le califat Mo'awiya 1 re . p 221

بعودة هذا الاتجاه الذي يشكل العنصر الانتاجي الرئيسي في الدولة ، الى ممارسة دوره الطبيعي في شتى مجالات المجتمع ، السياسية والعسكرية والاقتصادية .

وإذا كان ثمة تقويم لخلافة عليّ ، فهو لن يكون إلّا عرضاً خارج اطار الحرب الاهلية، التي انفجرت في أيامها الاولى واستنزفت كافة طاقاتها وامكاناتها ، باستثناء بعض انعكاسات لهذه التجربة القصيرة على الكوفة بشكل خاص ، أكثر ما أصابت الجانب الاجتماعي ، حيث شهدت الاخيرة « نموذجاً » آخر للدولة الاسلامية ، ربما أكثر شدّة من « النموذج السابق »، حيث سيترك بصماته واضحة على الحاضرة العراقية ، وخطها السياسي ـ الاصلاحي بعد سقوطه ، وعدا ذلك لا نستطيع معالجة أحداث السنوات الخمس[1] التي امضاها عليّ في الحكم ، خارج دائرة الصراع الذي انفجر بين محوري الشام والعراق. وانتهى الى قتل الخليفة وهو لا يزال يعدّ لمعركة لم تكن فصولها قد استكملت بعد ، دون ان ننسى هنا منجزات الخليفة في ساحات الحرب ، لا سيما الموروث التشريعي الذي ينطوي على الخطوط العريضة والمفصّلة لفكره السياسي ومواقفه من بعض القضايا الهامة ، فضلاً عن التصدي للمسائل الطارئة ، وهي كثيرة ، وايجاد حلول لها ، الى آخر ما حفل به هذا الموروث الذي يعتبر من أبرز ما أنتجته المرحلة على صعيد الفكر السياسي والاجتماعي .

وأخيراً ، فإن عليّاً جاء الى الحكم ، في وقت تآمرت عليه الاطراف المختلفة ، بما فيها المحسوبة عليه والمقاتلة بين قواته ، كما جاء في ظلّ ظروف لا تشجع على الحكم ولا تساعد مطلقاً على إحداث التغيير المنشود ، كما كان مطلوباً من الخليفة ـ أي خليفة ـ في تلك المرحلة الدقيقة . كذلك فإن الانتشار المذهل للعرب المسلمين ، في عهد عثمان ، بحثاً عن الثروة ومحاولة لاستملاك الارض، خلافاً لموقف الدولة السابق من هذه المسألة ورفضها توزيع الأرض بالذات ، لا سيما في العراق ، حيث كان نظام الزراعة المروية ينطوي على كثير من التعقيد ويتطلب علاقة تعاونية ، لا تتلاءم مع رواسب النزعة القبيلة ـ الفردية عند العرب [2]. . وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه

(١) كانت ولاية عليّ اربع سنين وتسعة أشهر وستة أيام ، حسب خليفه بن خياط ج١ص٢٢٧

(٢) راجع العبارة المنسوبة لعمر إزاء مسألة توزيع اراضي السواد (العراق) : « اخاف إن قسمته أن تفاسدوا بينكم في الماء » ابو عبيد، الأموال ص ٨١. راجع المزيد من التفصيل حول هذه المسألة في كتابنا : الحجاز والدولة الاسلامية ص ١٤٤ وما بعدها .

السياسة الى إفساد ذلك التراث من السلوك الاجتماعي الذي جاء مع الاسلام ، بحيث إن انتكاسات مريرة ستعاني منها الانظمة اللاحقة ، ذات النهج الفردي ، بسبب النمط السلوكي الجديد ، إزاء المعارضة او شعوب البلدان المفتوحة ، ذلك النمط المُفرغ من قيم وثوابت العصر الأول .

وبعد اغتيال عليّ . بلغت الدولة الراشدية ، أو بقاياها ، مرحلة الاحتضار ، وذلك خلال عهد قصير شبه انتقالي ، انتقلت فيه الخلافة الى الحسن بن عليّ . وكان المبادر الى بيعته زعيم « الأنصار » قيس بن سعد بن عبادة ، أحد أخلص أعوان أبيه وعامله المسابق على مصر[1] ، وأحد أكثر المتحمسين للحلّ العسكري[2] ، بما لذلك من دلالة ، على أن الصراع العراقي ـ الشامي ، الذي ورثه الحسن مع الخلافة ، ستكون له الاولوية ، كما في العهد السابق . بيد أن حيثيات البيعة ، أثارت من الجدل ما جعل بعض المؤرخين ، يعتقد أن الحسن كان لديه عزوف عن الحرب وميل الى السلم ، في ضوء ما أشارت اليه الرواية من قوله لأصحابه : « انكم مطيعون ، تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت »[3] . فقد أوجد ذلك شعوراً بالارتياب في نوايا الحسن ، دفع البعض من انصاره الى التوجه نحو أخيه الحسين ، والقول له حسب إحدى الروايات ـ « ابسط يديك نبايعك على ما يعنا عليه أباك وعلى حرب الحالين الضالين »[4] ولكن الحسين يرفض تجاوز أخيه الاكبر ، حسب زعم الرواية نفسها ، ولا يبدي حماسة لهذا الامر ، على الرغم مما قيل عن موقف له متحفظ إزاء هذه المسألة[5] .

وسنحاول مناقشة هذا التصوّر ، عبر سياق الأحداث التي عاصرها الحسن ابان تلك الفترة الانتقالية القصيرة . ذلك ان القول بأن الاخير كان زاهداً في مقارعة معاوية او غير متحمس لمواجهته عسكرياً ، وهو يعلم أن ذلك قدره منذ قبوله بالخلافة ، لأمر يحيط به الشك ، تصبح غير مسوّغة تلك المجازفة ، لو لم يكن لديه التصميم المسبق إزاء الخيار الصعب . ولعل غياب اخبار الحسن مفصّلة عن

(١) نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ص

(٢) الدينوري ، الأخبار الطوال ص ٢١٨

(٣) ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ٤٠٢

(٤) الأمامه والسياسة ج ١ ص ١٥٠

(٥) الطبري ج ٦ ص ٩٢

المرويات ، ساهم الى حدّ كبير في طمس الكثير من الجوانب الايجابية في شخصيته ، حيث التركيز على حياته الخاصة التي غلبت عليها الليونة والدعة والاستسلام لرغيد العيش، إلى الحدّ الذي بلغ باحدى الروايات الى القول بأن همّه كان في السعي الى ان « يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية ثم يدخل الجماعة »[1] . على اننا لا نملك في الوقت نفسه المعطيات الكافية ، عن موقف الحسن من الحرب ومدى التزامه بالبيعة ، التي كانت بيعة على القتال ايضاً ، باستثناء ما جاء في « مقاتل الطالبيين » من وصف لقواته ، يوحي بأنها على مستوى عال من الكثافة والتنظيم[2] . وما عدا ذلك ، فالعلاقة بينه وبين معاوية ، تكاد تكون محصورة في مجموعة المراسلات ، التي حاول بواسطتها كل منهما ، تبيان حقه في الخلافة وكفاءته لها[3] .

والواقع أن الحكم على شخصية الحسن من خلال بضعة اسابيع - وهي المدة التي قضاها في الخلافة ، بما رافقها من مشاكل متوارثة - يبقى ناقصاً وبحاجة الى معطيات لا تزل غير متوفرة . فهو يداهم بعيد قليل من بيعته بوصول معاوية على رأس قواته الشامية الى مُسكن »[4] ، دون أن يكون له من الوقت او الاستعداد للحرب ، سوى ما كان قد أعدّه الخليفة السابق . وهنا نجد انفسنا أمام حادثة ، أثارت استغراب بعض المؤرخين ، حين غادر الحسن الكوفة بقواته الى « المدائن »[5] ، واتخذها معسكراً له . ويبدو أن ضرورات الحرب . دفعته الى اختيار هذا المكان البعيد ، ليأخذ وقته من الاستعداد والتعبئة ، حيث لا نملك تعليلاً لسيره في غير الوجهة التي اتخذها معاوية . ولكن ذلك لا يعني بالضرورة ، التحرك في الاتجاه التراجعي ، انطلاقاً من عناصر معينة اعطت للمدائن أهمية جغرافية وعسكرية خاصة، مما جعلها تشكل أحد الخطوط الدفاعية التقليدية في العراق ، بدءاً بعهد عليّ ومروراً بالعهود الاموية التالية فيما بعد[6] . وكان قائد المقدمة قيس بن سعد ، قد

(١) الطبري ج ٦ ص ٩١

(٢) الاصفهاني ، مقاتل الطالبيين ص ٤٠

(٣) المصدر نفسه ص ٣٥ - ٣٨ . الدينوري ، الأخبار الطوال ص ٢١٨ ، الطبري ج ٦ ص ٩٣

(٤) على مقربة من الأنبار . الاصفهاني ، مقاتل الطالبيين ص ٤١

(٥) ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ٤٠٤

(٦) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ١٨٧ . ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ٣٤٠

تعـرض لحملة نفسيـة عنيفـة من الجـانب الامـوي ، حيث انـطلقت في أثـره شـائعــة مقتله[1] ، التي كان لها تأثير سلبي على معنويات المقاتلين في معسكـر الحسن ، لما يمثله القـائد « الانصـاري » من حضور قـوي وثقة كبيـرة به لـدى جماعتـه ، الـذين شكلوا التكتل الابرز في المعسكر . وتتوالى الحرب النفسية ، ومعها الشائعـات الخطيـرة ، التي كانت السلاح الأبرز في تلك الفترة ، لا سيما الذي أدخله معاوية في روح المقاتلين ، بأن الحسن لم يغادر الكوفة الا مناورة وتمهيداً للصلح المرتقب[2] .

وهكذا فإن الاجواء التي سادت العـراق في تلك الفترة القلقـة ، لم تكن مشجعة على القتال ، بعـد نحو خمسـة أعوام من التعبئـة العسكريـة والنفسية . فـالظروف التي قهرت علياً ، كانت لا تزال هي نفسها قائمة ولم تتغير ، بل اصبحت ربما أشد سوءاً في عهد الحسن ، مع الفارق بين الاثنـين في العلاقـة مع العنـاصر القيـادية ، واستيعـاب تناقضات القبائل في الكوفة . ولذلك لم يكن مفاجئاً ، انهيار الجبهة العراقية بعد اغتيال عليّ ، بعد ان ظلّ حتى أواخر ايامه قـادراً على ضبـطها ، خـلافاً للواقـع الذي عـاشه الحسن مع هذه الجبهة ، من تواطؤ عبيـد الله بن عباس ، أحـد كبار قادته، وانسحـابه بفـرقته الى معسكـر معاويـة[3] ، الـى انتهاب فسـطاطـة في المدائن والاعتـداء عليـه واصابته بجراح بليغة[4] ، الى آخر هذه الوقائع التي كان له تأثير غير ايجابي على وضعـه المعنوي والعسكري في آن. وكان من الطبيعي أن تشكّل هذه الوقائع وأخرى غيرها ، عنصراً ضاغطاً على الموقف العام للجبهة العراقية ، دفع بـالحسن اخيراً الى السـير في المشروع السلمي ، بعد ان فشلت في مهدها مشاريع الحرب[5] .

والواقع ان الحسن الذي عاش عن كثب تجربة صفين ، وما افرزته من مؤامرات وأدوار مـزدوجـة ، لم يكن في مـوقـع من يمتلك الخيـار دون اجـراء حسـابـات دقيقـة

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ٣ ص ٤٠٤

(٢) الوفد الذي أرسله معاوية الى الحسن (المغيرة بن شعبـة وعبد الله بن عـامر) واشـاعته بعـد خروجه من فسطاط الحسن ، أنه استجاب للصلح . اليعقوبي، تاريخ ج ٢ ص ٢١٥

(٣) قيل أنه انسحب في ثمانية آلاف من اصحابه الى معسكر معاويـة . المصدر نفسه ج ٢ ص ٢١٤ الاصفهاني ، مقاتل ص ٤٢

(٤) اليعقوبي، تاريخ ج ٢ ص ٢١٥

(٥) الطبري ج ٦ ص ٩٣

للموقف . فلم تكن المغامرة من طبيعته ، ولامزاجه مع التهوّر ، مثبتاً ذلك في تفاديه المضي في حرب خاسرة ،بعد أن رأى « هوى الناس في الصلح »[1] حسب القول المنسوب اليه . ولكن الحذر الشديد في المقابل ، كان هو الطابع الملازم لقراراته السياسية بصورة شبه دائمة ، حيث ظلت خطواته ، مقرونة بالاتزان والواقعية حتى بعد « الصلح » ، على الرغم من التحريض المستمر من بعض انصاره على تغيير هذا النهج ، الذي توخى منه البقاء على « شيعته من القتل ودفع هذه الحرب الى يوم ما »[2] ، استناداً الى الرواية التاريخية . وكان ذلك محصلاً لانعدام ثقته بالجزء الاكبر من أعوانه ،الذين ادانتهم حروب صفين ومفاوضات التحكيم ، بعد انكشاف ما في نفوسهم من تغليب للمصالح الخاصة على غيرها من الالتزامات المبدئية ، دون أن يجد ثمة تغييراً في الموازين العسكرية ، التي كانت تسير بوضوح وفق إرادة معاوية ومصلحته ، منذ توقف الحرب وعودة عليّ الى الكوفة .

وهكذا يستبعد الحسن من رأسه فكرة المخاطرة ، ببقايا الملتزمين بالخط السياسي الاصلاحي ، الذين صمدوا في وجه الخوف والاغراء ، وجسّدوا ضمير الاتجاه الاسلامي وعنصر الاستمرارية فيه . وكانت المحافظة على الفئة النخبوية في اطار ما سيعرف بحركة التشيع ـ أحد الافرازات المنظمة لهذا الاتجاه ـ من أبرز هموم الحسن في ذلك الوقت ، حيث جاءت وثيقة الصلح مع معاوية ، تضمّ بين شروطها ، اعلان العفو العام والامان لجماعته[3] . ولعل مواقف الحسن بعد اعتزاله الحياة السياسية وإقامته في « المدينة » ، تصبُّ في هذاالمسار ، متجلياً ذلك في مقاومة الدائمة لنزعات التطرف بين شيعة الكوفة . وإلزامها بالهدوء والانضباط ، كون الظروف برأيه لم تتغير ، وفرص النجاح لا تزال غير قريبة[4] .

---

(١) الدينوري ، الأخبار الطوال ص ٢٢٠

(٢) المكان نفسه

(٣) «ألاّ يأخذ أحداً من أهل العراق بإحنة ، وأن يؤمن الاسود والأحمر ، ويحتمل ما يكون من هفواتهم» الدنيوري ، اخبار ص ٢١٨ . الطبري ج ٦ ص ٩٤ .

(٤) من أقوال الحسن لوفود الكوفة بعد تنازله عن الخلافة : «ماأردت بمصالحتي معاوية الا أن أدفع عنكم القتل ، عندما رأيت من تباطوء اصحابي عن الحرب» أو «فصالحت بقياً على شيعتنا خاصة من القتل ورأيت دفع هذه الحرب الى يوم ما» . الدينوري ، اخبار ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ راجع ايضاً كتابنا : **التوّابون** ص ٦٧ .

العهد الأموي

- خلافة أم ملكية ؟
- ثورات .
- دولة عبد الملك .
- العراق المرواني .
- المحاولة اليائسة .
- آخر الملك .
- خراسان تُسقط الدولة الأموية .

خلافة أم « ملكية » ؟

استعادت الدولة وحدتها السياسية بعد تنازل الحسن[1] ، ولكنها فقدت الكثير من ملامحها السابقة . ذلك أن عهداً جديداً ومختلفاً وُلد مع معاوية في دمشق ، التي اصبحت حاضرة الدولة الناشئة . اما الكوفة التي عاصرت نهاية الخلافة الراشدية ، بعد أن اختارها عليّ مركزاً له في اعقاب حرب الجمل ، فقد تراجعت الى الوراء ، ولكن دون أن تفقد بريقها السياسي والاستقطابي في مواجهة الحكم الأموي ، بينما « المدينة » ، الحاضرة الأولى ، غابت وراء جدار النسيان ، وانطوت على نفسها بعيداً عن الأحداث،قبل ان تتحوّل مع الزمن الى « منفى » للقيادات السياسية ، وجلّهم من أبناء الصحابة ، حيث اشترى معاوية سكوت بعضهم بالمال ، والآخر بالارهاب ، محاولاً تطويق خطرهم واحتواء معارضتهم ، ما استطاع سبيلاً الى ذلك .

وليس ثمة شك أن نجاح معاوية في إقامة هذه الدولة ، اعتمد في المقام الأول على موهبة غير عادية في السياسة والحكم[2] ، حيث كان على درجة عالية من الذكاء والمرونة ، بالاضافة الى صناعة العلاقات الاجتماعية التي اتقنها ، وقدرته على استقطاب الانصار والحلفاء ، وعلى اضعاف الخصوم والايقاع فيما بينهم . وأخيراً لم

(١) كانت ولاية الحسن سبعه أشهر وسبعة أيام . وقد تنازل في ربيع الآخر أو جمادي الأولى سنة احدى واربعين . خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٣٤. الطبري ج ٦ ص ٩٤ ابن الاثير ، الكامل ج ٣ ص ٤٠٦

(٢) قيل أن أبا سفيان تنبأ لأنه بالسلطة منذ وقت مبكر ، من خلال القول المنسوب له : «ليسودن ابني هذا قريشاً . . والعرب» . البلاذري ، انساب ج ١ ص ٥٠

يكن مؤسس الدولة الأموية يتورع ، حتى في الوقت الذي كان فيه الدين يسكن وجدان الناس ويهيمن على تصرفاتهم ، عن استخدام مختلف الوسائل ، حتى غير المشروعة ، وصولاً الى تحقيق غاياته وأهدافه . وهذه الصفات المتعددة التي اجتمعت في شخصية معاوية ، وجعلت منه رجل دولة غير عادي ، اسهمت في ولادة نهج جديد في الحكم ، لم يكن مألوفاً في العهود السابقة . فمعاوية وفقاً لهذه المعطيات ، يعتبر رائد ما يُسمى بالمدرسة « الميكافيلية » في السياسة ، القائمة على تسويغ الوسيلة من أجل الغاية ، تلك التي عرفت باسم صاحبها المفكر الايطالي « مكيافيلي »[1]، الذي ذاعت شهرته في اوروبة منذ عصر النهضة . وقد وصف المؤرخ الدمشقي « الحصني » هذه النزعة الوصولية لدى معاوية بقوله : انه « عاش بين زعازع الفتن وقوارع الحروب ، مستعيناً على بلوغ أمله بدهائه واصطناع الفطاحل من قريش وغيرهم ، حتى بلغ الشأو الذي تحدثه به نفسه »[2] .

وهكذا فإن دولة معاوية ، اتخذت في مسارها التنظيمي ـ السياسي ، اتجاهاً انقلابياً ، تطورت معه الخلافة الى مُلك[3] ، أو من « الثيوقراطية » الدينية الى « الاتوقراطية » السياسية، حسب التعبير الأغريقي القديم . وتعدّت هذه التغييرات الجذرية ، مضمون السلطة الى مظاهرها ، التي اقتُبست من النظام البيزنطي بوجه خاص ، حيث كان يطيب لمعاوية البحث عن أحوال ملوكهم[4] ، كما يقول المؤرخ الدمشقي السالف الذكر . ولعل هذا التحوّل في الفكر السياسي وفي تقاليد الحكم ، مرتبط في جانب ما بالعامل الجغرافي[5] ، كون معاوية عاش مع بداية الفتوح على تخوم

(١) جمع مكيافيلي (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧م) آراءه في كتابه «الأمير»، حيث عالج الوقائع السياسية، كأنها ظواهر طبيعية . وقد تأثر فيه معظم ساسة القرن التاسع عشر في اوروبة ، وفي طليعتهم نابليون الأول (فرنسا) ومترنيخ (النمسا) وبسمارك (المانيا) وغيرهم . وبدجرتي ، المذاهب الكبرى في التاريخ ص ١٠٨

(٢) منتخبات التواريخ لدمشق ص ٨١

(٣) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٩٩ .

(٤) الحصني ، منتخبات التواريخ لدمشق ص ٨١ .

(٥) ذكر البلاذري ، «ان عمر بن الخطاب لما أتى الشام رأى معاوية في موكب يغدو ويروح فيه . فقال له : يا معاوية تروح في موكب وتغدو في مثله، وبلغني انك تصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك . فقال يا أمير المؤمنين إنّا بأرضٍ عدوُّنا قريب منها ، وله علينا عيون ذاكية ، فاردت أن يروا للاسلام عزّاً ، فقال عمر إن هذا لكيد لبيب او خدعة أريب » انساب الاشراف ج ١ ص ١٤٧

الدولة البيزنطية ، بعيداً عن بساطة الحجاز وعفوية الحياة الاجتماعية فيه . ومن هذا المنطلق فهو يرفض النهج السلفي ، باعطاء المسجد دوره الاستقطابي التقليدي في حياة رجل الدولة في الاسلام ، ويتمسك بهذه المظاهر الدنيوية المعقدة . فقد نُسب اليه اقامة حاجز بينه وبين عامة الناس ، مؤثراً الاقامة في « الخضراء »[1] ، أو قصره الشهير الذي تميّز بكل عادات الملوك[2]، من العرش الى الحرس الى الحجّاب الى المحراب ، الذي كان أشبه بمقصورة خاصة في المسجد ، تعزل الخليفة عن بقية المصلّين ، الى آخر هذه المظاهر التي انفرد بها معاوية ، دون اسلافه من خلفاء الدولة الاسلامية[3] . ولعله كان ميّالاً بالفطرة الى هذا النمط السلوكي ، الذي تجلى وهو بعد لا يزال والياً على الشام ، حين وصفه الخليفة عمر بن الخطاب حينذاك ، بأنه « كسرى العرب »[4] حسب رواية المدائني .

ومن ناحية أخرى فإن مؤسس دولة الأمويين ، استولى ، كما هو معروف ، على الحكم في ظل اجواء غير طبيعية[4] ، حيث السلطة لم تصل اليه عبر « الانتخاب » أو « الجماعة » ، بل جاءته عن طريق القوة ، وذلك في اعقاب حرب أهلية دامية . ومن هذا المنظور ، فإن أي نظام يشاد بالسيف ، يحتاج الى أن يحميه السلاح نفسه ، أو كان عرضة للانهيار السريع . وهذه الحقيقة كانت نقطة الضعف الرئيسية في دولة معاوية ، على الرغم من محاولة استيعابها ، من خلال التأكيد على دور القوة المسلحة ، كأداة ضرورية لحماية هذه الدولة ، حيث كان للقبائل الشامية التي حملت اعباء هذا الدور ، تأثير كبير في الدفاع عن الحكم الأموي ، وضرب حركات المعارضة بمنتهى الشدة (الحملات العسكرية التي قادها ابن زياد وسفيان بن الأبرد الكلبي (العراق) ومسلم ابن عقبة والحجاج بن يوسف (الحجاز) وكلثوم بن عياض القشيري وحنظلة بن

---

(١) البلاذري ، انساب ج ١ ص ١٤٧

(٢) راجع التذكرة الحمدونية لابن حمدون الاندلسي ص ١٩٨ - ١٣٩ . وكذلك ما أورده « الحصني » من أن معاوية «كان ميّالاً بفطرته الى انتحال الملك » . منتخبات التواريخ لدمشق ص ٨٠ .

(٣) اليعقوبي ، تاريخ ٨ ، ص ٢٢٣ . البلاذري ، انساب ج ١ ص ١٤٧

(٤) اللاذري ، انتساب ج ١ ص ١٤٧ .

صفوات الكلبي (المغرب الأقصى) .

وهكذا فإن تكوين هذه المؤسسة (الجيش) ، تمّ في اطار النظام القبلي التقليدي ، الذي استعاد عافيته تدريجياً منذ حرب الجمل ، وهي أول معركة بين المسلمين ، كان الالتزام فيها ظاهراً بالموقف القبلي ، قبل أن يتبلور في معارك صفين ، حيث قاتلت القبائل كوحدة عسكرية ، وليس كأفراد ملتزمين بموقف مبدئي ومستقل . وكانت الخطورة في ذلك ، أن الجيش الأموي ، تحوّل مع الوقت الى « طبقة » عسكرية ، تمتعّت بامتيازات خاصة[1] وتحركت وفق مصالحها الاقتصادية والقبلية ، قبل أن تكون أداة طيّعة في قبضة الدولة ، وبالتالي فإن العمليات الحربية التي تمّ تنفيذها في ذلك الوقت ، كانت انعكاساً واضحاً لهذه « المؤسسة » . فلم تعد حركة الفتوح قضية مبدئية ، على نحو ما كانت عليه بالنسبة لمقاتلي العصر الأول من الاسلام ، بعد أن افتقدت الكثير من وهجها ومن مضمونها الانساني ، حيث لجأ الخلفاء أو معظمهم ، الى تسييس الفتوح واخضاعها لاعتبارات مرحلية ، كامتصاص النقمة أو إرواء رغبات القادة والجنود المتعطشين للمال وللسيطرة ، ومن ثم إبعادهم عن التدخل في شؤون الحكم[2] ، فضلاً عن النزعة « الأمبراطورية » التي خالجت الخلفاء الأمويين ، والسعي الى إقامة دولة عظمى، محورها العنصر العربي (القبائل) ، الذي اقتصرت عليه القوة العسكرية لهذه الدولة .

بيد ان هذا « الجيش » برغم تناقضاته القبلية والأقليمية ، كان الاداة الفاعلة التي اعتمد عليها معاوية وكبار الخلفاء الأمويين، في تثبيت النظام وضرب الحركات الثورية المعادية . فالطابع العسكري إذن ، كان أكثر سمات هذه الدولة تجلياً ، بعد أن زامنها في جميع المراحل ، من الولادة التي تمّت بالقوة ، كما أشرنا ، الى النهج القمعي التقليدي في التعامل مع المعارضة وخصوم النظام ، وأخيراً الى السقوط الذي تمّ بالقوة أيضاً ، وبوسائل اكثر تطرفاً من الوسائل الأموية .

وبعد هذا التوقف عند تكوين « الجيش » الأموي ، الذي كان عصب الحياة

---

(١) المسعودي ، مروج ، ج ٣ ص ٨٦ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل ج ٣ ص ١٤٩ .

السياسية والعسكرية في دولة معاوية ، لا بدّ من الإحاطة بـالجوانب الأخـرى للأخيـرة التي قامت على هذه الأركان الثلاثة :

١ ـ التغييـرات السيـاسيـة في بنيـة النـظام ، وهي تتمحـور حـول دور الجيش والتحوّل الى « الملكية » الفردية .

٢ ـ السيـاسة الـداخلية ، وتتنـاول : الادارة ـ التـوازن القبـلي ـ ولايـة العهـد ـ تطويع المعارضة .

٣ ـ السياسة التوسعية ، وتتعلق بالنظام الحربي والدفـاعي ، فضلاً عن استئنـاف حركة الفتوح .

لقد ألمحنا سابقاً الى تعديل نظام الحكم ، الذي تطور نحو الملكية وتأثّره بالمظاهر المقتبسة عن التقاليد البيزنطية ، كذلك ألمحنـا الى دور « الجيش » في قيام هـذه الدولـة واستمرارها ، وتحوله الى جهاز ثابت ، يستمد منه الخلفاء الأمويون القوة والشـرعية في السلطة . أمـا السياسـة الداخليـة ، فقد جـاءت في الواقـع انعكـاسـاً لـذهنيـة الحكم واعتماده التوزيع الفئوي ، الذي جعل من الأسـرة الحاكمـة ،«ارستقراطية» متفوقـة في امتيازاتها وفي موقعها الاجتماعي والسياسي . أما خارج النطاق الأسروي ، فقـد اتّبع معاوية قاعدة التوازن العلائقي مـع حلفائـه ، حيث كانت القـوى القبلية في الشـام . تعمل بمجملها لخدمة الدولة ، دون أن تعيقها عن ذلك ، تناقضاتها المحلية والمتوارثة . فهو على الرغم من ارتباطه بتحالفات ومصاهرات مع اليمنيين ، لا سيما كبـرى قبائلهم « كلب » ، فإن القيسيين لم يشعروا في عهده بالظلم أو الحرمان ، انـطلاقاً من سيـاسته المتوازنة ، التي لم تثر حفيظة ما إزاء خصومهم التقليديين ، بل كانت عـلى العكس من ذلك تدفعهم الى توثيق علاقاتهم بالـدولة والتسـابق الى مواقـع النفوذ فيهـا . وكان من محصّـلات هذا التحـالف الأموي ـ القيسي ، تعيـين الضحاك بن قيس الفهـري (من قريش الظواهر) ، على ولاية دمشق ، بما يعنيه هذا المنصب من أهمية وخطورة في ذلك الحين[1] .

وإذا ما انتقلنا الى الادارة أو ما عُرف حينـذاك بالـدواوين ، سنجد انها شهـدت

(١) ابن الاثير ، اسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٣ ص ٣٥ .

تطوراً متوازياً ـ ربما بصورة نسبية ـ مع التغيير الذي طرأ على نظام الحكم . فقد تابع معاوية في هذا المجال ، ما كان قد بدأ به الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب ، ولكن دون استكمال الشكل الأخير للأدارة ، كما كان يطمح اليه الخليفة الأسبق ، حيث ظلّت ثغرات عدة ، تنتظر من يتصدى لها بصورة اكثر شمولية . بيد أن الخليفة المؤسس ، قطع خطوة هامة في تكوين الادارة ، التي اتخذت ملامحها المستقرة في الاطار الأموي على يد عبد الملك بن مروان . أما جهود معاوية في هذا السبيل ، فقد انطلقت من « مؤسستين » ـ إذا جاز التعبير : « ديوان الخاتم »[1] الذي كان أشبه ما يكون بمكتب شؤون الخليفة ، وتكاد تنحصر مهامه في رفع التقارير الى الأخير وارسال التعليمات والأوامر الى الولاة أو من يعنيهم الأمر ، حيث تصدر جميعها عن « الديوان » ممهورة بخاتم الخليفة . ويعتقد المؤرخون أن حادثة «تزوير»[2] كانت وراءظهور هذا الديوان ،مما استدعى إنشاء جهاز لتدوين الرسائل والتعليمات الرسمية ومراقبة تنفيذها . و« المؤسسة » الثانية ، كانت لها أهمية خاصة في تنشيط الادارة وتقوية قبضة الخليفة في جميع انحاء الدولة ، تمثّلت بـ« ديوان البريد » . وعلى الرغم من اسبقية الخليفة عمر ، الذي كان أول من استعمل هذا النوع من الخدمات ، للوقوف على أخبار الولايات والقواعد العسكرية بصورة عاجلة ، فإن « البريد » اتخذ مضموناً اكثر تطوراً وانتظاماً في عهد معاوية .

وهذه الكلمة (البريد) ـ كما جاء في دائرة المعارف الاسلامية ـ عربية الأصل ، وإن كان البعض يُرجعها الى اصول فارسية . وهي تعني المسافة بين محطة وأخرى ، التي تراوحت بين فرسخين واربعة في ذلك الحين[3] ؛ ولقد بذل معاوية نفقات عالية في تطوير هذا الديوان وتنشيطه ، بحيث زوّده بعدد من الموظفين ومن الخيول ، وكذلك بالمحطّات المجهزة بما يحتاج اليه ناقل الخبر ، من جانب الخليفة أو اليه . ولا شك أن هذا الديوان قد أسهم بدور ايجابي في تثبيت ركائز السلطة الأموية ، التي

(١) ابن طباطبا ، الفخري ص ١٠٧ .

(٢) يروي ابن طباطبا ان معاوية أحال رجلاً على زياد بن أبيه في العراق ليمنحه مائة الف درهم ، فمضى ذلك الرجل وقرأ الكتاب وكانت التواقيع غير مختومة فجعل المائة مائتين ، الفخري ص ١٠٦ .

(٣) الفرسخ يساوي ثلاثة أميال . دائرة المعارف الاسلامية ج ٣ ص ٦٠٩ .

كانت تقف بواسطته على آخر تطورات الأحداث والشؤون في الدولة ، القريبة منها أو البعيدة . ولكن لا يجب أن يفوتنا ان « البريد » ، لم يكن في متناول العاديين من الناس أو الخدمات العامة ، بل كان محصوراً في نطاق المعاملات الرسمية والتقارير الصادرة عن السلطة فقط .

وإذا ما انتقلنا الى بحث الوضع الاداري خارج الشام ، سنجد أن تفاوتاً ما لحضور السلطة المركزية بين اقليم وآخر ، حيث كانت مباشرة على سبيل المثال في الحجاز ، مع اعطاء بني العاص ، ربما على سبيل الترضية والتوازن في البيت الأموي ، مسؤولية الادارة الحجازية ، بينما كانت غير مباشرة لوقت طويل في العراق ، حين تحوّل هذا الأقليم الهام الى شبه اقطاع لبني ثقيف ، حلفاء الدولة الأموية الكبار ، ومصدر الخبرات العالية في هذا المجال . والواقع ان معاوية استطاع بفضل حنكته المعروفة ، وحسّه السياسي العميق ، استيعاب المزاج العام لهذا الاقليم أو ذلك ، والمؤثرات الداخلية والخارجية فيه ، ربما بالمستوى نفسه الذي استوعب فيه تناقضات القبائل اليمنية والقيسية . ولعل العراق ، وتحديداً الكوفة ، يصح اتخاذها نموذجاً للسياسة الادارية التي كان رائدها معاوية ، وحاول من خلالها تدجين القبائل التي خرجت من صفين الى المعارضة ، دون ان يعني ذلك أن هذه السياسة لاقت النجاح المطلق ، حيث واجه مؤسس الدولة الأموية متاعب شتى ، قبل أن يحقق الاستقرار النسبي في هذه الولاية ، بينما كان الفشل متربّصاً بخليفته يزيد ، الذي سقط في الامتحان « العراقي » الصعب ومعه الدولة السفيانية ، ذلك السقوط الذي اتضحت معالمه في كربلاء .

ومن هذا المنظور كان أول الولاة الأمويين في الكوفة ـ التي استقطبت عملياً الفئات المتأثرة بالاتجاه الاسلامي ، الذي أخذ يتبلور على الصعيد السياسي في ذلك الحين ـ المغيرة بن شعبة الذي امتاز بالمرونة والدهاء ، واعتبر لدى بعض المؤرخين أحد ثلاثة من دهاة العرب في الاسلام الى جانب معاوية وعمرو بن العاص . وكان لهذا الاختيار دلالة على السياسة الاحتوائية التي شاء معاوية تطبيقها في الكوفة ، في محاولة لتخفيف غلواء المعارضة ضد حكمه . فساهم المغيرة بشخصيته المرنة في تهدئة الموقف السياسي المتشنج في ولايته ، دون أن يتورع عن توسّل مختلف الطرق ، بما فيها

الرشوة[1] ، بغية إنجاح مهمته في تدجين المعارضة أو كبحها ما استطاع سبيلاً الى ذلك . ولقد ظلّ المغيرة حتى وفاته[2] ، ملتزماً بهذه السياسة التي شجعها معاوية ، منفّذاً لها بالقليل من الجهد والمتاعب ، كما ظلّ واحداً من أعمدة النظام الأموي ، ممن يلتجيء اليهم مؤسسه في المواقف الصعبة ، التي ربما كان اخطرها في وقت لاحق ، التمهيد لأخطر قرار اتخذه معاوية بعد تأسيس دولته ، بتكريس تحوّل « الخلافة » الى ملكٍ وراثي في اسرته الأموية .

وإذا كانت الكوفة قد نعمت بهدوء قسري ومصطنع في عهد المغيرة ، وذلك بأقل قدر من الضغط والملاحقة ، فإنها عانت أشدّ انواع الارهاب في عهد خليفته زياد ابن ابيه ـ من المدرسة الثقفية أيضاً ـ الذي انتقلت اليه هذه الولاية ، اضافة الى البصرة وبقية المشرق ، حيث كان أول حاكم يتمتع بهذا القدر من النفوذ السياسي . وزياد الذي ارتبط اسمه في أذهان الناس بالشدّة والقمع ، لم يصبح من أركان الادارة الاموية ، الاّ بعد جهود عسيرة ومساومات شاقة ، من جانب معاوية ومساعده المغيرة . فقد كان قبيل ذلك والياً على مقاطعة فارس في عهد عليّ بن أبي طالب ، الذي اختاره بعد أن توسّم فيه الكفاءة النادرة[3] ، ثم تابع هذه المهمة الى ما بعد تنازل الحسن ، مستنكفاً بعض الحين عن التعاون مع الحكم الأموي[4] .

وكان رسول الحوار بين معاوية وزياد ، المغيرة بن شعبة[5] ، الذي نجح بعد لأي في حمل الأخير على تعديل موقفه ، في اعقاب المساومة على خراج فارس ـ أحد عناصر الخلاف ـ وتعيينه والياً على البصرة وامتدادها الشرقي حتى خراسان[6] . ولا ريب أن الثمن كان باهظاً بالنسبة لمعاوية ، إلا أن مردوده كان ايجابياً على الطرفين ،

---

(١) ابن الاثير ، أسد الغابة ج ٤ ص ٤٧ .
LAMMENS, Etudes sur le siecle des Omayyades. P. 38

(٢) توفي المغيرة سنة ٥٠ هـ (٦٧٠م) . خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٤٧ .

(٣) الدينوري ، الاخبار الطوال ص ٢١٩ .

(٤) المكان نفسه . ابن طباطبا ، الفخري ص ١١٠ .

(٥) روت الاخبار ان المغيرة استكتب زياداً عندما عينه الخليفة عمر بن الخطاب على البصرة ، مما أدى الى علاقة حميمة تجاوزت علاقة الانتماء بين الرجلين . الاخبار الطوال ص ٢١٩ .

(٦) الأخبار الطوال ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ . ابن الاثير ، ج ٢ ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣ .

حيث كـان الأخير ، في أمسّ الحـاجة الى شخصيـة قويـة وقادرة مثـل زياد ، لتـطويـع العراق ، الذي مثـلّ منطقـة القلق والسخونـة في الدولـة الأمويـة ، بينما وجـد زياد في المنصب الكبـير، ما يستحق التنـازل عن حفيظة لـديه إزاء معـاويـة ومـا يستثير شهيتـه للسلطة ، التي كـانت واضحة في التحـوّل اللافت في مـوقفه السيـاسي ، من معارض حتى الرفض لمعاوية[1] ، الى مؤ يد متطرف لدولته ، ملاحقاً خصومها ومعارضيها حتى التصفية[2] .

والواقع أنه كان من العسـير جداً تحقيق ادارة مستتبـة في العراق ، دون التعـاون مع المغيرة وزياد ، لا سيما الأخير الذي حقق نجاحاً بارزاً في مهمته ، اكثر ما تجـلى في سياسته القبلية المتوازنـة وفي كبح حـركة الخـوارج على تخـوم البصرة ، مما جعله يتمتع بـاستقلاليـة ما في قـراره ، لم يكن معاويـة يرتضيهـا لأي والٍ آخر . بيـد أن سياستـه الشيعية كانت أقل نجاحاً ، حيث أثارت عليه نقمة بعض الزعماء الكوفيين ، ممن كان لهم تحفظ إزاء تحوّله الى الولاء الأموي وشدته على المعارضة ، مؤدياً ذلك الى المجابهـة الوحيدة بين زياد وهذه الأخيرة ، أعني بها انتفاضـة حجر بن عـديّ الكندي ، الـذي انتهى الى الاعـدام مع سبعـة من اصحابـه على يـد معاويـة ضمن الشـام[3] . ولعـل الارتبـاك الذي عـاشته السلطة المـركزيـة بعد غيـاب زياد[4] ، لم يكن سـوى انعكاس للفـراغ الذي تـركـه في العـراق ، وصعـوبـة تعـويضـه ، مـع أي من الـولاة الاربعـة المعروفين[5] ، الذين تعاقبوا على ادارة هذا الاقليم خلال السنوات الخمس اللاحقـة ، دون أن يحالف أحدهـم النجاح في فرض الاستقرار المنشود .

أما خارج العراق ، فلم تكن الاوضاع السياسية تثير أية هموم جديّة لدى معاوية حيث كان الولاة من حلفائه وأركانه ، يتناوبون السلطة دونما ضجة أو اعتـراض . فإذا

---

(١) الدينوري ، الاخبار الطوال ص ٢١٩ .
(٢) الطبري ج ٦ ص ١٤٠ ـ ١٥٧ .
(٣) المصدر نفسه ١٥٢ وما بعدها .
(٤) توفي سنة ٥٣ هـ (٦٧٢م) . خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٦٠ .
(٥) عبد الله بن خالد بن أسيد ، النعمان بن بشير الانصاري ، الضحاك بن قيس الفهري ، عبد الرحمن بن أم الحكم (الثقفي) . خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ الاحبار الطوال ص ٢٢٥ .

انتقلنا الى مصر سنجد انها كانت على الارجح جزءاً من التسوية[1] بين معاوية وكبير مساعديه في صفين ، عمرو بن العاص ، بيد أن الأول سرعان ما حاول التخلص من التزامه السابق ، حيث وجد فيه عبئاً ثقيلاً «تذمم »، منه حسب مروية الدينوري[2] . ولكن ابن العاص لم يمكث سوى عامين في منصبه الذي احتله فترة وجيزة ابنه عبد الله ، قبل انتقاله الى معاوية بن خديج الكندي ، أحد كبار القادة الشاميين في صفين[3] . اما في الحجاز ، فكان الأمر يستثير اهتمام معاوية من خلال اعتبار اساسي ، هو محاولة احتواء ابناء الصحابة ، الذين شكلوا قياداته البارزة ، والحؤول بينهم وبين الاستقطاب أو التحرك . لذلك وضع السلطة الحجازية تحت مراقبته المباشرة كما سبق أن أشرنا ، حيث قام بالتناوب عليها في الغالب ، اثنان من البيت الأموي وهما : مروان بن الحكم وسعيد بن العاص[4] . كما حرص على تشجيع مختلف النشاطات غير السياسية في هذه الولاية ، من شعر وأدب وعلوم دينية ، مما جعل المدينة ومكة، أهم مراكز الترف الاجتماعي ، منذ الربع الأخير من القرن الأول[5] .

نحو الملك . .

بعد أن استقامت الأمور في الدولة الأموية ، وأخذت الأوضاع نصيبها من الاستقرار ، واجهت معاوية مشكلة معقدة ، وهي مشكلة الحكم ومصير الدولة بعد غيابه . وإذا كان النظام الفردي (الأوتواقراطي) الذي تبنّاه ، أو فرض نفسه في ذلك الحين، حيث القوة العسكرية كانت مصدر السلطة في البيت الأموي ، قد اكتسب الكثير من ملامح الانظمة الزمنية المعاصرة ، فمن الطبيعي أن يتخذ خطوات أشد وضوحاً في هذا الاتجاه ، خلال السنوات العشر الأخيرة من عهد معاوية ، انصرف خلالها أو كاد الى معالجة هذه المسألة . وكانت ثمة دوافع تشجع الأخير على حسم ولاية العهد في حياته ، أنه عاصر جميع مراحل الصراع السياسي ، المقنّع والمكشوف

---

(١) الاخبار الطوال ص ٢٢٢ . اليعقوبي ، تاريخ ج ، ص ٢٢١ .

(٢) الاخبار الطول ص ٢٢٢

(٣) الطبري ج ٦ ص ١٢٩ . ابن عذاري ، البيان المغرب ج ١ ص ١٦ .

(٤) ابراهيم بيضون ، الحجاز والدولة الاسلامية ص , ٢٢٦

(٥) الزهري ، المغازي ، ص ٢٥ ، ٢٧ . الزبير بن بكار ، الاخبار الموفقيات ص ٣٢٣-٣٢٤ . فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ص (د . ذ)

على السلطة ، منذ وفاة النبي وحتى عهده ، الذي كان لا يـزال مثاراً للجـدل ، مروراً بالتجربة الراشدية أو بعضها ، الذي شكّل اداة التفجير الموقوتـة ضد نـظامه ، وتحـوّل الى صورة مثالية في إذهان المسلمين للدولة العادلة .

ولعـل أكثر مـا خشيه معـاوية ، عـلى الرغم من هـذا الاتجاه « الملكي » لـدولته الأموية ، انهيار الأخيرة بعد غيابه ، وسط التطاحن والعصبيـات وشتى الوان التنـاقض الذي حفلت به الساحة الشامية . فهي إذن مشكلة فراغ ، لا بدّ أن تتزامن مع غياب شخصية غير عادية ، جمعت في يدها كل اطراف السلطة ، كما ارتبطت تاريخياً بجميـع مراحل تكوينها ، وانطبعت بصماتها على مظاهر الحيـاة السياسيـة والقبلية في الـدولة . ولقد سوّغ بعض المؤرخين ـ وفي طليعتهم « ابن خلدون » ـ ، هذا التحوّل « الملكي » للخلافة وإخراجها « عن اصولها »[1] ، بأن مؤسس الدولة الأمويـة ، اراد وضع حـد لمشكلة السلطة المزمنة ، وذلك من منظور قرشي عصبوي حين قال : « انما هو مـراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذٍ من بني أمية ، إذ بنو أميـة يومئـذٍ لا يرتضـون سواهم ، وهم عصـابة قـريش وأهل الملّة أجمـع وأهل الغلب منهم »[2] .

عـلى أن هذه المسألة ، مـرتبطة اسـاسـاً بـالتـطورات التي رافقت قيـام الـدولـة الاسـلامية بعـد وفاة النبي ، انـطلاقاً من السقيفـة وجدليـات البيعـة الاولى ، ومن ثم اخفاق الشورى التي ظهرت كنظرية في اعقاب ذلك ، لتسويغ شرعية الخلافة وانقاذها من « حصار » الأمر الواقع . وإذا كانت هذه الصيغة على الرغم من نجاحها فترة ما في العهد الراشدي ، قد اثبتت فشلها في اواخره ، فـإن المشروع الأمـوي ، رفضها تمـاماً واعتبرها ملغية منذ مقتل عثمان ، لتقـوم على انقـاضها نـظرية « الحق القـرشي » شبه المقدس ، التي أخذ معاوية يبشرّ بها منذ الثلاثينات الأولى[3] .

والواقع أن ثمة وجهين للمشكلة خـالجا رأي معـاوية في ذلـك الحين : الأول ، اقناع الناس بقبول مبدأ الـوراثة ، لا سيـما كبار المعـارضين في الحجـاز . والثاني ، أن

---

(١) الحصني ، كتاب منتخبات التواريخ لدمشق . ص ٨٥ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ص ٢٧٣ .

(٣) سيف بن عمر ، الفتنة ص ٣٨ .

يزيداً لم يكن على الأرجح ، وحسب المرويات أو معظمها ، ذلك الرجل المطلوب لملء الفراغ بعد أبيه المؤسس . ومن أجل سدّ هذه الثغرة وتهيئة الأجواء المناسبة لاعلان ولاية العهد ، كان لا بدّ من اتخاذ خطوات سريعة وهامة ، تجعل من يزيد الشخصية المؤهلة للمهمة الصعبة . لذلك كان حريصاً على وضعه ضمن هالة ماورسم صورة جديدة له امام المسلمين ، تعكس الوقار كما الشجاعة وحسن القيادة . فأرسله الى مكة نائباً عنه في موسم الحج[1] ـ حيث العادة جرت بأن يقيم الخليفة الحج أو ينيب عامل « المدينة » ـ بما لذلك من تأثير على الرأي العام الاسلامي ، لا سيما الحجازي ، فضلاً عن تبديد الشكوك بجدية يزيد وتغيير الصورة الغائمة التي انطبعت في اذهان الناس عنه[2] . كما هيأ له الفرصة التاريخية ، لقيادة المحاولة الكبرى ، التي استهدفت عاصمة البيزنطيين وانتهت الى حصارها ، تمهيداً لاخضاعها والسيطرة عليها ، وذلك في العام نفسه (٥٠ هـ) الذي دعا فيه معاوية أهل الشام الى بيعة يزيد ، حسب مروية « ابن خياط »[3] . غير أن هذه الحملة ، على الرغم من ضخامتها وما رافقها من آمال عريضة بالدخول الى القسطنطينية ، فإن الأخيرة اثبتت مناعتها وصعوبة اختراقها، دون أن يكون في متناول الحملة الأموية ، من الأسلحة المتطورة لإسقاط هذه المدينة الحصينة ، مما انتهى بها الى الانسحاب ، ومعها نقطة اضافية من الفشل الذي حفل به سجل وليّ العهد طوال تاريخه السياسي .

غير أن معاوية ، وقد شعر بوطأة السنين المديدة على كاهله ، لم يشأ انتظاراً اكثر لحسم هذه المشكلة . فهو يمتلك القدرة على تنفيذ ما يريد ، وتوظيف ثقله السياسي في اقناع اشدّ المتصلبين من ابناء الصحابة . وكانت الصورة العامة ، كما استوعبها معاوية، تخضع لمعطيات متفاوتة ، وتحديداً لاتجاهين متناقضين : الأول ، هو الرافض مبدئياً لهذا الأمر ، وقد ضمّ الفئات المتذمرة ، التي قبلت مكرهةً بالحكم الأموي ،

---

(١) الطبري ج ٦ ص ١٦١ .

(٢) الزبير بن بكار ، الاخبار الموفقيات ص ٢٤٦ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ٢٠٩ . المسعودي ، مروج ج ٣ ص ٦٧ .

(٣) تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٤٨ .

وانتظرت غياب مؤسسه لاعلان موقفها السلبي[1] ، الذي أصبح أكثر تشنجاً ، مع تداول الحديث عن ولاية العهد . أما ذريعتها الأخرى ، فهي أن هذا الأجراء ، كان برأيها ، دخيلاً على العرف المألوف ، وخروجاً على « الشورى » ، التي اصبحت على الرغم من انتقاد الكثيرين لها في العهد السابق ، المطلب الأوسع دائرة لدى الجمهور الاسلامي في ذلك الحين . أما الاتجاه الثاني ، فكانت تمثله القوى القبلية المؤيدة للنظام والمتحالفة معه ، وهي المستفيدة عملياً من مبدأ الاستمرارية المطروح ، لا سيما الأجناد العسكرية في الشام والأردن وبعض العراق[2] .

ولم يكن بعد غياب عمرو بن العاص ، اليد اليمنى لمعاوية في المهمات العسيرة ، سوى « مستشاره » الداهية ووالي الكوفة المغيرة بن شعبة ، مؤهلاً لترويض الأجواء العامة ، قبل الاعلان عن القرار الخطير . فقام المغيرة بدوره الايجابي في هذا السبيل ، خاصة وأنه كان مهدّداً ، أو ملوَّحاً له ، بالعزل ، حسب رواية الشعبي[3] . ولكنه على الأرجح لم يستكمل مهمته حينذاك ، لا سيما وأن رجل العراق القوي (زياد) ، كان مستنكفاً عن مجاراة هذا المشروع بحماسة المغيرة ، واعتبره سابقاً لأوانه . أما حجّة والي البصرة ، فهي أن تيّاراً معارضاً وعلى جانب من الأهمية ، سيلجأ الى العصيان والثورة المسلحة ، تعبيراً عن رفضه لهذه الدعوة[4] . فآثر معاوية الالتزام بنصيحة زياد ، أو التظاهر بذلك ، طاوياً مشروعه بعض الوقت ، حتى إذا توفي الأخير ، عاد الى إحيائه وانتهى الى اتخاذ قرار بتنفيذه ، معتمداً على حلفائه الشاميين ، وفي طليعتهم الضحّاك بن قيس (فهر) ويزيد بن المقنع (كندة) والحصين بن نمير (السكون) ومسلم بن عقبة (مرّة)[5] وحسان بن بحدل (كلب) ، لا سيما الأخير ، زعيم اليمنية في الشام وخال يزيد ، المرشح لولاية العهد[6] .

وفي سنة تسع وخمسين للهجرة ، أعلن معاوية رسمياً البيعة ليزيد ، حسب

---

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٥٢ .
(٢) ابن الأعثم ، الفتوح ج ٤ ص ٢٣٠ - ٢٣٢ .
(٣) الطبري ج ٦ ص ١٦٩ .
(٤) المكان نفسه .
(٥) الحصني ، منتخبات التواريخ لدمشق ص ٨١ .
(٦) ابن الأعثم ، الفتوح ج ٤ ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

مـروية المسعـودي[1] ، وتمّ استدعـاء كبار الشخصيـات وزعـماء القبـائـل ، الى قصـر « الخضراء » في دمشق ، حيث جرت احتفالات التنصيب . وما لبث الوفود أن تهافتت عـلى الحاضـرة الأمويـة ، مباركـة الحدث عن طـوع أو ممالأة أو إكـراه . وكـان وحـده الحجاز ، يكاد يكون غائباً عن المشاركة ، دون أن يقتصر الأمر على ابنـاء الصحابـة ، بـل تعـدّاهم الى بني العـاص ، من البيت الأمـوي نفسـه ، حيث قيـل ان مـروان بن الحكم ، الـذي كـان وقتـذاك واليـاً عـلى الحجـاز ، احتـجّ بشـدة عـلى هـذا الأمـر ، « ناصحاً » معاوية ، بما نسب اليه : « أعدل عن تأميرك الصبيان ، واعلم أن لـك من قومك نظراء »[2] . ولعل مـروان ، الذي كـان في الصدارة أيـام عثمان وشـارك ـ ربما عامداً ـ في توريط الأخير ودفعه الى ما انتهى اليه ، روادته نفسـه بأن يؤول هـذا الأمر اليه ، دون أن ينفصل ذلك عن ظهور مروان كمرشح ابرز للخلافة ، في اجتماع « الجابية » الذي عُقد بعد موت يزيد .

ومن جهة أخرى ، فإن زعماء الحجاز كانوا يجدون في انفسهم ، كفاءة تتجاوز ما عند يزيد للخلافة ، فضلاً عن أن غياب معاوية ، كان بالنسبة اليهم ، مقروناً بارتفاع الكابوس المخيّم على حياتهم السياسية ، وانتعـاش الآمال المكبـوتة وعـودة الاعتبار الى مقرّ دولتي النبي والخلافة ، وحرية التحرك لابناء الصحابة الذي عاشوا طوال عهده فيما يشبه الاقامة الجبريـة . وهكذا فـإن البيعة لم تستكمـل فصولهـا في « الخضراء » ، بعـد اصرار اربعة على رفضها من زعماء الحجاز الكبار وهم : الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير،وعبد الله بن عمر وعبـدالرحمن بن أبي بكـر[3].وقد وجد معـاوية في هـذا الموقف نوعاً من العصيان ، مما دفعه وهو السياسي المرن ، الى التـوجه نحـو « المدينـة » ، من أجل تسوية الأمر مع المعارضـين الأربعة . غـير أن هؤلاء ، انتقلوا الى مكة ، المكـان المفضـل حينذاك ، لـلابتعاد عن مـلاحقة السلطة ، ولكن دون أن يقنـع ذلك معـاوية بتجاهلهم أو الكفّ عنهم ، حيث جدّ السـير في طلبهم ـ وقد فقـد صبره أو كـاد ـ الى المدينة المقدسة . وفي المسجد ، حيث اجتمع بهم ، دافع ابن الزبير باسم رفاقه[4] ،

(1) الطبري ج ٦ ص ١٧٦ . المسعودي ، مروج ج ٣ ص ٢٧ .
(2) المسعودي ، مروج ج ٣ ص ٢٩ .
(3) ثمة من يجعلهم خمسة ، باضافة عبد الله بن عباس اليهم ، الطبري ج ٦ ص ١٧٠ .
(4) ابن الاثير ، الكامل ج ٣ ص ٥١٠ .

عن الموقف الذي حدا بهم الى رفض البيعــة ، التي هي حسب رأيهم ، خـروج عــلى الأعراف وخرق لسنن الأوائل من الخلفاء . بيد أن معاوية ، لم يعبأ كثيراً بحجج ابنـاء الصحابة ، دون أن يتردد في أخذهم بالشدة وتهديدهم بـالقتل[١] ، قبـل الوصـول الى انتزاع اعترافهم ـ الشكلي على الأقل ـ بولاية العهد والبيعة ليزيد[٢] .

ولكن « بيعة » كهذه ، تمّت بـالقوة والضغط ، لم تكن أكـثر من عملية سـطحية ومؤقتة ، دون أن يغيب هذا الواقع عن معاوية ، الذي كان أول العارفين به ، مؤكداً عليه بوصيته الشهيرة المنسوبة اليـه[٣] ، حيث مات بعـد قليل ومعـه هموم هـذا الموقف الحجازي . وكان مبعث هواجسه بوجه خـاص ، اثنين من الـزعماء الاربعـة ، وهما : الحسـين بن عـلي وعبـد الله بن الـزبـير ، اللذين رفضـا ـ عـلى مـا قيــل ـ البيعـة في حضوره[٤] . فكلاهما شخصية قيادية بارزة ، وله رصيد كبير من التقدير والاعجاب ، فضـلاً عن الطمـوح الظاهـر ـ وإن اختلفت الـدوافـع والأفكـار والـطروحـات ـ لـدى الاثنين . ولقد حـدث ما تـوقعه الخليفـة الأموي الأول بعـد موتـه ، حين كـان هبوب الأزمة سبّاقاً من الحجاز .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ج ٣ ص ٥١١ .

(٢) الطبري ج ٦ ص ١٧٠ . الامامة والسياسة ج ١ ص ١٦٧ .

(٣) « إني لا أتخوف أن ينازعك هذا الامر الذي استتّب لك ، الا أربعة نفر من قريش ؛ الحسين بن عليّ وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر . فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة وإذا لم يبق أحد غيره بايعك . وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً ، وأما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم ، ليس له همّة الا في النساء واللهو . وأما الذي يجثم لك جثوم الاسد ويراوغك مراوغة الثعلب ، فإذا أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فإن هو فعلها ، فقدرت عليه فقطعه أرباً ارباً » الطبري ج ٦ ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

(٤) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٢٤١ .

السياسة التوسعية في العهد الأموي الأول

حوّلت معركة « ذات الصواري » الشهيرة ، العلاقات العسكرية بين العرب المسلمين ودولة البيزنطيين نحو منعطف جديد في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . فقد اعتُبرت المدخل الذي أطلّ منه الأمويون على العالم الوسيط ، كقوة بحرية منافسة في المنطقة ، فضلاً عن تبديدها ، ربما آخر الفرص من الدولة البيزنطية ، لاستعادة مواقعها ، أو بعض منها ، في مصر والشام ، حيث كان اعتمادها الرئيسي على التفوق البحري . والواقع أن هذه الدولة ، على الرغم من الهزائم القاسية التي نُكبت بها ، وإجبارها على الانكفاء وراء حدودها في آسيا الصغرى ، فإن ذلك لم يدفعها الى التخلي نهائياً عن هذه المنطقة ، ذات الأهمية الكبيرة على مختلف الصعد ، الجغرافية والسياسية والاقتصادية . ولعلها رأت في هذه الانكفاءة مجرد كبوة ، ستعمل على النهوض منها في الوقت المناسب ، شأن نهوضها السابق في اعقاب الغزو الفارسي لهذه المنطقة ، عشية التحرك العربي الاسلامي من شبه الجزيرة باتجاه الشمال . وكان من الطبيعي أن تنعكس الهزائم التي نزلت بها على الوضع الداخلي ، الذي بلغ أو كاد مرحلة الانهيار ، قبل الخروج الصعب من أزمة الحكم في ذلك الحين ، التي كان لها تأثير ايجابي واضح على حركة الفتح وامتدادها حتى التخوم الغربية لمصر ، دون أن تكون المقاومة على مستوى ما تمثّله الأخيرة من أهمية في السياسة البيزنطية .

ان هذا الفراغ العسكري البيزنطي ، لم يغب عن والي الشام يومذاك ، ومؤسس البحرية الاسلامية ، حيث دأب على الاهتمام بسدّ هذه الثغرة في القوة

العسكرية المرابطة في الشام . ومن المرجح أن مبادرة معاوية هذه ، جاءت في اعقاب دراسة واعية وشاملة لطبيعة المنطقة وجغرافيتها ، حيث يتجلى ذلك في السرعة التي تمّ بها حشد مئات الخبراء ، من العاملين في القواعد البيزنطية السابقة في مصر والشام[1] ، وما أسفر عن انجاز النواة الأولى للبحرية الاسلامية بالسرعة نفسها ، مترافقاً ذلك كله مع شخصية قوية تمتع بها الوالي الأموي ، تنطوي على بعد نظر وإدراك عفوي لدقائق الأمور .

وكانت بداية الخطوات تستهدف السيطرة على الجزر القريبة من الساحل الشامي ، لا سيما قبرص وأرواد . ويبدو أن الثانية كانت أخطر ما تهدد الشام حينذاك ، انطلاقاً من خصائصها العسكرية والجغرافية الهامة[2] ، مما كان سبباً على الأرجح في تأخير غزوها ، الى ما بعد غزو قبرص ، البعيدة عن الساحل المذكور ، بالمقارنة مع ارواد التي تقع على مسافة وجيزة منه . وكانت العملية التي استهدفت قبرص ، باكورة النشاط الجدي للبحرية الشامية ، حيث قيل إن معاوية قادها بنفسه في العام التالي لمعركة « ذات الصواري » الآنفة الذكر[3] . وجاءت معبّرة عن مخاوف الأخير من القوة البحرية المعادية ، إذا ما توقفنا عند معاهدة الصلح مع أهل الجزيرة بعد سقوطها ، والتي كان من أبرز شروطها ، الالتزام بعدم تقديم أية مساعدة للبيزنطيين ، وتزويد المسلمين في المقابل ، بأنباء تحركاتهم العسكرية[4] .

وبعد عام على هذه العملية[5] ، كانت ارواد الهدف التالي للاسطول الشامي ، الذي واجه صعوبة شديدة في مواجهة هذه الجزيرة الحصينة ، حيث دافعت عن نفسها بضراوة قبل القضاء على مقاومتها وإحراقها ، ومن ثمّ إفراغها من سكانها نتيجة لذلك[6] . وبسقوط أرواد[7] ، المحاذية للساحل الشامي ، أصبح بامكان معاوية

(١) ارشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ص ٩٠ .
(٢) ابراهيم العدوي ، الامويون والبيزنطيون ص ٩٥ .
(٣) ٢٨ هـ / ٦٤٩م . البلاذري ، فتوح ص ١٥٩ ـ ١٦٠ . لويس ، القوى البحرية ص ٩٠ ـ ٩١ . العدوي ، الامويون والبيزنطيون ص ٩١ .
(٤) البلاذري ، فتوح ص ١٥٨ .
(٥) ٢٩هـ / ٦٥٠ .
(٦) العدوي ، الامويون والبيزنطيون ص ٩٦ .
(٧) يجب الاّ نخلط بين هذه الجزيرة المتاخمة للساحل الشامي ، وبين جزيرة أخرى تحمل نفس =

الاطمئنان الى سلامة شواطئه وثغوره ، بعد أن باتت في مأمن من الهجمات البيزنطية المفاجئة . ومن ناحية أخرى ، فقد مهّد ذلك السبيل أمام البحرية الاسلامية ، للانطلاق في حوض البحر المتوسط[1]، الذي عرف حينذاك ببحر « الروم »[2] ، وشن هجماتها المتواصلة على عدد من الجزر الواقعة تحت السيطرة البيزنطية[3] ، مثل صقلية ورودس ، فضلاً عن غزو آخر لجزيرة قبرص ، بعد أن عادت الى العصيان ونقضت معاهدتها مع والي الشام[4] . غير أن هذه العمليات ـ باستثناء الأخيرة ، التي تمّ اخضاعها بصورة تامة[5] ـ كانت مجرد غزوات خاطفة ، اقتصرت نتائجها على الغنائم واختراق مناطق النفوذ التقليدية للبيزنطيين .

وفي الجانب الاسلامي ، كان من نتائج هذه العمليات البحرية ، أنها فرضت ، وبشكل مفاجىء ، قوة بحرية جديدة في المنطقة ، استطاعت مقارعة الدولة البيزنطية ، القوة التقليدية في المتوسط . كما أنها كانت مقدمة الصراع البحري المتوازن بين القوتين ، الذي انتهى الى تفوق المسلمين حتى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي ، بزعامة الخلفاء الفاطميين الأوائل[6] . اما نتائجها المباشرة ، فجاءت صدمة للأمبراطور البيزنطي (قنسطانز الثاني) ، الذي حاول رد الاعتبار لسمعة دولته العسكرية ، حين قام بحملته الكبيرة مستهدفاً الاسكندرية ، تلك الحملة التي فاجأها الاسطول الشامي في المياه الأقليمية لآسيا الصغرى ، وأوقع بها الهزيمة باسلوب مبتكر وفريد[7] .

وانعكست ايجابيات هذه المواجهة البحرية ، على أوضاع الشام ، بعد أن وفرّت الهدنة التي فرضت على البيزنطيين ، الفرصة لمعاوية من أجل التفرغ لمعركته السياسية والعسكرية في صفين . ولم يتردد هذا الأخير ، لا سيما بعد الانقلاب الذي

= الاسم والقريبة من القسطنطينية التي فتحها المسلمون في العام ٥٤ هـ. ابن الاثير ، الكامل ج٣ ص٤٩٧

(١) VASILIEV, Byzance et les Arabes P.62.

(٢) البلاذري فتوح البلدان ص ١٥٧

(٣) المصدر نفسه ص ١٦٦ وما بعدها .

(٤) المصدر نفسه ص ١٥٨

(٥) المكان نفسه الطبري ج ٥ ص ٥١ .

(٦) لويس ، القوى البحرية ص ٩٥ .

(٧) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٨٩ وما بعدها ، الطبري ج ٥ ص ٦٨ - ٧٠ .

أطاح بالأمبراطور البيزنطي ، في الاقدام على تجديد معاهدة الصلح مع خليفته (قسطنطين الرابع) ، مقابل ضريبة عالية يؤديها والي الشام[1] . على أن معاوية ، ما لبث أن استعاد زمام المبادرة في الصراع البحري ضد البيزنطيين ، بعد انتهاء الحرب الأهلية وتصفية ذيولها مع تنازل الحسن . فوضع في أولويات مشاريعه بعد ذلك ، إقامة نظام ثابت لحماية السواحل الشامية من هجمات البيزنطيين وحلفائهم الجراجمة[2] ، التي استغلت ضعف الدفاع الحدودي وغياب المقاتلين في مهمات داخلية ، بين حين وآخر .

وكانت أبرز خطوط هذا النظام الحربي ، تتمثل في إقامة مراكز دفاعية في مناطق الحدود أو « التخوم » كما غلب عليها في ذلك الوقت . وقد خلت هذه المراكز في العصر الراشدي من أي أثر للتواجد العسكري ، مما سهّل تحرّك القوات البيزنطية دون مراقبة ، وجعل السواحل الشامية مكشوفة لها وتحت رحمة هجماتها المفاجئة . فاتجه معاوية الى سدّ هذه الثغرة . عبر حاميات عسكرية دائمة . أُقيمت في المعاقل والممرات الصعبة على تخوم الدولة البيزنطية ، وهي ما عُرفت باسم « الثغور »[3] ، التي كانت تعني المواقع العسكرية المتقدمة والمتداخلة مع حدود العدو ، أو ما يمكن تسميته بـ « خط الدفاع » الأول ، من وجهة النظر الحربية المعاصرة ، لأن خطاً ثانياً كان يعقب هذه المنطقة المتقدمة الى الوراء ، سيعرف لاحقاً باسم « العواصم »[4] .

وارتبط بهذا النظام الدفاعي ، نظام آخر كانت له خصائص استطلاعية وهجومية في آن ، وهو ما عُرف بـ « الشواتي والصوائف »[5] ، متمثلاً بتلك الحملات

---

(١) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٢١٧ .

(٢) كان هؤلاء يعيشون في المناطق الجبلية في آسيا الصغرى . وقد استخدمهم البيزنطيون بين الحين والآخر في عمليات عسكرية ضد المسلمين في الشام . وكانت أخطر عملياتهم تلك التي وصلت حتى فلسطين (٤٧هـ/ ٦٦٦م) ، وأسفرت عن دفع الجزية للامبراطور البيزنطي مقابل انسحابهم . البلاذري ، فتوح ص ١٦٠

(٣) المصدر نفسه ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٤) يعتقد بعض المؤرخين ان هذا النظام تأخّر حتى العصر العباسي . المصدر نفسه ص ١٦٨ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٦٩ ، اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٢١٧ .

الـدورية المنتـظمة ، التي كـانت تتـوجـه الى الأراضي البيـزنـطيـة او تخـومهـا في آسيـا الصغـرى . وقد بـوشر بتنفيـذ هذا النـظام ، بعد استقـرار الوضـع الداخـلي وانتقـال « الخلافة » رسميـاً الى البيت الأموي ، وذلـك بإشراف قادة اختصـوا بهذا النـوع من الحرب الخاطفة والسريعة ، ممن اجتمعت لديهم معـرفة طبيعـة الأرض الجبلية وبـراعة الأساليب الجديدة في القتال . وكان في طليعتهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ومالك ابن عبد الله الخثعمي المعروف بـ « مالك الصوائف »[1] ، فضلاً عن مـالك بن هبيـرة السكوني[2] وحبيب بن مسلمة الفهـري[3] وبسر بن ارطـأة القرشي[4] ، وآخـرين من مشاهير القادة الشاميين الذين أفرزتهم الحرب الأهلية . ولقد اسفرت حملاتهم العـديدة عن سقـوط بعض المـواقـع العسكـريـة الهـامـة في ايـدي الأمـويـين ، لا سيـما حصن « ملطيـه » ، أحد أشهـر الثغور في آسيـا الصغرى[5] . ولم يكن نـظام « الصـوائف » ـ الاسم الغالب عليه ـ محصوراً في هذا النطاق من الحملات ، بل كان يعمـل بجناحـين متوازيين الى حدٍ ما : أحدهما برّي استهدف السيطرة على الحصـون والمعاقـل الجبلية ، وثـانيهما بحـري استهـدف الجـزر الـواقعـة في فلك السيـادة البيـزنـطيـة ، فضـلاً عن الشواطىء الجنوبية لآسيا الصغرى ، حيث اشتهر في هذا المجال عـدد آخر من القـادة الشاميين ، من امثال : معاوية بن خديج الكندي[6] وعقبة بن عامر الهجني ويزيـد بن شجرة الرهاوي وعقبة بن نافع الفهري وغيرهم[7] . ويبـدو أن نظام « الصـوائف » ، بجناحيه هذين ، كان يعمل بانسجام وفق خطّة محدّدة ، كانت ترمي لتمهيد الـطريق الى القسطنطينية ، أحد أهم الأهداف التوسعية لدولة الأمويين في ذلك الـوقت . على أن أشهر هؤلاء القادة قاطبة ، هو عبد الرحمن بن خالـد ، الذي كـان أشبه مـا يكون

(١) يرد اسم هذا القائد في عهد معاوية ، مرة في احداث العام ٤٦ هـ . ومرة اخرى في أحداث العام ٥٥ هـ وثالثة في أحداث ٥٨هـ .كما يرد في عهد المنصور العباسي في أحداث العام ١٤٦ هـ مترافقاً مع هذا اللقب . راجع البلاذري ، فتوح ص ١٩٥ ابن الاثير ، الكامل ج ٣ ص ٥٠١ ٥١٥ وج ٥ ص ٥٧٦

(٢) الطبري ج ٦ ص ١٢٩ .

(٣) البلاذري ، فتوح ص ١٩٥ .

(٤) الطبري ج ٦ ص ١٣١ .

(٥) البلاذري ، فتوح ص ١٨٩ .

(٦) البلاذري ، فتوح ص ٢٣٧ .

(٧) الطبري ج ٦ ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

بالقائد العام لهذا النظام الحربي . ولكن انتصاراته الباهرة التي كانت سبباً في تألق نجمه في الشام ، كانت في الحين ذاته وبالاً عليه ، حين « خافه معاوية وخشي على نفسه منه لميل الناس اليه . . بعد أن عظم شأنه بالشام »[1] ، موعزاً لطبيبه « ابن آثال » التخلص منه[2] ، حسب الرواية التاريخية .

وتتوّج هذا النشاط المكثف بالعملية الكبرى التي تمّ اعدادها لفتح العاصمة البيزنطية ، حيث كان معاوية - عدا أهمية الأخيرة - توّاقاً الى تحقيق انتصارات خارجية ، لاستثمارها في دعم مواقعه السياسية في الداخل ، لا سيما في تنفيذ مخططه الرامي الى تغيير نظام الحكم . وهذا ما يفسر وضع خليفته المقترح (يزيد) ، على رأس حملة القسطنطينية وهو لا يزال دون العشرين من عمره[3] ، وحشد عدو من الشخصيات الاسلامية المعروفة الى جانبه ، كالصحابي ابي أيوب الانصاري وابن الزبير وابن عمر وابن عباس[4] ، وذلك لإضفاء ملامح « جهادية » على هذه الحملة . وما لبثت الأخيرة أن خرجت من الشام نحو آسيا الصغرى حوالى العام الخمسين للهجرة[5] ، وذلك وسط حملة دعائية واسعة ، مخترقة جميع الحواجز من « أجناد » و « مناطق » عسكرية حتى اسوار القسطنطينية[6] . ولكن عاصمة البيزنطيين المنيعة ، اثبتت على الرغم من الحصار الأموي الشديد ، أنها قادرة على حماية نفسها أمام الهجمات البرية والبحرية على السواء . وكان الأمويون من جانبهم يبذلون جلّ طاقاتهم لانجاح الحصار وإسقاط المدينة ، ولكن دون طائل ، مما دفع معاوية الى الاعتراف بالفشل ، واصدار اوامره بانسحاب الحملة ، بعد وقوفه على صعوبة الوضع العسكري والمعنوي لجنودها ، الذين انهكهم البرد وفتكت بهم الخسائر الجسيمة ،

---

(١) الطبري ج ٦ ص ١٢٨ .
(٢) تقول الرواية ان ابن آثال وضع لعبد الرحمن شراباً مسموماً ، توفي على أثره في حمص (٤٣هـ) . ابن الاثير ، الكامل ج ٣ ص ٤٥٣ .
(٣) H . LAMMENS,Etude sur le régne du calife Mo, awia P 443.
(٤) الطبري ج ٦ ص ١٣٠ .
(٥) ذكر الطبري ان الحملة تمت في سنة ٤٩ هـ . ج ٦ ص ١٣٠ .
(٦) نظام «الجند» - THEMA - هو النظام الدفاعي المعروف لدى البيزنطيين . نورمان بينز ، الامبراطورية البيزنطية ص ١٧٤ - ١٧٨ .

حيث كان بين الضحايا البارزين ، الصحابي أبو أيوب الانصاري ، الذي قيل انه قتل تحت اسوار القسطنطينية[1] .

والواقع أن اخفاق هذه الحملة ، كان صدمة عنيفة لطموح معاوية العسكري ، في السيطرة على عاصمة البيزنطيين ، وبالتالي فإن معطيات جديدة دخلت في حساب العلاقات الأموية البيزنطية لم تكن في السابق . أما في الداخل فقد اسفر ذلك عن بعض الارتباك لمشاريعه السياسية ، وما رافقها من ظهور حركة حجر بن عدّي - أول موقف علني للمعارضة الشيعية بعد تنازل الحسن - وتأخير اعلان البيعة لولاية العهد ، دون استبعاد ما بين الحدثين من علاقة أو توقيت ، قد لا يبدو مصادفة في ذلك الحين . ومن هنا كان على دولة الأمويين ، أن تطوي مشاريعها التوسعية في هذا الاتجاه ، وتنصرف الى جبهات أخرى أقل خطورة وتكلفة ، وأكثر اجتذاباً للقادة والجنود . ولعل أبرز الحقائق التي بلورت هذا الاقتناع ، ووضعت القسطنطينية في وضع من المنعة والتفوق ، تتناول ما يلي :

١ - الموقع الجغرافي الفريد ، الذي وصفه المؤرخ «بينز» بأنه « استقر على شبه الجزيرة البارز من اوروبا ، والذي يكاد يلاقي الشاطىء الأسيوي ، وفي وسط الطريق بين الحدود الشمالية والشرقية ، في بقعة يحميها مدّ بحر مرمرة العنيف من الهجمات البحرية »[2] .

٢ - الاسوار الداخلية والخارجية الضخمة ، والمزوّدة بعدد كبير من ابراج المراقبة[3] التي كان لها دور في كشف التحركات المعادية وإبطال عنصر المفاجأة فيها .

٣ - السلسلة الحديدية الضخمة ، الحاجزة ما بين القرن الذهبي (ميناء القسطنطينية) وبين الشاطىء الأسيوي ، حيث كان يتّم اقفالها في حالات الحرب أو التهديد بالحصار[4].

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ج ٣ ص ٤٥٩ . وقد اكتشف ضريح الانصاري إثر سقوط القسطنطينية على يد الاتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ م . العدوي الامويون والبيزنطيون ص ١٦٥ .

(٢) بينز ، الامبراطورية البيزنطية ص ٧ - ٨ .

(٣) بلغت سماكة السور الداخلي ١٤ قدماً وكان عليه ٩٤ برجاً . اما السور الخارجي فكان يتراوح بين قومين وستة اقدام مع نفس العدد من الابراج . العدوي ، الامويون والبيزنطيون ص ٥٥ .

(٤) المكان نفسه

٤ ـ السلاح البيزنطي المتفوق ، المعروف بالنار الأغريقية ، والذي كان غير معروف لدى العرب المسلمين في ذلك الوقت ، حيث ساهم في تعجيل انسحابهم بعد إحراق عدد غير قليل من السفن الأموية[١].

٥ ـ ضعف التجربة الأموية في حرب الحصار ، لا سيما المدن المتداخلة مع مياه البحر ، مثل القسطنطينية ، حيث تطلّب ذلك اسلحة متطورة وأساليب جديدة في القتال ، لم تكن في متناول القوات الأموية حتى ذلك الحين .

هذه هي أبرز العوامل التي ساعدت على إخفاق المحاولة الأولى التي قام بها الأمويون للقضاء على الامبراطورية البيزنطية ، أما نتائجها المباشرة والبعيدة ، فإنها أدّت الى ذلك الجمود النسبي على الجبهة الشمالية ، في وقت وجد معاوية نفسه بحاجة الى هدنة طويلة مع البيزنطيين ، تلك التي كرستها معاهدته والأمبراطور قسطنطين الرابع[٢]، المتطرف في معاداته للعرب المسلمين ، وذلك قبل سنة واحدة من وفاته[٣]. فلم يشأ حينذاك ان يدع لولي عهده ، إرثاً من المشاكل الخارجية المستعصية ، دون أن تكون هواجس الخوف من الانفجار الداخلي قد تخلّت عن مؤسس الدولة الأموية .

الجبهة الافريقية .

لقد أصاب هذه الجبهة من الجمود ، ما أصاب بقية الجبهات الحدودية أو التخومية اثناء الصراع الشامي ـ العراقي . وكانت مصر حتى السنة الثامنة والثلاثين للهجرة ، محور تنافس بين الفريقين الى ان سقطت اخيراً في يد معاوية ، في اعقاب مقتل آخر ولاتها الممثّلين لعليّ ، محمد بن أبي بكر[٣] . واستطاع عمرو بن العاص بعد ذلك ، الذي آلت اليه هذه الولاية الهامة ، وضع خطط فورية لاستئناف حركة التوسع نحو الغرب والجنوب . فقام قريبه عقبة بن نافع ، الذي كان قائدا لحامية برقة ، بعمليات خفيفة ، استهدفت تأديب عدد من قبائل البربر المتذبذبة

---

(١) كان هذا السلاح عبارة عن انابيب طويلة من النحاس ،توضع في مقدمة السفن وتقذف ماده سريعه الالتهاب لا تطفئها المياه وينسب اختراعه الى مهندس يوناني عرف باسم كالينيكوس. عبادي ـ سالم ، البحريه الاسلاميه ص ٣٣ العدوي . الامويون والبيزنطيون ص ١٧٧

(٢) العدوي ، الامويون والبيزنطيون ص ١٧٥ .

(٣) قُتل في معركة غير متكافئة مع القائد الشامي معاوية بن خديج . الطبري ج ٦ ص ٦٠ .

الـولاء ، على الـرغم من وقوفهـا في فلك السيادة الأمـويـة ، واستـولت كـذلـك عـلى «غدامس» وبعض المراكـز الهامـة في هذه المنـطقة[1]. بيـد أن والي مصر ، اكتفى بهـذا القـدر من النشاط التـوسعي غير المنّـظم لإفتقاده ، عـلى الأرجح ، القـوة العسكـريـة الكافية ، حيث كان معظمها لا يزال مـرابطاً في الشـام ومنهمكاً في شجـون الخلافـة . بالاضافة الى ذلك ، فإن «فاتح» مصر قبل نحو ربع قرن ، كان قد أصبـح تحت عبء الأعوام الثقيلة ، ولم يعد ذلك القائد الذي تستهويه المغـامرة ومعهـا ركوب المخـاطر . وفي ضوء هذا الواقع ، فإن مشاريعـه الحربيـة اقتصرت خـلال عهده القصير[2]، على تلك الغزوات الدورية التي أسندت الى عقبة ، حيث اكتسب بفضلها خبرة ومراسـاً ، واختصاصاً كذلك في الحرب الافريقية ، مما سيكون له دور بارز جداً في هـذا المجال، خلال السنوات العشرين اللاحقة[3].

وقبل تناول الأحداث العسكرية الهامة ، التي بدأت تأخذ اطـارها المنـظم ، منذ تعيـين عقبة بن نـافع قـائداً لهـذه الجبهة، لا بـدّ من الاحـاطـة بـالجـوانب السيـاسيـة والاجتماعية لهذه المنطقـة،حيث كانت ثمـة علاقـة، بـين تكوينهـا الجغرافي والسكـاني ، فضلا عن التاريخي ، وبين مسار الحركة التوسعية في العهد الأموي . ذلك ان التواجد العسكري الحقيقي للعرب المسلمين ، لم يتجاوز برقة ، التي شكلت حاميتها الكبيرة ، خطّا دفاعياً للولاية المصرية ، فضلاً عن اتخاذها منطلقاً للتوسع نحو الغرب ، وما عدا ذلك ، لم يكن اكثر من تواجد سطحي ، متمثّل بحاميات صغيرة ، أو بغزوات دورية محدودة اكثر ما تستهدف بعض قبائل البـربر المجـاورة . وكانت أفـريقية او المغـرب[4] (كما سُميت في وقت متأخر) لا سيما الجهات الساحلية ، خاضعة للمتغيرات السيـاسية المتلاحقة ، حيث ارتبـطت قبل الميـلاد بالحـروب البونيـة (بين قـرطاجـة وروما)، التي أسـفرت عن انتصار الاخيرة وسيطرتها على افريقية وبقية البلاد المطلة على المتوسط ، الذي تحوّل الى بحيرة رومانية في ذلك الحين . ولكن الرومان ، اكتفوا منها بالسـواحل

(١) ابن عذاري ، البيان المغرب ج ١ ص ١٥ .

(٢) توفي عمر بن العاص سنة ٤٣ هـ / ٦٦٤م . ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ١٥ .

(٣) ابراهيم بيضون ، الدولة العربية في اسبانيا ص ٣٠ .

(٤) هذا الاسم مجرد اصطلاح جغراي أطلق على على الاراضي الواقعة الى الغرب من مصر حتى المحيط الاطلسي . المرجع نفسه ص ١١ .

الشمالية ، التي استخدمت لغايات عسكرية في الغالب ، متفادين الانتشار جنوباً ، والاحتكاك بالسكان الأوائل من البربر ، الذين عاشوا في ظل نمطين متمايزين اجتماعياً : الأول متحضر ، مثّله ما عرف باسم «البرانس»، الذين أقاموا على تخوم السواحل ، وارتبطوا بنمط انتاجي أميل الى الاستقرار ، معتاشين من الزراعة ، والأعمال الحرفية المختلفة ، والآخر ارتحالي ، مثله «البتر»[١]، وهم سكان البوادي ، المتنقلين في الداخل ، والمحافظين على تقاليدهم القديمة المتوارثة ، كالرعي والغزو وكل ما يتعلق بحياة البداوة المعروفة[٢].

وكان من الطبيعي ان تنعكس التطورات السياسية على أفريقية في ذلك الحين ، خاصة بعد تمزّق امبراطورية الرومان وانهيار اجزائها الغربية ، تحت ضغط هجمات الجرمان . فقد واجهت نصيبها أمام هذه الموجة العاتية ، حين سيطر عليها «الفندال» VENDAL ، الذين دفعتهم مجموعة جرمانية اخرى من اسبانيا عرفت باسم القوط الغربيين ، وذلك في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي[٣]. وقد ظلّ «الفندال» يتمتعون بالسيادة على الشريط الساحلي ، الممتد ما بين طنجة وقرطاجة ، الى أن جاء الأمبراطور البيزنطي جستنيان، صاحب الدعوة الى إحياء الأمبراطورية الرومانية القديمة[٤] حينما انتزع قائده الشهير «بلزاريوس» هذه المنطقة من «الفندال»، ولكن دون أن يشمل النفوذ البيزنطي الجديد ، كافة مناطق السيادة الرومانية القديمة ، حيث تراوح ما بين السيطرة الفعلية والانحسار التدريجي ، حتى مجيء العرب المسلمين[٥].

وفي الوقت الذي اتخذ فيه العرب المسلمون «منحى أكثر جدية في سياستهم

---

(١) يميل بعض المؤرخين الى تفسير هاتين الكلمتين (البرانس والبتر) ، تفسيراً له علاقة بالزيّ القومي لدى سكان المغرب وهو « البرنس » ، الذي لا يزال سائداً حتى اليوم . فقد اعتاد البربر البرانس - حسب زعمهم - ارتداء البرنس الذي يغطي الجسم من الرأس حتى القدمين ، بينما اعتاد البتر على الظهور به مبتوراً من دون غطاء للرأس . عبد الحميد العبادي ، المجمل في تاريخ الاندلس ص ٢١

(٢) ابراهيم بيضون ، الدولة العربية في اسبانيا ص ١٩ .

(٣) المرجع نفسه ص ٦٢

(٤) نورمان بينز ، الامبراطورية البيزنطية ص ٣٣٠ - ٣٣٣ .

(٥) أسد رستم ، الروم ج ١ ص ١٨٧ - ١٨٨ .

الأفريقية ، كانت دولة الأمويين قد طوت صفحة الحرب الاهلية وأصبحت لديها القدرة على حشد الجزء الاكبر من قوتها في خدمة الحركة التوسعية العامة. غير أن هذه المهمة كانت شائكة وعسيرة ، حيث كان عليها الاصطدام بحاجزين من المقاومة : اولهما بيزنطي، اعتمد على التفوق البحري والقواعد المنيعة أو بقاياها على امتداد الساحل الشمالي ، وثانيهما، تمثل بقبائل البربر في الداخل ، التي لم تتحمس لذلك التوّغل العسكري ، القادم من الشرق . أما المجابهة المباشرة ، فكانت مع العدو البيزنطي التقليدي ، في وقت كانت لا تزال العلاقة مع البربر ، مشوشة وغامضة . بالأضافة الى ذلك ، فإن مؤشراً لا بدّ من أخذه في الاعتبار ، هو أن القوة العسكرية البيزنطية ، لم تشكل على ما يبدو عائقاً جدّياً في وجه الأمويين ، ومن ثم فإن حماسة المقاتلين في القواعد الأفريقية، كانت فاترة ، حيث انصبت الجهود بكاملها أو كادت على حماية القسطنطينية، التي كانت أحد أهم الأهداف التوسعية للحكم الأموي . وفي الوقت نفسه ، فإن الضربات العنيفة التي تلقتها الأمبراطورية في مصر والشام ، قد اسهمت زعزعة الشخصية المركزية التي تمتعت بها إزاء ولاياتها القريبة أو البعيدة ، بعد أن أخذ حكامها ، لا سيما في الأخيرة منها ، يجنحون الى الاستقلال تحت تأثير هذا الواقع ويتحررون تدريجياً من وصاية القسطنطينية[1].

وكان معاوية ، بعد وفاة عمرو بن العاص ، قد جعل من برقة وطرابلس إدارة منفصلةعن مصر ،وعينّ قائداً لها أحد معاونيه في صفين هو معاويةبن خديج[3]، وذلك في نطاق مهمة محددة ، لا تتجاوز معها عملياته العسكرية المنطقة الواقعة الى الغرب من طرابلس[4]. وما لبث أن خرج من الأسكندرية عبر الطريق التقليدي المألوف للعرب المسلمين ، وهو المحاذي للسواحل الشمالية . ويبدو أنه لم يصادف أمامه عقبات أو مفاجآت تذكر ، حيث كان ذلك ثمرة الجهود المتواصلة لعقبة بن نافع ، الذي ربما كان في عداد هذه الحملة الأموية الأولى في افريقية . وتشير المرويات الى بلوغه قونية (قمونيه)[5] الى الجنوب من قرطاجة ، وعلى مقربة من المكان الذي انتهى

(١) ابن خلدون ، العبر ج ٣ ص ٣١ . (٢) ابن عذاري ، البيان المغرب ج ٢ ص ٥ .

(٣) تسلّم معاوية بن حذيج الكندي قيادة افريقية في سنة ٤٥ هـ / ٦٦١م . الطبري ج ٦ ص ١٤٦ . راجع ايضاً ، ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٩٤ .

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٩٣ . ابن عذاري ، البيان المغرب ج ١ ص ١٦ .

(٥) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٩٣ .

اليه عبد الله بن سعد ، قائد الحملة «الراشدية» السابقة . وفي هذه الأثناء كان الحاكم البيزنطي (نقفور NECIPHORE)[1] لهذه المنطقة ـ التي تعتبر امتداداً لقرطاجة حيث مقرّ الأخير الذي وُصف بأنه محارب قدير ـ قد اتخذ معسكره في مدينة «سوسه» الساحلية[2]. ولكنه بعد دراسة للموقف العسكري وموازين القوى ، وجد صعوبة في مواجهة الحملة الأموية[3]، وأحجم عن الاشتباك الفعلي معها ، مؤثراً التراجع والانسحاب الى السفن البيزنطية الراسية بالقرب من المعسكر[4] فتوقفت عند هذا الحد مهمة القائد الأموي ، الذي اكتفى بانتصاره السريع ، والغنائم التي وقعت بين أيدي جنوده .ويبدو أن الدولة الأموية ، لم تكن بعد قد وضعت خطة عسكرية مبرمجة للسيطرة على افريقية ، حيث كانت لا تزال تعاني بعض رواسب الحرب الأهلية ، هذا إن لم يكن قائد الحملة مسؤولا عن النتائج المتواضعة التي انتهى اليها ، دون محاولته استثمار انتصاره في إقامة اجراءات عسكرية وإدارية ، تسهم في تذليل ما بدا صعب المنال في وقت لاحق ،ومكررا الخطأ نفسه الذي وقع فيه سلفه ابن سعد قبل نحو سنوات عشر ، غير أن المؤشر الأيجابي سواء كان في خاطر ابن خديج أو لم يكن ـ أن هذه الحملة أسهمت في اختلال موازين القوى العسكرية لمصلحة الأمويين ، بعد أن اثبتت هزيمة البيزنطيين الأخيرة ، تراجع نفوذهم وبداية اضمحلاله ، أمام المدّ التوسعي الجديد ، الذي اخذ يلقى تشجيعاً خاصاً في هذا الاتجاه من الخليفة الأموي .

عقبة بن نافع ومحاولة الفتح الجدّي لأفريقية :

أصبح عقبة بن نافع قائداً لولاية أفريقية ، بعد معاوية بن خديج ، في وقت[5] متزامن تقريباً مع استعدادات الدولة لحملة القسطنطينية ، حيث الظروف باتت ملائمةلا ستئناف حركة التوسع على نطاق شامل . ويعتبر تعيين هذا القائد ، الذي

---

(١) « نجفور » في البيان المغرب ج ١ ص ١٦ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) كانت وفيرة العدد وتضم « جماعة من المهاجرين والأنصار » ، حسب ما أورده ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٩٣ .

(٤) ابن عذاري ، البيان المغرب ج ١ ص ١٦ .

(٥) ٤٩هـ . الطبري ٦ ص ١٣٤ . وردت ٤٦ هـ لدى ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٩٤

ارتبط يافعاً ، بأعمال هذه الجبهة ، ذا دلالة هامة ، بأن الحكم الأموي ، باتت لديه خطته لاتمام السيطرة على افريقية او المغرب ، مقترنةً مع هذا القائد ، الذي يعتبر واضع الركائز الاساسية لشخصية الأقليم العربية والاسلامية .

لقد بدأ عقبة نشاطه التوسعي ، بالسيطرة على عدد من المواقع الهامة في المغرب الأدنى[١]، انطلاقاً من الخطة الجديدة ، الهادفة الى المحافظة على الأرض، وليس الاكتفاء فقط بالغزو السريع ، على غرار العمليات السابقة ، حيث عمد الى تشكيل حاميات عسكرية في المدن والمواقع ، التي تسقط في يده[٢]. أما عن موقف البربر من هذه التطورات المستجدة ، فكان أقرب الغموض ، في وقت بدأ يتضح لديهم مشروع الدولة الأموية ، واجدين فيه نمطاً مختلفاً عن التجارب السابقة مع القوى السياسية الأخرى ، بعد أن تلازمت والطابع العسكري الصرف ، خلافاً لهؤلاء النازعين الى الاستقرار والتسرب عبر العقيدة ، التي كان تأثيرها قد سبق الحملات العسكرية . وعند «قونيه»، المكان الذي انتهى اليه سلفه القائد الأموي ، كانت فكرة الاستقرار قد اختمرت لدى عقبة ، واتخذت الأولوية في الخطّة الجديدة . فظهرت أولى القواعد الحربية[٣] في عمق ولاية افريقيا،على نسق القواعد التي ظهرت في ايام الخليفة عمر بن الخطاب، وهي القيروان[٤] (الأسم الذي أطلقه القائد الأموي على قاعدته المتقدمة)، وذلك في أحد الأودية المحمية ، البعيدة نسبياً عن قرطاجة ، كبرى القواعد البيزنطية على الساحل الشمالي . وكان ظهورها مرتبطاً باثنين من الدوافع : الأول، عسكري - توسعي ، يرمي الى إنشاء مركز دائم لتغطية عمليات الهجوم في قلب أفريقية (المغرب)، ومن ثم تأمين الخطوط الدفاعية الضرورية لولاية مصر والحاميات الواقعة الى الغرب منها . والثاني ، سياسي - ديني[٥]، في أن تكون هذه القاعدة منطلق التغيير الى افريقية ، والاتصال بقبائل البربر التى كانت لا تزال غالبيتها على الوثنية[٦].

---

(١) تونس حالياً . ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٤ .

(٣) البلاذري ، فتوح ص ٢٣٠ . ابن عبد الحكم ص ١٩٣ ، ١٩٦ .

(٤) القيروان كلمة فارسية الاصل ومعناها بالعربية ، القافلة او محط القوافل .

(٥) ابن خلدون ، العبر ج ٣ ص ٢١ .

(٦) ابراهيم بيضون ، الدولة العربية في اسبانيا ص ٣١ .

ويبدو أن بناءها دام نحو سنوات خمس[1]، دون أن يكون هنالك اعتراض جدّي من جانب البيزنطيين ، الذين صرفوا طاقتهم الاساسية حينذاك، في الدفاع عن عاصمتهم المهددة من جانب القوات الشامية المركزية ، ولكن جهود عقبة لم تكد تتجاوز هذه المهمة ، حيث العمليات العسكرية كانت محدودة[2]، أكثر ما ترمي الى تحقيق حسن جوار مع البربر وتحريضهم على اعتناق الاسلام[3]. بيد أن هذه المحاولة لم تلق النجاح المطلوب ، لا سيما وأن القائد الأموي المتحمس ، كان هدف التغيير الاداري الذي اطاح به وأفقده منصبه في افريقية ، بعد أن استبدله معاوية بأحد مساعديه (ابو المهاجر دينار)[4]، الذي كان أقرب الى مزاجه على ما يبدو من سلفه القوي الشخصية ، وصاحب التجربة القيادية القديمة ، فضلاً عن العلاقة الحميمة مع القبائل المقاتلة ، مما سيكون له تأثيره لاحقاً ، في إعطاء فهر (قبيلة عقبة) مكانة خاصة في افريقية ، امتدّت بعض الحين الى الأندلس ، الى درجة مكّنت الفهريين من تأسيس دولة شبه مستقلة في المغرب على مفترق العصرين الأموي والعباسي .

والواقع أن سياسة القائد «الفهري» في أفريقية ، كانت محصلة خبرة طويلة بشؤون هذه المنطقة . ولذلك فإن عزله لم يشكل تراجعاً الى الوراء ، بعد أن ترك وراءه انجازاً هاماً ؛ جسّدته «القيروان» التي اصبحت منذ قيامها ، مركز العمليات الحربية في أفريقية ، بعد أن كانت الفسطاط تتولى هذا الدور خلال المرحلة السابقة . أما القائد الجديد ، فلم يكن قليل الحماسة بدوره ، لمتابعة هذا الاتجاه التوسعي ، ولكن ضمن اسلوب اكثر ليونة حسب ما تزعمه الروايات التاريخية[5]، التي اشارت الى تحالف سياسي ،قام بين القائد الجديد وبين إحدى القبائل البرانسية الكبيرة

---

(١) شرع عقبة في بنائها بدءاً من العام ٥١ هـ . ابن عذاري ، البيان المغرب ج ١ ص ٢٠ .

(٢) منها عمليتا فزان وزويلة ، ابن عبد الحكم ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٣) ابن خلدون ، العبر ج ٣ ص ٢١ .

(٤) تولى ابو المهاجر (مولى مسلمة بن مخلد الانصاري) شؤون الولاية الافريقية سنة ٥٥ هـ / ٦٧٤ م . البلاذري ، فتوح ص ٢٣٠ .

(٥) ابن عذاري ، البيان المغرب ج ١ ص٢ . عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ج ٢ ص ٥٩ . ابراهيم العدوي الامويون والبيزنطيون ص ٢٤١ .

(أُوريـه)، القاطنـة في جبال الأوراس[1]. ولـذلـك فـإن المـرويـات المهتمـة بشؤون الفتوح ، لا تذكـر اعمالاً عسكـرية ذات شـأن كبير ، خـلال السنوات الخمس ، التي قضـاها ابـو المهاجـر قائـداً لهذه الجبهـة[2]. فجلُّ مـا اشـارت اليـه ، تلك الحملة الى «تلمسان» في المغرب الأوسط ، وما اسفرت عنـه من إخضاع لـزعيم اوروبة (كسيلة بن لمزم)، الـذي وُصف بـأنـه «من ملوك البـربـر»[3]، ومن ثم تحـوّلـه مـع قبيلتـه الى الاسـلام[4]. على أن هـذا الأمر تـأرجح بـين الشـك واليقـين ، لا سيـما وأن المصـادر الرئيسية لم تشر اليه ، مما يجعل هـذه المسألـة مجرد اعتقـاد ، إلا إذا كان هـذا التحوّل ضعيفاً منذ البدء ، دون أن «يستحكم الاسلام بقلبه»[5] حسب ابن عذاري ، بعد أن ظـل يحمل في صـدره ـ كما تبين لاحقاً ـ عـداوة شرسـة للوجـود العـربي الاسـلامي في إفريقية .

وما لبثت القيادة في القيـروان ، أن خضعت مرة اخـرى للمتغيرات السيـاسية بعيد انتقال «الخلافة» الى يزيد بن معاوية[6]. وكان الأخير عـلى ما يبـدو يؤثر عقبـة ، الذي ارتبط معه بعلاقة ودّية ، بعد أن أمضى وقتاً من اعتكافه على الأرجح ، مقرّباً من وليّ العهـد ـ حينذاك ـ في العـاصمة الأمـوية[7]. وإذا كـان عقبة الـذي عاد مجـدداً الى منصبه ، لا زال توّاقاً الى استئناف سياسته التوسعية ، بالاندفـاع نفسه الـذي خالجـه

---

(١) ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ٢٦ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٩٧ وما بعدها . البلاذري ، فتوح ص ٢٣٠ . ابن عذاري البيان ج ١ ص ٢١ ـ ٢٢ .

(٣) ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ٢٦ .

(٤) المكان نفسه .

(٥) المكان نفسه .

(٦) ٦٠هـ / ٦٨٠ .

(٧) قيل ان عقبة بعد عزله وإساءة أبي المهاجر له ، قدم على معاوية بن أبي سفيان فقال له: فتحت البلاد وبنت المنازل ومسجد الجماعة ودانت ، ثم ارسلت عبد الانصار فأساء عزلي . فاعتذر اليه معاوية وقال قد عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الامام المظلوم (عثمان) وتقديمه اياه وقيامه بدمه وبذل مهجته ، وقد رددتك على عملك » ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٩٧ ـ ١٩٨ . ولكن هذا المؤرخ مثل غيره ، يقول ايضاً ، ان الذي ردّه على عمله هو يزيد وليس معاوية . فتوح مصر ، ص ١٩٨ . البلاذري ، فتوح ص ٢٣٠ ، ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ٢٢ .

قبل عزله ، فإن الظروف العامة لم تعد نفسها ، كما كانت عليه في السابق . ذلك أن معطيات جديدة ، طرأت على وضع هذه الجبهة ، مع خروج النظام البيزنطي سالماً من محاولات القضاء عليه ، وعودة سياسته العدائية مع قسطنطين الرابع ، الذي اتخذ منحىً متطرفاً إزاء الدولة لأموية . وفي مقدمة ما يفيد ذلك ، أن التحرك العسكري في افريقية ، أصبح على شيء من الخطورة ، مع عودة الأهتمام البيزنطي بها ، والتركيز على البربر ومحاولة تأليبهم على العرب المسلمين .

وفي ضوء هذه التطورات التي كان من أبرزها تدعيم الوضع العسكري للبيزنطيين بصورة جدّية ي افريقية ، لا بد من إسقاط الافتراض الشائع أو التقليل من أهميته ، عن تدهور العلاقة بين عقبة والبربر ، خلافاً لواقعها في عهد سلفه وندّه أبي المهاجر[1]. ولعل اكثر ما يوحي بانقلاب موقف هؤلاء ، وارتباطه بالمعطيات السابقة ، ذلك العداء الذي فوجىء به القائد الأموي من زعيم«اوروبة»، حيث يعطي بدوره تفسيراً اضافياً في الاتجاه نفسه ، هو أن الأخير كان يجد في القائد «الفهري»، شخصية أكثر خطورة على البربر وتقاليدهم المتوارثة ، وتناقضاً مع مصالحهم القبلية والاقتصادية . فثمة فارق في الرواية التي اوردها «ابن الأثير»، من أن كسيلة قد «أسلم وحسن اسلامه»[2]، وبين تلك التي اوردها المؤرخ المراكشي «ابن عذاري»، بأنه «أسلم وأحسن اليه ابو المهاجر واستبقاه ولم يستحكم الاسلام بقلبه»[3]، التي اسلفنا الاشارة اليها . وفي ضوء هذا التباين ـ الجزئي على الأقل ـ فإن علاقة كسيلة بالدولة الأموية ، ممثلة بعقبة أو بأبي المهاجر ، كانت سطحية ولم تبلغ حد الاقتناع والتسليم بالولاء لها ، دون أن يعكس ذلك موقف كسيلة أو قبيلته فقط ، ولكن يمتد بالضرورة الى جميع قبائل البربر في ذلك الحين .

على أن عقبة كان يجعل معه على الارجح ، تكليفاً باطلاق يده في الولاية الافريقية ، ما لبثت ملامحه ان تبلورت ، مع خروجه على النطاق المحلي المألوف ، الذي كان طابع الأعمال العسكرية في عهد أبي المهاجر ، الى اعتماد خطة مبرمجة وذات أهداف بعيدة . فقد اشارت المرويّات الى مغادرته

(١) ابن الاثير ، الكامل ج ٤ ص ١٠٧ . شكري فيصل ، حركة الفتح الاسلامي ص ١٦٧ . العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

(٢) الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٠٧ .

(٣) البيان المغرب ج١ ص ٢٩ .

«القيروان» بعد نيف وعام من عودته[١]، ومعه سلفه ابو المهاجر ، داحضاً بذلك ما يُزعم عن خلافات جذرية بين القائدين حول مسألة العلاقة مع البربر[٢]. وكانت أولى المحطات الرئيسية في مسيرته ، مدينة باغاية (بجاية)[٣]، التي وُصفت بأنها مركز تجمع للبيزنطيين[٤]، حيث حقق انتصاراً باهراً عليهم ، انتهى بهم الى الاعتصام في المدينة . ولكن يبدو أن القائد الأموي لم يضع في خطته ، السيطرة على القواعد العسكرية الساحلية ، التي كانت غير سهلة المنال في ظل وسائل الحصار المتواضعة لدى قواته ، بل كان يطمح الى امتلاك زمام الأمور في الداخل ، مما يعطيه فرصاً افضل لاقتلاع النفوذ البيزنطي فيها بعد . ومن أجل ذلك ، انعطف جنوباً بمحاذاة السفوح الشمالية لجبال الأطلس، واجتاح اقليم الزاب في المغرب الاوسط الى «تاهرت»[٥] ، بعد معركة عنيفة مع البربر[٦]، الذين كانوا يتلقون الدعم العسكري من القواعد البيزنطية[٧]. وكان سقوط هذا الموقع الهام ، قد مهدّ الطريق الى المغرب الأقصى ، متنقلا من انتصار الى آخر حتى بلغ طنجة وفرض الصلح على صاحبها «يوليان» أو «يليان» ، الذي وصفه ابن عذاري بأنه «كان من أشراف ملوك الروم وأعاظمهم»[٨]، ليتنهي أخيراً عند نهر «ماسّة»[٩] على ساحل المحيط الأطلسي . ثم عاد بعد ذلك ، عبر خط شبه مستقيم الى القيروان ، تاركاً وراءه نفوذاً للبيزنطيين لا يزال قائماً بحدود ما على الساحل الشمالي ، وموقفاً لم ينجل بعد للبربر ، وفوق ذلك شهرة خاصة رفعته الى مصاف كبار القادة في التاريخ العسكري للعرب المسلمين ، شهرة ربما اتخذت بُعدها «الجهادي» ،

---

(١) ٦٢هـ / ٦٨١ .

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ١ ص ١٥٨ - ١٥٩ . راجع ايضاً : ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٩٩ .

(٣) تقع الى الجنوب من قرطاجة على ضفة البحر . الحميري الروض المعطار ص ٨٠ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ج ٤ ص ١٠٥ . ابن عذاري البيان ج ١ ص ٢٤ .

(٥) على بعد ست مراحل من المسيلة . ياقوت ، معجم البلدان ج١ ص ٧ .

(٦) لا سيما قبائل : لواته وهواره وزواغه وزناته . ابن عذاري اليان ج ١ ص ٢٥ .

(٧) ابن الاثير ، الكامل ج ٤ ص ١٠٥ .

(٨) ابن عذاري ، البيان ج١ ص ٢٦ . من غير المعروف إذا كان يوليان هذا نفسه الذي مهّد السبل ، او قيل ذلك بعد نيف وثلاثين عاماً لموسى بن نصير من أجل دخول الاندلس .

(٩) ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ٢٧ . وردت « ماست » في الروض المعطار ص ٢٢٢ . وهو يصب في المحيط . اما ابن الأثير فقد ذكر بأنه بلغ ماليان على المحيط . الكامل ج ٤ ص ١٠٦ .

الذي قد يتجاوز الواقع الى شيء من الخيال[1].

تهوذة . . ثورة البربر الأولى؟

بعد عودة عقبة بن نافع بحملته المظفرة ، كانت ثمة مفاجأة بانتظاره ، دمّرت كل انجازاته العسكرية الأخيرة ، وأعادت النفوذ الأموي في افريقية الى حجمه القديم ، أي الى ما قبل نيف واربعين من الأعوام . فما كاد يصل الى « طُبنة »[2] في اقليم الزاب ، حتى أدرك ان تحرّكاً مريباً يقوم به البربر من جماعة كسيلة ، مدعومة من القوات البيزنطية الحليفة[3]. ولعله من الصعوبة هنا ، تفسير الاجراء الذي اتخذه القائد الأموي ، حسب الرواية التاريخية ، بارسال الجزء الأكبر من قواته الى القيروان ، وربما الى دمشق ، والاحتفاظ بقلة منها فقط[4]. فهل كان ذلك نتيجة لشعوره بضخامة الخطّة المبّيتة ضده ، مما جعله يؤثر تسريح القوة الاساسية من جنوده ، قبل القيام بعملية انتحارية يخترق بها «كمين» البربر؟ أم أن هذا الأمر كان خارجاً عن ارادته ، وتلبيةً لأوامر دمشق ـ التي كانت تمرّ حينذاك بأزمات سياسية خطيرة ـ في استدعاء قواتها المنتشرة على جبهات «الفتوح»؟ وقد يبدو الأفتراض الأخير مقبولاً ، لا سيما وأن توزيع القوات أو تسريحها ، جرى على مسافة أيام ثمانية من القيروان ، وهي المسافة التي تفصل الأخيرة عن «طُبنة»[5]، حيث يبدو مستبعداً اجراء ذلك بصورة عفوية ومن دون تسويغ .

وفي تهوذه (تهودا)[6]، حيث يوجد معقل بيزنطي قديم[7]، اعترض «كسيله» مع

---

(١) نُسب الى عقبة القول بعد بلوغه المحيط الاطلسي : « يا رب لولا هذا المحيط لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك » . ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ١٠٦ ، كما نُسب اليه في البيان المغرب لابن عذاري » : اللهم انك تعلم اني لم أطلب الا ما طلب عبدك ووليك ذو القرنين الا يعبد في الارض غيرك ج ١ ص ٢٧ .

(٢) على بعد مرحلتين من المسيلة .الروض المعطار للحميري ص ٣٨٧ ، راجع ايضاً ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ١٠٦ .

(٣) ابن عبد الحكيم ، فتوح ص ١٩٨ .

(٤) المكان نفسه . يحدّدهم ابن عذاري بخمسة آلاف . البيان ج ١ ص ٢٩ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ١٠٦ .

(٦) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٩٨ . ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ٢٩ . وقد وصفها الحميري إنها من بلاد الزاب . الروض المعطار ص ١٤٢ .

(٧) ابن الاثير ، الكامل ج ٤ ص ١٠٦ .

حلفائه سير القائد الأموي ، وفاجأه بعملية مدبّرة ومتقنة ، أدت الى تحطيم القوة الأموية ، بعد معركة بطولية ومستميتة ، قتل فيها عقبة وبقية القادة، بمن فيهم أبو المهاجر ، بينما غرق الآخرون في بحر من الدماء[1].

ومن البديهي أن أبعاد الحادثة لم تنته عند هذا الحدّ من النتائج ، بالقضاء على عقبة واصحابه ، وما أسفر عنه من دخول البربر الى القيروان ، التي أفرغت حاميتها بعد انسحاب قائدها (زهير بن قيس البلوي) الى برقة ، إثر سماعه بأخبار تهوذه[2]. ذلك أن الدقة التي تم بها اعداد العملية المضادة ، والحشد الكبير من البربر والبيزنطيين الذي تصدى لعقبة ، يحمل على الاعتقاد ، بأن هذه الحادثة كشفت موقف البربر من سياسة التوسع الأموية ، التي كان عقبة من أبرز المتحمسين لها . فالعلاقة بين الطرفين ، كانت منذ البدء غير ودية ، إن لم نقل عدائية ، لا سيما خلال الفترة الثانية من ولايته ، حين تعامل معه البربر بحذر شديد ، ووجدوا في سياسته ما يتعارض والشخصية الكيانية التي تمسكوا بها . ومن هذا المنظور ،فإن العملية ، كانت انقلاباً او تمرداً على هذه السياسة التوسعية وثورة على الاجراءات الجديدة ، التي كان ثمنها المباشر ، فقدان استقلالهم التقليدي وكيانهم الاجتماعي المتوارث ، ولم يكن مصادفة بعد ذلك ، أن يصبح «فتح» المغرب ، من أصعب المنجزات العسكرية التي حققها العرب المسلمون ، بالمقارنة مع العمليات السابقة له أو المتزامنة معه . مع أن السؤال يفرض نفسه هنا ، إذا ما كانت هذه المهمة تبدو شائكة ، لو أتيح القيام بها في العصر الراشدي الأول ، خاصة ، وأن صعوبات مماثلة جوبهت بها الفتوح الأموية في بعض مناطق المشرق ؟ ولكن إذا كانت هذه المسألة جديرة بالنقاش ، قبل اعطاء جواب محدّد لها ، فإن ثمة تناقضاً ظلّ يسيطر على علاقة الأمويين بالبربر ، حتى بعد استكمال المهمة العسيرة في اواخر القرن الأول ، حيث كان البربر أحد مصادر التوتر والاضطراب السياسي لفترة غير قصيرة ، انتهى معها تماما كل وجود للسلطة المركزية في هذه المنطقة .

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٩٨ . ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ٢٩ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ج ٤ ص ١٠٨ .

ثورات

لم يستطع الحكم الأموي ، وعلى المدى البعيد، اكتساب «الشرعية» الكافية إزاء الجمهور الاسلامي ، الذي بقيت له تحفظاته واعتراضاته ، على الرغم من المحاولات التي بذلها لتحقيق هذا الهدف ، واتخاذ صفة جماعية أو غير فئوية على الأقل . والواقع انه ، إذا ما استثنينا الشام وبعض ملحقاتها ، فإن الموقف السياسي في الولايات الأخرى ، كان يتراوح بين الرفض والصمت . . والولاء الجزئي المحدود . ولعل اثنتين منها : الحجاز والعراق ، كانتا مؤهلتين لإعادة النظر في الموقف من الحكم الأموي ، حيث اتضحت معالمه في الخمسينات التي شهدت الدعوة لولاية العهد وتنفيذها ، ومن ثمّ ظهور أول انتفاضة منذ قيام الدولة المتجهة حينذاك نحو الملك ، على يد حجر بن عدّي الكندي ، التي اعتبرت سابقة هامة ، ولكن دون أن تكون متبوعة بمحاولات أخرى ، تتجاوز الموقف الحجازي من ولاية العهد . ذلك أن معاوية ، حال دائماً وارتفاع الأصوات غير المؤيدة لنظامه ، في الوقت الذي وجد فيه اصحابها ، صعوبة التحرك وخطورته ، في ظلّ اجواء مغلقة وادوات بشرية قامعة سواء في الحجاز أم في العراق .

اما الولاية الأولى ، التي كانت أكثر المتضررين من انتقال الخلافة الى الشام ، فقد كان محظوراً على زعمائها ابناء الصحابة ، تجاوز الاهتمامات الاجتماعية والثقافية ، بينما كان التجمع السكاني الأبرز في الحجاز (أي الأنصار) الذي كان له دوره الطليعي

في تكوين الدولة الاسلامية ، يعاني القهر والملاحقة والفقر[1]. وفي ضوء هذا الواقع ، كان أهل الحجاز يتوقون الى الخروج من هذه الدائرة الضيقة ، ويجدون في غياب معاوية ، فرصة للعودة الى الحياة الطبيعية ، والتعبير عن مخزون من النقد والاحتجاج ، فضلاً عن الرفض المبدئي لأمور خطيرة ، لم يجرأوا على البوح به خلال العهد الصارم . ولكن يبدو أن زعماء المعارضة في «المدينة» او بعضهم ، على الرغم من الحصار السياسي المحكم ، لم يعدموا نشاطات واجتماعات ، كانت تتم في اطار من الكتمان والتمويه[2]. وكان ثمة قاسم مشترك ، قد وحدّ الموقف المرحلي للمعارضة الحجازية ، هو إرجاء التحرك العلني الى وقت تتوفر فيه المعطيات الايجابية ، أو بمعنى آخر الى ما بعد معاوية ، الشخصية المؤسسة وغير العادية ، والقابض بكلتا يديه على السلطة ، ومعه رجاله الأقوياء و«استخباراته» الراصدة[3]. ولقد عبّر عن هذا الواقع ، أحد أبرز زعماء هذه المعارضة ، وهو الحسين بن علي ، في معرض الرّد على سليمان بن صُرد الخزاعي (من كبار شيعة الكوفة) بقوله ، حسب المئويات ـ « ليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته ، ما دام معاوية حيّاً ، فإنها بيعة كنت والله لها كارها ، فأن هلك معاوية نظرنا ونظرتم ورأينا ورأيتم »[4].

وهكذا فإن غياب معاوية[5] كان مؤشراً للانفجار المرتقب ، ذلك الذي تفادته المعارضة في عهده ، بعد أدراكها الثمن الباهظ والمكلف له ، حيث نجح مؤسس الدولة الأموية في منعه أو تجميده ، ولكن دون آن يستطيع ضمان هذا الأمر بعد رحيله ، مجسّداً هذه الهواجس في وصيته الشهيرة السالفة الذكر[6]. وفي المقابل ، لم يكن خليفته يزيد ـ حسب المرويات أو معظمها ـ في مستوى المهمة الكبيرة ، بعد أن تجلى ذلك في اسلوبه العقيم وقراره الارتجالي ، أمام الأزمات الخطيرة ، تلك التي عصفت بعهده منذ أيامه الأولى ، ويبدو أن يزيداً الذي أظهرته الروايات ، مقترناً

---

(١) راجع : المبرّد ، الكامل في اللغة والأدب ج٢ ص١٥٤ . الامامة والسياسة ج ١ ص ١٨٨ . ابراهيم بيضون ، الحجاز والدولة الاسلامية ص ٢٢٧ .

(٢) الدينوري ، الاخبار الطوال ص ٢٢٤

(٣) المصدر نفسه

(٤) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٥٢ .

(٥) توفي معاوية في الرابع من رجب سنة ستين للهجرة تاريخ خليفة بن خياط ج ١ص ٢٧٩ .

(٦) الطبري ج ٦ ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

بالترف والمجون ، ومستغرقاً حتى العبث في حياته الخاصة[1] كان ضحية شخصيته الضعيفة والمتردّدة ، العاجزة عن ملء فراغ كبير تركه معاوية في السلطة . فقد تسلّم الأخيرة ، ومعها ميراث ثقيل من المشاكل ، كانت راكدة ليس أكثر في عهد والده القوي ، لا سيما مشكلة الحكم نفسه ، الذي لم يكن قد حُسم بعد تماماً أو اتخذ «الشرعية» المطلوبة .

ولعل الفشل الذي لاحق يزيد ، في التصدي للموجة الواسعة التي استهدفت حكمه ، قد ترك تأثيره الواضح في معرض التقويم لشخصيته ، التي ظلت حبيسة هذا التقزّم ، بالمقارنة مع شخصية سلفه الطاغية . بالاضافة الى ذلك ، فإن جرأته ، التي بلغت حدود التهور ، في القضاء على الحركات المناوئة ، وضربه الرموز الاسلامية بمنتهى العنف ، حيث رأى في هذه السياسة مدخلاً الى اثبات حضوره السلطوي ، كان حائلاً دون تغيير تلك الصورة القاتمة للخليفة الأموي الثاني على مرّ العصور . وفي الوقت نفسه ، فإن المعارضة التي رفضت بصورة قاطعة مبدأ الحكم الوراثي ، لم تعطه الفرصة لترسيخ اقدامه في السلطة ، حين سارعت زعامتها الحجازية الى الطعن بشرعيته وعدم الاعتراف بخلافته ، بعد أن أخذت في الانسحاب ، واحداً وراء الآخر إلى مكة ، تعبيراً عن هذا الموقف ، وتفادياً لاستنزاف قوتها قبل الأوان ، في معركة جانبية مع ممثلي «الخليفة» الجديد في «المدينة»، الذين كانت لديهم الأوامر الحازمة ، بأخذ البيعة ـ الاعتراف، طوعاً أو إكراهاً من ابناء الصحابة[2]. فقد اتخذت الحاضرة الأولى للاسلام ، المبادرة الى اتخاذ موقف علني ، على الرغم من المراقبة الشديدة ، ذلك الموقف الذي عبّر عنه اعتكاف ابناء الصحابة في مكة ، التي كانت لها حصانتها الدينية ، فضلاً عن الجغرافية ، مما كان يشجع على اتخاذها منطلق التحرك السياسي المضاد ، منذ التجاء الزبير وطلحة وعائشة اليها ، في اعقاب مقتل عثمان والبيعة لعليّ.

أما الثغرة الثانية ، التي كان متوقعاً أن تهب منها المتاعب على عهد يزيد ، فقد

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٨٥ ، المسعودي ، مروج ج ٣ ص ٦٧ . ابن طباطبا ، الفخري ص ١١٩ . السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ٢٠٩ .

(٢) الطبري ج ٦ ص ١٨٩ .

كانت العراق ، حيث الأسباب أكثر تشجيعاً على السلبية ، والأحداث اتخذت منحىً ، تجاوز الرفض والاحتجاج الى الثورة الشعبية المسلحة . وعلى الرغم من ابتعاد الولايتين ، احداهما عن الأخرى ، فإن ثمة تكاملاً في الموقف السياسي للحجاز والعراق ، انطلاقاً من بضعة قواسم مشتركة ، جعلت من توحيده ضرورة ماسة . فالولاية الأولى ، المنفية والمفرغة من طاقاتها في العهد السابق والمنكفئة على هامش الحياة السياسية ، كانت لديها القدرة مع ذلك على استنهاض جمهور المعارضة ، حيث كان اثنان من زعمائه على الأقل ، في موقع الرفض المطلق للبيعة ، وهم : الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير . والثانية ، كانت من خلال تكوينها السكاني والاقتصادي ، أكثر احتواءً للمعارضة الشعبية ، المهيأة للثورة ، لا سيما حركة التشيع في الكوفة . على أن بين الثغرتين ، ثغرة ثالثة ، ولكن لغير مصلحة المعارضة ، كان معاوية قد أحسن استغلالها ، جعلت من الحجاز قيادة من دون جماهير ، ومن العراق جماهير من غير قيادة ، بحيث كان يكمن في هذه المفارقة ، سرّ الاختلال الذي رافق المحاولات العديدة للقضاءعلى الحكم الأموي في ذلك الوقت .

ثورة الحسين :

ثورة الحسين : كانت الفئات المؤيدة للاتجاه الاسلامي في الكوفة ، قد قطعت مرحلة جدية في العملية التنظيمية والتعبوية ، تلك التي اندرجت في الاربعينات ، تحت اسم التشيع ، الذي استمد قضيته وحتى اسمه ، من مناصرة عليّ وتأييد حقه في السلطة ، كونه جسّد هذا الاتجاه ، تنظيراً وممارسة . وكان أول اجتماع علني ، يُعقد في منزل سليمان بن صُرد ، أحد رواد الحركة الشيعية ، وذلك منذ انتقال الحكم الى البيت الأموي[1]. وكان السبب المباشر لهذا الاجتماع ، مرتبطاً بخروج الحسين الى مكة ، احتجاجاً على إلزام السلطة له بالبيعة للخليفة الجديد ، وفي وقت بدت الظروف مواتية لرفض الحكم الوراثي . بالاضافة الى ذلك ، فإن معطيات جديدة ، شجعت الكوفة على المضيّ في السلبية ، متمثلة بانفلات الوضع السياسي في العراق ، وخروج ابناء الصحابة من «المدينة»، وبروز الحسين في اعقاب الصدام مع والي

---

(١) الدينوري ، الاخبار الطوال ص ٢٢٩ ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٧ .

يزيد[1]، ومعه شروط الدور القيادي ومؤهلاته ، انطلاقاً من مواقفه الحازمة المعروفة ، في مواجهة السلطة الأموية (رأي الحسين في معاهدة الصلح بين الحسن ومعاوية ، ورفض الموافقة على بيعة يزيد بولاية العهد وبالخلافة)[2] .

وهكذا انتهى اركان الحركة الشيعية في الكوفة ، الى قرار بدعوة الحسين للعراق ، من أجل قيادة الثورة التي قطعت شوطاً من النضج ، جاءت في النتيجة محصّلاً للمرحلة السرّية وجهودها المكثفة ، حيث كانت الاطار الوحيد للنضال السياسي في العهد السابق . وما لبث الرسل أن توافدت على مكة ، لابلاغ الحسين بموقف الحركة في الكوفة ، في وقت كان الأخير منكّباً على دراسة القرار الصعب . فالبقاء في مكة لم يكن سوى تدبير مرحليّ ، لأن السلطة الأموية لن تدعه في مأمن من ملاحقاتها ، قبل انتزاع بيعته والاعتراف بخلافة يزيد ، دون أن يعني الخيار الآخر في هذه الحالة سوى الثورة ، أي الخيار الكوفي نفسه .

وإذا كان القرار النهائي قد أصبح امراً لا مجال للبحث فيه ، فإن الحسين على الرغم من ذلك ، لم يتخل عن رصانته التقليدية[3] التي جعلته حريصاً على استكمال دراسته للموقف السياسي العام في العراق ، وليس في الكوفة وحدها ، وذلك قبل الاقدام على تنفيذ مشروعه انطلاقاً من هذه الأخيرة ، وفي ضوء هذه الحقيقة ، قرَّر ارسال اثنين من معاونيه . الأول ، هو مسلم بن عقيل ، الى الكوفة ، والثاني (سليمان) ـ يُعتقد أنه مرافق للحسين أو مولى له[4] ـ الى البصرة[5]. وإذ يضيع الأخير في زحمة التطورات المثيرة ، وينتهي مصلوباً في ساحة قصر الامارة[6]، تلاحق الأحداث موفده الى الكوفة ، التي قفزت مجدداً الى الضوء، لتستقطب أخطر أزمة سياسية تواجه البيت الأموي .

---

(١) الطبري ، ج ٦ ص ١٩٨ .
(٢) المصدر نفسه ، ج ٦ ص ٩٢ ، ١٧٠ . ابن الأعثم ، فتوح ج ٤ ص ١٥٧ .
(٣) الطبري ج ٦ ص ١٨٩ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ٩٣ .
(٥) الدينوري ، الاخبار الطوال ص ٢٣١ .
(٦) المصدر نفسه ص ٢٣٣ .

ولقد أجرى موفد الحسين منذ وصوله ، سلسلة من الاجتماعات واللقاءات في الكوفة ، متخذاً منزل المختار بن أبي عبيد الثقفي (من زعماء الحركة الشيعية)، مركز اتصالاته المكثفة ، التي انتهت الى تكوين صورة ايجابية عن الوضع العام في المدينة ، وإرسال تقرير عن ذلك الى مكة ، غير أن «عيون» السلطة ، لم تكن مغلقة ، على الرغم مما حّل بها من خسائر وتراجعات في العراق ، حيث كانت تتابع عن كثب مهمة ابن عقيل ، على الرغم من السريّة الشديدة التي أُحيطت بها ، وتجنبّ الوالي الأموي حينذاك، النعمان بن بشير الأنصاري ، التصدي لموفد الحسين والقبض عليه ، مما أدى الى رفع الأمر للخليفة ، منبهً الى خطورة الوضع في الكوفة ومتهمةً النعمان بالعجز : «إن هذا الذي أنت عليه رأي المستضعفين»[1]، حسب ما أورده ابن الأثير . وكانت تلك أول تجربة لكفاءة يزيد السياسية ، التي بدت محدودة الى حد كبير ، بعد أن سارع الى عزل واليه «الانصاري»، المعتدل ، وتكليف عبيد الله بن زياد «الثقفي»، الذي ينتمي الى فئة ، ان لم نقل اسرة ، لم تتورع حينذاك عن استخدام كافة الوسائل حتى غير المشروعة في خدمة السلطة ، محافظة على مواقع نفوذها لدى الأخيرة .

وقد يرى البعض أن تعيين والي البصرة الحديدي ، الذي ورث الكثير من صفات ابيه في هذا المجال، كان مبعثه خوف الخليفة الجديد على نظامه ، مما دفعه الى توسل العنف والشدة تحقيقاً لهذا الهدف الذي تتسّوغ دونه كافة الطرق ، مقبولة كانت أم غير مقبولة . ولكن يزيداً على الرغم من قصور نظره في معالجة هذه المشكلة ، وحاجته الى القليل من مرونة ابيه ، فإن المجابهة بدت حينذاك حتمية للسلطة والمعارضة معاً . فقد حان وقتها بالنسبة للأخيرة ، ولكن دون أن تكون مرتهنةً فقط لـ «ضعف» الخليفة الجديد ، بينما كانت ضرورية للأولى ، لاثبات وجودها أوشيء منه ، في اعقاب الفتور الاسلامي الذي استقبلت به ، وإن كان بالامكان تخفيف نتائجها ، وذلك لمصلحة السلطة نفسها ، لو تم اللجوء الى وسائل أقلّ دموية ، إزاء محاولات المعارضة في الكوفة والمدينة ومكة .

وهكذا ، في الوقت الذي تحرّك فيه الحسين نحو العراق ، معتمداً على تقرير مسلم بن عقيل الايجابي ، كانت الكوفة تشهد انقلاباً مضاداً ـ إذا جاز التعبير ـ

(١) ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ٢٢ .

للثورة ، بقيادة عبيد الله بن زياد . وإذا بالمعطيات تتحول لمصلحة السلطة ، بعيد عمليات ارهابية ، تركت بصماتها على حركة التشيع ، التي فقدت تلاحمها الشديد ، بعد اعدام اثنين من قادتها الكبار - مسلم بن عقيل(موفد الحسين)، وهاني بن عروه المرادي (من زعماء الكوفة)[1] - أول ضحيتين في الثورة التي أجهضت في المهد . وكان الحسين حينذاك ، لا يزال متابعاً طريقه ومعه مجموعة صغيرة ، هي عائلته وبعض خلصائه ، دون معرفة بمتغيرات الأمور . ثم جاءت الصدمة التي وضعته على أخبار المحنة ، بعد ان نقل اليه عبد الله بن مطيع[2] - وكان قادماً بالمصادفة من العراق - الصورة القاتمة للوضع المستجد في الكوفة[3]. ولكن الحسين ، كان لا يزال قادراً على الاختيار الصعب ، وربما أكثر اصراراً من مكة ، حين اتخذ قراره الحاسم والنهائي ، بمتابعة الطريق الى العراق ، دون أن تحمله على التراجع أو الوهن ، أخبار «الانقلاب» الأموي في الكوفة . ولعله راهن حينذاك على آخر أوراقه ، وهي محاولة الأقتراب من الكوفة والاتصال بقاعدته ومادة الثورة ، أو لعله كان على ريبة من جرأة السلطة في حرق نفسها حتى الانتحار ، للحؤول دون بلوغه الكوفة ، تلك المعادلة التي وصلت الى قمة الاختلال ، عندما خرق الحكم الأموي في عهد يزيد ، البديهيات من شروطها وقواعدها العامة .

ومن هذا المنطلق ، توالت الأحداث على الجبهة الأموية ، كما هو مرسوم لها ، بعد أن حزم عبيد الله بن زياد أمره ، لاستكمال الفصل الثاني والمثير ، من القضية التي انتهت عملياً دون أن تتم فصولاً ، ولكنها كرمز ، ظلت متوهجةً عبر عشرات القرون . ذلك أن الوالي الأموي ، كان حريصاً على تحدّي الحسين والوقوف في طريقه ، منتدباً إحدى الفرق الصغيرة ، بقيادة الحرّ بن يزيد التميمي[4] لمراقبة تحركاته ، ما لبث أن اعقبها بفرقة أخرى كبيرة ، اختار لقيادتها ابن احد الصحابة التاريخيين ، وهو عمر بن سعد بن أبي وقاصّ، ومعها اوامر مشدّدة بحسم الأمور في

---

(١) الطبري ح ٦ ص ٢١٣ .

(٢) عبد الله بن مطيع العدوي القرشي ، من زعماء مكة وكبار مساعدي ابن الزبير في وقت لاحق .

(٣) الطبري ج ٦ ص ٢٢٤ .

(٤) الدينوري ، الاخبار الطوال ص ٢٤٩ . والاصفهاني ، مقاتل الطالبيين ص ٧٣ .

كربلاء ، حيث عسكر الحسين مع جماعته . وقد حاول ابن سعد ـ حسب المرويات ـ التخلص من المهمة الثقيلة ، ولكن دون نتيجة ، لا سيما وأنه سُمي لوقت قريب والياً على «الري»[1]، مما وضعه ذلك في مأزق الأختيار بين الولاية والمهمة . وبعد نحو اسبوع من المفاوضات ، كان القائد الأموي قد اتخذ قراره بتنفيذ اوامر السلطة في الكوفة ، والحسين بدوره رفض شرط ابن زياد الأخير ، بـ«المثول» لديه في قصر الامارة[2].

وفي العاشر من محرّم من عام إحدى وستين للهجرة ، حدث ما كان متوقعاً دون مفاجآت تذكر ، سوى التحاق الحرّ بن يزيد ، قائد الفرقة الأولى ، بقافلة الحسين[3]، بعد أن تهيب جسامة الموقف الخطير ، تلك القافلة التي اختارت نهايتها البطولية في كربلاء .

وهكذا فإن آخر فصول الثورة الكوفية ، التي أُعدّت ليقودها الحسين ، أبرز شخصيات البيت الهاشمي حينذاك ، تحول الى مأساة دموية ، اضطربت لها ضمائر المسلمين واهتزّت اركان النظام الأموي ومعه الخليفة نفسه ، الذي حاول مسح يديه من المجزرة وإلصاقها بابن زياد[4]. وسواء كان يزيد المسؤول أم واليه المخلص والأداة

---

(١) مقاتل الطالبيين ص ٧٤ ، ان الأثير الكامل ج ٤ ص ٥٢ .

(٢) روى الطبري عن أبي مخنف ، ان عمر بن سعد كتب الى عبيد الله بن زياد : « قد أعطاني (الحسين) أن يرجع الى المكان الذي منه أتى أو نسيّره الى أي ثغر من ثغور المسلمين شئناً ، فيكون رجلاً من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، أو أن يأتي يزيد أمير المؤمنين ، فيضع يده في يده ، فيرى فيما بينه وبينه رأيه وفي هذا لكم رضى وللأمة صلاح . قال فلما قرأ عبيد الله الكتاب قال : هذا كتاب رجل ناصح لأميره مشفق على قومه نعم قبلت . قال فقام اليه شمر بن ذي الجوشن . فقال اتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك الى جنبك ، فوالله لئن رحل من بلدك لم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة والعزّ ، ولتكونن أولى بالضعف والعجز ، فلا تعطه هذه المذلة ، فإنها من الوهن ، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه ، فإن عاقبت فأنت ولي العقوبة وإن غفرت كان ذلك لك » . الطبري ج ٦ ص ٢٣٦ .

(٣) الدينوري ، الاخبار الطوال ص ٢٥٣ .

(٤) نُسب ليزيد القول : قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعبد الله ابن مرجان ، أما والله لو كنت صاحبه لعفوت عنه ،رحم الله ابا عبد الله » الدينوري ، الأخبار الطوال ص ٢٦١ .

المنفذة ، فإن النظام هو الذي حمل عملياً وزر التصرف الارتجالي ، الذي عوجلت به هذه الأزمة الخطيرة . كما أثبت رأسه ـ أي الخليفة ـ فشله الذريع في قيادة مصير المسلمين وشؤون الدولة ، وسقط عند أول امتحان لقدراته المتواضعة في السياسة .

كانت محاولة الحسين ، أول انتفاضة على مستوى الثورة والتغيير ، ضد طغيان الأقلية الحاكمة التي استأثرت بالخلافة وحوّلتها الى ملك وراثي ، متجاهلة الأكثرية المُجبرة على الصمت والمكرهة على تقبل الواقع . فالحسين ، وهو الممثل الطبيعي للاتجاه الاسلامي ـ الاصلاحي ، كان صوت الجماهير المفجوعة بآمالها ومواقعها التي اكتسبتها في دولتي النبي وعمر، وحاولت استردادها في عهد علي ، تلك التي التزمت بأفكاره ، وتابعت نضالها من بعده في أجواء القهر والملاحقة . ومن هذا المنظور فإن تقويم هذه الحركة ، يتجاوز البعد الكوفي الضيق ، أو الشخصي الأضيق ، كونها مجرد تسجيل لموقف خاص من الخليفة ، الى أن تصبح ثورة على النظام القائم وعلى مبدأ الوراثة في السلطة ، وعلى واقع يسوده الظلم وتتآكله العصبيات المختلفة .

لقد شحنت ثورة الحسين الفكر السياسي في الاسلام ، بمادة جديدة من التحدي الصعب والانتصار على الذات والتضحية من أجل المبدأ ، فكانت حدثاً غير عادي في التاريخ العربي الاسلامي ، حيث اجتاحت في اعقابها دولة الأمويين عاصفة ثورية عارمة ، كان من نتائجها القريبة اسقاط الحكم السفياني ، دون أن ينجو منها الحكم المرواني على المدى الأبعد . ويصبح الموقف السياسي العام مباشرة بعد «كربلاء» على النحو التالي : في الحجاز عصيان مسلح في المدينة وإعلان ابن الزبير دولته في مكة . وفي العراق تطورات مذهلة ، انعكست خاصة على الحركة الشيعية التي اشتدّت عليها وطأة الملاحقة ، كما اثقلتها عقدة الذنب والتقصير ، مما أدى الى إفراز حركة التوابين الانتحارية ، وحركة المختار الثقفي ومعها أول سلطة شيعية بعد تنازل الحسن . اما في الشام ، فقد تراكمت فيها كل سلبيات الانهيار السياسي هذا ، الذي تعاظم بعد وفاة يزيد الفجائية ، مما أوقع الأسرة الحاكمة في الفراغ والانقسام .

ثورة الحجاز

كانت حاضرة الأسلام الأولى ، عبر قادتها من ابناء الصحابة وزعماء الأنصار ، أول من أثار قضية الحكم الوراثي ، وذلك بشيء من التحدّي لمؤسس الدولة

الأمـوية[1]. وفي مستهـلّ عهد يـزيد ، كـانت السّباقـة أيضاً الى رفض الأمـر الـواقـع وإعـلان موقفهـا مرة أخـرى ، مع نـزوع الى الثورة المسلحـة . فمنها خـرجت حركـة الحسـين التي انتهت بمـأسـاة دمـويـة في العـراق وأوقعت النـظام الأمـوي في ارتباك شديـد ، ومنها أيضاً انبثقت حـركة ابن الزبير التي اتخـذت من مكة أرضيتهـا الأولى والمركزية ، لتنتشر من هناك إلى حيث كان تمّرد أو قامت انتفاضة على الحكم الأموي . وعلى الرغم من خلو هذه الحركة ، من أي طروحات اصلاحية لافته، الا أن زعيمهـا (ابن الزبير)، استفاد من الفراغ القيادي في المعارضة السياسية ، مستثمراً مـا أمكنه ، النقمة المتعاظمة على الخليفة. و«المدينة» نفسها كان لها أيضـاً موقفهـا الخاص من هـذه التـطورات المثيرة ، حيث كـانت مسرحـاً لانتفاضـة مسلحة ، جـاءت محصلة لمخزون مكبوت من الثورة ضد ممارسات السلطتين المركزية أو المحلية ، منـدرجاً مـا بين تقييـد الحـرية الشّخصيـة لابناء الصحـابة والأنصار، بعض الفئات الأخـرى من المهـاجـرين وقريش ، وبين الضغط الاقتصادي ، الذي بلغ ذروته فيما عُرف بمسألة «الصوافي»[2]، تلك التي اعُتبرت من الاسباب المباشرة لانتفاضة «المدينة». والواقع أن تحرك المعارضـة فـي هذه الأخيرة، قد بدأ بحملة انتقادية صريحة ضد الخليفة ، وصلت حتى التجريح بشخصيته والطعن بسلوكه[3]. واعقبتها موجة من السخط ، استهدفت الوالي الأمـوي عثمـان بن محمد بن أبي سفيـان ، الذي وُصف بـأنه قليـل التجـربـة[4]، ليـأتي مقتـل الحسـين واصحابـه في كـربـلاء ، بمثـابـة الشـرارة التي الهبت المـوقف وفجـرًت مـا في النفوس .

وكانت خلافة الأمويين المثقلة بهمومها الكبيرة ، تتـابع بقلق تـطورات الموقف في الحجاز، ومن ثم تبادر الى محاورة زعماء الحركة ، حيث جرى لقاء فاشل[5]، بين يـزيد

---

(١) ابن الاعثم ، الفتوح ج ٤ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ . ابن الاثير ، الكامل ج ٣ ص ٥٠٦ .

(٢) جمع صافيه ومعناها النخلة الكبيرة ، والمقصود هنا سيطرة الامويين على أراضي المدينة واستملاكها باثمان بخسة . المبرّد ، الكامل في اللغة والأدب ج ٢ ص ١٥٤ . السمهودي ، وفاء الوفا ج ١ ص ١٢٧ . Kister , the battle of the Harra. P 47

(٣) ابن الأثر ، الكامل ج ٤ ص ١٠٤ .

(٤) المصدر نفسه ح ٤ ص ١٠٢

(٥) البلاذري ، انساب ح ، ص ١١٩ ، المسعودي ، مروج ج ٣ ص ٦٨ ـ ٦٩ .

ووفد من «المدينة»، لم يضف سوى التشنج على الوضع السياسي في هذه الأخيرة . وانتهى الأمر الى قرار بالعصيان ، في الاجتماع الذي عقد في المسجد ، وأسفر عن تعيين عبد الله بن حنظلة الانصاري على ادارة المدينة وبيعته رئيساً لثورتها المعلنة(١) . وتجلت المظاهر الأولى للعصيان ، في الهجوم على قصر الامارة ومنزل مروان بن الحكم شيخ الأمويين في الحجاز ، حيث اجتمع هؤلاء لمناقشة تطورات الأزمة المحدقة بهم ومواجهة حملة التعبئة ضدهم . ولم يجدوا - ومعهم الوالي - سوى الرضوخ لقرار النفي الى الشام ، مؤدياً ذلك الى خروج «المدينة» من دائرة النفوذ الأموي ، وإعلان سلطة مؤقتة فيها ، في الوقت الذي وصل فيه المنفيون من بني العاص الأمويين الى دمشق ، وسط اجواء سيطر عليها الحقد والتشنج والرغبة في الانتقام(٢).

ولم يلبث الردّ على هذه المبادرة ، أن جاء بمستوى الحقد الأموي المعروف على المدينة (٣) ، حيث كان ذلك واضحاً في تشكيل القوة المُكّلفة بقمع الثورة ، قيادةً وجنداً ، بعد أن غرقت دولة يزيد في تطرفها إزاء المعارضة ، وبات من الصعوبة البالغة ، الخروج من هذه الدائرة الدموية . فقد عهدت بقيادتها الى عسكريّ محترف ،وذي ميول غريزية نحو العنف ، هو مسلم بن عقبة المرّي ، من قبائل الشام الموالية للبيت الأموي والمقاتلة تحت رايته منذ صفين(٤)، وإلى جانبه قائد آخر ، يمثل الذهنية والتجربة نفسها في الحرب والموالاة ، هو الحصين بن نمير السكوني(٥). ومالبثت الحملة الشامية هذه ، أن أحكمت الحصار حول «المدينة»، التي قاومت بضراوة ، متوسلةً شتى الطرق الدفاعية لصّد الهجوم الأموي(٦)، ولكن دون ان تصمد سوى أيام قليلة أمام ضغط الحصار الشديد والجيش المتفوق والقيادة المحترفة . وسرعان ما استُبيحت للجنود المنتصرين ، دافعةً الثمن غالياً جداً لموقفها السلبي من خلافة دمشق ، ومفجوعة مرةً أخرى بأحلامها السلطوية ، التي انهارت مع سقوط الثورة المريع في موقعة «الحرّة»

(١) الطبري ج ٧ ص ٤ .
(٢) الامامة والسياسة ج ٢ ص ٨ . ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ١١١ .
(٣) الدينوري ، الاخبار الطوال ص ٢٧١ .
(٤) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٢٥١ .
(٥) ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ١١٣ .
(٦) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٢٥٠ .

الشهيرة[1].

ولم يتح للقائد الشامي المنتصر، استكمال مهمته الحجازية بعد القضاء على ثورة «المدينة»، حيث ان فضلاً آخر منها كان بانتظاره في مكة، وإعادتها بالقوة على غرار سابقتها الى السلطة المركزية. فقد كان عبد الله بن الزبير يتخذ من الكعبة ملجأً للاعتصام بثورته من الملاحقة الأموية، دون أن تثنيه عن قراره، المأساة الجديدة التي حلّت بالمدينة. بيد أن حسن الحظ الذي رافقه منذ التجائه الى مكة، لم يتخل عنه هذه المرة ايضاً . . . فمن مقتل الحسين، المنافس الرئيسي، الى وفاة مسلم بن عقبة في منتصف الطريق تحت وطأة المرض والسنّ[2]، الى وفاة يزيد المفاجئة في وقت لاحق . . الى آخر هذه المصادفات التي كان ابن الزبير المستفيد الأول منها، ولكن دون أن تكون لديه الكفاءة، أو لعلها سرعة الحركة، لتوظيف هذه الفرص في الوقت أو المكان المناسب.

أما الحملة الأموية التي كانت تأخذ طريقها الى مكة، فقد أصبح قائدها الحصين ابن نمير، الذي نفّذ بدقة مهمة سلفه، وفرض الحصار على ابن الزبير في مكة، حيث كانت المقاومة عنيفة، تعزّزها مشاركة بعض الحلفاء من خصوم الحكم الأموي، كالخوارج[3] وبعض الهاربين من «المدينة»، فضلاً عن الزعيم الشيعي مختار الثقفي، الذي أخذ اسمه في البروز منذ أحداث الكوفة الأخيرة[4]. وقد صمد المدافعون عن مكة، على الرغم من القرار الجريء، باستخدام الحصين مجانيقه في ضرب الكعبة[5]، متجاوزاً الضجة المترتبة لدى الرأي العام في ظل مناخ لا زالت العقيدة

---

(١) وقعت هذه المعركة في سنة ٦٣هـ / ٦٨٣ م . راجع مأساة المدينة في اعقاب هذه المعركة، في معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٢٤٩ . وقيد الشريد عن أخبار يزيد لابن طولون، مخطوطة ورقة ٧ .

(٢) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٠ . ابن الأثير، الكامل ج ٤ ص ١٢٣ .

(٣) جماعة نجدة بن عامر الحنفي . ابن الأثير، الكامل ج ٤ ص ١٢٣

(٤) الدينوري، الأخبار الطوال ص ٢٣١ . ابن كثير، البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٩

(٥) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١١ . ابن الأثير، الكامل ج ٤ ص ١٢٤ .

الدينية ، على رغم التراجع ، تأخذ دورها المؤثر والطليعي . غير أن المفاجأة التي نقلتها الأخبار من دمشق ، أبطلت مفعول «القذائف» المكثفة ، وحالت دون سقوط المدينة المقدسة . فالحصين ، وهو أحد كبار القادة الشاميين ، لم يشأ أن تفوته فرصة المشاركة في تلك الظروف الدقيقة التي تمر بها الدولة الأموية . ومع غموض الموقف في دمشق ، حيث كان القائد الشامي يعرف الكثير من اسراره ، وجد أن ثمة ورقة جديدة ، ربما كان طرحها مناسباً في حلبة الصراع على الحكم في العاصمة الأموية . وفي ضوء هذه المعطيات ، يتوجه الى زعيم الحجاز وقائد حركته الجديدة ابن الزبير ، عارضاً عليه ـ حسب المرويات ـ تأييده للخلافة في الاجتماع الذي ضمهما في «الأبطح»(١)، ولكن شرط الانتقال معه الى دمشق ، محور القوى السياسية والقبلية الفاعلة . غير أن الأخير تردد في الاستجابة لهذه الدعوة المغرية ، ربما لأنه لم يكن على ثقة تامة بموقف الحصين ، المرتبط وقبيلته بعلاقة قوية بالبيت الأموي ، أو مطمئناً للوضع السياسي في منطقة عُرفت بالولاء التاريخي لهذا البيت . لذلك يستنكف عن مغادرة معقله في مكة ، حيث المغامرة خارج مألوف سلوكه ، كما اثبت ذلك خلال السنوات اللاحقة التي عاشتها حركته ، مرتكباً غلطة العمر برأي الكثيرين ، ومنهم الحصين نفسه الذي اتهمه بقصر النظر(٢).

لقد كان ابن الزبير ، المستفيد الأول من موت يزيد وارتباك الأسرة الأموية في معالجة النتائج السلبية التي انعكست عليها بصورة مباشرة . فبينما خرج الزعيم الحجازي سالماً وحركته من هزيمة عسكرية محققة ، وامتد نفوذه الى ما وراء شبه الجزيرة ، كانت خلافة الأمويين تنكفىء على عزلتها ويتقلص نفوذها السياسي ، فلا يتعدى المنطقة الشامية . ذلك أن معاوية الثاني ، الذي انتقلت اليه الخلافة ، كانت له فرادته بين أقرانه ، التي جعلته يجنح خارج السرب ، دون ان يترك وراءه سوى الغموض والكثير من التساؤل ، حين تمحورت الأخبار أو كادت حول شخصيته التي وُصفت بالضعف وعمره الذي كان حدثا ، فضلاً عن موقف له خاص بشأن الحكم

(١) الطبري ج ٧ ص ١٦ ـ ١٧ .

(٢) « قبّح الله من يعدّك بعد داهياً وأريباً . فقد كنت أظن ان لك رأياً ، وأنا أكلمك سرّاً وتكلمني جهراً ، وأدعوك الى الخلافة وأنت لا تريد الا القتل والتهلكة » ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ١٢٩ ـ ١٣٠ . راجع ايضاً : LAMMENS, Etudes sur le siecle des Omayyades . P. 193

الوراثي ودعوته الى الشوروية الراشدية ، وربما الى ابعد منها أي بارجاعها الى آل عليّ الذين كان لهم هذا الحق ، قبل ان يقوم معاوية الاول بانتزاعه منهم[1] ، حسب المرويات التاريخية ومن المعتقد ان خلافة معاوية بن يزيد ، لم تحظ بالاجماع الأموي ، حيث الاسرة الحاكمة كانت تضم بعض المنافسين الأقوياء ، الطامحين الى هذا المنصب ، لا سيما جناح بني العاص الذين كانوا لا يزالون في الشام بعيد طردهم من « المدينة » . وفي المقابل ، كان جناح بني حرب (السفيانيون) قد أخذ يتقلص بعد وفاة يزيد وإخفاق معاوية ابنه ، ولكن ثمة قوة سياسية فاعلة ، كانت لا تزال قادرة على ترجيح الصراع لمصلحة فريق دون آخر ، أعني بها القبائل اليمنية في الشام ، التي تزعمها بنو كلب ـ أخوال يزيد ـ بقيادة حسان بن مالك ، أحد ابرز الشخصيات الشامية في ذلك الوقت .

ولعله غير مستبعد الأفتراض ، أن الاتجاه المعارض في البيت الأموي للخليفة الحدث[2] ، والذي أخذ يقوى منذ نفي بني العاص الى الشام ، ذلك الاتجاه الذي كان فاتر الحماسة لخلافة يزيد ، كما أشرنا سابقاً ، كان وراء الاختفاء الغامض لمعاوية الثاني ، بعد فترة وجيزة من الحكم[3] ، دون أن تنفي ذلك بعض الأخبار ، التي لم تستبعد موته على يد الزمرة نفسها المناهضة له[4] . فغاب هذا الخليفة في غياهب النسيان ومعه غموضه ، مخّلفاً وراءه أزمة خطيرة ،كان البيت السفياني المؤسس ، المتضرر الرئيسي منها ، كما غاب الاخير بدوره عن الواجهة ، فاسحاً المجال الى بيت آخر في الاسرة الأموية ، وذلك في اطار النظام الوراثي نفسه ، دون أن يطرأ تعديل ما على نهج الدولة العام أو على سياساتها القبلية والاقتصادية والاجتماعية .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ١٣٠ . ابن طباطبا ، الفخري ص ١١٨ .

(٢) H. LAMMENS, Etudes sur le siecle des Omayyades. P191

(٣) كان عمره عشرة سنة ، حسب ابن الكلبي ، جمهرة النسب ج ١ ص ١٨٤ .

(٤) قيل اربعون يوماً . الطبري ج ٧ ص ١٦ . ابن الكلبي ، جمهرة النسب ج ١ ص ١٨٤ ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ١٣٠ . وقيل ثلاثة أشهر ، ابن طباطبا ، الفخري ص ١١٨ .

(٥) شكك ابن الأثير بموته ، حيث قال انه ربما مات مسموماً ، الكامل ج ٤ ص ١٣٠ . راجع ايضاً : الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٢ ، ابن طباطبا ، الفخري ص ١١٨ .

التوّابون وعقدة الشعور بالذنب

كـان العراق ، وهـو المعني الرئيسي بمـأساة كـربلاء ، الأقليم الأكـثر تشنّجاً من احداثها ، كاسبـاب ونتائـج وتفاعـلات ، فـالكـوفـة ، التي احتلّت مـركـز الثقـل في استقطاب المعارضة السياسية ، كانت الحـركة الشيعيـة فيها تجتـاز أزمة تقصـير وشعور فادح بالاثم ، بعد اجهاض ثورتها بانقلاب مضاد من جانب السلطة الأموية ، وانتهـاء الحسـين مع جماعته الى مجـزرة دمويـة ، دون أن يتاح لهم دخـول المدينـة . ثم كـانت الحملة القمعيـة العنيفة ، التي قـادها عبيـد الله بن زيـاد واستهـدفت زعـماء الحـركـة وقادتها ، بحيث كـان شبح كـربلاء حـاضراً في كـل التطورات السـريعة التي شهـدتها الكـوفة في ذلـك الحين . ومن هـذا المنظور ، فأن الموقف فـرض نوعـاً من المحـاسبـة العفوية للذات ، وتـطلّب بالحـــاح القيام بـأية مبـادرة ، تخفف اثقال الخـطأ وخيانـة الالتزام .

غير أن الأجواء السياسية في الكوفة ـ في وقت كـان التشنج ايضـاً ، هو المحـرك لقرارات السلطة الأموية ، بعيد اهتزازها تحت وطأة النتائج التي اسفرت عنها كربلاء ـ لم تكن مشجعـة عـلى السـير في اتجـاه صـدامي جـديـد مـع السلطة . فعـلى المستـوى الشعبي ، حالت اجراءات الملاحقة الدائمة ، دون تحقيق التعبئـة المطلوبـة ، ودون أن تشجع قـيادات الحركة الشيعية من جانبها هذا الاتجـاه ، حيث التحرك لا زال بـرأيها ، في غير أوانه وأقرب الى المغامرة منه الى الثورة . وعلى مستوى السلطة ، فقـد حاولت أجهزتها في الكوفة ، الامساك بزمام الأمر ، دون أن تتورع عن استخدام أكثر الوسـائل عنفاً لفرض الهيبـة ومنع الانفجـار ، بعد أن تـورطت حتى الذروة في مجـابهة الـرمـوز والمقدسات ، تصفيةً (كربلاء) واستباحةً (المدينة) وخرقاً (الكعبة) .

وهكذا فإن ثمة عوائق كانت تحول دون الانتفاضة الشيعيـة السريعـة ، ردّاً على سقوط الحسين واصحابه ، دون أن تكـون السلطة الأمويـة مصدرهـا فقط ، حيث إن بعضهـا انطلق من اسبـاب ذاتيـة تعـود الى اضـطراب الجبهـة الشيعيـة التي تنـازعتهـا حينذاك ، اتجاهات ثلاثـة : ١ ـ فريق نخبـوي متحمس ، كانت معـظم عناصـره من المخضـرمين والمتقـدمين في السّن ، الـذين كـان هـاجسهم «غسـل الآثـام»[١] في تلك

(١) الطبري ج ٧ ص ٤٧ .

المرحلة المتأخرة من حياتهم المديدة ، حيث عرفوا نتيجة لذلك بـ«التوابين» الذين نحن في صدد الحديث عنهم .

٢ ـ فريق نخبوي أيضاً ، يمثل الجيل الثاني من التشيع ، كان أكثر واقعية في خطه السياسي المبرمج وتحركه المدروس لاستلام السلطة ، متعدية القضية لديه الانتقام ، محور تحرك التوّابين .

٣ ـ فريق انتهازي متذبذب ، وهو الأقرب الى السلطة الأموية ، إن لم يكن متعاوناً معها بصورة فعلية . وكان يتخذ مواقفه في ضوء الاعتبارات المصلحية ، مع المحافظة على علاقة ما ، مع الفريقين السابقين ، سرعان ما خبت تماماً في اعقاب الفرز الذي تعرضت له الحركة الشيعية في العهد المرواني . تلك هي ابرز الاتجاهات بعيد القضاء على ثورة الكوفة ، دون أن ننسى القوى السياسية الاخرى ، المتحالفة عضوياً مع السلطة ، والمنسقة معها في مواجهة خطط المعارضة وعرقلة مشاريعها ، وذلك من منطلق الحرص على امتيازاتها التقليدية ، غير المتناقضة في كل الاحوال مع « الارستقراطية » الحاكمة والاتجاه القبلي الداعم لهذه الاخيرة .

لقد بدأت الفكرة مع الهاجس الانتقامي لدى التوّابين(١)، من انفسهم ومن المسؤولين عن مقتل الحسين في آن . وقد عاشت اولاً بصورة سرّية(٢) في ضمير خمسة من الزعماء المسنين ، الذين رافقوا نضال الحركة الشيعية منذ بدايات تكوينها ، وهم: سليمان بن صُرد الخزاعي والمسيب بن نجبة الفزاري وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي ، وعبد الله بن وال التميمي ورفاعة بن شدّاد البجلي(٣). وقد اجتمع هؤلاء في منزل كبيرهم سليمان ، الذي وُصف بأنه «صحابي جليل»(٤)، مما كان له دلالة على بلوغه من العمر حدّاً متقدماً ، ساعده على الأرجح على تصدّر هذا الاجتماع ، ومن

---

(١) يقول البلاذري :« كان ابتداء امر التوّابين في آخر سنة احدى وستين ،انساب ج ٥ ص٢٠٦ .

(٢) كانوا « يتداعون ويستعدون ويرتؤون . . حتى مهلك يزيد بن معاوية في شهر ربيع الاول سنة اربع وستين». المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ . الطبري ج ٧ ص ٤٧ . ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٧ .

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٧ .

(٥) استمد التوابون شعارهم من الآية الكريمة : ﴿ فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم﴾ سورة البقرة الآية ٢ . راجع : اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٢٥٧ البلاذري، انساب ج ٥ ص ٢٠٥ .

ثمّ على تزّعمه للحركة التي انبثقت عنه . وكان موضوع التوبة(٥) والغفران ، هو الذي استأثر بلقاء الخمسة الشديد السرّية ، اتقاءً لشرطة الوالي الأموي المنبّثة في أحياء ومسارب الكوفة . فقرّروا أنهم مساهمون في مأساة الحسين ، وذلك بتقصيرهم عن نصرته وخذلانهم له ، وبالتالي فإن ثمة عملاً لا بّد من القيام به ، لتصحيح الأخطاء ومسح الذنوب ، وهو ما عبرّ عنه زعيم الحركة بقوله: «إنه لا يغسل عنهم ذلك الجرم ، الا بقتل من قتله أو القتل فيه»(١) .

وهكذا دأب التوابون (الاسم الغالب عليهم والمقتبس من التوبة)، على اجتماعاتهم السرّية والدعوة الحذرة في اوساط الشيعة طوال عهد يزيد ، ثم خرجت حركتهم الى العلنية في اعقاب التطورات المثيرة التي مرّت بها الدولة الأموية(٢)، من فراغ الحكم في دمشق ، وانتشار الثورة الزبيرية الى العراق ، بعد تمرد البصرة على واليها ابن زياد ولحاق الكوفة بها وطردها نائبه الأموي . وإذ أعلنت الأولى ولاءها لابن الزبير ، تحفظت الثانية في تحديد موقفها النهائي ، دون أن تحظى حركته بالعطف الذي لاقته في البصرة ، انطلاقاً من تناقضات ما في الخطّ السياسي واختلافات في المنهجية الثورية بينها وبين الحركة الشيعية . غير أن النفوذ الزبيري كان أقوى من أن يقاوم ، وما لبث الوالي الذي اختارته الكوفة ، أن اعترف بالأمر الواقع وأعلن الولاء لخليفة الحجاز ، ليصبح المناخ السياسي اكثر ملاءمة أمام حركة التوابين في ذلك الوقت . فانصرفوا الى تعبئة الانصار في الكوفة وخارجها والى جمع السلاح(٣)، ومن ثمّ الى تحديد موعد التحرك(٤)، حيث كانت « النخيلة »(٥) المعسكر التقليدي في الصراع بين العراق والشام ـ المكان الذي وقع الاختيار عليه لاستقطاب المتطوعين في هذه الحركة .

غير ان اختلاف الظروف السياسية ، لم يفد التوّابين الاّ بمقدار ضئيل بعد تعثّر الاستجابة الواسعة لدعوتهم التعبوية ، كما كان يطمحون اليها ، في تركيزهم

(١) المسعودي ، مروج ج ٣ ص ٩٣ .
(٢) البلاذري ، انساب ج ٥ ص ٢٠٧ .
(٣) «انتشروا يشترون السلاح ويتجهزون ظاهرين ولا يخافون أحداً » البلاذري ، انساب ج ٥ ص ٢٠٨ « خرجوا ينشرون السلاح ظاهرين ويتجهزون ويجاهرون بجهازهم وما يصلحهم » . الطبري ج ٧ ص ٥٥ .
(٤) ١٥ ربع الآخر سنة ٦٥هـ . الطبري ج ٧ ص ٥٠ .
(٥) معجم البلدان ج ٥ ص ٢٧٨ .

على نقطة حساسة لدى الشيعة ، والواقع أن هذه الحركة ، لم تنطو على طرح سياسي او اجتماعي مقنع ، مقتصراً برنامجها على الانتقام ، سواء بالسعي وراء الشهادة من أجل الحسين ، أو بالثأر من قاتليه . فالمثالية التي كانت طابع الحركة ، أبعدتها بصورة خاصة عن قيادات الجيل الثاني من الشيعة . التي لم تستهوها شعارات التوّابين المحصورة في نطاق التضحية والغفران ، مؤثرة السير في اتجاه أكثر جذرية ، حيث وجدت ضالتها او بعضاً منها ، في شخصية ذكية برزت على مسرح الأحداث ، وحاولت قطف ثمرات التعبئة النفسية والموقف المشحون ضد الامويين ، ومن ثم استغلال الفراغ القيادي في الكوفة ، اعني بذلك المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي ارتبط منذ فجر حياته بالحركة الشيعية وتحمس لها(١) . ولم تكن قناعات المختار ـ الهادف الى تحقيق دور خاص له تحت مظلة التشيع ـ متجانسة مع أفكار التوّابين ، الاّ في الثأر للحسين . وما عدا ذلك . فقد شنَّ عليهم حملة دعائية واسعة ، واصفاً حركتهم بالسذاجة ، ومتهماً زعيمهم بقصر النظر وعدم الكفاءة لقيادة الثورة الشيعية(٢) . وإذا كان المختار قد أخفق في أن يكون البديل القيادي لسليمان ، فإنه نجح الى حد ما في حملة التشكيك ، التي ساهمت بدورها في تحجيم الحركة وتقليص الاستجابة الشعبية حولها . وما لبث أن تحوّل من ناقد مرتاب ، الى مؤيد مشجع ، لاعتقاده ان غياب التوّابين عن المسرح السياسي سيمنحه الفرصة الأفضل لتحقيق طموحه في الكوفة .

أما الموقف الزبيري من الحركة التوابية ، فكان أقرب الى التأييد غير المباشر ، حيث جمعت الطرفين خصومة الأمويين واستنزاف قوى العدو المشترك ، وكل ما يصب في خدمة المصالح الزبيرية . بيد أن عبد الله بن مطيع ، والي الكوفة حينذاك ، كان مخلصاً في تنبيه التوابين الى خطر المغامرة ودعوتهم الى البقاء(٣)،لصدّ الهجوم الأموي الذي يقوده ابن زياد تنفيذاً لإوامر الخليفة الجديد ، في اعقاب السيطرة على الموقف في دمشق لمصلحة بني العاص وشيخهم مروان بن الحكم .

وفي الموعد الذي حدده التوابون لخروجهم الى معسكر «النخيلة»، كان عددهم

---

(١) ابراهيم بيضون ، التوابون ص ١٠٦ ـ ١٧٠ ـ ١٧١ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ١٦٣ .
(٣) ابن الاعثم ، الفتوح . مخطوطة ورقة ٢٦٠ .

دون الأربعة آلاف مقاتل[1]، وهو الرقم النهائي الذي استقر أو كـاد ، على الـرغم من الشعارات الحماسية[2] والاستعراضات المسلحة[3] في اسـواق الكوفـة وأحيائهـا لجذب الانصار والمؤيدين . وكانت المحطة الأولى في مسيرتهم الانتقامية في كربـلاء[4]، حيث كان تجمعهم حول قبر الحسين عبر تلك الصورة المأساوية المفجعة ، جـزءاً من التحرك الذي حان تنفيذه . فهو بمثابة عهد تكرّسوا له بمـلء ارادتهم وعزمهم، ومـوقف رهيب تعـايشوا فيـه مع أجـواء التضحيـة والشهـادة . وبعـد ليلة من البكـاء ـ كـان الغضب والانفعـال ، قد أخـذ منهم حتى العمق ـ قرّروا السـير نحو دمشق ، لانهم وجـدوا أنه الـطريق الاجدى لتحقيق الانتقـام[5]، حيث كبار المتهمـين ومعهم النـظام ، المسؤول الـرئيسي ، بينما سقط الاتجـاه الـداعي الى تعقب الأفـراد المشـاركـين في الجريمة ، لأن هؤلاء ، في رأيهم ، كانوا فقط الاداة التي نفذت اوامر السلطة المركزية .

وفي قـرقيسيا[6]، مقـر الزعيم القيسي زفر بن الحـارث الكـلابي ، كـانت محـطة التوابين التالية ، حيث كـان للاخـير موقف ايجـابي منهم . غير أنهم اكتفـوا بالتـزوّد بما يحتـاجون اليـه من المدينـة ، رافضين نصيحتـه بالعـدول عن قرارهم الانتحـاري ، أو الاعتصام معه لمجابهة القائد الأمـوي ، الذي يستهـدف الزعيم القيسي أيضـاً[7]. ثم مضوا الى مصيرهم ، فـالتقوا بـالقوات الأمـوية في «عـين الوردة»[8]، وخـاضوا معهـا

(١) البلاذري ، انساب ج ٥ ص ٢٠٨ .

(٢) « من أراد التوبة فليلتحق بسليمان . . من أراد الجنة فليلتحق بسليمان في النخيلة . . من أراد البكور الى ربه والتوبة من ذنبه والوفاء بعهده ، » . الفتوح لابن الاعثم مخطوطة ورقة ٢٦٠ . الطبري ج ٧ ص ٧٦ .

(٣) البلاذري ، انساب ج ٥ ص ٢٠٨ .

(٤) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٠٩ .

(٥) دار نقاش حول وجهة التوّابين ، فمنهم (عبد الله بن سعد الازدي) من رأى طلب دم الحسين في الكوفة حيث قتلته هناك . ومنهم (عبد الله بن يزيد الحطمي) رأى انتظار وصول ابن زياد . ولكن رأي سليمان رجح الموقف بالسير الى مواجهة هذا الاخير . البلاذري انساب ج٥ ص٢٠٩ .

(٦) البصيرة حالياً في سوريا ، وهي تقع على مصب نهر الخابور (من فروع الفرات) وكان قد استقر فيها زفر بن الحارث إثر هزيمته في موقعه مرج راهط التي سنتحدث عنها لاحقاً . يافوت ، معجم ، البلدان ج ٤ ص ٣٢٨ .

(٧) الطبري ج ٧ ص ٧٢ ـ ٧٤ .

(٨) الى الشمال الغربي من صفين وهي رأس عين في الجزيرة ، ياقوت ، معجم البلدان ج ٤ ص ٦٨٢ .

معركة بطولية ، اسفرت عن تدمير قوتهم ومقتل زعمائهم ، باستثناء خامسهم ، رفاعة بن شداد ، الذي تراجع بالبقية القليلة منهم الى الكوفة[1].

ومن البديهي أن حركة التوابين ، كانت حاملة معها بذرة الفشل ، لعجزها عن إقامة توازن عسكري ضد اعدائها الأمويين ، الذين كانوا لا يزالون ممسكين بزمام التفوق . ولكنها كحركة «تكفيرية» في الصميم لا تخلو من خلفيات سياسية غير مباشرة ، نجحت في تحقيق الحدّ الممكن لطرحها ، وهو الانتقام الذاتي . اما دورها في اطار حركة النضال الشيعي ، فلم يخلُ أيضاً من تأثيرات ايجابية ، بعد أن تركت وراءها مناخاً مثالياً للتحرك ، وتعبئة جماهيرية عريضة، سيسهل استثمارها لأية حركة مستجدة . فقد سجلت من هذا المنظور ، تحوّلاً خطيراً في مسار المعارضة الشيعية ، في وقت اصبحت الكوفة مركز الاستقطاب الدائم ومحور النضال السياسي والمسلح ، المناهض للأمويين ، نحو ما يزيد على النصف قرن من الزمن .

المختار الثقفي و«الانقلاب» الشيعي في الكوفة

لقد نجح المختار في استثمار المناخ الثوري في الكوفة ، الذي تبلور مع قيام الحركة التوّابية . فما كادت فلول الأخيرة تعود من عين الوردة ، حتى تلقاها المختار واعداً ومشجعاً ، وبالتالي مقرناً القول بالفعل ، حين قام بانقلابه السريع في الكوفة وسيطر على قصر الامارة فيها ، معلناً السلطة الشيعية باسم البيت العلوي . والمختار منذ اليفاعة متحمس لهذا الاتجاه ، حيث نشأ في كنف عمه (سعد بن مسعود)، الذي كان عاملاً لعليّ على المدائن[2]، ومتعاطفاً مع خطه السياسي الى حدٍّ كبير . ومن هذه الأخيرة تنطلق مسيرة الثقفي الشاب والطموح في الحياة السياسية ، وابرز ملامحها خاصتان متلازمتان وهما : الاتجاه الشيعي والنزعة الى السلطة ،وإن كانت الأولى في الغالب مرتهنة للثانية. ولعل المؤشر اللافت لهذه الحقيقة ، كان في المدائن ايضاً ، مع بواكير نشاطه السياسي ، حين فكّر بصفقة كبيرة ، وهي القبض على الحسن وتسليمه الى معاوية ، ذلك الخاطر الذي أثار غضب عمه وتعنيفه حسب الرواية

---

(١) الطبري ج ٧ ص ٧٥ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ٤٠٤ .

التاريخية[1] . ومن هنا الى مؤشر آخر ، نجد استهواء السلطة يفوق أي هوى في شخصية المختار ، دون أن يتردد من هذا المنطلق ، في الالتحاق بحركة ابن الزبير في مكة ، في وقت لم يكن ثمة قاسم مشترك أو حد أدنى منه بين الرجلين .

ولكن يبدو أن شهوة السلطة لم تلغ الانتماء الشيعي للمختار ، حيث اعتبر دائماً أحد زعماء هذا الاتجاه البارزين في الكوفة . وهو منذ تحرك الحسين ، واسمه يتردد في سجلات الحركة الثورية التي اتخذت مسرحها هذه المدينة ، مخترقاً بذلك مألوف الموقع التقفي الموالي للدولة الأموية . فكان أول من التقاه مسلم بن عقيل من رجالات الكوفة ـ للاطلاع على الموقف السياسي فيها[2]، فضلاً عن دوره الهام في التعبئة الشعبية عشية خروج الحسين ، الى حد الصدام المسلح مع ابن زياد[3]، مما دفع الأخير الى وضعه في السجن مع بقية الزعماء ورؤساء القبائل[4]، بعد احكام سيطرته على المدينة . وبعد الافراج عنه ، عاش وقتاً في الطائف ـ مركز ثقيف ـ حيث كان اطلاقه على ما يبدو مشروطاً بالابتعاد عن العراق[5]. وفي الحجاز خاض تجربة فاشلة عندما تحالف مع ابن الزبير ، حملته على الاقتناع بأن الكوفة ، هي الأرضية المناسبة لبناء آماله السلطوية . فعاد اليها بعد موت يزيد ، ومعه شعار الثأر للحسين ، محاولاً من خلاله استقطاب جماهير الحركة الشيعية ، التي افتقدت الشخصية القيادية المحركة ، بافتقاد الحسين . ولكن المختار يجد من سبقه في الكوفة الى طرح هذا الشعار ، وهم التوابون الذين نجحوا ، عبر تنظيمهم السرّي ، في جذب جزء من النخبة الشيعية وتعبئتها ضد السلطة الأموية وممثليها في العراق . وقد حال ذلك دون ايجاد أي دور له أو قيام تنسيق ما ، على الرغم من وحدة الشعار بين الطرفين ، حين كانت الحركة التوابية مبالغة في مثاليتها السياسية ، بينما المختار تجاوز بطموحه ، الهدف التكفيري الى استلام الحكم .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ٤٠٤ .
(٢) الدينوري ، الاخبار الطوال ص ٢٣١ .
(٣) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٢٥٨ .
(٤) الطبري ج ٦ ص ٢١٥ .
(٥) أطلق سراحة بناء على وساطة صهره عبد الله بن عمر . اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٢٥٨

والواقع أن الظروف كان مهيأة أمام الثقفي لاتخاذ دوره المنشود، في وقت فقد الحكم المركزي بريقه مع محنة الخلافة الأموية . . من الفراغ ، الى التشرذم ، الى التحدي الكبير في حركة الحجاز . أما السلطة المحلية في الكوفة ، فكان ارتباطها واهياً بهذه الاخيرة ، واقتصر على الموقف الرسمي ، لتسويغ الخروج من الاطار الأموي . وفي نفس الوقت لم يأبه المختار لفشله في استقطاب التوّابين، لأن القوة الحقيقية للشيعة ، كانت لا تزال خارج النطاق الاستقطابي ، الظاهري على الأقل ، وتبحث بدورها عن وسائل مجدية للتحرك . هذه القوة نفسها ، هي التي راهن على قيادتها المختار ، منذ أن تطلع الى الكوفة كأرضية مثالية لتحقيق طموحه السياسي . ولقد حاور حينذاك أحد أبرز قياداتها ، وهو ابراهيم بنالأشتر[1]، الذي كان أشدّ خصوم الأمويين تطرفاً ، ولكن مع رؤ ية واقعية خاصة ، تناقضت مع الفكر التوابي الانفعالي .

غير أن الزعيم الكوفي لم يكن شديد الحماسة للمختار ، حيث ارتاب منذ البدء في اخلاصه للبيت العلوي[2] ، الذي كان ابراهيم ملتزماً توجيهاته ، واجداً فيه ربما مجرد انتهازي يتسلق الموجة وراء مصالحه الشخصية . ولعله كان على جانب من الموضوعية ، في استنكافه عن الاستجابة لحركتي النوابين والمختار ، بعد أن وجد في الأولى تحرّكاً في غير أوانه ، بينما وجد في الثانية نوعاً من الاستثمار الشخصي لتراث الحركة الشيعية النضالي ، دون أن تكون كلتاهما اكثر من استنزاف لطاقات الأخيرة ، لن يخدم في النهاية سوى مصالح الأمويين فضلاً عن ابن الزبير .

وفي الوقت الذي خرج فيه التوّابون الى قدرهم في «عين الوردة»، كان المختار الثقفي مرة أخرى وراء قضبان السجن[3]. فقد كان الحليف السابق ابن الزبير ، اكثر الناس ارتياباً بهذا الرجل ، بعد أن خبره عن كثب ، فضلاً عن تحذير جماعته الكوفيين له ، من نشاطه المكثف ودعوته الدائبة الى تكتيل الشيعة تحت زعامته[4]. ولكن الفرصة تعيد نفسها ، ويغادر المختار سجنه بعد تدخل صهره لدى ابن الزبير ،

---

(١) ابراهيم بن مالك بن الحارث المعروف بالأشتر زعيم نخع البلاذري. انساب ج ٥ ص ٢٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٢٣ .

(٣) الطبري ج ٧ ص ٨١ .

(٤) المصدر نفسه ج ٧ ص ٦٥ .

بـالشروط السـابقة نفسهـا ، وهي الابتعاد عن الكـوفـة[1] . غـير أن القـرار بقي دون تنفيـذ ، حيث لم يشأ المختـار إضاعـة فرصتـه الأخيـرة ، بعـد القضـاء عـلى التـوابـين وانعكاس ذلك تشنجاً على اجواء الكوفـة . ولم يعدم تسويغاً لاخـلاله بـالعهد الـذي التزم بتنفيذه : «ما احمقهـم حين يرون اني أفي لهم بأيمـانهم هذه ، امّـا حلفي لهم بالله فإنه ينبغي لي إذا حلفت على يمين فرأيت ما هو خير منها ، أن أدع ما حلفت عليه وآتي الذي هو خير واكفّر يميني ، وخروجي عليهم خير من كفيّ عنهم»[2] .

وقبـل أن يتحوّل المختـار الى هدف لملاحقة الشـرطة الـزبيـريـة بـادر فـوراً الى التحـرك ، حيث الوقت لم يعـد حليفه الـدائم . وكـانت خـطة عـلى جـانب كبـير من الذكاء ، أن يفاجيء الناس حينذاك ، باعلان برنامجه السياسي ، بالنيابة عن محمد بن علي (ابن الحنفية)، الذي أصبح بعد موت أخويه الحسن والحسين ، الزعيم الأقوى في البيت العلوي ، حيث زعم المختار بأنه يحمل وثيقة بالدعوة لـه في الكوفـة[3]، على أنه رغم المداهمة الناجحة والتأثير السريع الذي لقيته في اوساط الحركة الشيعية ، فقـد ظهر من ارتاب في هذا الزعم ومدى صحة العلاقـة بين المختـار والزعيم العلوي[4] وكان في طليعة المرتابين ابن الاشتر الذي انتدب وفداً للاتصال بإبن الحنيفة،حيث كان يعيش تحت المراقبة في الحجاز، شأن بعض الزعماء الذين لم يطمئن لهم ابن الزبير[5]. ولكن ابن الحنفية الذي عاش المعاناة في ظلّ عهدين ،كان ثانيهما(الزبيري) أشد ضغطاً عليـه[6]، لم يجـد مـا يمنعـه من تـأييـد المختـار أو التعـاطف معــه ، ولكن بشيء من الحذر[7]. ولعله في موقفه غير الحازم كان يخشى في الوقت نفسه توتير العـلاقة مـع ابن الزبير ، وما يترتب على ذلك من نتائج سلبية ، لا بدّ أنها منعكسـة عليه وعـلى الحركـة

(١) الطبري ج ٧ ص ٩٤ .
(٢) المكان نفسه .
(٣) الدينوري : الاخبار الطوال ص ٢٨٩ . اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٢٥٨ ، الطبري ج ٧ ص ٦٤ .
(٤) البلاذري ، انساب ج ٥ ص ٢٢٣ .
(٥) ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ٢١٤ .
(٦) المسعودي : مروج ج ٣ ص ٧٦ .
(٧) ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ٢١٤ .

الشيعية معاً ، أو أنه وجد في المختار شخصية تتجاوز بطموحها ، دور الداعية الانضباطي ، بحيث ظلت هذه المسألة محاطة بالشك ومنطوية على كثير من الغموض .

وسواء جاءت «الاوامر العلوية» مموهة أم واضحة ، فإن زعامة الحركة الشيعية انعقدت للمختار ، الذي أصبح فجأة سيد الموقف في الكوفة ، بعد القرار «الحزبي» بتأييده والاعتراف «الخجول» من جانب ابن الأشتر به[1] ولم يعد من الصعوبة ، وقد اجتمعت الطاقات الشيعية تحت قيادة واحدة ، السيطرة على الوضع في الكوفة ، ولقد تمّ ذلك أو كاد ، عبر انقلاب أبيض ، في الوقت الذي كان فيه صاحب الشرطة[2] متعقباً آثار المختار للقبض عليه ، ولكنه اصطدم بالقائد العسكري للحركة (ابن الأشتر)، مما أدى الى مقتله على يد الأخير[3]. وكانت هذه الحادثة ، مؤشر الانتقال الى طور التنفيذ ، بعد تقديمه يومين عن الموعد المحدّد له[4]. وبسرعة مذهلة تمّ الاستيلاء على السلطة في اعقاب هزيمة القوة التي ارسلها الوالي الزبيري (عبد الله بن مطيع)، بينما غادر الأخير قصره متخفياً ومتوارياً عن الانظار[5].

وهكذا نجح «الانقلاب» الشيعي في الكوفة ، بقيادة المختار الثقفي وحليفه القوي ابن الأشتر، وتمت السيطرة على الحكم لأول مرة منذ تنازل الحسن عن الخلافة ، وذلك بالقليل من الوقت والتضحية . ولو شئنا تقويم هذا النجاح الذي استأثر به المختار دون غيره من قيادات الحركة الشيعية في تلك الفترة ، لوجدنا مجموعة من العوامل ، تكاملت مع بعضها ، وهيأت المناخ المناسب لهذا النجاح :

١ ـ الأرضية الملائمة ، حيث العواطف ثائرة والنفوس مشحونة ، في وقت كانت نخبة الحركة الشيعية تلقى مصيرها الذي اختارت ، عبر عملية انتحارية كان لها صداها المأسوي في الكوفة ، ومن ناحية اخرى ، فإن حركة ابن الزبير لم تأخذ مواقعها

---

(١) الدينوري ، الاخبار الطوال ص ٢٩٠ ، البلاذري ، انساب ج ٥ ص ٢٢٣ ، ابن الاثير ، الكامل ج ٤ ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .

(٢) اياس بن نضار العجليّ . الدينوري ، أخبار ص ٢٩٠ .

(٣) الطبري ج ٧ ص ١٠٠

(٤) يوم الخميس ١٢ ربيع الأول عام ٦٦هـ. البلاذري ، انساب ج ٥ ص ٢٢٣ .

(٥) الطبري ج ٧ ص ١٠٣ .

السياسية ، المدعّمة بالحضور العسكري المكثف في هذه الأخيرة ، بل كانت لا تزال معتمدة وجهة النظر الهادفة الى تطاحن «الحزبين» الأموي والشيعي ، وما يترتب على ذلك من استنزاف لهما ، تكون هي المستفيدة الأولى من نتائجه .

٢ ـ الشخصية القيادية البارزة لتي تمتع بها المختار ، في الوقت الذي غابت فيه عن الكوفة الزعامة السياسية المحورية، القادرة على توحيد اتجاهات الحركة الشيعية واستيعاب التطورات المتلاحقة . ولا نهمل ايضاً المرونة والدهاء لدى المختار ، وهما من أبرز صفات السياسي الناجح ، فضلاً عن اتقان المناورة والاحتفاظ دائماً بأوراق غير مكشوفة لإستخدامها في الوقت المناسب .

٣ ـ الطرح الاصلاحي في فكر المختار ، كان المدخل الاستقطابي للفئات الشابة المنتمية الى الجيل الثاني من الحركة الشيعية ، التي تستجيب عادة لدعوات لتغيير ، دون أن ننسى الفئات المسحوقة غير العربية (الموالي)، التي وجدت في حركته المتنفس لتحقيق اهدافها في المساواة وتحسين اوضاعها الأجتماعية[١].

٤ ـ فشل السلطة الزبيرية في الكوفة في أن تكون البديل المقبول ، في وقت كانت الغالبية العظمى تنشد التغيير الجذري على أكثر من صعيد . فهي لم تضف الى سابقتها الأموية أي تطوير في الممارسة أو في النهج العام ، بل كادت تكون استمراراً طبيعياً لها ، حتى في العلاقات المحلية والتحالف مع «الارستقراطية» القبلية نفسها ، وكذلك استخدام بعض من شاركوا في قتل الحسين وأصحابه في كربلاء[٢].

كانت هذه أبرز العوامل التي اسهمت في إنجاح «الانقلاب» الشيعي والسيطرة على الحكم في الكوفة . ولكن المسألة ، لم تكن في تحقيق هذا الانجاز بقدر ما كانت في المحافظة عليه ، حيث تجلّت متاعب المختار الجدّية بعيد «الانقلاب»، مع فشله في تحويله الى ثورة مُستكملة الأطر الشعبية والتنظيمية ، دون أن يحالفه النجاح في معالجة

---

(١) الدينوري ، الاخبار الطوال ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٧٠ .

(٢) من هؤلاء : شمر بن ذي الجوشن ، أحد أشهر قتلة الحسين ، وكان بارزاً في شرطة الحكم الزبيري في الكوفة . البلاذري ، انساب ج ٥ ص ٢٢٤ .

هذه الثغرة أو التقليل من شأنها بعد الوصول الى الحكم . ذلك أن التلاحم الشيعي وراء المختار كان مرحلياً ومصطنعاً ، لا سيما وأن المجابهة مع التحديات ، على كثرتها ، كانت مقلقة وغامضة . فالاحتفاظ بالسلطة وسط تلك الدائرة الواسعة والمعقدة ، كان مصحوباً باخطار محلية وخارجية محدقة ، حيث كانت «الارستقراطية» القبلية المتذبذبة (الأشراف)، تشق الانسجام الكوفي ، كونها تملك القدرة المادية والمعنوية على إثارة المشاكل الخطيرة ضد المختار ، واستعدادها الدائم لاتخاذ نفسها معبراً للطرف المنتصر الى الكوفة . كانت تلك صورة الوضع الداخلي ، بينما في الخارج اقتربت قوات الأمويين من الموصل[1]، بعد القضاء على التوابين في عين الوردة ، دون ثمة ارتياب ، بأن الكوفة هدفها المباشر ، لاعتبارات سياسية وجغرافية ، في مرحلة استعادة مركزية السلطة الأموية عبر المدخل الكوفى الحيوي . وما بين متاعب الجبهة الداخلية والتهديد الأموي ، كان هنالك خطر ثالث ، لا يقل شراسة يتربّص بالمختار ، وهو الطرف الزبيري ، الذي امسك حينذاك بزمام النفوذ الرئيسي في العراق .

وفي غمرة هذه المتاعب ، كان لا بّد من تكتيل الجهود لصدّ الهجوم الأموي الوشيك ، وهو ما كانت تشجع عليه الحركة الزبيريّة ، التي كانت تراقب تطاحن الطرفين الشيعي والأموي . فتوجهت فرقة[2] من الكوفة لتأخير تقدّمه ، بانتظار استكمال العمليات الأمنية في الأخيرة ، حيث المهمة الرئيسية تولاها ابراهيم بن الأشتر . وما كاد هذا القائد يغادر الكوفة بالجزء الأكبر من القوة العسكرية ، حتى كان «الأشراف» يفاجئون المختار بانقلاب مضاد ، وضعه في غاية الحرج والارتباك . ولعل دافعهم كان مبنيا ـ كما تشير المرويات ـ على الاستياء من متغيرات حركة المختار ، لا سيما الجانب الاصلاحي منها وما رافقه من تضارب مع الامتيازات التقليدية لهذه الفئة[3] . كان التوقيت مناسباً لتحرك «الأشراف»، الذين اعتمدوا على قوتهم الذاتية وعلى الدعم الزبيري ، دون أن يكون لدى المختار من القوة ، حتى الدفاعية لانقاذ نفسه من هذا المأزق. ولكن المناورة التي برع فيها ، بقيت سلاحه المتفوق ،

---

(١) الدينوري ، الاخبار الطوال ص ٢٩٣ .

(٢) كانت بقيادة يزيد بن انس الأسدي . المصدر نفسه ص ٢٩٢ .

(٣) الطبري ج ٧ ص ١٠٩ .

حيث نجح في استدراج زعماء «الانقلاب» الى مفاوضات عقيمة ، في الوقت الذي استدعى قائده ابن الأشتر ، في ظّل جوّ بالغ التكتّم الى الكوفة .

ولم يأخذ قمع التمرد «القبلي» غير وقت قصير من المختار ، حين نجح قائده ومعه بقايا التوّابين بقيادة رفاعة بن شدّاد في اخماده والقضاء عليه من غير صعوبة(١). ثم عاد ابن الأشتر الى مهمته الاساسية ، بعد أن اثبت أنه يتمتع بألمعية قيادية ، ستكون أكثر بروزاً في معركته الطاحنة ضد الأمويين ، التي جرت عند نهر «الخازر»، وأسفرت عن تدمير قوتهم ومقتل قائدهم المعروف عبيد الله بن زياد وكبار اصحابه(٢). فبلغ المختار حينذاك قمة مجده السياسي ، في اعقاب أول هزيمة عسكرية للأمويين ومقتل أحد أبرز المسؤولين عن مأساة كربلاء ، مما كان له صداه العميق في قواعد الحركة الشيعية وقياداتها في الكوفة والحجاز . غير أن الوصول الى القمة لا يعني الاحتفاظ بها ، ونشوة الانتصار الباهر لا تمسح المتاعب الكبرى ، لا سيما تلك التي كانت تحاصر المختار وتضيّق الخناق على حركته ، إثر انتصار «الخازر» وما انطوى عليه من نتائج لم تكن بمجملها واضحة ، إذا ما توقفنا عند بقاء ابراهيم بن الأشتر في الموصل ، مكرّساً بداية الافتراق عن حليفه الثقفي .

والواقع أن ثمة تناقضاً بين الرجلين ، لم تخفه النجاحات التي حققتها الحركة الشيعية في الكوفة ، حيث بقيّ زعيم نخع وأقوى شخصيات الأخيرة على حذره من حليفه ، مشكّلاً بذلك نقطة الضعف الأخطر في حركته . ولعله وجد في المختار الذي كانت له طريقته في السلطة ، وربما فكره الخاص ، غير المتطابق تماماً مع النهج الصارم للتشيع ، فضلاً عن علاقته المبهمة بالبيت العلوي . ومن هذا المنظور ، فإن ابن الأشتر الذي ورث الالتزام المطلق بالاتجاه الشيعي عن ابيه ، أحد أبرز المقرّبين من عليّ والمقاتلين تحت رايته حتى الموت ، لم يجد على الأرجح في المختار، الزعامة المخلصة والمنضبطة، وبالتالي القادرة على إقامة نواة الدولة الاسلامية ، وفقاً للطرح السياسي والاجتماعي الذي اكتسبه ابن الأشتر بالفطرة والانتماء والمعايشة ، للحركة الشيعية .

---

(١) الطبري ج ٧ ص ١٢٠ .
(٢) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٤٤ .

ومن المعتقد أن ابن الأشتر كان له تقويمه الموضوعي ، حول المجابهة غير المتكافئة ، التي بدت حتمية حينذاك ، بين المختار وخصومه الأقوياء ، مدركاً استحالة المجازفة مع حليف ضعيف يتوكأ عليه ، والمراهنة على سلطة شيعية مستقلة ، وسط هذا المحيط العدائي في الكوفة . وكانت المبادرة لا تزال ، في العراق على الأقل ، في قبضة ابن الزبير ، مما دفع ابن الأشتر الى الالتقاء مع أخيه مصعب ، حول أكثر من قاسم مشترك ، كحليف مرحلي وندٍّ كفوء في مواجهة العدو الأموي المشترك .

وهكذا ، لم يكد المختار يصحو من نشوة الفرح التي غمرته والحركة الشيعية ، بهزيمة الأمويين ومحاسبة المتهمين بقتل الحسين[1]، حتى وجد حكمه متهاوياً بالسرعة نفسها التي صعد بها الى القمة . فقد فوجيء بقوات مصعب بن الزبير - والي البصرة - تشق طريقها الى الكوفة ، في ظل ظروف غير مؤاتية عسكرياً[2]، حيث فرغت الأخيرة من قوتها المقاتلة التي كان معظمها في الموصل ، دون أن تتحمس للدفاع عنه سوى قلة قليلة من جزئها المتبقي في الكوفة . بالاضافة الى ذلك ، فقد اتخذ رؤساء القبائل (الأشراف)، بعد التجاء غالبيتهم الى البصرة في اعقاب «انقلابهم» الفاشل ، دوراً تحريضياً لمصلحة ابن الزبير وقواته المتفوقة . وما لبث المختار أن تلقى أخبار الكارثة التي حلّت بقواته في «حروراء» وتراجع بقاياها الى الكوفة ، فخرج من قصر الامارة بعد اشتداد وطأة الحصار عليه ، ومعه قلة من رجاله ، ليخوض معهم مقاومة بطولية انتهت بهم جميعاً الى القتل[3] .

لقد كان «انقلاب» المختار ، المحاولة الوحيدة الناجحة ، التي قامت بها المعارضة الشيعية لاستلام الحكم في العهد الأموي ، وهي بدون ريب ، ثمرة نضال طويل في عهد معاوية ، وتضحيات جسيمة في عهد يزيد ، تتوجت بسقوط الحسين مع جماعته في كربلاء ، ومن لحقهم من التوابين في عين الوردة . ومن البديهي أن الفراغ القيادي في الحركة الشيعية ، التي كانت لا تزال تستجمع صفوفها الممزقة والملاحقة ، قد أعطى المختار فرصته النادرة لقيادة هذه الحركة ، مسجّلاً بذلك سابقة فريدة ، ولكن دون أن

---

(١) البلاذري انساب ج ٥ ص ٢٢٦ وما بعدها .
(٢) في العام ٦٧هـ . تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ٣٣٤ . الطبري ج ٧ ص ١٤٦ .
(٣) الطبري ج ٧ ص ١٥٥ - ١٥٦ .

تتكرر فيما بعد . ولعلها ثغرة أخرى هامة في حسابات المختار الخاطئة ، أن قاعدة الحركة الشيعية وقيادتها ، كانتا لا تزالان ، وحتى اشعار آخر ، ترفضان أية زعامة غير علوية . ولقد شكلت هذه المسألة احدى الثوابت المتلازمة مع التحرك السياسي والثوري ، حتى ما بعد سقوط الدولة الأموية ، حيث الزعامة معقودة من دون جدال للبيت العلوي . . ولعل هذه النظرية ، انبثقت عن المفهوم العام للسلطة عند الشيعة ، كما تبلور في وقت لاحق، جاعلاً من الامام،الخليفة ـ الظلّ ، والمؤهل دائماً لا ستلام الحكم ، والجامع في يديه ، كما الخليفة ، بين دوره الديني وبين مهامه السياسية .

دولة عبد الملك

محنة «الخلافة» الأموية

انصرفت الشام بعد غياب معاوية الثاني ،الى انقاذ خلافتها المهدّدة بالسقوط، دون ان يكــون لدى الاسـرة الأمويـة قرار حـاسم في تلك المسألـة. فالكلمـة الأولى كانت في ايدي الزعامات القبلية ، المتعاظم نفوذهـا مع انهيـار الحكم المركـزي وتشرذم الاسرة الحاكمة . وكان معاوية الأول في الواقع ، قد أوجد تلك المعادلة التي حققت له التوازن خلال عهده الطويل ، دون ان يدرك انه يعيد في الـوقت نفسه إحيـاء العصبية القديمة ، ومعها اجواء الصـراعات التقليـدية التي شـاعت قبل الاسـلام ، واستنفدت طـاقة العـديد من قبـائل العـرب . فاليمنيـون ـ لا سيما «كلب»، النـافـذة في البـلاط الأموي[1] ، ـكانوا متشدّدين في المحافظة على امتيازاتهم السسيـاسية والاقتصادية ، التي اصبحت جـزءاً من النـظام الحـاكم[2]. امـا القـيسيـون الـذين وصلوا مــع زعيمهم الضحّاك بن قيس الفهري الى مرتبة كادت تنافس نفوذ الجبهة القبلية الأخرى ، كـانوا يـطمحون بـدورهم الى اتخاذ مـوقع قيـادي متقدم في التـطورات الجـاريـة[3]. وكـانت الاحداث الأخيرة قد منحت الزعيم القيسي فرصة التألق والبروز ، خاصة بعد اختفاء معـاوية الثـاني عن الواجهـة ، حيث أتيح لـه من منصبه الخـطير ، كحاكم عـلى ولاية

---

(١) المسعودي ، مروج ج ٣ ص ٨٦ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) الطبري ج ٧ ص ٣٧ .

دمشق ، أن يملأ بصورة ما فراغ السلطة[1] .

وهكذا فإن ثمة اتجاهين رئيسيين، تجاذبا الصراع على النفوذ والامتيازات في الشام وكان في يديهما تقرير مشكلة السلطة فيها، فضلاً عن ترجيح كفة هذا المرشح أو ذاك للخلافة : الاتجاه اليمني ـ الكلبي ، بزعامة حسان بن مالك ، المرتبط عضويا بالبيت الأموي ، لا سيما الجناح السفياني المؤسس . وكان من الطبيعي أن يهتز مع انهيار السلطة المركزية وانحسار نفوذ السفيانيين ، فضلاً عن تمزق الجبهة الأموية عامة الذي تجلى في تنافس ثلاثة منها على الخلافة وهم :

١ ـ خالد بن يزيد، الابن الثاني للخليفة الأسبق الذي كان مرشح البيت السفياني ، انطلاقاً من «الشرعية» التي وضع اسسها معاوية الأول . وكان يفترض به أن يكون المرشح الأوفر حظاً، إذا ما اضفنا الى ذلك ، تأييد أخواله الكلبيين له ، الا أن حداثة سنّه حالت كما يبدو بينه وبين الخلافة ، في اعقاب مفاوضات ومساومات طويلة[2] .

٢ ـ مروان بن الحكم ، شيخ بني العاص ، والشخصية التي تداولتها الألسن في عهد عثمان ، حيث كان يمسك بزمام الادارة في «المدينة»، واعُتبر مسؤولا عن تورط العهد والنهاية التي أودت بسيده ، وما جرّت اليه من الانقسام والتصارع بين المسلمين . وفي ضوء ذلك لم يتمتع مروان بالجاذبية والتقدير في الأوساط الشامية[3]، الا أن كفته اصبحت أكثر رجحاناً ، بعد التفاف أكثرية بني العاص حوله من جهة وضعف نفوذ السفيانيين الأقل عدداً من جهة أخرى ، فضلاً عن تفوّقه على ندّه خالد بالشيخوخة والتجربة[4]، مما يجعله أكثر كفاءة للحكم في تلك الظروف الاستثنائية .

---

(١) روى ابن الأثير ان معاوية الثاني « أوصى أن يصلّي الضحّاك بن قيس في الناس حتى يقوم لهم خليفة »الكامل ج ٤ ص ١٣٠ .

(٢) الطبري ج ٧ ص ٣٨ .

(٣) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٦٠ ـ ١٦١ . المقريزي ، النزاع والتخاصم ص ٣٨ . بلياييف ، العرب والاسلام ص ٢٢٦ .

(٤) ابن طباطبا ، الفخري ص ١١٩ .

٣ - عمرو بن سعيد بن العاص (الأشدق)، الذي كان أبوه أحد كبار الولاة في عهد عثمان ومعاوية من بعده. ويبدو أنه تمتع بشخصية قيادية جريئة، دفعته الى أن يطمح للخلافة، معتمداً على ثغرات منافسيه، الحداثة بالنسبة لخالد، والماضي المريب بالنسبة لمروان. ولكنه على الرغم من ذلك كان الأضعف في حلبة المنافسة، بعد إخفاقه في الحصول على الدعم المطلوب أموياً أو كلبياً، مما حصر التنافس الفعلي بين خالد ومروان واستبعد اسم الأشدق عن التداول.

اما الاتجاه القيسي فكانت له حسابات مختلفة، خاصة بعد اثبات التحالف الأموي - الكلبي تماسكه، وحرصه على التشبث بالمعادلة التقليدية في الشام. فكان ذلك دافعاً له الى الخروج من هذه الأخيرة، والبحث عن موقع آخر يملأ طموحه السياسي، في ظلّ معادلة سياسية بديلة. وكانت حركة ابن الزبير قد اصابت من التقدّم حدّاً، جعل المراهنة على نجاحها تنطوي على كثير من الواقعية، مما دفع زعيمه (الضحاك)، يتجه الى التحالف مع الأخير، الذي تعاطف بدوره مع القيسيين، حيث البعد الجغرافي لحركته يدعم هذا التحالف ويغذّيه، وأرسل الى حليفه الضحاك، عهداً بتعيينه ممثلاً له على الشام[١].

وفي الاجتماع اليمني الذي عُقد في «الجابية»[٢]، برئاسة حسان بن مالك[٣]، كان مروان الذي طُرح كمرشح تسوية، الأوفر حظاً في مسار الجدل، الذي انتهى لمصلحته بعد تسميته خليفة بالاجماع[٤]. غير أن الكلبيين الذين كانوا محور الاجتماع، خرجوا بترضية معنوية، حين اتُفق على ان يكون مرشحهم خالد ولياً للعهد[٥]، فضلاً عن تعيينه «أميراً» على حمص[٦]، بينما المنافس الثالث (عمرو بن سعيد)، أُعطيت له «امارة دمشق»[٧]، التي كان يشغلها الضحاك في العهد السفياني.

(١) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٤ .

(٢) قرية في نواحي الجولان، على مسيرة يوم الى الجنوب الشرقي من دمشق. المسعودي، مروج الذهب ج ٣ ص ٨٥ .لامنس Lammens، دائرة المعارف الاسلامية ج٤ ص ٢٣٣ .

(٣) عقد في ذي القعدة من العام ٦٤ هـ . الطبري ج ٧ ص ٣٧ .

(٤) المكان نفسه .

(٥) المكان نفسه .

(٦) المصدر نفسه ج ٧ ص ٣٨ .

(٧) المكان نفسه .

نجح التحالف الأموي ـ اليمني في التقاط المبادرة ، وتوحيد الموقف السياسي في الشام من مشكلة الحكم . غير أن التحالف الزبيري ـ القيسي ، كان قد قطع شوطاً في التنسيق القبلي والعسكري ، الى حدٍ جعله قوة صعبة المنافسة ، خاصة بعد التئام كبار القيادات القيسية في «مرج راهط»[٨]، من امثال زفر بن الحارث الكلابي ، ونـاتل ابن قيس ، فضلاً عن الضحاك ، ذلك الاجتماع الذي اسفر عن تأييد ابن الزبير وبيعته بالخلافة[٩].

وهكذا تبلورت المواجهة بين الاتجاهين ، واسفر الصراع عن وجهه ، فإذا هو قبلي في المضمون سياسي في الظاهر . فالحرب الدموية التي اندلعت في «مرج راهط»، كانت في الواقع محاكاة لأيام العرب قبل الاسلام ، حيث العصبية تعدّت كل الاعتبارات وتجاوزت مختلف الضوابط ، بما فيها المصلحة العامة للقبيلة ، لتصبح «مرج راهط» من خلال هذا المفهوم ، حرب القبائل في الشام ، من أجل السيادة والنفوذ والامتيازات ، وليست حرب الاتجاهات السياسية حول قضية مبدئية أو اصلاحية معينة ، مما سيجعل الخلافة ، ولأمدٍ بعيد ، أسيرة هذه العصبية المشحونة التي استعادت حيويتها في «مرج راهط». ولعل هذه المعركة الشهيرة ، اثبتت تفوق الكلبيين في الصراع القبلي على النفوذ في الشام ، وبأنهم القوة القادرة مرة أخرى على دعم النظام المتوافق ومصالحهم الحيوية ، بحيث سيبدو ذلك واضحاً في تحوّلهم الى قوة عسكرية ضاربة في العهد المرواني ، تتولى الدفاع عن النظام ، حيث تعرض للتهديد أو الخطر ، بينما كانت القبائل الشامية على اختلافها ، تشكل هذه القوة في العهد السابق . اما نتائجها المباشرة ، فقد أدت الى اخراج الخلافة الأموية من محنتها ، وإعادة الأمور تدريجياً الى وضعها الطبيعي ، في اعقاب الهزيمة القاسية التي نعرض لها القيسيون في «مرج راهط»، والتي أودت بحياة عدد من قادتهم الكبار ، لا سيما الضحاك بن قيس رجلهم القوي في الشام[١].

وقد يجوز القول إن جانباً من تبعات هذه الهزيمة يعود الى ابن الزبير ، الذي جاء

(١) قرية في نواحي دمشق ، ياقوت ، معجم البلدان ج ٥ ص ١٠١

(٢) الطبري ج ٧ ص ٣٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ٧ ص ٣٩

دعمه العسكري لحلفائه القيسيين متأخراً ،وفوت عليه الفرصة مرة اخرى ،في محاولة اثبات وجوده في الشام . وفي المقابل ، فإن الأسرة الأموية ، ظلّت أفضل من يمثل مصالح التيّار القبلي «الارستقراطي»، حيث تكتلّت قواه الرئيسية ، لدعمها وإنقاذها من السقوط ، خلافاً للاسرة الزبيرية التي اخفقت في الاستقطاب القبلي، كونها افتقدت الى سرعة المبادرة ومجاراة الأمويين في العطاء وتوزيع الهبات والأموال . كما فشلت حركتها الخالية من المضمون الأصلاحي الجذري ، في التحول الى حركة شعبية مبرمجة ، تستهدف التغيير لمصلحة «الجمهور» الاسلامي، الذي فقد الكثير من مكتسباته في هذا العهد . وهكذا ، فإن ابن الزبير، لم ينجح في أن يكون البديل الكفوء للارستقراطية القبلية ، في الوقت الذي تخلّفت فيه حركته عن مواكبة التطورات الاجتماعية وطرح حلول موضوعية للمشاكل القائمة ، بعد أن تقوقعت داخل اطارها الأقليمي والسياسي الضيق .

وفي الجانب الأموي كان أبرز ما سجلته «مرج راهط» من نتائج ، هو استمرارية النظام الأموي الذي استعاد رغم التحدّيات الكبرى ، حجمه التقليدي ، ومعه طاقته الجديدة ، ليحقق تلك الانتقالة الهامة ، من مرحلة التأسيس المضطربة ، الى مرحلة الدولة ، التي أصابت كثيراً من التطور والاستقرار في الثلث الأخير من القرن الهجري الأول ، حيث كان مدينا في الواقع لجهود رجل بني العاص ، أو بني مروان (الاسم الغالب عليهم منذ تولّي مروان الخلافة) القوي عبد الملك ، في الوقت الذي اعتُبر سلفه مؤسس اسرة حاكمة ، بينما الدولة كانت من انجاز الأخير، ومن هذا المنظور ، لم يكن مروان مبادراً فقط الى خرق معاهدة « الجابية » التي نصّت على أن يكون خليفةً لمرحلة انتقالية ، يُعاد بعدها الحكم الى بني سفيان ، ولكنه عمد الى تكريس هذا « الحق » في بيته ، فضلاً عن خرقه القاعدة السائدة ، بتسمية اثنين من ابنائه لولاية العهد[1] ، مطوّقاً بذلك أية محاولة في المستقبل ، لانتزاع السلطة من هذا البيت .

غير أن النهج العام للسياسة الأموية ، لم يطرأ عليه تعديل ما ، باستثناء التغييرات الادارية التي اهتم بها عبد الملك، ثاني الخلفاء المروانيين، وباستثناء المدّ

(١) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٢٥٧ .

التوسعي الذي بلغ ذروته في عهد ثالثهم الوليد . فقد ظلّت علاقة الدولة بجماهيرها غير الشامية ، يغلب عليها التشنج والقمع ، وظلت كذلك متجاهلة حقّها في المساواة ، سواءً في المشرق ، حيث العراق البؤرة الثورية المتدفقة ، أم في المغرب الذي كان مسرحاً لأعنف الحركات المسلحة ، التي تفجرَّت بسبب النزعة الاستئثارية والسلوك الفوقي لغالبية ولاة هذه الدولة[1].

ومن ناحية أخرى فإن نتائج «مرج راهط»، لم تكن مجرد هزيمة عسكرية للقيسيين ، بل كانت منعطفاً غير عادي في حياتهم السياسية ، بعد أن ظلّت في الضمائر تستسقي الحقد والكراهية ، مع اختلاف المكان والزمان ، ضد القبائل اليمنية المنتصرة . فهذه المعركة لم تؤد الى إبعاد القيسيين عن السلطة فقط ، بل أفقدتهم بعض الامتيازات التي حققوها تحت زعامة الضحاك ، بما يعنيه ذلك من تضاؤل الفرص أمامهم للاقتراب من مواقع النفوذ في الدولة التي كانت سياستها الداخلية في الغالب يمينية الملامح . ولا نستطيع خارج هذا المنظور ، تقويم البروز غير العادي ، لبعض الشخصيات القيسية الكبيرة ، من امثال الحجاج بن يوسف الثقفي ، على أنه خرق لهذه المعادلة ، حيث ظلّت هذه ، بما فيها الأخير ، مجرد اشباح لخلفاء اقوياء ، وكان الولاء لهم يتجاوز الارتباط القبلي[2] .

وهكذا فإن الاتجاه القيسي ، كان أقل انفتاحاً ، وانطوى على تراث كان أكثر تحكماً في سلوكه ، وذلك انطلاقاً من تفاوت تأثير البيئة في هذا المجال ، بالمقارنة مع الاتجاه اليمني ، الذي أدرك في وقت سابق تجربة الدولة ومفهومها الحضاري . وفي ضوء هذا التباين النسبي ، فقد جنح القيسيون بعد هزيمتهم في «مرج راهط»، الى التطرف في علاقاتهم السياسية والقبلية ، حيث نظروا اليها دائماً ، كمفترق تاريخي ، حال بينهم وبين السلطة ، التي غالباً ما كانت بعيدة . وإذا ما سنحت لهم الظروف حيناً أو بعض الحين للوصول اليها ، فإن ثمة نهجاً خاصاً يتخذه الحكم ، أكثر تأثراً برواسب الحرمان والحقد . . فضلاً عن الرغبة في الانتقام ، وكل ما تميزت به التجربة القيسية في العصر الأموي .

---

(١) دوزي ، تاريخ مسلمي اسبانيا ص ١٣٥ . ابراهيم بيضون ، الدولة العربية في اسبانيا ص ١٠٣ وما بعدها .

(٢) ابراهيم بيضون ، الدولة العربية في اسبانيا ص ١٠١ .

الادارة المروانية :

بلغ الحكم الوراثي المطلق الذي اسسه معاوية ، أبعد مراحله التنظيمية في عهد عبد الملك ، أقوى شخصيات الحقبة المروانية في دولة بني أمية ، التي انطلقت من دائرة كادت لا تتجاوز كثيراً أي مجتمع قبلي متواضع ، الى اطار حضاري ، تلازمت فيه تنمية ادوات السلطة والادارة ، مع الجهود الدائبة لدعم الحكم المركزي وضرب الحركات المناوئة له . بيد أن سياسة الاصلاح الاداري ، التي أكسبت عبد الملك ما تمتع به من شهرة ، لم تؤثر على النظام السياسي ، ولم تلامس النزعة الفردية لدى الخليفة ، بقدر ما استُخدمت لتقوية هذا النظام وفق نظرية الحكم المطلق ، الذي كان عبد الملك من أشد المتمسكين بها .

ومن البديهي أن عبد الملك لم يكن رائد هذه السياسية الادارية ، ولكنه تابع خطوات جدية . كان قد بدأها عمر بن الخطاب في العهد الراشدي ، ومعاوية بن أبي سفيان في مطلع العهد الأموي . اما شهرة عبد الملك ، فكان مبعثها أن منجزاته في هذا المجال ، جاءت متكاملة ، سواء في تطوير الجهاز الاداري وتنشيط دوره المركزي والأقليمي ، أو في تحرير هذا الجهاز ومعه النقد من التبعية الاقتصادية والادارية ، وهو ما عُرف بحركة التعريب . ولعل الدوافع المباشرة لهذا الانجاز الهام ، تأثرت بظروف المرحلة ، وما انطوت عليه من اضطرابات وحركات انفصالية ، شلّت طاقات الدولة وبعثرت جهودها وقتاً ، مما جعل عبد الملك يولي الجانب الاصلاحي اهمية خاصة ، بعد أن وجد في النظام الأموي ، كما ورثه من اسلافه ، ما يعيق وحدة الدولة الحقيقية ، إذا لم تكن مقترنة بالاستقلال الاداري والاقتصادي .

وفي ضوء هذا التطور الذي أخذ يعطي ثماره في النصف الثاني من ولاية عبد الملك ، بعد إخماد الحركات الثورية التي قامت في عهود اسلافه ، فإن الادارة المروانية الجديدة ، توزعت الى خمسة دواوين رئيسية :

١ ـ ديوان الجند ، الذي يدين بظهوره الى الخليفة عمر بن الخطاب ، وكان منوطاً به ترتيب الأمور المتعلقة بشؤون المقاتلين ورواتبهم ، ولذلك سُمي أحياناً بديوان العطاء[1] . ولقد اصابه بعض التعديل ، الذي استهدف خاصة المقاييس

(١) ابو يوسف ، الخراج ص ٩٧ . الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ٢٠٣ .

القديمة في عطاءات القادة والجنود ، بحيث أخذت تتفاوت بعد ذلك ، وفقاً لرغبة هذا الخليفة أو ذاك .

٢ ـ ديوان الخراج ، وكان يشرف على مالية الدولة ويراقب عائداتها ويقوم بتسجيلها ، حيث كانت نواته قد ظهرت في عهد عمر[١] ، ثم تطور في ظلّ الادارة المروانية ، خاصة بعد استقرار الوضع السياسي واستئناف حركة التوسع ، نحو مناطق عادت على الدولة بالأموال الطائلة .

٣ ـ ديوان الرسائل ، الذي كان من مظاهر تطوير الادارة العربية في العصر الأموي[٢] ،ومن مهامه الاشراف على قرارات الخلافة ومراسلاتها ، والقيام بالاتصال والتنسيق مع الدواوين الأخرى ، أو بمعنى آخر كان واسطة العقد بين الخليفة والادارة . وقد وصفه القلّقشندي بقوله : «إن الأمور السلطانية من المكاتبات والولايات تبدأ عنه وتنشأ منه»[٣]. ولعله كضمون ، كان من اوائل الدواوين التي ظهرت في الدولة الاسلامية ، وإن كانت المرويات لم تشر الى وجوده بهذا الأسم قبل عبد الملك[٤].

٤ ـ ديوان الخاتم ، وهو الجهاز الذي انشأه معاوية لتنفيذ اوامر الخليفة في مختلف الولايات ، بحيث تأخذ طابعاً «رسمياً» لا مجال لتحريفها أو تعديلها . وكان هذا الديوان منوطاً به تسجيل كل قرار وتوقيعه بخاتم الخليفة ،ومن ثمّ حفظ نسخة منه قبل ارساله[٥].

٥ ـ ديوان البريد ، الذي انشىء عملياً في اوائل العهد الأموي[٦]، بعد أن

---

(١) الجهشياري ، الوزراء والكتّاب ص ١٦ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٤ .
(٣) صبح الاعشا في صناعة الانشا ج ١ ص ٩٠ .
(٤) الطبري ج ٦ ص ١٨٠ .
(٥) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ص ٢٤ ، ابن طباطبا ، الفخري ص ١٠٧ . حسيني ، الادارة العربية ص ١٦٩ .
(٦) ابن طباطبا ، الفخري ص ١٠٧ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٨٧ .

كانت له بدايات ما في عهد عمر ، حيث الوقوف على احوال الولايات وأخبارها ، من الأسباب المباشرة لظهوره . ولعل البريد ، كان مرتبطاً بنمو المركزية السياسية والادارية ، التي استعادت عافيتها في عهد عبد الملك ، مما اقتضى تطويره وتشعيب مهماته ، ليكون الخليفة واقفاً على دقائق الأمور في دولته .

كانت هذه الخطوط العامة للادارة المروانية ، التي كان لها امتدادها الى دولة عمر ، فضلاً عن «دولة» معاوية التي واجهتها تعقيدات ومشاكل ، كان يصعب التصدي لها ، دون جهاز اداري قوي . على ان «دولة» عبد الملك ، ستكون أكثر طموحاً في مواجهة التحديات والتغلب على العوائق التي حالت دون اتخاذ الادارة دورها الطبيعي حتى ذلك الوقت ، حيث كان العمل فيها مقتصراً على كتّاب وذوي خبرة من سكان البلاد المفتوحة ، الذين لم يحسنوا اللغة العربية ، مما جعل الدواوين أو معظمها ، خاضعة لهذه «الطبقة» من الكتاب والموظفين، باستثناء ديوان الجند الذي يبدو أنه كان عربي الطابع منذ تأسيسه ، وذلك لخلّوه من التعقيد ، خاصة في مرحلته الراشدية . ذلك أن الدولة كانت لا تزال في مرحلة التكوين، وتتعاطى مع اولويات فرضتها الصراعات الداخلية الطويلة ، والسياسة التوسعية التي ظل الحكم الأموي متمسكاً بها ، بصرف النظر عن دوافعها المختلفة بصورة ما عن سياسة العهد الراشدي الأول ، مما يعني أن الدولة أولت الجانب العسكري اهمية كبرى ، وذلك على حساب الادارة ، التي كان تطورها محدوداً وغير متكافىء مع المنجزات السياسية أو العسكرية .

وكان واقعاً شاذا بما تعنيه هذه الكلمة ، أن تظلّ دولة لها ذلك النفوذ والانتشار ، مرتهنة لطبقة محترفة من الكتّاب ، لم تكن قد التحمت بعد ولاءً وعقيدةً بالمجتمع العربي الاسلامي ، مما شكلّ حذراً لدى الدولة في عهد عبد الملك ، في الاستمرار على هذا الوضع وابقاء اسرارها وسياستها العامة في حوزة كتّاب الدواوين ، لا سيما الذين يستخدمون اللغة اليونانية ، أي لغة البيزنطيين ، الاعداء التقليديين لخلفاء بني امية . وكان هذا الواقع الشاذ ، ينطبق ايضاً على العملة ، حيث توكأت الدولة الاسلامية منذ قيامها ، في المعاملات النقدية ، على عملات الدول المتاخمة لها أو السابقة عليها في مناطق الفتوح . فلم يشأ عبد الملك استمرار هذا الوضع وتجاهل هذه الثغرة[1] التي تشين دولة كبرى ، وتتعارض مع دورها الحضاري في ذلك الزمن .

(١) MANTRAN, L'expansion musulmane P. 137

وكان من الطبيعي أن تبدأ هذه الحركة انطلاقتها من الحاضرة الأموية ، حيث استُبدلت لغة الادارة السائدة (اليونانية)، بالعربية في اواخر السبعينات الهجرية[1]. وكانت الخطوة التالية في العراق ، باشراف الحجاج بن يوسف ، الذي قام بتعريب ادارته «الفارسية»، بعيد القضاء على ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث[2]. واستمر تنفيذ هذه السياسة ، حيث كانت آخر مراحلها حينذاك في مصر ، حيث تمّ تعريب الادارة فيها على يد واليها ابن الخليفة ، عبد الله بن عبد الملك . ويبدو ان ذلك قد تمّ في اواخر هذا العهد ، مما أدى تشابكٍ ما حول الخليفة الذي أمر بتعريب ادارتها . بعد ان نسب هذا الانجاز لدى بعض المؤرخين الى الوليد بن عبد الملك[3] .

وهكذا اصبحت اللغة العربية ، التي نزل فيها القرآن ، لغة الادارة الرسمية[4]، ونشأت تدريجياً «طبقة» من الموظفين والكتاب ، تولت أعباء ما حمله اسلافهم غير العرب في العهود الماضية . وامتّدت عملية التعريب ، لتصيب النقد المتداول في دولة بني مروان ، وهو الفارسي في العراق والأقاليم الشرقية ، والبيزنطي في الشام والأقاليم الجنوبية والغربية ، أي نقد الدولتين المسيطرتين على هذه المناطق قبيل الفتوح . وكانت الدوافع التي حملت عبد الملك على تعريب النقد ، هي نفسها التي كانت وراء تعريب الادارة، في وقت لم يعد ثمة تسويغ ، لاستمرار التعامل بنقود اجنبية ، لا تعبّر عن شخصية الدولة ولا تحمل شعاراتها الخاصة بها . ومن ناحية أخرى ، فإن العملة التي استمدت قيمتها من الوزن الصافي ، ذهباً أم فضةً ، كانت في الواقع عرضة للتلاعب ، مما كان يفقدها الثقة التامة على الصعيد الأقتصادي .

واذا اعتقد المؤرخون التقليديون ، بأن خلاف عبد الملك مع الامبراطور البيزنطي ، او ما عُرف بقضية القراطيس المصرية ، حسب تعبير البلاذري[5] ، كان الدافع المباشر لاصدار نقد مستقل وخاص بالدولة الأموية ، فإن ذلك ، إن صحّ

---

(١) الجهشياري ، الوزراء والكتّاب ص ٤٠ .

(٢) ابن طباطبا ، الفخري ص ١٢٢ .

(٣) المقريزي ، الخطط ج ١ ص ١٥٨ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ٥٢٢ .

(٥) تهديد الامبراطور بنقش عبارات مسيئة للاسلام . فتوح البلدان ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

وقوعه ، لا يعدو أن يكون أحد العوامل المساعدة لهذه الخطوة التي جاءت متأخرة في ذلك الحين ، أي بعد نيف وسبعين عاماً من قيام الدولة الاسلامية . والواقع أن النقد ، يشكّل أبرز مظاهر السيادة للدولة ، وهو مرتبط بشخصيتها الكيانية والسياسية والاقتصادية ، التي يفترض أن تكون مستقلة وغير تابعة لدولة أخرى ، في أي من شؤونها الحياتية . ومن هذا المنظور جاء القرار بانشاء «دارالضرب» أو «السكة» ، لاصدار عملة خاصة ، تحمل الشعار الاسلامي ، واسم الخليفة المرواني[1] ، متوازياً مع قرار تعريب الادارة ومكملاً له ، ومعبراً عن حاجة ملحة لتلك المرحلة ، التي ارتبط بها استقرار الدولة الأموية ونضجها ، خلال الربع الأخير من القرن الأول . على أن هذه العملية لم تكن متكاملة ، حيث الجانب الاصلاحي - الاجتماعي كان غير واضح فيها ، في وقت أخذت الصراعات الداخلية منحىً لم يكن بالضرورة سياسياً أو قبلياً ، لا سيما في المناطق التي سادت فيها أكثريات غير عربية ، وهو الجانب الذي سيتنّبه له عمر بن عبد العزيز ، ولكن متأخراً عن اوانه الطبيعي ، حيث البدائل المجدية كانت مرفوضة من النظام الذي غرق في العصبيات ، ومقصرّة عن الأحداث التي تطورت بسرعة مذهلة .

استئناف الحركة التوسعية في افريقية

كانت هذه الحركة في آخر هموم عبد الملك ، الذي انصرف بكليته الى معالجة المشاكل الداخلية معظم سنوات عهده . فإذا ما استثنينا الجبهة الأفريقية التي استأثرت بنصيب من الاهتمام لاعتبارات خاصة بها ، فإن الجمود كان طابع السياسة التوسعية بصورة عامة في ذلك الوقت . فالجبهة الشمالية التي كان يُخشى ان يعمد البيزنطيون الى تفجيرها ، مستغلّين الأوضاع الداخلية الخطيرة في الدولة الأموية ، هدأت الى حين ، تحت تأثير معاهدة الصلح التي جرى توقيعها في بدايات العهد[2] . كذلك فإن «الجراجمة» ، الذين لم يتورعوا عن اثارة المتاعب الحدودية بين الوقت والآخر ،

---

(١) فتوح البلدان ص ٢٤٢ ، ابن الاثير ، الكامل ج ٤ ص ٤١٦ - ٤١٧ . انستاس الكرملي ، النقود العربية وعلم النميات ص ٩٢ - ٩٣ .

(٢) يروي ابن الأثير أن عبد الملك عقد معاهدة صلح مع البيزنطيين في اعقاب تهديدهم للشام ، على أن يدفع لهم ألف دينار في الاسبوع . الكامل ج ٤ ص ٣٠٦

بتحريض من حلفائهم البيزنطيين ، اضطر عبد الملك الى شراء سكوتهم لقاء مبلغ من المال ، تفادياً للحرب في هذه المنطقة[1]. غير أن ميزان العلاقات ، أخذ في الرجحان لمصلحة الأمويين ، خاصة بعد استعادة الولايات الشرقية ، بما فيها العراق ، وملء الفراغ العسكري في ثغر «الجزيرة»[2]، مما يعني عودة مصدر هام من مصادر بيت المال ، كان يسيطر عليه ابن الزبير ، أصبح يغذّي العمليات الحربية .

ولم يلبث التوتر أن عاد الى آسيا الصغرى ، التي شكلت منطقة قلقة بصورة شبه دائمة ، بين الدولتين الأموية والبيزنطية ، وذلك بعيد اعتلاء الأمبراطور «جستنيان الثاني العرش» ، ونقض المعاهدة الآنفة الذكر . ولك ن يبدو أن السلام عاد مجدداً الى هذه المنطقة ، في اعقاب مساومة ، تعهد جستنيان خلالها ، بإبعاد الجراجمة عن تخوم الدولة الأموية ، مقابل إحياء المعاهدة القديمة شبه التقليدية بين الطرفين البيزنطي والأموي[3]، بعد اكتفاء الأول بسلام مشروط لجبهة الحدود ، كان الأكثر إفادة منه بشكل عام ، واضطرار الثاني الى شراء هذا السلام بثمن باهظ أحياناً ، وذلك حرصاً منه على الوحدة السياسية المتعثرة. ولكن الدولة الأموية تثبت قدرتها مرة أخرى، على التصدّي للخطر البيزنطي ، عندما استعادت الحملات التقليدية (الصوائف) نشاطها المعهود ، بعيد القضاء على حركة ابن الزبير في العراق والحجاز[4] ، وكان أشدها خطورة ، كما تروي المصادر البيزنطية ، هزيمة الامبراطور في آسيا الصغرى[5] ، مما جعل أي تأثير على الوضع الداخلي الأموي ، عبر هذه الجبهة يكاد يكون معدوماً ، وبالتالي تنتقل المبادرة الى خليفة دمشق الذي أصبح في وضع يسمح له استئناف العمليات العسكرية في افريقية، دون حساب لمراكز النفوذ البيزنطي فيها .

وهكذا فإن المجابهة بين الدولتين ، اتخذت لها مسرحاً آخر غير آسيا الصغرى ، حين خاض الأمويون حرب التصفية ضد القواعد البيزنطية على امتداد الساحل

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ج ٤ ص ٣٠٥ .

(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٣٣٧ - ٣٤١ .

(٣) ارشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ص ٩٩ .

(٤) الطبري ج ٧ ص ٢٠٦ - ٢١٠ .

(٥) لويس ، القوى البحرية ص ٩٩ .

الشمالي لأفريقية ، وهي التي استمد منها البربر الدعم والتحريض، في تصدّيهم للقادة الأمويين . والواقع أن البيزنطيين حاولوا لوقت ما ، توظيف البربر في عرقلة تقدم اعدائهم الى هذه المنطقة ، على غرار توظيفهم للجراجمة في آسيا الصغرى والمناطق الجبلية الأخرى . ذلك أن الدولة البيزنطية ، كانت تفتقر الى تغطية عسكرية مكثفة لجبهاتها الطويلة ،مما ألجأها الىاستخدام حلفائها لتحقيق هذا الهدف ، في الوقت الذي حشدت طاقتها الرئيسية داخل القسطنطينية ، دفاعاً عنها ضد الخطر الأموي .

وهكذا اتخذت المواجهة بين الأمويين والبيزنطيين محورها الحقيقي في الشمال الأفريقي ، على الرغم من النكسات الخطيرة التي اعترضت التقدم الى هذه المنطقة ، حيث الارادة القوية ذللت الصعاب وقهرت التحديات . وكانت الجبهة الأفريقية قد أخذت تحتّل حيزّاً كبيراً في سياسة الأمويين التوسعية ، منذ حركة كسيلة ، التي كان للبيزنطيين دور بارز فيها الى جانب البربر ، على نحو بات هؤلاء يخشون هذا الحلف وما يشكله من تهديد لحدود دولتهم الغربية . ولعل أحد مؤشرات هذا القلق، أن يقوم زهير بن قيس ، من حاميته في برقة ومزوّداً بقوات شامية ، وذلك أشد الظروف حراجة[1] للانتقام من كسيلة اقوى شخصيات البربر ، والذي اتخذ من القيروان مقراً له . وكان واضحاً ان مهمة القائد الاموي ، لم تكن هجومية لتحقيق تقدمفي مناطق نفوذ البربر ، بقدر ما كانت تتوخى الدفاع عن التخوم الغربية التي تعرضت للخطر في ظل هذا التحالف المضاد ، وهو القضاء على كسيلة ، الذي تمّ بالقرب من القيروان ، مؤكداً هذه المهمة الانتقامية للحملة . وما لبث زهير أن عاد ادراجه الى برقه ، دون ترك حامية في القيروان، ربما تحت تأثير الحذر من البربر ، الذين اثبتوا حينذاك انهم قوة عسكرية لا يستهان بها . ولكن الخطر كان مصدره البيزنطيون هذه المرة ، حين فاجأوا زهير بحادث لم يكن في حسابه ، وقضوا عليه في طريق العودة ، مما أدى الى انكفاء الأمويين مجدداً الى الوراء ، وانتظار محاولات أخرى وظروف ملائمة[3] .

لم يكن مقتل زهير بن قيس وهزيمة حملته ، مجرد حادث سطحي في تاريخ

---

(١) ٦٩هـ / ٦٨٨هـ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٠٠ .ابن عذاري ، البيان المغرب ج ١ ص ٢٢ .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٠٢ . ابراهيم بيضون ، الدولة العربية في اسبانيا ص ٩٥ .

العلاقات العدائية بين الدولتين المتنافستين ، حيث انعكست نتائجه على الاثنتين معاً ، ولكن بحدود مختلفة . فالدولة المروانية التي تجاوزت محنتها الداخلية ، لم تكن تبغي من حملة زهير ، أكثر من إعادة الاعتبار لمواقع نفوذها السياسي في افريقية ، واثبات قدرتها على القيام بعمليات عسكرية في هذا السبيل ، مما جعل هذه الحادثة تشكّل صدمة لمشاريعها التوسيعية ، وتضع مخاوفها من الخطر البيزنطي في هذه المنطقة ، موضع اليقين . وفي المقابل ، فإن هذا الانتصار اتاح للبيزنطيين حرية أوفر للتحرك ، والاستفادة من الظروف المستجدة ، بحيث أن جهودهم الدائبة لتحسين مواقعهم العسكرية ، انصبت حينذاك على اتجاهين متوازيين : تعزيز قواعدهم البحرية(١) وتدعيم وسائلها الدفاعية ، وكذلك استمرار التحالف مع البربر وتحريضهم على القوات الأموية المتوغلة في بلادهم . وفي ضوء هذه المعطيات ، فإن الدولة المروانية ، وجدت نفسها معنية الى حدٍّ كبير بخطورة تلك التطورات في افريقية ، ومحاولة البيزنطيين تحويل الموقف العسكري لمصلحتهم ، وبالتالي فهي تدأب على تقويم الوضع على هذه الجبهة ، بما يتلاءم وسياستها التوسعية العامة ، محاولة تصحيح الخلل في موازين القوى بين الطرفين ، الذي فرضته معركة « تهوذة » .

وجاء اختيار قائد جديد مثل حسان بن النعمان الغساني ، على رأس حملة كبيرة الى افريقية(٢)، مؤشراً الى أن دولة المروانيين قد انتهت من متاعبها الداخلية أو كادت . والغساني ، هو أول قائد من خارج المدرسة العسكرية ، التي زوّدت هذه الجبهة بالقادة الكبار ، ولكنه كان على درجة من المهارة ، التي اكتسبها من تجارب سابقة ، حتى حظي بتقدير الخليفة وثقته(٣). وكانت المرونة من ابرز الصفات الظاهرة في شخصيته القيادية ، في وقت اشتدّت الحاجة الى هذا النوع من الرجال ، ممن توفرت لديهم من الشجاعة والحماسة ، ما يماثلها من الحكمة والخبرة السياسية . أما المهمة التي تولاها ، فلم تكن سهلة في ذلك الحين ، حيث كان عليه أن يبدأ من

---

(١) العدوي ، الامويون والبيزنطيون ص ٢٥٠ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٠٠ . ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ٣٤ .

(٣) راجع التفويض الذي منحه عبد الملك لقائده حسان « اني قد اطلقت يدك في أموال مصر ، فاعطِ من معك ومن ورد عليك ، واعطِ الناس واخرج الى بلاد افريقية على بركة الله وعونه » ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ٣٤ .

القليل في أرض يسيطر عليها الشعور بالعداء والرفض حتى الحقد ، إزاء القادة الأمويين[١]، الذين دفعوا بدورهم ثمناً باهظاً لمحاولاتهم الفاشلة ، انعكس ايضاً على مشاعرهم نحو هذه الجبهة . ومن هذا المنطلق ، فإن الواقع كان يحتاج الى تقويم جديد ، والى دراسة أكثر شمولاً ، لخلفية الموقف العدائي الذي تحكم في علاقة البربر بالدولة الأموية .

غادر حسان الفسطاط[٢]، عبر الطريق المألوف الى طرابلس فالقيروان ، من دون أن يصطدم بأية مقاومة ذات شأن ، حتى بلغ «قرطاجة»، القاعدة البيزنطية الشهيرة ، التي كانت كما يبدو الهدف المحوري للقائد المرواني ، انطلاقاً من الدور البارز الذي تقوم به في تغذية مقاومة البربر في الداخل . فسقطت في يده بعد معركة عنيفة ، اضطرت البيزنطيين الى اخلائها ، بعد خسائر جسيمة تكبدوها في الدفاع عنها[٣]. فأخذ بعضهم طريقه الى جزيرة صقلية ، والآخر الى اسبانية . ولم يكن القائد المرواني ، بحاجة من الناحية العسكرية الى هذه القاعدة ، التي قد تكون هدف البحرية البيزنطية لاحقاً، مما دفعه الى اتخاذ قرار بتدميرها[٤] وتحويلها الى انقاض، لا تحفظ من ماضيها العريق غير الذكريات . وكان لهذا النصر الباهر اهميته الكبرى في دعم الموقف العسكري للمروانيين، وذلك بعد تدمير اقوى القواعد البيزنطية على الساحل الأفريقي[٥]، مما دفع حسان الى محاولة استثمار انتصاره ، في مجموعة من العمليات السريعة التي استهدفت المراكز الساحلية[٦]، وانتهت الى السيطرة على المنطقة، باستثناء جيوب قليلة تجمعت فيها فلول البيزنطيين[٧]. ولعل القائد المرواني ، شعر حينذاك بتحرك ما على جبهة البربر ، الذين تحصنوا بمدينة «بونة»[٨]، فآثر العودة

---

(١) ابراهيم بيضون ، الدولة العربية في اسبانيا ص ٤٦ .
(٢) سنة ٧٣ هـ . ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٠٠ .
(٣) ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ٣٥ .
(٤) المكان نفسه .
(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٤ ـ ٣٥ .
(٦) مثل صطفورة وبنزرت . ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ٣٧٠ .
(٧) المكان نفسه .
(٨) المكان نفسه .

الى القيروان قبل استكمال خطته، وهي السيطرة التامة على مراكز النفوذ البيزنطي في الشمال .

ثورة البربر الثانية[1]

بعد مقتل كسيلة قائد الانتفاضة الأولى التي أودت بعقبة بن نافع واصحابه في تهوذة ، لم يتوقف تيّار المقاومة لدى البربر ضد التوسع الأموي في افريقية . فانفجرت ثورة الأوراس التي كانت «بترية» الملامح ، خلافاً لسابقتها التي تصدّرها «البرانس»، حيث قادتها امرأة غامضة ، عُرفت في المصادر العربية باسم «الكاهنة»[2]. وهي تنحّدر من قبيلة « جراوة » ، التي دانت على ما يبدو بالعقيدة اليهودية [3] ، الأكثر انتشاراً بين قبائل البتر ، بينما انتشرت المسيحية بين قبائل البرانس ، لا سيما «أوْربه» التي ينتمي اليها كسيلة . ولعل هذه المؤثرات الدينية ، كانت محصّلة طبيعية لمتغيرات مختلفة مرّت بها هذه البلاد، ولكن دون أن تتخذ مساحتها الواسعة لدى قبائل البربر ، التي احتفظت بموروثها الاجتماعي والديني عبر التاريخ ، ودون أن تحدث كلتا العقيدتين ، التأثير الجذري لديها ، حيث بقيت الوثنية التي استمدت قيمها وعباداتها من الظاهرات الطبيعية ، هي الأكثر استقطاباً بين هذه القبائل ، البدوية أو المتحضرة[4].

لقد استطاعت «الكاهنة» في الواقع ، ملء الفراغ الذي أحدثه مقتل كسيلة ، ونجحت في تحقيق التفاف واسع حول حركتها ، من البربر ، ومن بقايا الجيوب البيزنطية في افريقية ، مما يفسر احتلالها للثغر الساحلي «باغاية»[5] ـ الى الغرب من بونة ـ آخر المعاقل الهامه الّتي سيطر عليها البيزنطيون . وقد بلغت هذه التعبئة الواسعة

---

(١) ثمة ثورة ثالثة ، هي الثورة الكبرى التي قامت في نهاية عهد هشام (١٢٢ ـ ١٢٥هـ) . راجع احداثها بالتفصيل في كتابنا : الدولة العربية في اسبانيا .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٠٠ . اما اسمها الاصلي ـ حسب ابن خلدون ـ فهو دهيابنت نيفان . . ابن وصيلا بن جراو . العبر ج ٧ ص ١٧ .

(٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٧ .

(٤) ابراهيم بيضون ، الدولة العربية في اسبانيا ص ٩٨ .

(٥) ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ٣٥ .

للبربر - ردّاً على المحاولة الجديدة التي يقوم بها القائد المرواني - من الخطورة ما جعل هزيمة الأخير امراً محققاً ، دون أن يبقى لديه سوى التراجع الى برقة[1]، في ثالث عملية انسحاب للقوات الأموية منذ معركة تهوذة .

ولكن الهزيمة كانت أخفّ وقعاً من سابقاتها في أفريقية في وقت لم تعد فيه الظروف الداخلية تشكل عائقاً أمام محاولات جدّية أخرى لحسم الوضع على هذه الجبهة ، التي باتت تشكل قضية حيوية للحكم المرواني . وفي ضوء هذا الواقع ، فإن معركة «نيني»[2]، أو «وادي العذارى»[3]، اعُتبرت مجرد نكسة محدودة النتائج ، حيث القائد المهزوم لم يفقد ثقة الخليفة ، الذي انتدبه مرة اخرى على رأس المهمة الصعبة ، وذلك بعد سنوات خمس من محاولته الأولى ، كانت السيادة خلالها في أفريقية للكاهنة[4]. ويبدو أن الوقت كان الحليف الأجدى للقائد المرواني ، بعد أن شهدت هذه الجبهة تطورات داخلية ، أدّت الى اضعاف نفوذ البربر والبيزنطيين في آن . فالكاهنة التي تبنّت - حسب المرويات - سياسة التدمير أو حرق الأرض[5]، كوسيلة تحول دون استقرار العرب المسلمين ، الذي كان لهم توجّه حضري واضح في افريقية ، كان من دلالاته بناء القيروان ، يبدو ان سياستها هذه أدت الى تضارب ما، بين البربر والبيزنطيين ، الذين استمدوا قوتهم في هذه البلاد ، من قواعدهم البحرية المنتشرة على الساحل الشمالي ، مما أدىّ الى تباعد المصالح بين الطرفين[6] واهتزاز التحالف التقليدي بينهما، منذ بدء التوسع العربي الاسلامي في هذا الاتجاه . ومن ناحية اخرى ، كانت ممارسات الكاهنة وجماعتها الجبليين أو الأوراسيين ، على حد تعبير مؤرخ معاصر[7]، قد أوجدت نوعاً من الحساسية ، إن لم نقل التنافر ، في اوساط كبار الملاّكين من البرانس ، الذين ضاقوا بحكم هذه المرأة «البترية »، وتاقوا الى التخلص

---

(١) ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ٣٦ .

(٢) النهر الذي جرت المعركة على مقربة منه ابن الأثير ج ٤ ص ٣٧٠ . أما ابن عبد الحكم فيسميه نهر البلاء ، ربما دلالة على االهزية التي مني بها الامويون في هذه المعركة . فتوح ص ٢٠٠ .

(٣) ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ٣٦ .

(٤) المكان نفسه .

(٥) المكان نفسه .

(٦) العدوي ، الامويون والبيزنطيون ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

(٧) عبد الله العروي ، تاريخ المغرب، محاولة في التركيب ص ٨٤

منه ، بعد اخفاقها في تحقيق ما ينشدونه من الأمن والاستقرار .

وهكذا فإن عودة حسان الى الجبهة الأفريقية[1]، اقترنت بمعطيات جديدة ، كان من الواضح أنها غيّرت موازين القوى بين الأطراف المتحاربة ، بعد أن أدى اختلالها الى تأخير عملية التعريب فوق هذه الأرض ، بالسهولة نفسها التي رافقتها في مناطق أخرى ، انضوت سريعاً تحت لواء الدولة الاسلامية . وكانت محاولته هذه ، أكثر من مجرد حملة عسكرية ذات هدف انتقامي محدّد ، حيث وضعت لبنة التحوّل التاريخي في أفريقية ، بعد قهر الاسباب التي كانت تحول تنفيذ ذلك بصورة جدية . فقد أدرك البربر عقم محاولاتهم في الدفاع عن الموروث القبلي ، الذي كشف عجزه أمام الافكار الجديدة التي حملتها القوات المنتصرة ، لا سيما بعد الضربة التي نزلت بالحليف البيزنطي ، الذي حرّك فيهم غرائز المقاومة ضد العدو المشترك .

ولعل البربر ـ كتيار معارض للتوسع المرواني ـ افتقدوا ايضاً الاختيار، مع ظهور بوادر التحوّل بين صفوفهم في حرب الأوراس التي شارك فيها عدد منهم الى جانب حسان ، لأول مرة في تاريخ البربر[2]، تلك الحرب التي انتهت بالقضاء على حركة الكاهنة ، دونما كثير من الجهد[3] . ولا شك أن هذه المعركة ، كانت مفتاح السيطرة الأموية على افريقية ، حيث دخلت هذه الجبهة آخر مراحلها الصعبة والطويلة . كما أنها اسفرت في الوقت نفسه ، عن ضرب مراكز النفوذ البيزنطي وتصفية جيوبه ، بما في ذلك قرطاجة التي خرجت من قبضة الأمويين في اعقاب هزيمتهم السابقة . وبعد انجاز هذه المهمة ، اتخذ حسان قراراً هاماً ، كان له تأثيره الجذري ، في الصراع على النفوذ في الجزء الغربي من البحر المتوسط ، وهو انشاء قاعدة حربية ، لا تكون بديلة لقرطاجة فقط ، ولكن متفوقة عليها في موقعها الجغرافي . فظهرت تونس[4]، أول مركز بحري للأمويين في افريقية ، وذلك على مسافة قريبة الى الجنوب الشرقي من القاعدة البيزنطية السابقة . وكان من ابرز نتائجها ، في سياق الصراع على النفوذ في

---

(١) ٨١ هـ / ٧٠٠ م .
(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٠١ .
(٣) المكان نفسه ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٧ ـ ٣٨ .
(٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٩ .

هـذه البلاد ، انهيـار مقاومـة البربـر ، باستثنـاء جيوب محـدودة انحصـرت في المغـرب الأقصى . ولكن ينبغي لنـا الاعتراف ، بـأن هـذا التغيـير لم يكن خـاضعـاً للتفـوق العسكري فقط ، بعد دخول معطيات علائقية جديدة ، أخذت مـلامحها في الـظهور ، منـذ اختيار حسـان بن النعمان قـائداً عـلى هذه الجبهـة ، حيث نجح الى حـدٍّ كبير في استيعاب الظروف والعوامل المحيطة بالبربر ، متوّجهاً الى عقولهم ، ومتفادياً ما استطاع استفزاز مشاعرهم التي كانت حتى حملته الثانية عدائية ضد الأمويين ، مما يفسر التركيز لديه عـلى مجابهـة البيزنـطيين ، والعـودة الى القيروان في بـداية مهمتـه ، دون التعرض لمواقع نفوذ البربر .

والـواقع ، فـإن هذه السيـاسة اعـطت ثمارهـا الايجابيـة ،بـأخـراج البـربـر من عزلتهم ، وإزالة مشاعر الخوف والتشكيك في علاقتهم مع العـرب المسلمين . وكـانت ابرز مؤشرات هذه السياسـة الجديـدة ، عدم المسّ بـالشخصية القبليـة لدى البـربر ، تلك التي تبلورت عـلى وجه الخصـوص في عهد خليفـة حسّان وأشهـر قادة افـريقية في العصر الأموي ، موسى بن نصير[١] .

وبعـد تصفية جيـوب الثورة الثـانية التي قـادتها الكـاهنة ، وإزالـة معـالم النفـوذ البيزنطي ، بدا أن حساناً سيعطي وقتاً للحاضـرة الأمويّة في افـريقية[٢]، حيث كـانت القيروان لا تزال متخذةً طابعها العسكري ، منذ تأسيسها على يـد عقبة بن نـافع قبـل نحو ربع قرن . ففي وقت قصير ، ظهرت القيروان بشخصيتها الجديدة ، لتكون نـواة الجذب العمراني والتحول الحضاري على يد العـرب المسلمين في أفـريقية . ولكن ثمـة تغييرات ادارية ، اوقفت هذه الاجراءات ، لمصلحة حركة التوسع الذي بدا أنها تحظى بتأييد الخلافة المروانية ، واسفرت عن تنحية حسان وتعيين موسى بن نصير مكـانه[٣]، حيث كان الأخير مقرّباً من وليّ العهد (عبد العزيز بن مروان)، الذي كان بدوره عـلى خلاف مع حسان ، حيث قيل إنه استأثر بالغنائم دونه ، حسب الـرواية التـاريخية[٤]،

---

(١) ابراهيم بيضون ، الدولة العربية في اسبانيا ص ٥٢ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٠١ .

(٣) يقول ابن عذاري ، ولعله مصيب في رأيه ، أن غزوات حسان لم تنضبط بتأريخ محقق ولا فتحه لمدينة قرطاجة وتونس ، ولا قتله للكاهنة » البيان ج ١ ص ٣٩ .

(٤) المكان نفسه .

لا سيما وأن ولاية افريقية كانت تابعة من الناحية الادارية لمصر، التي كان واليها عبد العزيز في ذلك الوقت . وكان موسى الذي ينتمي الى بكربن وأتل أو لخم اليمنية، حسب ابن عذاري[1]، مفطوراً على الحرب ، متقناً لأساليبها البحرية والبرية، فضلاً عن شخصية ذكية وقوية تمتع بها ، وتجربة لديه في السياسة طويلة ، مما أدى الى اختياره مستشاراً أثيراً لولي العهد ، قبل أن يسعى الأخير الى تعيينه والياً على افريقية في تلك المرحلة التاريخية[2].

والواقع أن البداية الزمنية لمهمة القائد الجديد ، رافقها بعض الالتباس في المرويات، دون أن يملك الباحث سوى الترجيح بأن يكون تعيينه قد جرى في الفترة الأخيرة من ولاية عبد العزيز بن مروان ، الذي صادفت وفاته في السنة نفسها ، بينما تنفيذ المهمة تم على الأرجح في وقت متأخر من عهد عبد الملك أو في مطلع عهد الوليد[3] . ولكن هذا الأضطراب الذي كان مردّه في الغالب الى التغييرات السريعة التي شهدتها الفسطاط ودمشق ، لم يؤد بالضرورة الى تبديل ما في الاجراءات التي انتهت الى تثبيت موسى في منصبه المرشح له ، ومعه صلاحياته الواسعة ونفوذه غير العادي في أفريقية[4]. وفي الوقت نفسه برز معه ابناؤه الأربعة[5]، الذين فُطروا ، شأن أبيهم على تربية عسكرية ، مما أدى الى انطباع المرحلة لسنوات لاحقة ، بسلوك هذه العائلة ، السياسي والأجتماعي .

ويبدو أن ثمة أفكاراً جديدة حملها ابن نصير ، جعلته يبدأ حيث انتهى الآخرون ، مما أعطى لدوره وهجاً لم يحط بأحد من اسلافه ، بادراكه نقاط الضعف في الموقع العسكري للأمويين ، ومحاولته التغلب عليها . وقد تمثل ذلك بوجه خاص ، في تحقيق توازن جديد في غربي البحر المتوسط ، على غرار ما حققه معاوية في شرقيه، متنبّهاً الى أهمية السلاح البحري في التصدّي لخطر البيزنطيين ، حيث كان موسى ، على ما

(١) ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ٣٩ .
(٢) حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٤٦ . ابراهيم العدوي ، موسى بن نصير ص ١٣ - ١٤ .
(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٠٤ .
(٤) المكان نفسه .
(٥) عبد الله ، عبد العزيز ، عبد الملك . مروان .

قيل ، من قادة هذا السلاح في العهد السفياني[1]. وما لبثت تونس ـ القاعدة الجديدة ـ أن اصبحت مركزاً لصناعة السفن الحربية ، وقد تمتعت بمنعة لم تصل اليها القاعدة البيزنطية (قرطاجة) الشهيرة ، جسدّتها تلك القناة الطويلة ، التي جعلت اسطولها في مأمن من الهجوم المفاجىء ، وأكسبتها موقعاً مثالياً في مواجهة البيزنطيين وتشكيل عمق دفاعي للحاضرة الأموية (القيروان) في افريقية[2]. فمن هذه القاعدة ، انطلقت سلسلة من العمليات الجريئة ، الى بعض جزر وشواطىء الحوض الغربي للبحر المتوسط[3] ، وكانت على الرغم من اهدافها المحددة والمحصورة ، ذات نتائج هامة جداً على المدى القريب .

ولم تكن مهمة موسى خارج النطاق البحري على شيء من الصعوبة . فقد اهتم أولاً بتحصين القيروان عسكرياً ، لتأخذ دورها الطبيعي في تغطية الامتداد التوسعي نحو المغرب الأقصى من ناحية ، وامتلاك وسائل المقاومة الأكثر تطوراً ، للدفاع عن نفسها عند الحاجة ، من ناحية اخرى . وما لبثت قواته أن تحركت في عدة خطوط واتجاهات ، وذلك ضمن خطة منظمة ومتكاملة ، بدءاً بالسيطرة على المغرب الأوسط ومطاردة فلول المتمردين من البربر ـ حيث برز عياض بن عقبة بن نافع ـ حتى اقليم السوس الأقصى في عمق افريقية (المغرب)[4]، بقيادة مروان بن موسى الذي شارك معه عدد كبير من البربر[5]. وفي الوقت نفسه كان القائد العام (موسى) يتوغل في اقليم السوس الأدنى ويقترب من عاصمته طنجة[6] ذلك الثغر البحري الهام ، الواقع على المدخل الغربي للمضيق الشهير ، بين البرين الأفريقي والاسباني . وكانت طنجه خاضعة لسلطان شخصية غامضة ، اتخذت من قرينتها «سبتة» مقراً لها ، ممثلةً على ما يبدو بقايا النفوذ البيزنطي المتراجع . وهنا يأخذ التقارب بين العرب والبربر مداه من

---

(١) العدوي ، موسى بن نصير ص ١٣ .
(٢) الامامة والسياسة ج ٤ ص ٦٥ . أ. لويس ، القوى البحرية ص ١٠٢ .
(٣) الامامة والسياسة ج ٢ ص ٦٦ . ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ٥٤٠ .
(٤) ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ٩٢ .
(٥) ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ٢٠٤ .
(٦) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٠٤ . البلاذري ، فتوح ص ٢٣٢ . ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ٤٣

التـلاحـم ، حين يختـار موسى أحـد كبار معـاونيه وثقـاته من هؤلاء ، اعني طـارق بن زياد[١]، لادارة طنجه خلفاً لابنه مـروان ، مقدّراً فيـه الجهود التي بـذلها في الحمـلات التأديبية ضد فلول البربر في المغرب الأقصى[٢] .

العملية الكبرى

بعد استكمال السيطرة على افـريقية (المغـرب)، توجهت الانـظار الى الشمال ، حيث تقـع اسبانيـة أو شبه جـزيرة ايبرية ، عـلى الطرف الجنـوبي الغـربي من القـارة الأوروبيـة ، وتكاد تكـون متصلة بالبّـر الأفريقيـة ، لولا ذلـك «المجاز» الضيق الـذي يفصل ما بينهما ، خـاصة بـين سبته والجـزيرة الخضـراء . ولكن على الـرغم من هذا الامتداد شبه الـطبيعي لاسبانيـا ، انطلاقـاً من المغرب الأقصى ، فـإن ثمة تسـاؤلات تواجه الباحث إزاء هذه العملية التي انتهت الى السيطرة عـلى معظم اسبـانية ، إذا مـا كانت مدفـوعة بخـطة معدة سـابقاً في دمشق ، التي شجعت هـذا النوع من الأعمـال التوسعية في عهـد الوليـد بن عبد الملك؟ أم أنها مجـرد فكرة خـاصة من أمـير القيروان (الأسم الغالب على موسى بن نصير)، الذي تحدثت المرويات عن طمـوحه الى المـزيد من النفوذ والسلطان[٣] وأم أن ثمة دوافع اقتصادية تقدمت عـلى كل الأسبـاب، جاذبـةً انتباه موسى وجنوده الى هذه البـلاد التي لم تخلُ اخبـارها من الاثـارة ، في وقت اصبح هؤلاء عـلى ابوابهـا القريبـة ؟ أم أن اسـطورة « فلورنـدا » FLORINDA تـدخلت بشكل ما في بواعث هذه العملية ، انطلاقاً من محاولة ابيها (يـوليان)، الانتقـام لشرفـه الملوّث بواسطة الأمويين ، من الملك القوطي روذريق RODRIGO[٤] ، بعد أن أصبح هؤلاء اسياد المنطقة الأقوياء .

---

(١) ينسب الى قبيلة نفزة . ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٤ .

(٣) الامامة والسياسة ج٢ ص ٧٠ - ٧١ .

(٤) تقول الرواية أن يوليان - حاكم سبتة - ارسل ابنته فلورندا الى بلاط الملك القوطي في طليطلة ، على عادة الاسر النبيلة ، للتأدب بآداب البلاط بين وصيفات القصر ، فرآها روذريق ، وكانت تتمتع بحظ وافر من الجمال ، فاعتدى عليها . اخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص ٢٠ . ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٠٥ .

والواقع أن ثمة تساؤلات عديدة ، قد لا يدخل بعضها في نطاق البحث العلمي الرصين ، على غرار اسطورة فلورندا ، أوردها المؤرخون[1] في مناقشتهم لدوافع العبور الأموي «المجاز» الى اسبانية . ولكن على الرغم من وجاهة بعض الأسباب التي أشرنا اليها في معرض التساؤل السابق ، فإن هذه العملية غير منفصلة عن التكوين التاريخي لأسبانية قبيل ذلك ، حيث شكّلت حتى اواخر القرن الرابع الميلادي ، المقاطعة الغربية في دولة الرومان ، التي أخذت تفتقد محتواها الأمبراطوري ، تحت ضغط الغزو الجرماني على ممتلكاتها ، لا سيما الجزء الغربي منها . وكان على عاصمتها روما ، أن تدفع الثمن باهظاً أمام هذه الموجة العاتية ، مساومةً على اسبانية التي تنازلت عنها للقوط الغربيين (احدى المجموعات الجرمانية)، قبل أن تضطر الى الاستسلام النهائي في اواخر القرن الخامس الميلادي[2].

وكان الفندال[3] (وهم قبائل جرمانية أيضاً)، قد سبقوا القوط الى اسبانية حيث بذل هؤلاء جهوداً مستميتة لدفعهم الى البّر الأفريقي[4]. غير أن اسياد البلاد الجدد ، لم يكونوا في تقاليدهم ومعتقداتهم الجرمانية الطابع ، أقل تناقضاً من الفندال ، مع طبيعة المجتمع الاسباني ، اللاتيني الجذور والحضارة والعقيدة . وعلى الرغم من تخلّي القوط عن مذهبهم «الاريوسي» ، واندماجهم في المذهب الاثناسيوسي (الكاثوليكي لاحقاً)، في الربع الأخير من القرن السادس الميلادي ، فإن الانصهار الحضاري ظل واهياً بين الحكام القوط والسكان الأصليين.

ولعل هذا الاحتلال ، في وجود شعب اكثر تحضراً من النظام الذي يخضع له ، قد أدّى الى تنافر لم يلتئم تماماً ، خلال نيف وقرنين من الحكم القوطي لأسبانيه[5]. فثمة اقلية حاكمة ، يؤلفها تحالف مصلحي بين الكنيسة والاقطاع[6]، تمكنت من

---

(١) Goston Wiet, Grandeur de L'Islam, P 50- 51

(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ٥٥٨ .

(٣) يُعتقد ان التسميته العربية (الاندلس) Vandalucia ، مقتبسة من اسم هذه القبائل ، ابراهيم بيضون ، الدولة العربية في اسبانيا ص ٦٠

(٤) سعيد عاشور ، اوروبا في العصور الوسطى ج ١ ص ٦٩ - ٧٠ .

(٥) عبد الحميد العبادي ، المجمل في تاريخ الاندلس ص ط؟ - ٣٣ .

(٦) ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ٢ .بيضون ، الدولة العربية في اسبانيا ص ٦٣ .

السيطرة على الملكيات الكبيرة والاستئثار بالمناصب الرفيعة المدنية والعسكرية . وفي المقابل كانت الغالبية من السكان ـ المندرجة ما بين التجار وصغار المزراعين والعبيد وأقنان الارض ، وكذلك اليهود ـ تعاني هذا التمايز وتحمل اعباء الضرائب العالية ، التي أُعفي منها النبلاء وكبار رجال الكنيسه ، فضلاً عن الأضطهاد الديني والاجتماعي ، الذي بلغ ذروته في اواخر اقرن السابع الميلادي[١].

بيد أن العلاقة العضوية بين النظام القوطي وبين الكنيسة والأقطاع ، تعرضت لأشد أزماتها في مطلع القرن الثامن . وكان مصدرها البلاط الملكي نفسه ، حين قام ويتيزا WITIZA[٢] (غيطشه)[٣]، بحركته الاصلاحية الهادفة الى التقليل من طغيان الحكم والتخفيف من عوامل التذمر واسباب النقمة ، مما ادّى الى تدهور العلاقة بين الكنيسة والملك ، الذي وصف بالتسامح و«حسن السيرة»[٤]. ويبدو سياسة ويتيزا الاصلاحيه ، استعدت عليه بشكل خاص رجال الدين ، حيث تآمر عليه هؤلاء بمساعدة قائد كبير في الجيش ، وهو روذريق RODRIGO الذي أطاح به ـ أو بأبنه ـ حسب المرويات ـ وجلس مكانه على العرش[٥]. ولم تكن هذه الحادثة ، سوى بداية للأزمة السياسية ، التي أدت الى انفجار الوضع في اسبانية ، حيث قامت معارضة شديدة في وجه الملك الجديد ، بقيادة ابني ويتيزا اللذين رفضا الاعتراف بالأمر الواقع[٦]،وتوسّلا مختلف الطرق للقضاء على روذريق . وقد نجحا في استقطاب عدد من فئات المجتمع الأسباني ، في الوقت الذي توجهت فيه انظارهما الى القوة النامية ، على الضفة الأخرى من المضيق ، حيث أقاما علاقات ودية مع الأمويين ، ربما بصورة مباشرة أو عبر يوليان ، حاكم سبته .

وهكذا فإن الصورة الداخلية المضطربة للحكم القوطي ، ربما انطوت على مفتاح

---

(١) ابراهيم بيضون ، الدولة العربية في اسبانيا ص ٦٣ .

(٢) مختار العبادي ، في التاريخ العباسي والاندلسي ص ٢٦١ .

(٣) أورد ابن عذاري اسمه « وخشندش » . البيان ح ٢ ص ٢ . راجع ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ٥٦٠ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ح ٤ ص ٥٦٠ .

(٥) المصدر نفسه ج ٤ ص ٥٦١ . ابن عذاري ، البيان ج ٢ ص ٣ .

(٦) اخبار مجموعة ص ٨ .

الـدوافع التي حملت الأمـويين عـلى التفكير بعبـور المضيق الى اسبـانيـة . ففي مقـدمـة الطروحات الموضوعية ، هنالك العامل المشجع ، المرتبط بانهيـار الوضـع الداخـلي في مملكـة القوط ، وهنـالك العـامل العسكـري ، حيث كان الأمـويون ، خـلافـاً لهؤلاء يختتمون بانتصاراتهم الأخيرة ، اطول العمليات الحربية في التاريخ العربي الاسلامي ، كان من نتائجهـا تطويـع البربـر وإدماجهم في القـوة العربيـة المقاتلة ، وتحجيم النفـوذ البيزنطي في افريقية ، وانطلاقة الأمـويين البحـرية في غـربي المتوسط . وهنـالك ايضـاً العامل الجغرافي الذي كان له تأثير كبير في تنفيذ العملية الكبرى ، انـطلاقاً من الـواقع البيئي المشترك بين المغـرب الأقصى واسبانية ، حيث بدت الأخيـرة اكثر انفتـاحاً عـلى الجنـوب ، منهـا عـلى الشمـال الأوروبي ، الـذي تتصـل بـه عبـر جـدار البـرينيـه PYRENAEI، فضلاً عن العامـل التاريخي ، الـذي وحّد لقـرون خاليـة ومتواصلة ، ظروف كل من الاقليمين المتجاورين ، على الصعد الحضارية والبشرية والسياسية .

وأخيراً لا بّد من التنويه بالعامل السياسي ، الذي ربما كان أكثر العوامل اتصالاً بعملية الفتح الأموي لاسبانيه ، حيث كان التوجه نحو الدولة القوطيـة ، من حتميات المرحلة التي أوجدهـا استكمال العمليـات الحربيـة في افريقيـة حتى السواحـل الغربيـة والشمـالية للمغـرب الأقصى . فالتقت هـذه المعطيـات على الأرجـح ، مـع شخصيـة طموحه ومغامرة لدى موسى بن نصـير ، قبل أن تستـوعب ذلك كله ، نـزعة تـوسعية لدى الخليفة الوليد ، الذي لم يتردد في إشعال معظم الجبهات في ذلك الحين .

ومع المراحل الأولى لعملية الفتـح الأموي والاستعـداد لها ، تـظهر لنـا شخصية يـوليان ، كحلقـة اتصال بـين القيروان وطنجـه من جهة وبـين التيار المنـاوىء للملك القوطي في اسبانية من جُهة ثانية . وفي معرض البحث عن انتماء محدد لهذه الشخصيـة الغامضة ، ربما مال الاعتقاد بأنه يمثّل بقـايا السيـادة البيزنـطية[1] التي اختلّت في هـذه المنطقة البعيـدة ، بعد الضـربات التي تلقّتهـا في الشام ومصـر وأفريقيـة ، مما جعـل ليوليان ـ نتيجة لذلك ـ السيادة على الشريط الساحلي ، الممتـد ما بـين طنجه وسبتـه . وفي ضوء الواقع الجديد ، أخذ يوليان ـ الذي كان على صلة جيدة ، كما يبدو بجمـاعة ويتينرا ـ يتودد للأمويين ، بعد أن أصبحوا اسياد المنطقة ، مقابل الابقاء على نفوذه أو

---

(١) ابن عذاري ، البيان ج ٢ ص ٧ . حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٥٣ ـ ٥٤ .

شيء منه ، مما يفسّر عدم سقوط سبته ـ ثغريوليان ـ وتوقف المدّ الأموي عند طنجه الى الغرب منها .

وكان أول اتصال علني ليوليان بالأمويين في هذا السبيل ، قد جرى مع طارق ابن زياد ، حيث ينسب اليه ابن عذاري قوله للأخير : «أدعوكم الى الأندلس وأكون دليلاً لكم»(١)، بعد أن عرض له خلافه مع روذريق ، حسب المرويّة نفسها(٢). ويبدو أن طارقاً ـ والي طنجه ـ قد أطلع موسى ـ الذي كان حينذاك في القيروان(٣)ـ على هذا الأمر ، وما يمكن أن يقوم به يوليان في خدمة الأهداف الأموية التوسعية . وسواءً كان ذلك حقيقة أم مجرد اختلاق حملته الينا المروّيات ، فإن عملية خطيرة كتلك ، ليس من السهولة أخذها بهذا المنطق ، على أنها وليدة ظروف آنية وطارئة . ذلك أن التنافس العسكري ، أو سباق التسلّح ـ إذ اجاز التعبير ـ بين القوتين الأموية والبيزنطية ، ومحاولة الأولى تحقيق التفوق البحري ، لا يمكن فصله عن هذه العملية أو على الأقل عن مقدّماتها الأولى ، حيث جاءت متزامنة مع تصعيد التحرك العسكري للأمويين ، في حوض البحر المتوسط الغربي ، الذي كان من ابرز اهدافه ، الجزر القريبة من السواحل الجنوبية الغربية لاسبانية ، في الوقت نفسه الذي نُوقشت فيه الفكرة جدياً ، في دمشق والقيروان ، وليس في طنجة فقط .

وادي لكة . . «إنها الحشر وليس الفتح» *

بعد اختمار الظروف التي هيأت للأمويين نجاحاً جديداً في سياستهم التوسعية ، كان بعض مئات من الجنود يأخذون طريقهم عبر المضيق الى جزيرة بالوماس PALO-MUS ، في مهمة استطلاعية ، بقيادة طريف بن مالك المعافري(٤)، حيث لا زال اسمه مطبوعاً على ذلك المكان الى اليوم (جزيرة طريف TARIF). ولعله اجتمع الى يوليان وبعض المعارضة القوطية ، قبل قيامه بتنفيذ المهمة التي عُهدت اليه ، حيث اصاب من النجاح ، ما جعل تقريره من العناصر المشجعة لتحرك الحملة الرئيسية

(١) البيان المغرب ج ٢ ص٦
(٢) المكان نفسه .
(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٠٥ .
(*) القول المنسوب لموسى بن نصير ، واصفاً للوليد بن عبد الملك هذه المعركة .
(٤) خرجت الحملة في رمضان من سنة احدى وتسعين للهجرة . اخبار مجموعة ص ٦ .

وتوقيتها ، بعد أقل من عام على مهمته .

وكان القائد الذي اختاره موسى ، هـو طارق بن زيـاد الذي سبق أن شـارك في عمليات المغرب الأقصى وتولى بعدها ادارة طنجه والاتصالات بيوليان ، الى آخر هـذه المهمات التي جعلته مقرباً من موسى وحائزاً على ثقته . ولقد اعتبر هذا الاختيار سابقة في الفتوح العربية الاسلامية ، إلّا أنه توافق ومفهوم أمير القيروان إزاء هـذه المسألـة ، حيث عمد الى استقطاب البربر واحتوائهم، ضمن أهداف مشتركة مع العرب . وكان من ثمرات هذه السياسة الـذكية ، امتصـاص النقمة والاستعـداء من جانب البـربر ، الـذين اخذوا يلتمسون دورهم في المجتمع الجـديد ، وبـالتالي الحـرص عـلى تـوظيف طاقتهم القتالية في خدمة اهدافه العسكريـة وراء المضيق ، مما يفســر غلبة البـربر في حملة طـارق . غير أنـه لم يشأ اعـطاء الأخيرة سمـة غير عـربية ، وذلـك بايجـاد مجلس قيادي ، كان معظم عناصـره من العرب ، فضـلاً عن دور خطير ، كـان يشغله مغيث الرومي (مولى الوليد) الذي كان واسطة الاتصال بين قيادة الحملة وبين دمشق[١] .

وبعـد اكتمال الاعـداد لهذه العمليـة ، أقلع طارق بن زيـاد بحملتـه من ميناء سبته[٢]، على متن سفن ابحرت من قاعـدة تونس عـلى الأرجح ، مضـافاً اليهـا سفن أخرى قيل أن يوليان قدّمها للقائد الأموي ، اسهاماً منه بتسهيل مهمته[٣] . ولكن يبدو أن أكثر مساعدات الأول قيمة ، ما زوّد به الثاني من معلومات عن الوضع الداخلي في اسبـانية ، دون أن تكـون مصادفـة أن تتم هذه الحملة ، في وقت كـان الملك القـوطي منصرفاً الى قمع حركة تمرّد في الشمال[٤]، بينما عاصمته تعـجّ بالمتآمرين عـلى حكمه . ولعل طارقاً كان على مقربة من هذه الأجواء واتصال سريع بتطورات الوضـع الداخـلي في اسبانية ، مما دفعه الى التحرك بثقة ورباطة جأش ، الى تلك المغامرة الكبيرة .

ومـا لبث أن أرسى بحملته ، تحت اقـدام الجبل الـذي عُرف حتى اليـوم باسمه

---

(١) ابراهيم بيضون ، الدولة العربية في اسبانيا ص ٦٨ ـ ٦٩ .
(٢) السنة الثانية والتسعون للهجرة . ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ٩٣ .
(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٠٥ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ٥٦٢ .

(مضيق جبل طارق GIBRALTAR) ، وقام بعمليات عسكرية ناجحة ، اسفرت عن احتلال قرطاجة CARTEGA والجزيرة الخضراء ALGERCIA[1]. وقبل أن يصمم على الصعود شمالاً في العمق الاسباني ، كان يتلقى دعماً جديداً من موسى ، الذي راقب باهتمام شديد أخبار الحملة من الساحل الأفريقي . هذا على الجانب الأموي ، حيث البداية كانت مشجعة والمواقع العسكرية معزّزة . اما على الجانب القوطي ، فإن روذريق على ما يبدو لم يعط الأخبار التي وردته عن توغلّ الأمويين في جنوبي مملكته ، ما تستحق من الاهتمام ، واضعاً هذه العملية في نطاق لا يتجاوز الغارات الحدوديه او غزوات النهب ، وبالتالي فإن تطويقها والقضاء عليها لن يأخذ ذلك الجهد الكبير . بيد أن الملك القوطي ، سرعان ما اكتشف خطأ تصّوراته ، بعد أن وجد قوة منظمة ومتلاحمة ، تشق طريقها بهدوء وثقة الى المدن الاسبانية . فعاد الى عاصمته (طليطلة)، للقيام بتعبئة سريعة ، واستجماع مختلف الطاقات ، لدى انصاره ومعارضيه على السواء . ومن هناك ، توجّه بقواته الثقيلة[2] جنوباً ، واتخذ معسكراً له حول بحيرة لاخاندا LAGO DE JANDA ، التي يقطعها نهر برباط عبر وادي لكّة الشهير . وعلى الضفة اليمنى لهذا النهر ، جرت معركة طاحنة قضت على الجيش القوطي الرئيسي ، ومعه الملك الذي اختفى منذ ذلك الحين ، الّا في الاساطير الاسبانية ، التي تمسّكت بعودته ، ليقود حركة الانتقام ضد العرب المسلمين[3].

والواقع أن الانتصار الباهر الذي حققه الأمويون في «وادي لكّة»، كان حدثاً غير عادي في تاريخ اسبانية ، التي خضعت حينذاك لتغيير جذري ، أصاب المجتمع بكافة طبقاته . فقد كانت هذه المعركة ، الباب الكبير الذي دخل منه العرب المسلمون الى هذه البلاد ، والبقاء فيها نحواً من ثمانية قرون من الزمن ، كما كانت المدخل الى عدة محاولات ، استهدفت تغيير الخارطة السياسية في العالم الوسيط ، بعد أن توغل الخطر الأموي الى قلب القارة الأوروبية .

وكان ثمة ما جعل الأمور تتخذ حجمها الحقيقي ، في اعقاب الهزيمة الكبرى

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٠٦ . ابن عذاري ، البيان ج ٢ ص ٨
(٢) أخبار مجموعة ص ٨ .
(٣) المصدر نفسه ص ٩ . ابن عذاري ، البيان ج ٢ ص ١٠ .

التي لم يكن لها انعكاس متكافىء على المجتمع الممزق ، حيث بدا متهيئاً أو كـاد لهـذا «المنقذ» الآتي من الجنوب ومعه قيمه وافكاره الجديدة . فلم يعد من سبيـل لتطويق مـا حدث أو تعديل مسار حركة التاريخ ، بعد انهيار المقاومة القـوطية واختفـاء روذريق ، وانفتاح أبواب المدن الكبرى أمام القائد الأموي المظفر . وبـاستثناء معـركة استجـه[١] ASTIGI، التي خاضتها فلول الجيش القوطي المهزوم ، في محاولة يـائسة لعـرقلة تقّدم الأمويين ، فإن هؤلاء لم يصطدموا بأية مقاومة جدية ، إذا تجاوزنـا ما يمكن أن نسميـه «حرب المدن»، التي تمت بطريقة مبرمجة دون أن تؤثر على سير القوة الرئيسية ، المتجهّة نحو العاصمة . ولعل أحدى المفارقات التي تجلت حينذاك ، أن الجالية اليهودية كانت في خدمة العمليات العسكرية للأمويين ، يحدوها الى اتخاذ هذا الموقف ، ما عـانته من اضـطهـاد ديني واجتمـاعي ، فضـلاً عن الضـرر الشـديـد الـذي لحق بـأوضـاعهـا الأقتصادية .

وهكذا سقطت قرطبة Gordoba الواقعة على نهر الوادي الكبير، ولحقت بها طليطلة على نهر تاجة Tago ، تلك الحاضرة القوطية الشهيرة التي كرّست انهيار الملامح الأخيرة للنظام القديم . ومن هذه المدينة ، طارد القائد الأموي ، بقايا الهاربين منها باتجاه الشمال الغربي ، الى وادي الحجارة Guada la Jara، لينتهي الى مدينة صغيرة (المائدة) ، في المنطقة التي تقع فيها مجريط (مدريد) - العاصمة الحالية - قبل أن يعود الى طليطلة بعد نيف وعام من بدء الحملة[٢] .

ومع عودة طـارق ، تنتهي بنجاح بـاهر المـرحلة الأولى من العملية الكبـرى التي استهدفت السيطرة على اسبانية . ذلك أن مرحلة ثانيـة ستقترن بـأمير القيـروان موسى ابن نصير، الذي أقلع بدوره الى الجزيرة الخضراء ، بعد الأخبار المشجعـة التي وصلته من قـائده المنتصـر . ولعله أدرك خطورة الانتشـار الواسـع لقواتـه ، في بـلاد لا يـزال معظمها مجهولاً أو يكاد ، حين اتجّه الى تعزيز موقعها المعنوي والعسكري ، عبر وجوده معها على ساحة القتال . وسرعان ما التحق بقائده تحت تـأثير واقـع ، فرضتـه المرحلة المستجدة[٣]، دون أن يحمل ذلك أية خلفية تنافسية إزاء قائده المقربّ والأثير ، كما هـو

(١) أخبار مجموعة ص ٩ .
(٢) خريف ٩٣ هـ . المصدر نفسه ص ١٤ .
(٣) Levi- Provençal, Hist de l'Espagne musulman. T. I. P24.

شائع في الرواية التاريخية[1]. فلو كان دافعه الى تلك المبادرة ، خاضعاً للعلاقة الشخصية ، لاختار الطريق السهل الى تحقيق مآربه الخاصة ومحاسبة قائده الذي قد يكون تجاوز التعليمات والأوامر ، حسب زعم الرواية[2]. ذلك أن موسى قد اتخذ طريقاً ، لم تمرّ عليه اقدام عربية ، عندما اتجه نحو الشمال الغربي الى اشبيلية SEVILLA ، الهدف الرئيسي في خطته ، تلك المدينة العريقة والمحصّنة والواقعة ايضاً على نهر الوادي الكبير[3]، مما جعل خضوعها ، امراً غير سهل المنال . وبعد سقوطها[4] الذي لم يكن على ما يبدو حاسماً ، اتجهّ الى ماردة MARIDA ، (على نهر وادي آنه)، التي لحقت أيضاً باشبلية . وما لبثت هذه الأخيرة أن خرقت الاتفاق وعادت الى التمرد ، الذي تولى مهمة قمعه عبد العزيز بن موسى ، مما كان سبباً في اتخاذ عمليات تنظيمية مترامنة مع التقدم العسكري ، لا سيما في هذه المنطقة التي بدأ التعريب فيها على يد عبد العزيز ، الذي كان الساعد الأيمن لأبيه في ذلك الوقت المبكر[5].

وفي هذه الأثناء كان طارق متتبعاً لخطوات موسى بن نصير ، حتى إذا شعر باقترابه من طليطلةخرج لاستقباله في طلبيرة[6] TALAVERA ، التي شهدت على الأرجح اجتماعاً له صبغة عسكرية ، وذلك لمناقشة تطورات المرحلة التالية من الخطة التوسعية في شبه جزيرة ايبيرية . ذلك أن القائدين خرجا بعد قليل في حملة مشتركة ، استهدفت سرقسطة ZRAGOZA في اقليم اراغون ARAGONE ، ثم افترقا بعد سقوطها ، حيث سار موسى الى طركونة على البحر المتوسط . ومن ثمّ الى برشلونة التي قيل إنها سقطت على يده أو على يد ابنه عبد العزيز في وقت لاحق[7]. ومعنى ذلك أن الزحف

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٥ . ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٠٧ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٨٤ .

(٢) ابن عذاري ، البيان ج ٢ ص ١٤ .

(٣) الحميري ، الروض المعطار ص ١٨ .

(٤) شوال من سنة ٩٤ هـ . أخبار مجموعة ص ١٧ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٨ . Levi - Provencal, Hist de l'éspagne Musulman T. I P25.

(٦) تقع على بعد سبعين ميلاً من طليطلة . الحميري ، الروض ص ١٢٧ ـ ١٢٨ .

(٧) Levri - Provencal, Ibid, T 1. P 28.

الأموي بلغ عتبة البرينية ، الجبال الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا ، في الوقت الذي حمل فيه مغيث الرومي أمراً من الوليد بايقاف العمليات الحربية . ولكن، هل كان ذلك الأمر حقيقة ، وبالتالي كان قرار الخليفة عقبة في وجه الحلم الكبير الذي راود بعض القادة الأمويين في اسبانية ، في اختراق ذلك الحاجز والامتداد الى عمق القارة الأوروبية . وفي الواقع لا نملك اجابة محدّدة على هذا التساؤل ، وإن كان وضع الجبهة الاسبانية في تلك الأثناء ، خاضعاً لتطورات البلاط المرواني ، الذي لم يشهد فقط غياب خليفة ومجيء آخر ، وانما شهد كذلك تبدّلاً في الاتجاه السياسي ـ القبلي ، وحتى التوسعي الذي كانت له أولوية على جبهة أخرى في عهد سليمان بن عبد الملك .

أما بالنسبة لطارق فقد اجتاز وادي الابرو VAL DE LEBRO الى ليون LEON ، ومنها الى استورقة ASTORGA في اقصى الشمال الغربي ، مطارداً في منطقة جبلية وعرة ، بقايا القوط الذين التجأوا الى كهوفها بقيادة رجل يعرف باسم «بلاي»(١) وهنا تشير المرويّات الى أن عدم استكمال هذه المهمة ، نتيجة العوامل السالفة ، قد شكلّ ثغرة في تكوين هذه البلاد العربي الاسلامي ، تهبّ منها العواصف والحركات المعادية . فقد ظلّ اقليم استورقة ، الارض الخصبة لنمو الشعور الوطني لدى الاسبان ، بحيث لم يمض سوى القليل من الوقت ، حتى كانت عملية التحرير او الاسترداد RECONQUISTA(٢) ـ حسب التعبير المتداول ـ تشق طريقها ، ربما بشيء من البطء نحو الجنوب .

وهكذا تمّ انجاز احدى أهم العمليات العسكرية في التاريخ الأموي ، نجح خلالها بنو مروان بقيادة موسى وطارق في اختراق القارة الأوروبية غرباً ، بعد أن فشل بنو سفيان في هذه المهمة انطلاقاً من المشرق ، حيث بدأت همومها الاسلامية تأخذ طابعها الجدّي منذ ذلك الحين(٣) . وإذا كانت الانتصارات الباهرة تبتلع صانعيها في غالب الأحيان ، فإن قادة هذه العملية خضعوا لهذه القاعدة ، وانعكست عليهم مع

---

(١) بيضون ، الدولة العربية في اسبانيا ص ٨٣
(٢) المكان نفسه
(٣) المكان نفسه

آخرين ايضاً ، خلفيات الصراع السياسي في عاصمة الخلافة الأموية . فالعودة المظفرة ، على رغم الموكب العظيم، كان متربصاً بها سوء الحظ، حيث صادفت أو كادت وفاة الوليد بن عبد الملك ومجيء أخيه وولّي عهده سليمان الى الحكم . وكان الأخير حاقداً ، ربما لاسباب تتعلق بمحاولة إبعاده عن ولاية العهد ، على سياسة سلفه القبلية ، دون أن تنجو من ذلك القيادات البارزة والمنجزات التي ارتبطت بهم . ومن هذا المنظور ، كان سليمان أكثر خضوعاً لمزاجه المتقلب وانفعالاً بعواطفه القبلية ، التي أودت بحياة شخصيات لامعة في التاريخ الأموي . أما بشأن قادة العملية التي انتهت الى السيطرة على اسبانية ، أو الأندلس ، التعبير الأكثر تداولاً منذ ذلك الحين ، فكان نصيبهم ايضاً الملاحقة والأضطهاد ، مما أدى الى وفاة موسى فقيراً منسياً[1] وغياب طارق عن الذاكرة ، بعد عودته الى دمشق ، فضلاً عن افتقاد البلاط في الأخيرة لمغيث الرومي ، الذي عاش بدوره منفياً في الأندلس[2]. وامتدت سياسة التصفية الى الأخيرة ، مستهدفة أول ولاة الأمويين في الأندلس وأحد كبار المشاركين في السيطرة عليها عبد العزيز بن موسى ، الذي وقع ضحية اغتيال غامض ، ولكن دون أن يكون بعيداً عن هذه الموجة التي امتدت من دمشق الى مناطق «الفتوح» الجديدة ، تحت زعم التأثر بسلوك وتقاليد القوط ، عبر زوجته اجيلون EGILONA ابنة الملك روذريق[3].

جبهات أخرى في العهد المرواني الأول . .

بلغ المدّ التوسعي الأموي ، ذروته في عهد الوليد بن عبد الملك ، أحد أكثر الخلفاء المروانيين تشجيعاً لهذا الأتجاه ، حيث كان لديه من الظروف الملائمة ، ما دفعه الى إعطاء هذه السياسة المحّل الأول من اهتمامه . ومن البديهي أن استقرار هذا

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ٥٦٦ .

(٢) دوزي ، تاريخ مسلمي اسبانية ج ١ ص ١٣٤ . Levi - Provençal, op. cit T I. P 29.

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢١٢
Levi - Provençal op. cit TI . P 33

ورد اسم أجيلون « ايله » عند ابن عذاري ، الذي ذكر انها ارملة الملك القوطي . البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣ .

العهد وخلوه من الاضطرابات الداخلية ، قد أوجدا المناخ الجيد لتحقيق منجزات عسكرية على عدة جبهات في وقت واحد . فكانت المرة الأولى في تاريخ الدولة الأموية ، التي تتفرغ فيها القوة المقاتلة الى مهمات غير داخلية ، هي في الواقع من ثمرات العهد السابق ، وما ساهم فيه عبد الملك بجهوده المكثفة ، لتحقيق الاستقرار الذي نعم به الوليد .

وكان ابرز منجزات تلك السياسة بلا جدال ، استكمال السيطرة على المغرب ، والعملية الكبرى التي تعتبر امتداداً لها الى اسبانية في القارة الأوروبية . على أن ثمة منجزات هامة ايضاً ، تزامنت مع هذه العملية كان مسرحها في اواسط آسيا ، حين اجتاز والي خراسان قتيبة بن مسلم الباهلي نهري جيحون وسيحون ، محققاً السيطرة الأموية على عدد من الحواضر والأقاليم ، مثل بخارى وسمرقند وبيكند والشاش وفرغانة ، ومتابعاً تقدمه الى مواقع أخرى ، ما بقي الوليد في الخلافة[١]. والى الجنوب الغربي ، كان قائد آخر من الاتجاه القبلي القيسي الذي ينتمي اليه قتيبة ، وهو والي كرمان ، محمد بن القاسم الثقفي ، يقوم في الوقت نفسه بعمليات عسكرية مشابهة ، وذلك في المناطق الواقعة الى جنوب نهر السند ، ليستولي على الديبل[٢] الواقعة على دلتا النهر ، ويصعد منها شمالاً الى راور التي سقطت عنوة»[٣]، ثم الى ملتان ، الى الجنوب من البنجاب[٤]. ولقد جاءت هذه العمليات الناجحة ، التي قام بها كل من الباهلي والثقفي ، متكاملة مع بعضها الى حدّ كبير ، سواءً من حيث التوقيت أو من حيث الوصول الى أهداف توسعية في اواسط آسيا ، التي انتقلت اليها السيادة الأموية ، شأن افريقية والأندلس في الغرب .

والواقع أن العهد التالي ، على الرغم من طموحه الى تحقيق منجزات توسعية عظيمة ، فإن سياسته الداخلية كان لها تأثير كبير على كبح هذه الموجة والحدّ من

---

(١) البلاذري ، فتوح ص ٤٠ - ٤١ . ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ٥٢٨ , ٥٤٢ .
(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٥٣٧ (كراتشي حالياً) .
(٣) البلاذري ، فتوح ص ٤٢٦ .
(٤) المكان نفسه . ابن الأثير ج ٤ ص ٥٣٧ - ٥٣٩ . راجع ايضاً : R. Mantran, Lexpansion Musulmane. P 133.

نتائجها الايجابية ، وكان مردودها اكثرسوءاً على الجبهات الشرقية ، متأثرةً في الغالب بسياسات الحجاج بن يوسف ، الذي كان يعطي الأولوية للقيادات القيسية على حساب اليمنيين ، حيث تعرض هؤلاء للابعاد أو الاضطهاد في عهده ، مما جعل سليمان ، ذي الميول اليمنية وصديق الأزديين (آل المهلب)، يترّبص بجماعة الحجاج وقادته ، ويقضي على قتيبة ومحمد بن القاسم ، بعد أن آلت اليه الخلافة .

وكانت الجبهة الوحيدة في عهد الوليد التي لم تتجاوز العمليات الحربية فيها النطاق التقليدي المحدود ، هي الجبهة الشمالية ، بعد ابتعاد المقاتلين الى مناطق أخرى في الشرق والغرب ، مما أصابها الجمود وتراجعت الى الوراء في اهتمامات الدولة التوسعية . ولم يكن هذا الموقف نابعاً من تغيير ما ، في العلاقات العدائية بين الأمويين والبيزنطيين ، حيث شكل هؤلاء دائماً مصدر الخطر الرئيسي ، ولكن معطيات الواقع العسكري لم تشجع على توسيع دائرة العمليات الحربية ضد الدولة البيزنطية . فثمة تجارب سابقة ، وقف خلالها الأمويون على الصعوبات التي تحول دون سيطرتهم على القسطنطينية ، ذلك الهدف الحيوي لخلفائهم، بدءاً بمعاوية الأول وانتهاء بسليمان بن عبد الملك . بالاضافة الى ذلك ، فإن طبيعة الأرض في آسيا الصغرى وهي خالية من السكان أو تكاد لإعتبارات جغرافية وأمنية ، قد شكلت أحد العوائق في هذا السبيل ، وربما نقطة الضعف في العمليات الأموية التي عانت من التغطية الكافية لخطوطها الخلفية في هذه المنطقة . وفي المقابل راهنت القسطنطينية على الوقت ، الذي حالفها بصورة شبه دائمة ، واعتمدت على جيوبها المتناثرة في آسيا الصغرى ، التي كانت تزوّدها بالمعلومات وبأخبار التحركات العسكرية المعادية في الوقت المناسب . بالاضافة الى ذلك ، فإن الأمويين ، كقوة بحرية ، لم يبلغوا حينذاك ، على الرغم من النمو المتصاعد لهذا السلاح ، المستوى المتكافىء مع البيزنطيين، لا سيما الادوات الفاعلة في الحصار البحري .

وفي ظلّ هذا الواقع ، اقتصرت العمليات في هذه الجبهة على حرب الحصون[1] ـ إذا جاز التعبير ـ في عهد الوليد ، المندرجة في اطار النظام التقليدي

(١) سقطت في أيدي الامويين مجموعة من هذه الحصون مثل : عموربة وسلوقنة ومرعش وهرقلة ومصيصة وطرسوس . وكانت معظم الحملات التي استهدفتها بقيادة مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد . ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ٥٢٨, ٥٣١, ٥٣٢, ٥٣٥, ٥٧٨ .

المعروف بالصوائف والشواتي ، الذي استقرّ في عهد سلفه . ولعل هذه العمليات الصغيرة ، كانت مقدمة لعملية كبرى ، جرى التخطيط لها في بلاط الخليفة، استهدفت الهجوم على القسطنطينية ، الاّ أن موت الوليد حال دون تنفيذها في الوقت المناسب . ولكن ذلك يبقى في حدود الأفترض والاجتهاد، كون فكرة القضاء على الدولة البيزنطية ، لم تعد موضع نقاش في ذلك الوقت ، بعد الفشل الذي اصاب المحاولات الأموية في هذا السبيل .

بيد أن الفكرة استعادت بريقها مع خلافة سليمان بن عبد الملك الذي جاء بعد أخيه الوليد ، وقد تجاذبته مجموعة من العقد ، كان ابرزها الشعور بالعظمة والتفوق . ولعلها من منظور آخر ، تأثرت بالاستقرار ، فضلاً عن الترف ، الذي بلغ حدّاً لافتاً في ذلك العد ، بحيث تطابقت ونمو الاتجاه الأمبراطوري في الدولة الأموية . فقد اراد سليمان الاستئثار بالانجاز الخطير ، ذلك الذي أفشل اسلافه أودفعهم الى التهيّب ، مكرّساً كل جهوده وطاقاته في خدمة هذا الهدف الذي بدا محور سياسته ، يؤكد ذلك انتقاله وأركان حكمه الى دابق[1] في شمالي الشام ، ليكون قريباً من الأحداث ، مراقباً تطوراتها الدقيقة . اما الحملة الكبرى فقد تابعت طريقها الى آسيا الصغرى بقيادة أخيه مسلمة ، الذي امتلك خبرة طويلة في الحروب الأموية البيزنطية[2]. ويبدو أن الخليفة راهن بحدود معينة على اضطراب الوضع الداخلي في القسطنطينية ، بعد أن قامت معارضة قوية للأمبراطور، بزعامة حاكم عمورية «ليوّ» الذي كان من اشد المناوئين له ، واستطاع في ظلّ هذا الموقف ، استدراج القيادة الأموية الى الاعتقاد ، بأنه سينضم اليها مقابل انقاذ مدينته من حكم الأمبراطور[3]، حيث رافق بالفعل مسلمة الى القسطنطينية ، ولكن ليخوض معركته الخاصة في الوصول الى عرش الأمبراطورية . وما لبث أن حقق آماله وأصبح سيد الموقف في العاصمة البيزنطية ، بعد دخوله الى هذه الأخيرة مطيحاً بسلفه . وكانت المناداة به امبراطوراً ، في وقت كانت المدينة مهددة بالحصار الأموي[4]، تمثل الدور الانقاذي الذي ترتّب عليه القيام

---

(١) الطبري ج ٨ ص ١١٨ .

(٢) انطلقت في عام ٩٨ للهجرة. المصدر نفسه ج ٨ ص ١١٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ٨ ص ١١٨ .

(٤) العدوي ، الامويون والبيزنطيون ص ٢١٩ .

به ، مزوّداً بمعلومات هامة عن الحملة الأموية ، مما ساعده على تأمين فرص أفضل للصمود والدفاع .

بيد أن مهمة الأمبراطور البيزنطي الجديد ، لم تكن على جانب من السهولة ، حيث كان عليه مواجهة حصار شديد ، وقوة لم يسبق تجنيدها سواء على الصعيد البّري أو البحري ، وتنسيق بينهما تام لعزل القسطنطينية ودفعها الى الاستسلام . فقد عاشت الأخيرة شهوراً قاسية ، ولكن دون أن يطرأ تغيير ما على الوضع العسكري ، الذي تراوح مكانه ، دون أن يتمكن القائد الأموي من اختراق الاسوار الحصينة ، بما لديه من وسائل ، اثبتت عدم جدواها مرة أخرى ، مما دفعه الى اتخاذ خطة بديلة ، تعتمد على اطالة الحصار والتحالفِ مع الوقت . وهذا ما يفسره توقف العمليات الهجومية مع قدوم الشتاء ، وإعداد بيوت خشبية لاقامة الجنود ، تحسّباً للبرد والصقيع[1] . ولكن القسطنطينية تحدّت كل اساليب الحصار بما فيها التجويع ، بينما القوات الأموية التي طالت مهمتها حتى تجاوزت العام ، لم تكن خالية من المشاكل ، لا سيما التموينية ، التي أخذت تنعكس على حالة المقاتلين النفسية . بيد أن الضربة المفاجئة التي اصابت معنوياتهم ، كان في وفاة الخليفة عبر ظروف غير متوقعة ، منطفئة معه الحماسة الخاصة التي رافقت الحملة الثانية ، والاصرار على تنفيذ المهمة الصعبة . ولم يكن الخليفة الجديد (عمر بن عبد العزيز) توسعياً كأسلافه ، فعمد الى ايقاف الحصار واستدعاء مسلمة وقواته الى دمشق ، معلناً النهاية الفاشلة لمحاولة اخرى من محاولات الامويين ، الهادفة الى تدمير الدولة البيزنطية ، مما دفع هؤلاء الى طوي ذلك الحلم والعزوف عن هذه الجبهة ، تاركين هذه المهمة لمن يأتي بعدهم .

---

(١) الطبري ج ٨ ص ١١٧ .

العراق المرواني

عودة المركزية السياسية

اذا كان مروان بن الحكم قد انقذ الخلافة الاموية من السقوط ، فان عبد الملك ابنه[1]، نهض بها من التشرذم الى الوحدة ، واكتسبت في عهده ملامحها الخاصة كدولة و«مؤسسة» بصورة ما . ولقد كان الطريق الى السلطة الفعلية حينذاك طويلاً وشاقا ومزروعاً بالألغام ، حيث البيت الأموي لا زال منطويا على بعض خلافاته وتُحاك فيه المؤامرات والدسائس[2]، والخلافة ما انفكّت بدورها خلافتين : احداهما أموية في دمشق والثانية زبيرية في مكة ، والجبهة الشمالية كذلك تخترقها الهجمات البيزنطية وتدفع معها الحدود الى الوراء[3]. وفي خضّم هذه الاحداث الخطيرة جاء عبد الملك رجل الدولة الجدّي والقوي ، ومعه الارادة والعزم لترميم النظام الأموي المتصدع وبناء دولة جديدة متطورة .

ومن الواضح ان رجل بني مروان كان متأثراً الى حد ما بسلفه معاوية ، خاصة في معادلاته القبلية التي اتقنها جيدا ، باقامة توازن بين الاتجاهين القيسي واليمني ، مع

---

(١) تولى الخلافة عام ٦٥ هـ . تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ٣٢٩ .

(٢) قتل مروان خنقا او بالسم ، وتصفية عبد الملك لعمرو بن سعيد بن العاص المطالب بالخلافة . الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٥ - ١٦ - ٢٤ - ٢٥ . الطبري ، ج ٧ ص ٨٤ و ١٨٧

(٣) المسعودي ، مروج ج ٣ ص ٩٨ .

تعـاطف نسبي نحو هـذا الأخير . غـير أن عبـد الملك ربمـا كـان أقـل تـأثـرا بـالنهـج «المكيافيلي» منه ، ودونه استخداما للغـة الحوار ، وان كـان من البديهي ان الاختـلاف بينهما في الطابع والتكوين ، يعود في الغالب الى تأثير المرحلة السياسيـة ذات الوجهـين المختلفـين والى تباين التكـوين الثقافي والأجتمـاعي لدى الأثنـين . فطبيعـة المرحلة التي زامنها عبد الملك ، انعكست على شخصيته الحازمة وغير المترددة ، وهي سمات كادت أن تشمـل الجهاز السيـاسي والاداري ، وحتى العسكري الـذي تعـاون معـه ، حيث كانت الجدية الصارمة اكثر الملامح بروزا لذلك العهد .

كانت الجبهة الداخلية ، الهاجس الرئيسي لدى هذا الخليفـة الذي اولاهـا المقام الاول من اهتمامه ، وذلك عبر برنامج مرحلي ومنظم . ومن البديهي أن خلافة الحجاز كانت لا تزال العقبة الكأداء التي تحول دون استعادة المركزيـة السياسيـة الشاملة لـدولة الأمويين ، مما جعل التخطيط لضربهـا في مقدمـة القرارات التي اتخـذها عبـد الملك في ذلك الحين . وبـدا هذا الأخـير واثقا من حسم الأمـور بالشكـل الايجابي ، من خـلال جهازه العسكري القوي الذي احتفظ بتفوقه وشدة تماسكه بصورة مضطردة .

بيد أن الخليفة عنـدما اتخـذ قراره بـالقضاء عـلى حركة ابن الـزبير ، لم يلجـأ الى مهاجمتها مباشرة في معقلها الحجازي الرئيسي . فقد وجد أن خطـرها الحـقيقي هو في العراق ، حيث استسلم هذا الاقليم بكامله للسيادة الزبيرية ، ممثلةً برجلهـا القوي مصعب ، الـذي كان عـلى عكس اخيه شخصيـة جذّابـة ، تتوافـر فيهـا كـل صفـات الزعامة السياسية . ولذلك فان اخماد الثورة في العـراق والقضاء عـلى مصعب ، يؤدي حكما الى اسقاط النـظام الزبيـري بكامله ، لأن عـوامل الصمـود في الحجاز تكـون قد فقدت الكثير من فاعليتها وجدواها ، بخسـارة الجناح الحيـوي الرئيسي للثـورة . ومن ناحية أخرى فان بقاء احد جيوب الانقلاب القيسي الفاشل المتعاطف مع ابن الزبير ، في منطقة تكاد تكون حدودية بين العراق والشام ، وذلك بـاعتصام زفـر بن الحارث في قـرقيسيا ، كـان مبعث قلق للخليفة من اتسـاع نفوذه ، حيث اصبـح الـزعيم القيسي الأقوى بعد مقتل الضحّاك في مرج راهط .

وما لبث عبد الملك أن قاد بنفسه حملة العراق[1]، بعد أن اجهضت حملته الأولى

(١) ٧١ هـ / ٦٩١م . الطبري ج ٧ ص ١٨٢ .

قبل بضع سنوات ، تحت وطأة العصيان الذي قام به نائبه في الخلافة عمرو بن سعيد[1]. ومن الواضح أن الجبهة الداخلية كانت قد تجاوزت مفترق الخطر ، بتصفية خلافات الأسرة الأموية وتضييق نطاقها ، يُضاف الى ذلك أن جبهة الحدود الشمالية ، كانت بدورها هادئة بفضل جهود مكثفة قام بها الخليفة ، ولكنه كان هدوءا مشروطا بدفع ضريبة مالية للامبراطور البيزنطي ، وربما بتعديل سطحي على الحدود الشمالية لمصلحة هذا الأخير[2]. لقد حسم هذا الخليفة اذن مختلف المشاكل التي كانت تحول دون تصدي الدولة جدّياً لحركة ابن الزبير ، وأصبح نظامه من القوة بحيث باتت المراهنة على اسقاطه في غاية الصعوبة . ولعل كثافة الجيش الذي سار به الى العراق ، كانت تجسيدا لهذه الحقيقة ، حيث لم يستعد هذا الجيش حجمه العسكري القديم فقط ، بل اصبح أكثر تطورا في تفوقه العددي وفي أساليبه القتالية . فقد بلغ من ضخامته أن الحملة كانت تبدو متثاقلة بطيئة ، مما استدعى تعيين قائد حازم على المؤخرة[3]. فكان أن وقع الاختيار على الحجاج بن يوسف الثقفي ، ليقوم بأولى مهماته الناجحة التي كانت بداية تألقه السياسي ، قبل أن يصبح اليد القوية في نظام عبد الملك .

وفي «قرقيسيا»، معقل زفر بن الحارث ، تجنّب الطرفان الحرب بعد نجاح المفاوضات التي اسفرت عن معاهدة ، لم تحمل في مضمونها اكثر من تجميد مرحلي للمشكلة بين الخليفة والزعيم القيسي . فقد التزم هذا الأخير بموقفه المبدئي من ابن الزبير بانتظار جلاء النتائج ، التي سينتهي اليها الصراع الأموي ـ الزبيري ، وذلك من موقع الحياد المطلق ، كما نصت شروط المعاهدة[4]، بينما اقتنع عبد الملك بهذا الحد الأدنى من العلاقة ، متجنّباً استنزاف قواته في حرب جانبية ، ومسيطراً بحكمته على عصبية جنوده اليمنية ، الذين تحركت فيهم غرائز القتال ضد أشد خصومهم في قرقيسيا . وفي المقابل أثبت الزعيم القيسي الخارج من حرب قبلية طاحنة ، بعد نظره

---

(١) الطبري ج ٧ ص ١٧٥ ـ ١٧٦ المسعودي ، مروج ج ٣ ص ١٠٢ .

(٢) المسعودي ، مروج ج ٣ ص ٩٨ . بليايف ، العرب والاسلام والخلافة العربية ص ٢٧١ . دكسن ، الخلافة الاموية ص ٢٠٠ .

(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ٥ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .

(٤) البلاذري ج ٥ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ ، ٣٥٠ .

في التحاور مع الخليفة وحمله على المهادنة ، مع التزامه بالموقف الذي لم يشأ التحوّل عنه حتى في الساعات الحرجة .

وفي الطريق الى الكوفة ، كانت لدى الخليفة على الارجح الرغبة في متابعة الحوار الذي بدأه في قرقيسيا ، وذلك في محاولة أخرى لحسم الأمور بالوسائل غير الدموية . فأجرى اتصالات مع القيادات الكوفية المتحالفة مع ابن الزبير ، لحملها على تغيير موقفها في الوقت المناسب . وكان بين هؤلاء ابن الأشتر الذي فضح هذه المحاولة وهدد قواده ، المتذبذبين في الولاء وحقرّ فيهم التحول السريع من موقع الى آخر(١) . ولكن عبد الملك رغم أنه لم يتوصل الى وقف المجابهة العسكرية ، فانه نجح الى حد كبير في تحجيمها ، بحيث أن الاكثرية من العراقيين المتحالفين مع مصعب حددّت موقفها ، إما بالانضمام الى الجيش الأموي وإما بالتحييد - على غرار الزعيم الكلابي - مجنّبة نفسها عواقب هذا الصراع الذي تبلور لمصلحة الخليفة ، بينما ظلّ ابن الأشتر على رأس الذين التزموا بتحالفهم المصيري مع مصعب والاصرار على مقاومة الأمويين(٢).

كان القضاء على مصعب وحلفائه ، البداية الكبرى لنهاية الانقسام السياسي الذي عانته الدولة الأموية منذ سنوات عشر ، حيث سارت عملية استرجاع الخلافة الموحدة آخر اشواطها الصعبة . فلم يلبث الخليفة الظافر ان دخل قصر الامارة في الكوفة واعلن في خطابه تكريس نهجه في الحكم ، الذي صرّح عنه في دمشق بعد تصفية قريبه عمرو بن سعيد ، وهو التأكيد على ضرب المنشّقين على المركزية ، حتى المنتمين منهم الى اسرته الأموية .

وبعد سقوط الحكم الزبيري في العراق ، تقوقعت الثورة الحجازية بانتظار سقوطها المرتقب . فقد خسرت مقومات الاستمرار ماديا وعسكريا ، كما فقدت آخر

---

(١) الدينوري ص ٣١٢ . راجع ما ورد في الانساب للبلاذري على لسان ابن الاشتر : « كانهم كالمومسة تريد كل يوم بعلاً - وهم يريدون كل يوم أميراً » ج ٥ ص ٣٣٨ .

(٢) جرت معركة غير متكافئة عند دير الجاثليق في مسكن . الدينوري ص ٣١٢-٣١٣. البلاذري ج ٥ ص ٣٣٧ . المسعودي ، مروج الذهب ج٣ ص ١٠٧ .

(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ٣٢٩ .

الفرص في منافسة النظام الأموي الذي استرد عافيته مع الخليفة القوي عبد الملك . ولم تعد المهمة معقدة في الحجاز حيث قام الأخير بتنفيذها مباشرة ، عبر الحجاج ، القائد الذي لمع في حملة العراق متخذاً مدينة الطائف نقطة تجميع المقاتلين قبل الهجوم على مكة[1] . وقد يكون هدف الخليفة من اقامة هذا المعسكر ، هو استدراج ابن الزبير الى حرب استنزافية خارج المدينة المقدسة ، خاصة وانه حسب احدى الروايات التاريخية ، كان أشد المنتقدين للخليفة الأسبق يزيد ، حين قصف قائده الحصين الكعبة[2] . على ان المقاييس غالباً ما تتبدل بين داخل الحكم وخارجه ، وما كان مستنكراً قبل عدة سنوات ، لا يعدم تسويغاً لدى الخليفة المرواني وقائده الحجاج . ذلك ان الحرب الاستنزافية التي شاء الأخير بواسطتها تحطيم قوة ابن الزبير ، ما لبث ان دفع ثمنها الجيش الأموي بعد ستة أشهر من الحصار ، قبل ان يقدم على اتخاذ القرار الحربي الذي تناوله المؤرخون بالاحتجاج الذي انصبّ خاصة على القائد الثقفي [3] على ان ضغط الحصار الاقتصادي والاستنزافي الطويل ، وقذائف المجانيق التي تهافتت على المدينة المقدسة من جبل أبي قبيس ، كل ذلك أدى الى سقوط ابن الزبير ، الذي لم تخنه الشجاعة حتى في اللحظة الاخيرة من حياته ، واضعاً النهاية الدموية لأخطر حركة عرفتها دولة الامويين[4] .

لقد كانت أبرز عوامل الاستمرارية في ثورة ابن الزبير ، هي الاستغلال لعواطف المعارضة الواسعة ضد الخلافة الاموية ، ولكن هذه الحركة بقيت البديل الأقل سوءاً دون ان يطرأ تعديل ما على مواقفها ، التي بدت في كثير من الاحيان مشابهة لمواقف النظام الذي ثارت عليه . ذلك أن الطموح الى السلطة كان المحرّك الأقوى لصاحبها الذي وجد في نفسه تفوقاً على يزيد ، كما وجد غياباً في الزعامة السياسية المعارضة . مما شجّعه على التحرك واعلان خلافته من هذا المنطلق المحدود . فقد حظي بتأييد الحجاز ، الاقليم المنفي سياسياً والمهزوم عسكرياً (الحرّة) عبر محاولة

(١) عام ٧٢ هـ / ٦٩١م) الدينوري ص ٣١٤ وما بعدها .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ج٤ ص ٣٥٠ . ابن طباطبا ، الفخري ص ١٠٣ .
H. Périer, Vie dal- Hadjadj ibn yousof P. 39

(٣) البلاذري ج ٥ ص ٣٦٢ . ابن الأثير ٤ ص ٣٥٠

(٤) قتل عام ٧٣ هـ / ٦٩٢ م . خليفة بن خياط ج ١ ص ٣٤٢ .

ردّ الاعتبار اليه والعودة الى مركزه القديم المتألق . ولم يكن العراق بؤرة المعارضة الثورية ضد النظام الاموي اقل تجاوباً من الحجاز في تأييد ابن الزبير ، على الرغم من التفاوت بين البصرة المتحمسة والكوفة المتحفظة . وفي كل الاحوال كان العراق نقطة الثقل والدعامة الاقتصادية والعسكرية ، لو امكن الافادة منهما بصورة جديّة . ولكن زعيم الثورة تجاهل هذه المعطيات ، وجاءت علاقته مع المعارضة السياسية في العراق تفضح مجدداً قصر نظره في رصد المناسبات الهامة . فهو يرفض الذهاب الى دمشق بعد وفاة يزيد ويفقد الفرصة الكبرى في السيطرة على الحكم المركزي ، كما يستنكف عن تعويضها عندما حانت له في العراق ، لاتخاذه محور نشاطه الاستقطابي في معركته المصيرية ضد الامويين . لقد آثر الاعتكاف في الحجاز ، وهو يفتقد الى كثير من الطاقات الاقتصادية والبشرية المتوفرة في العراق والشام ، كما فاته ان التحول الذي اصابته الخلافة ، بعد حركة الانتشار الواسعة في المشرق وافريقية . قد انتزع تلقائياً الدور المركزي الذي تمتع به الحجاز في الخلافة الراشدية ، بعد أن أصبح غير قادر على استيعاب المتغيرات السريعة . ولعل أكثر النقاط ضعفاً في تاريخ الحركة الزبيرية ، هي الفشل الذريع الذي منيت به على الصعيد الجماهيري . فلم تصل برغم سيطرتها حينا على معظم اجزاء الدولة الاموية ، الى تحقيق حد من المستوى التعبوي المنظم ، يمكّنها من ان تتحول الى « اتجاه » سياسي ، على غرار اتجاهات الاخرى المعارضة كالشيعة والخوارج .

واخيراً ، فان حركة ابن الزبير ، بعجزها عن اقامة تلاحم مع الفئات الشعبية وتعثّرها في استقطاب المعارضة ، اثبتت انتماءها العضوي الى «الارستقراطية» التقليدية ، التي كانت في نفس الوقت المسيطرة على النظام الأموي ، حيث بقي الممثل الرئيسي لمصالح هذه الفئة ، التي تكتلّت بكل قواها حوله .

حركات الخوارج

بعد تصفية جذور الحركة الزبيرية ، استعادت دولة عبد الملك آخر الفصول الحاسمة والمثيرة على طريق استعادة المركزية السياسية . والواقع أن الحركات المعارضة ، استنفدت قواها في صراعاتها الخاصة ، وفوّتت فرصة التكتل والتحالف ضد النظام الأموي الذي أوشك على الأنهيار . فالتوّابون ، الفئة المتحمسة في الحركة

الشيعية ، ساقوا أنفسهم الى حرب انتحارية لم تخلّف وراءها سوى التشنج والانفعال ، والمختار الثقفي الذي رفع شعارات الثأر ضد الأمويين ما لبث أن اسقطه الحكم الزبيري ، مما زاد من حفيظة المعارضة الشيعية ، ليجد نفسه في النهاية امام التحدّي الكبير . وهكذا فان تطاحن القوى السياسية في العراق ، كان له مردود ايجابي على الخلافة الأموية المنتصرة ، في الوقت الذي خرجت فيه هذه القوى ، محطّمةً على الصعيد الزبيري ، محجّمة على الصعيد الشيعي . اما القوة الثالثة التي بقيت خارج نطاق التطاحن الدموي المباشر فهي حركة الخوارج ، «الاتجاه» الوحيد المعارض الذي سيقود المجابهة ضد الامويين في تلك الفترة .

والخوارج ، كما عرفنا ، هم الفئة الانفصالية التي افرزتها حروب صفين وما انتهت اليه من «التحكيم». فقد حدّدوا آنذاك موقفهم الرافض من هذه المسألة ، وتصرفوا كحركة ثورية لها طروحات خاصة في العقيدة والحرب والسياسة . وهي مفاهيم عاشت سلفاً واختمرت في رؤوس هذه الفئة ، وليس مجرد موقف احتجاجي على رضوخ قائدهم (عليّ) للتحكيم .ومنذ الضربة التي أنزلها الأخير بهؤلاء الخوارج في «النهروان»، وهم يصعِّدون عملياتهم العسكرية انطلاقاً من «الأهواز»، المنطقة التي اتخذوها مقرهم شبه الدائم . ومع انتقال الخلافة الى البيت الأموي ، لم يكن الخوارج أقلّ عداءً للدولة الجديدة ، فكان لديهم أسلوبهم الخاص في الهجوم ، وهو اقرب الى حرب العصابات الخاطفة ، بما يعكسه من مداهمة وما يخلّفه من ترويع . وكانت البصرة المسرح المفضّل لعملياتهم العسكرية ، وذلك لاسباب جغرافية كون هذه المدينة تقع على تخوم تجمعاتهم في الاهواز . ولعل اقدم عملياتهم تعود الى بدايات العهد الأموي ، مع «خروج» سهم بن غالب الهجيمي على والي البصرة حينذاك ، عبد الله بن عامر . ولكن هذه العُملية التي اقتصرت ، حسب المصادر ، على سبعين رجلاً ، كانت محدودة وانتهت الى الأخفاق السريع[١] ويبدو أن عملياتهم توقفت أو كادت في عهد زياد بن ابيه ، الذي كان له موقفه المتطرف من الحركات السياسية والثورية ، كان من نتائجه ، القبض على زعيم الحركة السالفة (الهجيمي) وقتله[٢] . وعلى الرغم

(١) الطبري ج ٦ ص ٩٨ . ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ٤١٧ - ٤١٨ .
(٢) الطبري ج ٦ ص ١٢٩

من اشارة بعض الروايات الى مذابح تعرض لها هؤلاء الخوارج على يد زياد ، الا أن ذلك لا يعدو أن يكون أقرب الى المبالغة(١). فحتى ذلك الحين كانت تحركاتهم محصورة في نطاق ضيق ، لا تتجاوز قطع الطرق والقيام بعمليات قتل جريئة تستهدف حتى الأطفال ، بما لا يتنافى وطروحاتهم التي أخذت تتبلور تدريجيا نحو التطرف(٢).

ولعل تحوّل الخوارج من نطاق حرب العصابات الضيقة الى نطاق الثورة المسلحة ، بدأ في عهد زعيمهم القوي مرداس بن أدية التميمي(٣). ويبدو أنه كان سجيناً في البصرة قبل خروجه والاختلاف مع واليها الجديد عبيد الله بن زياد إثر مقتل اخيه(٤)، ومن ثم واعتصامه في الأهواز ، حيث قضى على فرقة أرسلها الوالي في أثره(٥). ويبدو أن فرقة أخرى لاقت نفس المصير أو أن الرواية مكررة ، أو أن التباساً حدث في اسم القائد المهزوم(٦). ومن المعتقد أن تلك الفترة التي اشتد بها ضغط الخوارج على البصرة ، كانت معاصرة لثورة الكوفة ومقتل الحسين . فكان انتقال الوالي القوي ابن زياد الى هذه الاخيرة لتصفية احداثها ، فرصة ملائمة أمام هؤلاء لممارسة نشاطهم بحرية أكثر وبأقل قدر من الملاحقة . على أن معظم الروايات تتفق على أن تحرك الخوارج في العهد السفياني ، بلغ ذروته في هذه الفترة حيث كان ابن زياد والياً على البصرة ، وهو المتخصص في قمع الحركات الثورية ، بما يتفق ومزاجه في السلطة وانضباطيته المطلقة في المحافظة على النظام . فعلى الرغم من مشاكله الكوفية ، لا ينفك عن مطاردة الخوارج في الأهواز ، حيث تتوجت بالقضاء على مرداس وأصحابه في مجزرة جماعية(٧) .

والواقع ان ثمة غموضاً وربما تناقضاً ، يحيط بالعلاقات الأموية - الخوارجية في ذلك الوقت ولعل ذلك عائد الى أن الخوارج كتنظيم سياسي وثوري ، لم يكونوا قد بلغوا حدّاً من النضج والاستقرار ، في وقت كانت قبضة السلطة المركزية

(١) يذكر الدينوري أن زياداً قتل بالظنة والتهمة تسعمائة رجل من الخوارج .الأخبار الطوال ص ٢٧٠ .
(٢) البغدادي ، الفرق بين الفرق ص ٦٤ .
(٣) يغلب عليه (ابو بلال بن ادية) الطبري ج ٦ ص ١٧٤
(٤) عروة بن أدية الذي اعدم في البصرة سنه ٥٨ هـ . الطبري ج ٦ ص ١٧٥
(٥) الطبري ج ٦ ص ١٧٥ .
(٦) اسلم بن زرعة . المصدر نفسه ج ٦ ص ٢٧١ .
(٧) المصدر نفسه ج ٦ ص ٢٧١ : فلهوزن ، الخوارج والشيعة ٦٦ - ٦٧ .

شديدة القوة في البصرة على الخصوص، سواء في عهد زياد أو ابنه عبيد الله . ولا بد أن الصراع الداخلي الذي تبلور في انقسام الخوارج الى عدة فرق[1]، مختلفة المنهج والرؤية والطرح ، كان في جوهره افرازاً لهذا التكوين الفكري والايديولوجي الذي ظهر في تلك الفترة وحدّد معالم العلاقة بينهم وبين السلطة . فالانقسام قد لا يكون ظاهرة تمزق وانحلال في موقع الخوارج ، بقدر ما كان اختماراً لأفكار وطروحات لم تكن قد نضجت بعد . ولهذا فان التحرك الثوري لهؤلاء لم يبلغ مداه من الخطر الا في العهد المرواني ، حيث ساعدهم فراغ السلطة ما بين وفاة يزيد واحتدام الصراع المثلث بين الأمويين والزبيريين والشيعة ، على استكمال الأطر المحددة لتنظيمهم كاتجاه سياسي معارض .

وكان أول موقف سياسي منظّم يتخذه الخوارج ، هو التحالف مع عبد الله بن الزبير ، حين شارك نافع بن الأزرق ، أحد أبرز زعمائهم ومؤسس فرقة «الأزارقة» المتطرفة المنسوبة اليه ، في الدفاع عن مكة مع جماعته ضد القائد الأموي الحصين بن نمير السكوني[2]. غير أن هذا التحالف كان مرحليا فقط ، حيث الانفصال المرتقب وقع بين الطرفين وأدى الى عودة بعضهم الى البصرة بقيادة ابن الأزرق[3]، والآخر الى اليمامة مع نجدة بن عامر الحنفي زعيم الفرقة النجدية[4]. وكانت البصرة حينذاك قد شهدت تغييرات داخلية في أعقاب وفاة الخليفة يزيد ، تتوجت بالانقلاب الذي أطاح بالوالي القوي عبيد الله بن زياد . وكان لهذه الأحداث تأثير ايجابي على حركة الخوارج لا سيما غياب السلطة المركزية وما رافقها من تقوية نفوذهم في البصرة ، بعد استقطاب عدد من العناصر الشابة[5] التي استهوتها الأفكار الخوارجية الجديدة .

ويبدو ان الخوارج من الازارقة ، ساهموا بوسائلهم الارهابية في «انقلاب» البصرة ، غير أنهم اكتفوا من نتائجه باخراج جماعتهم من السجون ومغادرة المدينة مع اتباعهم الى الاهواز . ذلك ان الجو السياسي العام في البصرة ، وهو الجانب الآخر ،

---

(١) يحدّدها البغدادي بعشرين فرقة : المحكمة الاولى ، الازارقة ، النجدات (النجدية) الصفرية ، العجاردة ، الخازمية ، الشعيبية ، الخلفية ، المعلومية ، المجهولية ، الصلتية ، الحمزية ، الثعالبة ، الاخنسية ، الرشيدية ، المكرمية ، الشيبانية ، الحفصية ، الحارثية ، الشبيبية ، الفرق بين الفرق ص ٥٦ ـ ٨٩ .

(٢) الطبري ج ٧ ص ٥٥ .

(٣) المصدر نفسه ج ٧ ص ٥٦ .

(٤) المصدر نفسه ج ٧ ص ٥٧ . البغدادي ، الفرق ص ٦٧ وما بعدها

(٥) الدينوري ، الاخبار الطوال ص ٢٧١ .

لم يكن مشجّعاً على استلام الحكم في المدينة ، حيث الأغلبية تناصبهم العداء والرفض[1]. بيد أنها ظلت هدف الخوارج الدائم ، بدليل الارتباك الذي سيطر عليها وجعلها نهبا للذعر . فحاولت انشاء قوة ذاتية[1] لصد الخطر الخوارجي ولكنها فشلت ، مما دفعها الى طلب المساعدة من عبد الله بن الزبير مقابل الاعتراف به[2]. وكانت أولى ثمرات هذا التحالف مع خليفة الحجاز ، هزيمة الأزارقة ومقتل قائدهم في معركة طاحنة جرت في احدى قرى الأهواز[3].

وورث عبد الله بن الماحوز زعامة الازارقة ، في الوقت الذي عهد فيه ابن الزبير الى المهلب بن ابي صفرة الازدي بولاية البصرة ومقاومة الخوارج[4]. وتشير المصادر الى أن هذا التدبير كان استجابة لرغبة زعماء البصرة ، الذين وجدوا في المهلب الكفاءة القيادية العالية[5]. ولقد تفرغ هذا الاخير لتلك المهمة ، مطارداً ابن الماحوز حتى قضى عليه وأبعد جماعته عن الأهواز[6] (٦٦ هـ / ٦٨٦ م). فشلّت هذه الهزيمة طاقات الخوارج وحملتهم على تجميد نشاطهم ، والاعتكاف على إعادة تنظم أنفسهم واختيار خليفة لابن الماحوز . غير أن هؤلاء ما لبثوا أن استعادوا مبادرة التحرك بقيادة قطريّ بن الفجاءة الذي حمل اسم «أمير المؤمنين»[7] ، وهو من قبيلة تميم أيضا على غرار أسلافه ، وكان معاصرا لمصعب بن الزبير الذي أصبح حاكما على العراق في ذلك الحين ومن ثم معاصراً لعودة النفوذ الأموي اليه[8]. على أن هموم السياسية الداخلية ، اعاقت على ما يبدو عمليات التصدي للخوارج وقلّلت من شأنها الى حد كبير ، حتى أن المهلب استُدعي من الموصل بعد أن عيّنه مصعب قائداً لهذه المنطقة الحساسة ، للافادة من كفاءته العسكرية في مواجهة الأمويين[1]. ولكن المهلب لم

---

(١) الاخبار الطوال ص ٢٧٠ ،
(٢) الطبري ج ٧ ص ٢٢٥ .
(٣) المكان نفسه
(٤) دولاب ـ المصدر نفسه . ج ٧ ص ٨٥ .
(٥) الاخبار الطوال ص ٢٧١ .
(٦) المكان نفسه .
(٧) الطبري ج ٧ ص ٨٦ ، ٨٨ ـ ٨٩ .
(٨) البغدادي ، الفرق بين الفرق ص ٦٥ .
(٩) المكان نفسه .
(١٠)ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ .

يتوصل في مهمته الى اكثر من صّد الخوارج عن البصرة والدخول معهم في مفاوضات طويلة ، امتدت الى ما بعد القضاء على الحكم الزبيري في العراق(١).

وكان عبد الملك بعد انتصاره على مصعب ، مستوعباً أهمية الخطر الوحيد الذي ما زال يهدّد استقرار العراق المتمثل بثورة الخوارج . ولعل استثناء المهلّب قائد جبهة الاهواز من العقاب الأموي ـ الذي أصاب بشكل أو بآخر مختلف الشخصيات المتعاونة مع النظام الزبيري ـ له علاقة بالمدى الذي وصل اليه خطر الخوارج في ذلك الوقت . وسنجد أن التغييرات الادارية التي أجراها عبد الملك في ولاية العراق ، جاءت بدورها تؤكد هذه الحقيقة . فلم يلبث بعد وفاة أخيه بشر بن مروان ـ أول حاكم مرواني على الكوفة(٢) ـ أن بادر الى توحيد العراق في ولاية واحدة ، على أن يكون قائده المخلص والقوي الحجاج بن يوسف حاكما عليها(٣).

وكانت ثورة الخوارج ومعها تدهور الموقف الأموي في الأهواز ، المؤشر الذي اعطى للحجاج شخصيته القاسية والصدامية لدى العراقيين . فقد استطاع بخطابه الشهير ولهجة التهديد العنيفة التي غلبت عليه ، تعبئة المقاتلين وحملهم على الالتحاق بالمهلب(٤). ولكن الوضع على جبهة الاهواز بدا متعثرا رغم كثافة المقاتلين ، واضطر قائدها الى استهلاك اكثر من ثلاثة أعوام متواصلة في ملاحقة الازارقة دون نتائج حاسمة . ولعل التنافر الذي ساد علاقات الكوفيين والبصريين في جيش المهلب ، كان له تأثيره على بطء العمليات العسكرية وتثاقلها . كذلك فان الحساسية بين القائد العام البصري الأصل وبين قائد الكوفيين عبد الرحمن بن مخنف ، واستنكاف هذا الأخير احيانا عن الالتزام بأوامر المهلب ، قضى على انسجام الجيش وجرّه الى هزيمة دفع ثمنها الكوفيون وقائدهم بصورة خاصة(٥).

---

(١) الاخبار الطوال ص ٢٧٥ .

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٣٤٣ .

(٣) عام ٧٥هـ / ٦٩٤م .

(٤) الطبري ج ٧ ص ٢١٣ . المسعودي ، مروج الذهب ج ٣ ص ١٢٧ ـ ١٢٩
Périer , vie dal- Hadjadj Ibn Yousof P. 65- 70

(٥) ابن الأثير : ج ٤ ص ٣٦٦ ـ ٣٨٨ .

بيد أن الازارقة لم يكونوا اقل تفككا وانقساما في الرأي من الأمويين ، وهي ظاهرة ما انفكت تلازم الخوارج في معظم مراحل تاريخهم السياسي . فالتناقض في المواقف ، حول مسائل معقدة لم تنضج في فكر الكثيرين منهم ، كان بدون ثمة شك وراء هذا التمزق والصراع حتى ضمن المجموعة الواحدة . ذلك أن فئة من الازارقة انشقت بقيادة عبد ربه الكبير واتخذت من كرمان قاعدة لها[١]، بينما ابتعد قطريّ بجماعته الى الشمال واستقر في طبرستان[٢]. وكان ذلك مؤشرا لحسم الحرب على جبهة الأهواز ، دون أن يجد المهلب صعوبة في مطاردة ابن عبد ربه الى كرمان والقضاء عليه ، حيث كانت آخر مهماته في حرب الازارقة قبل العودة الى البصرة[٣]. أما قطريّ فقد انتهى بدوره على يد قائد كوفي[٤] ارسله الحجاج الى طبرستان ، واضعا بذلك حدّاً لأخطر ثورات الخوراج في العراق ، التي استمرت حتى العام ٧٧ للهجرة .

ولكن ثورة الخوارج لم تتوقف بالقضاء على الأزارقة ، فقد استمرت متفجّرةً يحمل لواءها الصفرية[٥]، وهي فرقة أقل تطرّفاً في مواقفها العقائدية والسلوكية . فالمحاورة التي جرت عشية تحركها ، بين اثنين من زعمائها (صالح بن مسرح وشبيب ابن يزيد) تؤكد هذا الانتماء الى خط معتدل نسبيا بالمقارنة مع الأزارقة[٦]. وثورة الصفرية لم تكن لها صلة ما بثورة الأهواز ، حيث انفجرت في وقت متأخر وفي بقعة جغرافية مختلفة . فقد كانت الكوفة هدف الخوارج الصفريين، انطلاقاً من قواعدهم في الموصل والجزيرة ، وكان أول من تصدى لهم ، حاكم المنطقة الأموي محمد بن مروان . غير أنه فشل في اخماد ثورتهم ، واضطرت احدى فرقه الى التراجع

---

(١) ابن الاثيرالكامل ج ٤ ص ٤٣٩ .

(٢) الطبري : ج ٧ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ .

(٣) ابن الأثيرج ٤ ص ٤٩ .

(٤) جعفر بن عبد الرحمن بن مخنف ، ابن القائد الذي قتل في حملة المهلب السابقة . الطبري ج ٧ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ .

(٥) جماعة زياد بن الاصفر مؤسس هذه الفرقة . البغدادي ، الفرق بين الفرق ص ٧ . وقد قامت ثورتهم في العام ٧٦هـ / ٦٩٥م .

(٦) الطبري ج ٧ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠. البغدادي ، الفرق بين الفرق ص ٧٠ .

مهزومة[١]، مما أبقى المعركة بعض الحين سجالا بين الطرفين . ولكن تعزيزاً لا يلبث أن يطرأ على الموقف العسكري للحاكم المرواني ، ويهاجم الخوارج الصفرية باثنين من الفرق الكبيرة ، فلم يجد صالح بن مسرح زعيمهم ، سوى مغادرة الجـزيرة[٢] والعزوف عن هذه المعركة ، بعد شعوره باختلال الموازين العسكرية لمصلحة الأمويين ، والتحّول باتجاه الكوفة ليصبح مع جماعته هدفا سهلاً للحجاج ، الذي ارسل اليهم فرقة اوقعت بهم الهزيمة وقضت على قائدهم صالح[٣] .

ولكن هذه المحنة لم تؤثر في الصفريين ، الذين اختاروا شبيب بن يزيد قائدا لهم بعد صالح بن مسرح ، فكان أن أصاب نجاحاً لم يحققه سلفه ، وذلك بسيطرته على «المدائن» وقيامه بعمليات انتقامية احدثت ترويعا في المنطقة ودفعت الناس الى الاحتماء بالكوفة[٤] . ولقد داهمت هذه العملية المثيرة الحجاج ، في وقت كانت معظم قواته لا تزال في حملة المهلب مطاردة الازارقة . فحاول الاعتماد على قواته الذاتية بما استطاع سبيلا الى ذلك ، ولكنه فشل عدة مرات وانكفأت هذه مهزومة متراجعة[٥] . وبلغت المفاجأة حدّاً بدخول الصفريين الى الكوفة وارتقاء قائدهم قصر الامارة معلنا الحكم باسمه ، بينما الحجاج غادرها في وقت سابق الى البصرة ، بعد المحاولات الجريئة التي استدفتها[٦] . وكان لا بد من تدّخل الخلافة بقواتها الشامية[٧] لانقاذ الموقف ، رغم أن القائد الصفري لم يكن لديه سوى مجموعة متواضعة من المقاتلين ، استطاع ان يحقق بهم هذه الانتصارات المذهلة . ومن الواضح أن سرعة المداهمة والهجمات الصاعقة ، كانت ابرز ملامح ثورة الصفريين في المنطقة العراقية ، يُضاف اليها أساليب الترويع والقتل الجماعي ، على غرار ما جرى في مسجد الكوفة ، وغير ذلك مما ساهم في نجاح هذه العمليات العسكرية الجريئة .

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٣٩٥ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) الطبري ج ٧ ص ٢٢١ - ٢٢٢ ابن الأثير ، ج ٤ ص ٣٩٦

(٤) الطبري ج ٧ ص ٢٢٥ .

(٥) ابن الأثير ج ٤ ص ٤٠٥ .

(٦) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٩٧ - ١٩٩ .

(٧) الدينوري ص ٢٨٠ .

(٨) ابن الأثير ، ج ٤ ص ٤٠٧ .

غير أن الثورة الصفرية التي وصلت الى هذا الحد من النجاح ، لم تكن مؤهلة عبر طاقاتها المتواضعة تلك الى المضي أبعد من ذلك في مجابهتها المسلحة في العراق ، دون أن يكون في متناولها حينذاك ، ما يتعدى هذه الانتصارات المرحلية التي استنزفت قوات النظام الاموي . وهكذا فلم يكد يطرأ تعديل على موقع الحجاج العسكري بوصول الفرق الشامية(١)، حتى غادر شبيب مع جماعته الكوفة ، بعد فشل قواته في صّد الهجوم الاموي ، لأول مرة منذ اعلان ثورته على الحجاج . ومن هناك اتجه الى الأهواز ، طامحا الى اتخاذها بؤرة ثورية على غرار الأزارقة ، ولكن جنود القائد الأموي قضـوا على جماعته في معركة عند نهر «دجيل» ، بينما توفي هو غرقا على حسب الرواية التاريخة(٢).

لقد كان القضاء على ثورة الصفرية ، منعطفاً هاما في تاريخ الخوارج السياسي ، وهي بدون شك ذروة التحرك الثوري الذي امتد في الاهواز والجزيرة ، وبلغ مداه في اجتياح الكوفة ، عاصمة الولاية الشرقية للنظام الأموي . ولعل الصفّريين كانوا أشد إثارة ، بوسائلهم المبتكرة من الأزارقة وبقية الفرق الخوارجية العديدة . بيد أن الجانب اللافت في حركتهم هو بدون ريب ، القيادة الفذّة التي كانت وراء هذا النوع غير المألوف من الحرب الخفيفة . فقد جابه شبيب بن يزيد بالقليل من اتباعه المخلصين ، أقوى الركائز الأموية المتمثلة بالحجّاج ، وبثّ جواً من الارهاب ارتجفت له قلوب الناس لا سيما المقاتلين ، الذين دفعوا الثمن الأكبر من الهزائم العديدة التي مّنوا بها . اما الواقع الذي لا ينبغي تجاهله ، هو أن القائد الصفري لم يكن وحيداً في عملياته العديدة الناجحة ، وذلك بفضل التحالفات المحلية التي امنت لحركته مناخا ايجابيا ، عبر توفير سبل التموين ومدّها بالمعلومات العسكرية الدقيقة . ولا بد أن يكون في مقدمة الحلفاء ، الفئات المناهضة للحاكم الأموي ، التي أدانت سياسته الاقتصادية واستهوتها شخصية القائد الصفري وأفكاره المتطورة التي اقترنت بالتنفيذ ، لمصلحة هذه الفئات ، حيث كانت في معظمها غير عربية(٣).

(١) كانت بقيادة سفيان بن الابرد الكلبي . مروج الذهب ج ٣ ص ١٣٩ . ابن الأثير ج ٤ ص ٤٢٥ .

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٢٧٥ ، ابن الأثير ج ٤ ص ٤٣١ - ٤٣٣ .

(٣) فلهوزن ، الخوارج والشيعة ١٢٦ - ١٢٧ . دكسن ، الخلافة الاموية ٢٩٨ .

وإذا كانت ثورة الخوارج الصفرية ، قد بلغت هذا المدى من الخطر تحت قيادة شبيب بن يزيد ، فإن تأثيرها ما لبث أن تلاشى في المشرق ، واقتصر نشاط هذه الفرقة السياسي على ممارسات طفيفة في منطقة الأهواز لم تكن ذات بال . الواقع أن المرحلة التالية من تاريخ الخوارج الثوري ، كانت مرحلة انكفاء وتراجع بشكل عام ، دامت نحو ربع قرن من الزمن(١)، دون أن تتوصل حركتهم بعد ذلك الى استعادة حجمها ، الذي احتلته في أيام عبد الملك بن مروان . فقد انطفأ وهج الثورة الخوارجية في المشرق وخاصة في العراق ، بعد الملاحقة العنيفة التي استهدفتهم على يد الولاة الامويين . غير أن فئة من الخوارج(٢) لن تعدم فرصا أفضل للتحرك وللتبشير بأفكارها السياسية والاجتماعية ، فاتجهت بثقلها الى المغرب ، حيث الأرض الواسعة والجماهير العريضة المتشنجة من تعسف الولاة القيسيين ، خاصة في السنوات الأخيرة من الدولة الأموية .

ومن المؤكد ان الخوارج ، وهم أخطر أحزاب المعارضة وأكثرها جرأة في تحدي النظام الأموي ، قد ساهموا بدور كبير في اضعاف هذا النظام واستنزاف طاقاته . فمن التصدّي المباشر في المشرق من خلال «حرب العصابات» المبتكـرة ، الى دورهم التبشيري والتحريضي في المغرب ، وما أسفر عن ذلك من ثورة البربر الكبرى ، كان الخوارج دائما الاتجاه السياسي المتطرف ضد الامويين والمناهض لهم بكل ما تعنيه هذه الكلمة . كما تركت افكارهم الجريئة بصماتها الواضحة على المسار النضالي والثوري ، الذي استهدف هذا النظام وأطاح به . وقد لا يكون بعيدا عن التصور بأن ثورة الخوراج في الأهواز ، كانت مقدمة في الشكل والمضمون للثورة العباسية في خراسان ، وذلك من حيث استقطاب هذه الأخيرة التيار المعادي للامويين ، والمتستر في العمق من ثورات الخوارج العديدة .

ومن البديهي ان خوارج المشرق لم يصلوا في اطار الطموح الى السلطة والمطالبة

---

(١) من أشهر حركات الخوارج التي قامت بعد عبد الملك . ثورة الصفرية بقيادة شوذب (بسطام) في عهد عمر بن عبد العزيز . وكانت قد جرت مناظرة بين الخليفة وبين هذا الثائر ، قبل القضاء على حركته على يد مسلمة بن عبد الملك . الطبري ج ٨ ص١٣١ - ١٣٢ - ١٤٢ - ١٤٣ .

(٢) الصفرية والاباضية .

بالتغيير ، الى أكثر من تعبئة النفوس ضد الامويين ، لا سيما العناصر غير العربية التي عانت القهر والحرمان ، وهي في معظمها جماهير الثورة التي اهنقطبها العباسيون واستثمروها لمصلحتهم فيما بعد . وما عدا ذلك فان حركة الخوارج كنهج وممارسة ، كانت محدودة التأثير فاشلة النتائج . ولعل نقطة ضعفها الكبرى ، ذلك التناقض الواضح بين الفكرة المتطورة وبين الأسلوب الأرهابي العقيم . ففي الوقت الذي طرحت فيه مطلبها الشهير ، وهو محاربة الاستئثار القرشي بالخلافة وجعلها اكثر تعميما ، مع توفر شروط معينة تؤهل حاملها للحكم ، جنحت هذه الحركة الى العنف والممارسة غير «الديمقراطية» في علاقاتها ضد خصومها والمختلفين معها في الرأي . وهذا ما صبغ حركة الخوارج بالتطرف والغموض ، حيث لازمها ذلك ، وطبعها بسمات غير واقعية منذ بداياتها الاولى .

ثورات «الارستقراطيين» في العراق

لقد تشعب التيار الثوري في العراق خلال العصر الاموي ، وذلك من حيث الانتماء «الايديولوجي» السياسي الى اتجاهات ثلاثة : الأول هو الاتجاه الشيعي الذي حدد موقفه العلني من الخلافة الأموية منذ ثورة الكوفة المجهضة ، التي انتهت الى مقتل الحسين في كربلاء . فكانت هذه الحادثة المؤشر البارز في تحوّل «الحزب» الشيعي ، من العمل السري الى المعارضة المسلحة . ولقد تبلور هذا الاتجاه في حركة التوّابين التي كادت أن تقترب بنتائجها كحركة شبه انتحارية ، من المأساة التي ثارت من أجلها ، فضلاً عن كونها المقدِّمة غير المباشرة للانقلاب الشيعي ، الذي تولى السلطة في الكوفة بزعامة المختار بن أبي عبيد الثقفي . وكان هذا الاتجاه في الواقع ، الممثل الطليعي للمعارضة السياسية في العراق ، بما لديه من قدرة استقطابية ، ليس فقط من خلال قياداته التي تمتعت بنوع من المكانة الخاصة والمؤثرة على الصعيد الشعبي ، ولكن من خلال طروحاته ذات المحتوى الاجتماعي ، التي صبْت في المطالب الملحة للفئات المناهضة للحكم الأموي . غير أن الاتجاه الشيعي كان يعاني نقصاً في البناء التنظيمي ، كمحصل من حيث المبدأ لغياب الزعامات التاريخية القادرة على توحيد مواقفه ، التي كانت في الغالب مضطربة وغير منسجمة . ولعل هذه الثغرة كانت أشّد ما أصاب التحرك الثوري لهذا «الاتجاه»، حيث اصطدمت بالفشل جميع

محاولاته الهادفة الى استلام الحكم ، كما كانت المثالية السياسية ، المصدر نفسه لهذا الفشل في السابق .

أما الاتجاه الثاني في المعارضة المسلحة ، فكان يمثّله الخوارج بفصائلهم المختلفة ، لا سيما الأزارقة والصفرية . غير أن هؤلاء انفردوا برؤية خاصة في النضال الثوري ، فكراً وممارسة ، انطلاقاً من ريادتهم في استخدام ما يعرف بحرب العصابات في التاريخ الحديث ، وهو اسلوب وفّر لحركتهم بعض الاستمرارية ، رغم الافتقار الى القاعدة الجماهيرية الواسعة . ولكن ذلك كان نقطة الضعف والقوة معا ، لأن حركة الخوارج ظلّت في أذهان الناس مطبوعة بالتطرف والعنف . فهم حتى في انتصاراتهم العسكرية على الأمويين ، لم يتعدوا هذا المفهوم ، بعد أن ظلوا مجرد عصابات مختفية في الجبال ، على عكس الحركات الأخرى المتعايشة بحدود ما مع النظام .

ويبقى الاتجاه الثالث في المعارضة الثورية في العراق ، الذي كانت تحرّكه دوافع مختلفة ، ربما شخصية أو اصلاحية من داخل النظام . غير أن هذا الاتجاه أو بعضه لم يعدم أية وسيلة للتحالف مع بقية القوى السياسية ، بما فيها الشيعة ، فضلا عن القوى الأخرى التي لم يكن موقفها من النظام قد تبلور بعد ، وهي تمثل عملياً الأغلبية البشرية الساحقة ، المعروفة بـ «الموالي»، حسب التعبير الأموي المتداول ، الذي قُصد به العناصر غير العربية في ذلك الحين . واذا كانت التركيبة العضوية للخوارج في جوهرها عربية الانتماء ، حيث تصدّر بنو تميم في الغالب قيادات هذه الحركة ، واذا كان الشيعة كذلك قد نجحوا عبر طروحاتهم الأصلاحية في تحريك موقف الموالي ، فأن هذا الاتجاه قد راهن كما يبدو على هذه القوة البشرية الضخمة واستثمار عواطفها المتشنجة من السلطة المحلية، وصولاً الى تحقيق اهدافه الخاصة . ولكن القول بأن التحرك الثوري لهذا الاتجاه ، كان مطبوعاً في الشكل والمضمون بطابع الموالي ، فهو نوع من المجازفة والتسرع في الحكم . ذلك أن بعض المؤرخين ، وخاصة المستشرقين منهم ، يجعل العلاقة عضوية بين هذا التحرك وبين الواقع الاجتماعي للموالي ، بحيث يتحول الى تحرك خاص بهم . وبرأي هؤلاء أن ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، اعظم الثورات العراقية ، هي امتداد لحركة المختار من المنطلق ذاته ، بأن كلاهما محاولة من

الموالي لتحسين أوضاعهم الحياتية على نحو يتكافأ مع العرب(١).

والواقع أن كلاً من الحركتين ، كانت لها ابعادها التي قد تتناقض بصورة أو أكثر بين احداها والأخرى . فحركة المختار بظروفها ومنطلقاتها كانت شيعية الطابع ، مع نزعة سلطوية لدى قائدها الطموح ، وهي من خلال هذا الموقع كان لا بد أن تتحالف بصورة عضوية مع الموالي ، حيث وجدوا فيها فرصتهم الأولى في المساواة ، دون أن يكون لهم أي دور محسوس في توجيه الحركة أو التأثير في مسارها . أما حركة عبد الرحمن ، فقد اختلفت عن الأولى في ظروفها الجغرافية ، حيث انطلقت من منطقة فارسية ، كانت اكثر التصاقا بجماهير الموالي ومشكلاتها ، مما أكسبها ذلك التقويم . غير أن هذه الثورة التي تزعمّها أحد أكثر المتحمسين لأرستقراطيتهم العربية العريقة ، وهو عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث الكندي ، والتي كانت في أساس تركيبها من مقاتلي البصرة والكوفة ، كانت عربية الطابع ، تحركها دوافع سياسية وشخصية واجتماعية كذلك ، فضلا عن أنها في تركيبها العضوي كحملة عسكرية نظامية في بدايتها ، اقتصرت المشاركة فيها على مقاتلين من المدينتين العراقيتين بطريقة متكافئة(٢). وكان العرب حتى ذلك الحين ، الفئة الوحيدة المقاتلة ، مما يفترض بداهة أن تكون مشاركة الموالي في هذه الثورة ، وهي في الأساس حملة عسكرية ، مشاركةً ثانوية خاصة على المستوى القيادي .

ان هذه المقدمة عن الحركات السياسية «الارستقراطية» المعاصرة للحجاج بن يوسف والي المشرق الأموي حينذاك ، لا تهدف الى أكثر من توضيح تلك المسألة ، باعطاء الموالي دوراً لم يكونوا قد بلغوه بعد . فحتى ذلك الحين كان هؤلاء في بدايات تحوّلهم الجذري الى الحياة العربية الاسلامية ، كما أن التحامهم في اطار المجتمع الأموي ، كانت لا تزال تحول دون اكتماله ، السياسة الاقتصادية العامة للدولة(٣). ومن هنا فإن أي تحرك مستقل للموالي ، أو أي تأثير عملي لهم في مسار المعارضة

---

(١) Van vloten, Recherche sur la Domination Arabe, Le chiitsme et les croyances Messianiques sous le Khalifat des omayydes. PP 16 - 17 ;

فلهوزن ، الدولة العربية ص ٢٣٥ .

(٢) الطبري ج ٨ ص ٤ .

(٣) Van Vloten, Ibid, p 8.

الثورية للنظام الأموي ، يعتبر نوعا من الاسقاط والمبالغة .

غير أن الموالي كقوة جماهيرية ، كانوا دائما في حسابات الحركات الثورية في تلك الفترة ، وذلك انطلاقاً من العلاقة المتدهورة بينهم وبين السلطة الأموية ، التي تتوجت بقوانين الحجاج الصارمة وممارساته القمعية ضدهم . ومن المعروف ان حركة المختار كانت بداية الطريق امام الموالي للمساهمة بدورهم التاريخي في التيار الثوري في العراق . فقد وجد هذا الأخير بعد نجاح «انقلابه» في الكوفة ، أنهم القوة الصامتة والفاعلة ، فاتجه الى الاعتماد عليهم لتوفير تغطية جماهيرية لحركته ، حيث فشل أو كاد في سد هذه الثغرة تماماً في قاعدته الشيعية . وكان الموالي على الأرجح يمثلون عنصر التفوق في حركة المختار ، على حساب الحكم الزبيري المتعاطف مع القوى «الارستقراطية». وكانت هذه الأخيرة من أشد خصوم المختارضراوة، بسبب تحالفه مع الموالي الذي استهدف عمليا مصالحهم وامتيازاتهم .

وفي عهد الحجاج أقوى ، الشخصيات الأموية في العراق بعد زياد بن أبيه ، كان الموالي الفئة الاكثر سحقا على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي . فهذا الرجل الذي تصفه الروايات بأنه صلف جبار مع نزعة دموية ظاهرة ، كان أيضا بحكم قيسيته ، شديد التمسك بهذا الانتماء ، دون أن تتوقف عصبيته المتطرفة عند الموالي ، حيث بلغت ذروتها في اعقاب القضاء على حركة ابن الاشعث ، ولكن نالت هذه العصبية ايضا من الخصوم التقليديين من «الاتجاه» اليمني ، عندما صب غضبه على بني الأشعث وفي وقت لاحق على بني المهلب الأزديين[1] . اما علاقته بالموالى فقد خضعت لمعطيات ومقاييس معينة ، كان قد وضعها الحاكم الأموي سلفا لسياسته العراقية ، أو كما أوجزها فان فلوتن Van Vloten تهدف الى «ابقاء المدن العراقية ـ مركز معارضة الموالي ـ على وضعها السابق ، أي معاقلاً للجيوش العربية ، بينما الموالي الذين منّوا النفس في لحظة أمل بالمساواة التامة مع اخوانهم في الدين ، أجبروا على العودة الى اراضيهم وعلى دفع الجزية كما في السابق»[2]. ذلك أن الفترة الزمنية المعاصرة لحكم

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ج ٣ ص ١٣٤ ـ ١٣٥ . ابن الأثير ، ج ٤ ص ٥٠٢
(٢) La Domination Arabe P 16 راجع ايضاً :
ابراهيم بيضون ، الدولة الاموية والمعارضة ص ٨٥ ـ ٨٦ .

الحجاج ، تجسدت فيها معالم تحوّل محسوس في أفكار الموالي ، بخروجهم من دائرة التبعية المطلقة كشعب مغلوب ، الى دائرة أوسع ، حيث اختمرت لديهم عوامل الانصهار والذوبان في المجتمع العربي الاسلامي . وسواء كانت الدوافع لهذا التحوّل عقائدية صرفة ، أم اقتصادية للتخلص من أعباء الجزية والخراج ، فإن الموالي كانوا من أكثر الشعوب غير العربية التحاماً بهذا المجتمع وتقبّلا لقوانينه . فهل يتحمل الحجاج وزر هذا التصدي لتلك النقلة الخطيرة ، التي لم يوفّر لها الأجواء الملائمة فقط ، بل تحداها أو وقف في طريقها؟ ومهما كان الجواب على هذا التساؤل فإن الحجاج ومن ورائه النظام الأموي ، ساهم عن معرفة مبيتة أو عن إدراك خاطىء ، في تجميد عملية التلاحم العضوي المهيئة لتلك النقلة التاريخية . ويبدو أن المسألة كانت غير خاضعة للاختيار في الحسابات الأموية ، أو كما قال «باكوبوفسكي» المؤرخ الروسي : «انها مسألة موت أو حياة ، إما الحجاج وقبضته الحديدية ، أو العراق الثائر الذي يقضي على الأمويين وحكمهم»[1].

حركة عبد الله بن جارود

وكانت أول مجابهة مسلحة بين الموالي والنظام الأموي، في بدايات ولاية الحجاج في العراق ، وذلك عبر مشاركتهم في انتفاضة عبد الله بن جارود العبدي في البصرة[2]. ولقد جمع بين الطرفين ـ الموالي وابن جارود ـ قاسم مشترك هو النقمة على سياسة الحجاج الاقتصادية ، في وقت كان الحجاج ، يتابع حملته التعبوية ضد الخوارج في البصرة ، على غرار ما فعل في الكوفة . ويبدو أن حرصه على اختصار النفقات المعروفة بالعطاء هو الذي دفعه الى إنقاصها ، ربما تحت ضغط الحملات العسكرية الى الشرق ، مما ادى الى اغضاب زعماء البصرة ، وإثارة جدل بينه وبين عبد الله بن جارود الذي شعر بالاهانة مع اصحابه . وما لبث ان اخذ هؤلاء يجتمعون سراً للقيام بانقلاب ضد الوالي الاموي ، كما حدث سابقاً مع عبيدالله بن زياد في اعقاب وفاة الخليفة يزيد بن معاوية[2]. وصادف حينذاك ان جماعات من الموالي[3] كانت قد لجأت حديثاً الى البصرة ، هاربة من السياسة القمعية للحجاج ،

---

(١) ي . أ . بلياييف ، العرب والاسلام والخلافة العربية ص ٢٣٢ .

(٢) حدثت في العام ٧٥ هـ . الطبري ج ٧ ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .

(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ٣ ص ٣٢٩ .

فانضمت الى ابن جارود في انتفاضته ، التي استكملت خيوطها بالهجوم على معسكر الحجاج ونهبه[1] . ولكن الاخير قضى عليها بسهولة وجعل من قسوة العقاب لأصحابها ، أمثولةً للذين يتمردون على قراراته[2] .

وكانت هذه الحادثة أول مجابهة دموية بين الحجاج وبين العراقيين بمن فيهم الموالي ، حيث اقترن بالفعل والتنفيذ ما التزم به في خطبته الشهيرة بالكوفة[3] . غير أن الانتفاضة على ما تميزت به من ارتجال ونطاق محلي ، كانت مؤشرا لسلسلة من الثورات وحركات التمرد ، بعضها كانت له دوافع انتفاضة البصرة ، والاخر انطلق من معطيات أعمق ، وحظي بالتفاف جماهيري أكثر اتساعا . وقد تكون المقارنة جائزة بين عهدين متشابهين في مختلف ظروفهما السياسية والاقتصادية ، أو بالأحرى بين اثنين من كبار الولاة الأمويين في العراق ، وهما زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف . فالأول جاء الى السلطة في أجواء أكثر تشنّجاً من تلك التي رافقت الآخر ، فكان رائد النهج التقليدي للسياسة الأموية في العراق القائم على العنف ، حيث كان من أبرز المتأثرين به الحجّاج نفسه ، غير أنه ظل أكثر مرونةً واتقاناً في معادلاته ، وكذلك أكثر براعة في المحافظة على التوازنات السياسية والقبلية والاقليمية .

ومن ناحية اخرى ، فان زياداً كان يحمل وراءه رصيداً من الكفاءة ومن التجربة أكسبه شهرة خاصة منذ العهد الراشدي[4] ، قبل أن يستجيب لاصرار معاوية الذي وجد فيه رجل المرحلة القوي ، والقادر على تطويع المعارضة السياسية في العراق . اما الحجّاج ، ممثل المروانيين والثقفي الانتماء أيضا ، فكان على عكس ذلك يستمد قوته من الخليفة الذي اكتشف فيه طاقات تناسب تلك الظروف ، وارتفع بفضله الى المستوى الذي بلغه في النهاية كحاكم للمشرق الأموي . ومعنى ذلك أن الحجّاج كان يتوكأ في نفوذه على الخليفة ، وهذا بدوره لم يتردد اذا اقتضى الأمر بالتخلي عنه ، كما حدث أثناء المفاوضات مع ابن الأشعث وأصحابه . فالتقويم المناسب اذن في اطار

---

(1) ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ٣٨٢ .
(2) الطبري ج ٧ ص ٢١٤ - ٢١٥ .
(3) المسعودي ، مروج ج ٣ ص ١٢٧ - ١٢٨ .
(4) الدينوري الاخبار الطوال ص ٢١٩ .

المقارنة بين الرجلين ، هو أن الأول حقق اهداف السلطة الأموية ، بفرض النظام وكبح المعارضة ، دون أن يثير أجواء الاستقرار التي اقترنت بعهده ، أما الثاني فقد استعدى جميع الفئات بما فيها «الأرستقراطية»، التي ثارت عليه بزعامة ابن جارود[1] ، متحّولاً بأسلوبه الصدامي الى أداة إثارة وتشجيع على التمرد والعصيان .

حركة المطرّف بن المغيرة

هذا المّد الثوري الذي اكتسح العراق مع أجواء مشجعة جديدة ، تابع انتشاره متحدّياً القبضة الحديدية الضاغطة فوق مختلف الاتجاهات . فمن انتفاضة «الأرستقراطية» المتحالفة مع الموالي في البصرة ، الى انتفاضة الزنج في منطقة الفرات الأوفر حظاً ونجاحا من الأولى[2]، كان التيار الثوري لا يزال ينمو ويتصاعد . ولم تنج الادارة الأموية من تأثرها بهذه الموجة ، عندما أعلن والي «المدائن» المطرف بن المغيرة ثورته على الحجّاج ، تعبيراً عن موقفه الرافض لسياسته العراقية . ولعل عنصر الاثارة في هذه الحركة ، أن يكون على رأسها أحد كبار العاملين في الادارة الأموية في العراق ، والعائد في انتمائه الى بيت عريق في الموالاة ، حيث كان أبوه المغيرة بن شعبة ، من أبرز الشخصيات السياسية التي اعتمد عليها معاوية في المهمات الصعبة . فقد ثار المطرف على الحجّاج ، ليس من موقع الحرمان أو الاضطهاد ، ولكن من موقع السلطة ، بعد أن رفض السير بتبعية مطلقة وراء مواقف «رئيسه» غير المسوّغة في كثير من الأحيان .

وكان الطرح الذي حاور به الخوارج الصفرية بزعامة شبيب بن يزيد، يعبّر عن مدى التناقض في المبدأ والرؤية بينه وبين السلطة . فهو لم ينطلق من خلفية عدائية خاصة ضد الحجاج ، بل تحرك بدوافع مجذّرة تناولت الموقف العام من السياسة

(١) راجع الحوار الذي جرى بين الحجاج وابن جارود حول العطاء . ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ٣٨١ .

(٢) قامت بهذه الحركة مجموعة من العبيد ومن تحالف معهم من المسحوقين ، وذلك بزعامة رجل غامض يعرف باسم (رباح) وأخبارها غير واضحة في الروايات ، وان كانت دوافعها على الارجح اجتماعية واقتصادية ابن الأثير ج ٤ ص ٣٨٨. دكسن، الخلافة الاموية ص ٢٣٨ - ٢٤٠ .

الأموية ، الممثلة بخليفتها عبد الملك والجهاز الحاكم في العراق(١).

ويبدو أن الثورة الصفرية والهجوم على المدائن مركز المطرّف ، كانا من الدوافع المباشرة لاعلان تمرد الأخير بدوره على السلطة الأموية . فقد شجعته تلك التطورات على اتخاذ المبادرة بإقامة حوار ، ومن ثم نوع من التنسيق مع الخوارج الصفرية . وكان يعتقد أن ثمة قاسماً مشتركا ربما جمع بينهما ، وهو رفض الاستئثار والتسلط والانحراف(٢). غير أن مشكلة السلطة كانت نقطة الاختلاف المبدئية ، حيث أفسدت محاولات التفاهم على موقف موحد بين الطرفين . فبينما رأى المطرّف أن العودة الى النهج الذي ساد في مطلع الخلافة الراشدية ، هي المخرج الوحيد لهذه المشكلة ، تمسك شبيب وجماعته بطرح الخوارج المعروف بشأن السلطة ، لأن هذا الرأي يعني استمرارها قرشية تستأثر بها فئة خاصة من المسلمين ، وهو منطق مرفوض لدى الخوارج . فلم يجد المطرّف بدّا من العمل منفردا ، بعد أن كشفت أجهزة الحجاج حقيقة مواقعه من الحكم الأموي ، معتمدا على حفنة من أصحابه المتأثرين بأفكاره الاصلاحية ، وكان من بينهم أخوه حمزة بن المغيرة والي همذان ، الذي أمدّه بما احتاج اليه من الأسلحة والأموال . غير أنه سرعان ما تخلّى عنه خشية غضب الحجاج ، بعد أن وقف على صعوبة مهمته والعقبات التي تعترض نجاحها(٣).

وهكذا لم يجد الوالي الأموي في العراق ، أية صعوبة في اخماد حركة المطرّف وتصفية ذيولها بالسرعة القصوى . فهي لم تملك من مقومات التنظيم والاعداد العسكري ، ما يحقق لها التحوّل الضروري من حركة محلية أو عصيان مسلح ، الى ثورة شاملة ذات أبعاد سياسية واجتماعية واضحة . وعلى الرغم من الذهنية المتفتحة

---

(١) نسب للمطرف قوله في معرض الحوار مع شبيب الخارجي أثناء حصار الاخير للمدائن بعد ان سئل عن الغاية التي يبتغيها من حركته : « ما دعوتم الاّ الى الحق وما نقمتم الا جوراً ظاهراً . انا لكم متابع فبايعوني على ما ادعوكم اليه ليجتمع أمري وأمركم ... ادعوكم الى ان نقاتل هؤلاء الظلمة على أحداثهم وندعوهم الى كتاب الله وسنة نبيه وأن يكون هذا الامر شورى بين المسلمين ، يؤمّرون من يرتضون على مثل هذه الحال التي تركها عمر بن الخطاب » . ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٤٣٤ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) الطبري ج ٧ ص ٢٦٥ .

لقائدها المطرّف ونزعته الجدية الى الاصلاح ، الا أنها كانت حركة محدودة النتائج الى حد كبير . ولكن الجانب المثير فيها ، كونها أول تحرك للمعارضة في اطار الحكم الأموي ، تجاوزت الدوافع الشخصية والذاتية ، الى محاولة التعرض لقضايا رصينة ومصيرية في ذلك الوقت . فكانت صرخة جريئة من داخل النظام الذي تجاهل وبصورة شبه دائمة ، مصالح الأكثرية في هذا الاقليم ، حيث قامت حركة المطرّف وفي اعقابها ذلك المسلسل الطويل من الحركات الثورية ، ليصبح العراق حينذاك وكأنه البركان الموقوت الذي لا ينفك يقذف بالثورة وراء الأخرى ، متحدّياً قبضة الأمويين الشديدة في شخصية الحجّاج ، وشتى أساليب الملاحقة والعقاب الفردي والجماعي التي اشتهر بها الأخير .

حركة ابن الأشعث : قائد « أرستقراطي » لثورة شعبية

لقد كانت حركة المطّرف بن المغيرة ربما في جانب منها أو أكثر ، مقدّمة لأخطر ثورات العراق حينذاك ، تلك التي تزعّمها عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث ، وذلك على امتداد ثلاثة أعوام تقريباً من المجابهة الدموية المستمرة (٨١ هـ - ٨٤ هـ) . وهذا الأخير يتفق مع سلفه بأن كلاهما من بيت عريق الانتماء للنظام الأموي ، وكلاهما شغل مناصب ومهمات ذات شأن في ادارة الحجاج . وعدا ذلك، فالاختلاف ، بل التناقض واضح جداً في مسار كل منهما وفي رؤ يته للأمور . فبينما تمرد الاول طوعاً ، تحركه الثورة على الظلم والانحراف على حد قوله[1] ، كان الآخر مكرها بفعل ظروف مختلفة على اتخاذ هذا الموقع ، دون أن ينسى ما انطبع عليه من تربية انتهازية وذهنية « ارستقراطية». فعبد الرحمن هو سليل القبيلة الشهيرة كندة ، حيث كان زعيمها الأشعث بن قيس قد ارتد في مطلع خلافة أبي بكر ، ثم تراجع عن ذلك بعد هزيمته على يد عكرمة بن أبي جهل . وفي « المدينة » اصبح الأشعث تدريجياً أحد البارزين من رجالات السياسة فيها ، غير انه اكتسب شهرته بنوع خاص من خلال دوره المشبوه في حروب صفين . فقد كان من كبار المؤيدين لعليّ على غرار الأكثرية من القبائل اليمنية المتعاطفة مع الخليفة ، الا انه ساهم جدّياً بتنفيذ دعوة « التحكيم » التي طرحها

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ٤٣٤ .

الجانب الأموي . ومع انتقال الخلافة الى معاوية كان الاشعث وأبناؤه من أركان النظام الجديد في العراق ، لا سيما محمد بن الاشعث ، أحد أبرز المجموعة التي اعتمد عليها الأمويون والمعروفة بـ « الاشراف » ، كما كان اليد اليمنى لعبيد الله بن زياد في أجهاض ثورة الكوفة المفترض ان يقودها الحسين بن علي[1] . أما عبد الرحمن نفسه قائد الثورة ، فلم يكن غير صورة مكررة لسابقيه ، ولعله كان أكثر مفاخرة بنسبه العريق وتشبثاً بسلوكه « الارستقراطي[2] » .

ومن البديهي أن رجلاً له هذه الصفات ، من النادر أن يختار موقعا لنفسه غير الموالاة والتبعية ، كونه الموقع المناسب لإشباع ميوله الشخصية والسلطوية ، غير المتعارضة ومصالح النظام أو سياسته . ومن هذا المنظور قد يتبادر الى الذهن بأن خطأ أصاب المعادلة القائمة ، مما سيؤدي ربما الى تفسّخ الركائز البنيوية لهذا النظام ، ولكن الواقع كان مخالفا لهذا التصور ، حيث لا زالت لدى السلطة الأموية ، مركزيتها القوية وأدواتها المتفوقة ، لتصفية الحركات الثورية ، سواء كان مصدرها الأحزاب المعارضة أم المنشقون على النظام بدوافعهم المختلفة .

وهذه الثورة في تكوينها التنظيمي ، لم تكن في البدء سوى الحملة العسكرية الضخمة التي ارسلها الحجاج ، لتأديب احد ملوك الترك (رتبيل)[3] في المنطقة المحاذية لولاية سجستان الشرقية ، مما يعني أن قائد الحملة نفسه ، قد تحول الى قائد للثورة . وقد لا يكون ذلك مثيرا للاستغراب ، لأن أحداثاً مشابهة في التاريخ غالبا ما استُغلت لتحقيق عمليات من هذا النوع ، تتنازعها الرغبة في التغيير عبر دوافع متعددة . ولكن المثير في الأمر أن تتحول هذه الحملة الى ثورة شعبية ، وان يكون عبد الرحمن ، بغير ارادة منه ، قائدها المرغم على المطالبة بتغيير نظام هو الأقرب اليه والأحرص على استمراره .

وكان الحجّاج بعد القضاء على خطر الخوارج في العراق ، يعمل على تحجيم المعارضة السياسية ، وتطويق ما يمكن أن يساعد على نمو التيار الثوري ، تفادياً لأي

---

(١) الدينوري ، الاخبار الطوال ص ٢٣٩ .
(٢) الامامة والسياسة ج ٢ ص ٣٤ ، الدينوري ص ٣١٧ .
(٣) الطبري ج ٨ ص ٤ .

فشل في مهمته الصعبة . ولعل حملاته العسكرية الى ما وراء سجستان هي محصلة هذه السياسة ، التي يجد فيها الباحث ارتباطا بالوضع الداخلي في العراق يتعدى بكثير أسبابها الخارجية . والحجاج نفسه لا ينفي هذا الدافع ، عبر المحاولة الهادفة الى تشتيت المعارضة وبعثرة عناصرها في مهمات مفتعلة . وأي سبب آخر قد لا يجد محلا له في سياق التعبئة العسكرية العريضة ، التي بادر الحجاج اليها مباشرة بعد تصفية ثورة الخوارج . ومن ناحية ثانية ، استنادا الى المرويات ، ان « رتبيل » ملك الترك المستَهدف ، كان على وفاق مع النظام الأموي والتزام بالشروط ، التي نصّت عليها معاهدة سابقة بين الطرفين[١] .

وكان قد سبق لعبيد الله بن أبي بكرة ، الوالي السابق لسجستان ، أن قام بحملة الى كابل أو كابلستان (بلاد رتبيل)[٢]،حيث أصيب جيشه العراقي بنكبة جسيمة ، بعد أن استدرجه الملك التركي الى شعاب ومضائق تلك البلاد ذات الطبيعة الجبلية القاسية[٣] . وعكست نتائج هذه الحملة الفاشلة ، موجة من الاستياء في العراق على الصعيدين الرسمي والشعبي . فالحجاج من جانبه صُدم بالمعاهدة المهينة التي حُمل قائده على الموافقة عليها ، انقاذاً لجيشه المحاصر ، والعراقيون من جانب آخر استفزتهم الخسائر البشرية المرتفعة ، حيث كان المقاتلون في معظمهم من البصرة والكوفة[٤] .

ولكن الحجّاج ، وقد كانت لديه مجموعة جاهزة من الجنود ، ما لبث أن قذف بها الى سجستان ، بقيادة واليها الجديد عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . وهنا تتناقض الروايات حول الدافع الذي جعل من هذا الاخير بطل المهمة العسيرة ، دون أن يستطيع الباحث في ضوئها ، ترجيح فرضية على أخرى الا بشيء من الصعوبة . فهل كان اختيار عبد الرحمن نوعا من التكريم لرجل ـ عدا المكانة التي احتلتها أسرته

---

(١) روى ابو مخنف عن رتبيل انه كان مصالحاً وقد كانت العرب قبل ذلك تأخذ منه خراجاً . الطبري ج ٧ ص ٢٨٢ .

(٢) (٧٩ هـ / ٦٩٨م) . المكان نفسه .

(٣) المكان نفسه .

(٤) المكان نفسه .

في النظام الأموي - كانت بينه وبين الحجاج علاقات مصاهرة ومودة حيناً[1] وجفاء وحقد حيناً آخر[2] ؟ أم أن اختياره كان جزءاً من الحملة العامة التي شغل بها الحجاج في ذلك الوقت ، الهادفة الى التخلص من العناصر المعارضة وإبعاد ذوي الطموح السياسي عن العراق ، تفادياً لخطرهم في مهمات أقرب الى النفي او الابعاد ؟ ولعل الافتراض الثاني صالح للنقاش ، وذلك اعتمادا على عدة مؤشرات[3] ، منها العلاقة الشخصية التي يرجّح بأنها كانت غير ودية بين الرجلين ، ثم السرعة غير المتوقعة التي تمّ فيها اعداد الجيش وإرساله مع القائد الجديد ، وكذلك التشنج الذي تحكم في تصرفات الحجاج ازاء اقتراح قائده في وقت لاحق ، بتجميد الوضع في (كابل) لضرورات عسكرية ، بعد أن رفض الوالي الأموي مناقشة أي قرار لا يقترن بالحرب ومتابعة التقدم ، كما نصّت عليه المهمة[4] .

وما لبث عبد الرحمن أن سار الى مهامه كوالٍ لـ سجستان ، على أن يتابع ما بدأه سلفه في كابل[5] . فنفّذ طائعا أوامر الحجاج ، وهاجم بجيشه الكبير معاقل « رتبيل » ، برغم التودد الذي أظهره الأخير ، ربما بدافع الخوف أو محافظة على سلامة الحدود والجوار[6] . وكان « ملك » الترك على الأرجح ، يتحاشى الصدام مع الأمويين ، مؤثراً الحلول السلمية[7] ، الا أن عبد الرحمن لم يكن لديه خيار إزاء المهمة الثقيلة التي حمل أعباءها بغير حماسة . وبقدر ما كانت البداية مشجعة وناجحة ، كانت ملامح الخطر تزداد في الاقتراب والوضوح ، حيث أدرك القائد الأموي أنه أمام عملية استدراج أخرى ، يقوم بتنفيذها « رتبيل » ، للقضاء على حملته الكبيرة . ولقد بنى اعتقاده على تجربة سلفه من ناحية ، وعلى التراجع المشبوه الذي قام به الملك التركي في

---

(١) الامامة والسياسة ج ٢ ص ٣٤ .

(٢) الدينوري الاخبار الطوال ، ص ٣١٧ ، الطبري ج ٨ ص ٤ .

(٣) راجع قول الحجاج المنسوب اليه : « ما نظرت قط الى هذا (ابن الاشعث) ، الا اشتهيت ان أضرب عنقه » . الدينوري ص ٣١٧ .

(٤) الطبري ج ٨ ص ٨

(٥) ٥٨٠ / ٦٩٩م .

(٦) الطبري ج ٨ ص ٤ .

(٧) المصدر نفسه ج ٨ ص ٤ .

عمق بلاده الجبلية من ناحية أخرى . وكان قائد الحملة مصيبا في مخاوفه من خطة عدوه التي باتت معروفة ، ولكنه وجد نفسه في مأزق الاختيار بين الاستمرار في التقدم وراء فلول الترك ، أو التوقف والاكتفاء بانتصاراته الجزئية المحدودة . وكان لكل من الخيارين محاذيره وخطورته ، فالأول يعني المغامرة بحملته وهي على درجة من الكثافة ، بعد تعزيزها بقوات اضافية ، مما يتعذر عليه التحرك بالسرعة المطلوبة ، ويكون بالتالي هدفا سهلا للفتك به في تلك الممرات الضيقة . أما الثاني ، وهو لا يخلو من الحذر أيضاً ، معناه طرح العلاقة بين قائد الحملة وبين الحجاج على بساط المناقشة ، بما يتمخض عن ذلك من نتائج ليست عملياً في مصلحة الأول .

وقبل الاستطراد في مناقشة الموقف العسكري في بلاد الترك ، ينبغي التوقف قليلا عند الوضع الداخلي لهذه الجبهة ، وأعني هنا بصورة خاصة ، تركيبة الجيش الذي يقوده عبد الرحمن . فهو حسب الروايات التاريخية ، قد ضم أربعين ألفا من العراقيين، جرى اختيارهم مناصفة من البصرة والكوفة[1] . أي أن زعامات المعارضة والقبائل و « القراء » وبقية القوى المؤثرة في العراق، كانت مشاركة في هذه الحملة وهي معنية بدورها في تقرير الموقف الذي سينتهي اليه القائد العام . ونتيجة لذلك فان هذا الأخير ، كان غير قادر على اتخاذ قراره بمعزل عن القيادات الأخرى .

وبعد مداولات انتهى عبد الرحمن الى قرار وسطي وافق عليه الجميع ، وهو الاكتفاء بما حققته الحملة من مكاسب عسكرية واقتصادية والتراجع الى « بست »[2] واتخاذها معسكراً مؤقتاً قبل معاودة التحرك . وكتب الى الحجاج باقتراحاته ، التي اعتقد أنها قد ترضيه ، وهي تجميد الحرب لفترة زمنية محددة لا تتجاوز العام ، كي يتاح للجنود معرفة هذه البلاد والتأقلم مع طبيعتها الجبلية ، ومن ثم التوصّل الى امتلاك أساليب القتال الخفيفة ، المتكافئة مع تلك التي برع فيها المقاتلون الترك . ولكن الحجاج ، وكان يدرك بشعوره الحذر ما قد يسفر عنه من نتائج ، تجمّع جيش كبير في قاعدة عسكرية من دون قتال ، خاصة اذا كانت عناصره من المعارضة ومُكرهة على

---

(١) الطبري ، ج ٨ ص ٤ .

(٢) احدى مدن سجستان ، وكانت قاعدة عسكرية لشن الحملات ضد الامراء المستقلين في الشرق R. Hartmann . دائرة المعارف الاسلامية ج ٣ ص ٦٢٥ - ٦٢٦ .

الاشتراك في هذه الحرب . فكان رده كما توقعه الجميع ، هو الرفض وتجديد الأوامر بالزحف وراء قوات الترك ، ومعه تهديد بالعزل لقائد الحملة اذا خالف ذلك(١) .

وكان الموقف في « بست » على جانب كبير من التشنج ، ولم يكن المقاتلون وقياداتهم ينتظرون سوى المحرّك للانفجار والثورة . فقد بلغ الحقد على سياسة الحجاج وممارساته الفوقية حدا بعيدا ، لا سيما اصراره على متابعة الحرب ، دون أن يرى هؤلاء في ذلك سوى مؤامرة جديدة ضدهم للحؤول دون عودتهم الى العراق . ولا يستطيع الباحث أن يجد هنا تسويغا موضوعيا ، لتشبّث الحجاج بقراره العسكري يتجاوز هذا التصوّر . ذلك أن العنف الذي انطبع عليه الأخير منذ أول مهمة تولاها في حياته السياسية ، كان يفسد عليه الكثير من الحلول ويجرّه الى مآزق ، كادت أن تقضي عليه بعض الأحيان . فقد ظل يعتقد أن أقصر الطرق الى تطويع المعارضة ، هو اشغال الناس بهذا النوع من الحملات ، والهائها عن مقارعة النظام والمطالبة بشروط أفضل لأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية . كانت تلك نقطة الضعف في شخصية الحجاج ، وهي المبالغة في اللجوء الى القمع ، وفي تجاهل الحقوق المشروعة لفئات عديدة كان يستخف بقوتها الى حد كبير .

لقد كان جواب الحجاج ، المؤشر الذي قلب المقاييس ، وعكس الاتجاهات في « بست » ، حيث جاءت المبادرة الأولى المضادة ، في الدعوة الى « مؤتمر » عام لمناقشة موقف الحجاج . فألقى عبد الرحمن خطاباً مؤثّراً ، لا يخلو من عبارات تحريضية انعكس عليها ذلك التجريح بشخصيته من جانب الحجاج الذي اتهمه بالتخاذل وضعف الرأي(٢) . ولقد حركت كلماته عواطف الجنود نحو الاتجاه ، الذي أصبح الخيار الوحيد للقادة والمقاتلين في الوقت نفسه ، مظهراً ما لديه من ذكاء بإعطاء القرار للمؤتمر ، حسب رواية أبي مخنف : « انما أنا رجل منكم أمضي اذا مضيتم وآبى اذا أبيتم »(٣) . فيأتي الرد السريع والفوري : « لا بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا

---

(١) « أمضِ لما أمرتك به من الوغول في أرضهم والا فإن اسحاق بن محمد أخاك أمير الناس » الطبري ج ٨ ص ٨ .

(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ٨ .

(٣) المكان نفسه .

نطيع »[1] . هذه الاستجابة العفوية كانت تخفي وراءها كوامن الغضب المخزونة لدى المقاتلين ، الذين اتخذوا حينذاك موقعهم الطبيعي ، كثوّار وليس كجنود نظاميين تحت أمرة الحجاج .

وهكذا تحوّل الجيش الذي أعدّه الوالي الأموي من صفوة المقاتلين في الكوفة والبصرة، ليمضي في مهمة غامضة ، الى ثورة تستهدفه مباشرة وترفع السلاح في وجهه . وعبر الطريق الى العراق ، كانت عوامل اضافية مشجّعة تدعم هذه الخطوة وتوسع دائرتها ، وذلك من خلال التعاطف المحسوس الذي لقيته من المدن والقرى العديدة . وكان هذا دافعا الى بلورة قضايا لا زالت حتى ذلك الوقت خارج اطار المناقشة ، وفي مقدمتها الموقف من الحكم الأموي عامة ، حيث كان من الصعوبة تجزئته ، انطلاقاً مما يمثّله الحجاج كواحدٍ من اركانه ، حيث جاءت صيغة « البيان » معبرة في هذا الشأن ، وذلك في الدعوة الى « خلع أئمة الضلال وجهاد المحلّين »[2] .

ولقد دأب قائد الثورة اثناء ذلك ما استطاع ، على اجتذاب الأنصار لضمان مجابهته مع الحجاج ، لا سيما الاتصال بوالي خراسان ، القائد الشهير المهلب بن أبي صفرة . غير أن هذا الأخير لم يشأ زج نفسه في هذه المغامرة ، وهو البعيد بطبيعته عن الحركات الانفصالية والثورية ، حيث قاومها طويلا في حملاته السابقة ضد الخوارج . فالمهلب كان ميّالا كعسكري محترف الى الانضباط والموالاة ، ويرى موقعه الى جانب السلطة وليس ضدها، حسب النهج الذي سار عليه، سواء تحت مظلة الحكم الاموي أم الزبيري ام أي حكم آخر. ومن هذه الرؤية الخاصة، اكتفى المهلب باسداء النصيحة لعبد الرحمن بالتراجع عن عزمه ، وتحذيره من مخاطر مسيرته الى العراق ، في الوقت الذي أرسل الى سيده في الكوفة تقريراً شاملا عن تحركات الثورة ، ومعه تعليمات خاصة اكتسبها من خبرته الطويلة في الحرب[3] .

وفي تلك الأثناء كان الحجاج يترصد أخبار الثورة ، دون أن يفقد ثقته الكبيرة بنفسه ومقدرته الكبيرة على احباطها . فغادر الكوفة الى البصرة، ومنها الى

(١) الطبري ج ٨ ص ٨ .
(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ١٠ .
(٣) المكان نفسه .

« تستر »[1] ، المكان الذي اتخذه معسكرا لقواته . وهناك تلقّى الحجاج أولى هزائمه منذ بروزه على مسرح الأحداث في خلافة عبد الملك ، اضطر بعدها للانسحاب الى « الزاوية » (بالقرب من البصرة) . ولقد كانت هذه النتائج تعني الكثير في حسابات الثوار ، الذين وجدوا في انتصارهم على « الرجل الحديدي »، الذي زرع الخوف في قلوبهم زمنا ، الباب الواسع الى النجاح وتحقيق النصر . وكانت أولى ثمرات هذه المعركة ، دخول عبد الرحمن الى البصرة التي أعلنت موقفها المتعاطف مع الثورة ، والتي بلغت ذروة مراحل التصعيد في مسيرتها الظافرة ، حيث الانتصار أعقبته انتكاسة غير متوقعة ، أدت الى استرداد الحجاج للبصرة ، متصدياً بشجاعة خارقة للثوار ، على الرغم من المتاعب العسكرية والتموينية[2] . وكان نجاحه في تفادي استمرار التدهور في مواقعه ، منطلقاً من عنصرين اثنين : الاول ، تطويق أزمة التموين والتخفيف من آثارها السلبية على قواته[3] . والآخر ، الدور الفعّال الذي قامت به الفرقة الشامية بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي[4] ، القائد الأموي الذي استُدعي إثر استفحال ثورة الخوارج الصفرية ، وكان له التأثير الكبير في القضاء عليها .

ولكن خسارة البصرة في موقعة « الزاوية » ، لم تكن على درجة من الخطورة ، بحيث أن تأثيرها على مسار الثورة كان سطحيا ، ولم ينل من اندفاعها أو من خططها التي استمرت في التنفيذ دونما عائق . وكانت الكوفة في الواقع ، المدينة الأكثر جدارة لاتخاذ دورها المطلوب . فهي كمركز استقطابي للمعارضة ومناهضة الحكم الأموي ، احتلّت اهمية في هذا المجال دون ثمة منافس ، وهو دور اكتسبته عبر موروث من النضال السياسي والصراع الدموي ضد الأمويين . وما لبث أن تكتّلت بكل فئاتها وراء عبد الرحمن ومنحته تأييدها المطلق ، خاصة وأن قائد الثورة هو كوفي المولد والمنشأ ، وبالتالي فان قوته السياسية انما هي في الكوفة ، حيث تسود القبائل اليمنية

---

(١) تقع في اقليم خوزستان الى الشرق من نهر دجيل. J. H. Kramers دائرة المعارف الاسلامية ج ٥ ص ٢٤١ .

(٢) الطبري ج ٨ ص ١١ .

(٣) المكان نفسه

(٤) المصدر نفسه ج ٨ ص ١٢ .

ومنها فضلاً عن كندة القبيلة الشهيرة (همدان) التي كانت سبّاقة الى الاعتراف به(١) . بالاضافة الى ذلك فان « الحركة » الشيعية وهي أقوى الاتجاهات السياسية في الكوفة ، كان من السهولة المراهنة على مواقفها الايجابية في مثل هذه الظروف ، حيث تحمل استمرارية الثورة في الوجدان ، وتعيش التعبئة كالانفجار الموقوت . ومن خلال هذه المعطيات ، تجاوبت الكوفة بكل طاقاتها لتكون مركز الثورة على الحكم الأموي ، ذلك القاسم المشترك الذي وحد بين مختلف فئاتها وبين قائدها عبد الرحمن .

وفي ذلك الوقت كان الخليفة في دمشق ، على اتصال وثيق بالأحداث المقلقة التي وفدت عليه من العراق ، فأبدى مخاوفه من تدهور الأوضاع الى درجة تفتقد فيها الدولة المروانية زمام الأمور مرة أخرى ، خاصة بعد فشل الحجاج في استعادة الكوفة(٢) . وبادر عبد الملك الى دعوة مستشاريه وأعوانه لدراسة الموقف في العراق والانتهاء الى حلول موضوعية ، تساهم في تخفيف حدّة التحامل على السياسة الأموية ، حيث كان الحجاج بأسلوبه القمعي أحد مظاهرها المتطرفة . ولقد أسفر الاجتماع عن اقتراحات عملية جسّدت في الحقيقة المستوى الجدّي الذي نُوقشت به الأحداث العراقية ، مما جعلها أشبه بعملية انتقاد ذاتي لسياسة الحكم الأموي واعتراف بالسلبيات والأخطاء(٣) . ذلك أن وفداً من محمد بن مروان (أخي الخليفة) وعبد الله (ابنه) توجه الى دير الجماجم (معسكر الثوار) ، ومعه المقترحات التالية : عزل الحجاج عن العراق اذا كان ذلك مطلب العراقيين واستبداله بمحمد بن مروان ، المساواة في العطاء بين أهل الشام وأهل العراق ، أي بتعديل نصيب العراقيين في العطاء وزيادته الى مستوى الشاميين . تعيين عبد الرحمن ، قائد الثورة على أية ولاية يختارها باستثناء العراق ، فتكون له طيلة حياته(٤) .

ومن الواضح أن الخليفة كان ايجابيا وواقعياً في حلوله التي بعث بها الى الثوار ،

---

(١) الطبري ٨ ص ١٤ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ٤٦٩ .
(٣) الطبري ج ٨ ص ١٥ .
(٤) ابن الأثير ج ٤ ص ٤٧ .

حتى أنه تخلى عن واليه المقرّب الحجاج ، الذي وقع عليه عبء المسؤولية في اجتماع دمشق . ولم تكن هي ظاهرة تغيير في سياسة الخليفة القوي ، بقدر ما كانت محاولة لتطويق الانفجار الكبير في العراق والحدّ من خطره . غير ان مقترحات عبد الملك لم تلق التجاوب لدى الطرفين المتنافسين . . حيث استقبلها الحجاج بفتور وبشعور من المرارة والاستياء ، لتخلّي الخلافة عنه في وقت لم يفلت زمام الأمر نهائيا من يده ، بينما رفضها الثوار لاعتقادهم أن ميزان المعركة لا زال يميل نحوهم . وكان على رأس المتشددين « القراء » أو الفقهاء في المصطلح الآخر للكلمة[1] ، تلك الفئة الطليعية في الثورة ، التي شكلت عبر هذا الموقع نقطة الثقل في توجيه القرار الحاسم ، وكان الوحيد الذي انحنى لعروض الخليفة وتعاطف معها ، هو قائد الثورة نفسه . وهنا أخذت الصورة المتناقضة ، تنقشع عند أول تجربة بين الثورة كمبادىء وأهداف وجماهير معبأة ، وبين قائدها « الارستقراطي » بنزعة السلطوية المتوارثة . فقد كان لقاء عبد الرحمن مع ثواره ، مجرد صدفة الزمته بها ظروف مرحلية خاصة ، ولهذا فان أي رادع لم يحل دون تخلّيه عن التزاماته ، مهما عظمت ، اذا ما تغيرت هذه الظروف . وفي كل الأحوال فان طموحه كان الى جانب السلطة وليس الثورة عليها كما أشرنا . ولم تكن دوافعه الأساسية ، سوى الشعور بالاهانة ، والأهم من ذلك هو افتقاد المنصب والخوف على نفسه من عقاب الحجاج ، وها هي الفرصة تعيد نفسها ، فتأتيه الولاية ومعها قهر الخصم اللدود .

ولكن عبد الرحمن الذي التزم بميثاق الثورة وبايعته جماهيرها وقياداتها ، لم يكن

---

(١) من الشائع المتداول ، أن القرّاء هم حفظة القرآن ومفسّروه ـ أو بمعنى آخر الفئة المثقفة في الكوفة والبصرة في ذلك الحين ، ولكن ثمة رأياً جديداً لمؤرخ معاصر ، يميل الى تفسير هذه الكلمة (القراء) ، بأنها تمثل « أهل القرى » الذين تكاثروا في المصرين العراقيين أو على تخومهما ، إبان حركة الفتوح وفي اعقابها ، بحيث يبدو غير منطقي برأيه بلوغ عدد « قراء » القرآن ، ذلك الحدّ الذي كانوا عليه في ثورة ابن الاشعث. محمد عبد الحيّ شعبان .صدر الاسلام والدولة الاسلامية ص٦٢وربما انطوى هذا الرأي على شيء من الصواب ، ولكن لا يزال بحاجة الى نقاش ، كونه غير مستند على حقائق واضحة في النصوص ، مما يجعله يكتسب طابعا تحليلياً أكثرمنه تاريخي ، خاصة وأن هذه العبارة (القراء) وردت منذ وقت مبكر حاملة « مضمونها القرآني ، وذلك من خلال القول المنسوب لمعاذ بن جبل عشية اليرموك مخاطباً هؤلاء بقوله :يا قرّاء القرآن ومستحفظي الكتاب وانصار الهدى وأولياء الحق » الأزدي ، فتوح ص ٢٠٨ .

صاحب القرار النهائي . فالموقف حدّده الثوار بما لا يقبل المناقشة ، وهو الرفض المطلق لاقتراحات الخليفة والاستمرار في القتال ، وحيث كانت ظروفه لا تزال تبعث على الأمل . وفي هذا الوقت كان الحجّاج الذي توقف في « دير قرة »[1] ، مبتهجا بفشل المفاوضات وعودة الخليفة الى تبنّي سياسته العراقية . وهكذا انتصرت ارادة الحرب والمجابهة العسكرية ، وهي ارادة الثورة ، بجماهيرها وقياداتها « وقرائها » ، التي وحّد بينها ، وعبر مختلف مصالحها ، الموقف العدائي من الحجاج ، الأداة القمعية الأكثر تطرفا في تاريخ العلاقات بينها وبين النظام الأموي .

وكادت القوى أن تكون متكافئة برغم التعزيزات الأموية المتواصلة ، حيث طال أمد القتال دون تسجيل رجحان ملحوظ لأي من الطرفين[2] . ولكن الثوّار أظهروا بعض التفوق الفردي والمحدود في بداية الاشتباكات ، منحصراً تأثيره في التهيئة النفسية للحرب . وتتوّجت هذه العمليات الخفيفة بمعركة ضارية[3] في « دير الجماجم »[4] ، ـ معسكر الثوار ـ ، انتهت بانتصار الحجاج وقواته النظامية المتلاحمة ، وهزيمة عبد الرحمن وفراره مع فلول ثورته الى المشرق . وكانت قد جرت عملية مطاردة للقائد المهزوم بلغت نهايتها المسلحة في معركة « مسكن »[5] ، لم يجد معها بدّاً من اللجوء الى بلاط « رتبيل » ربما تنفيذا لاتفاق سابق بين الرجلين[6] .

كانت « دير الجماجم » ، معركة النهاية ضد أعظم ثورة شعبية في تاريخ العراق الأموي . وعلى الرغم من أنها لم تكن الأخيرة في تصفية جذورها ، التي لا تزال قابلة للنمو في أطراف سجستان ، الا أنها كانت معركة المصير التي أنقذ الحجاج بها نفسه من الاحتجاب ونظامه من السقوط . ففي أعقاب الانتصار الكبير ، انصرفت جهود الوالي الأموي في اتجاهين : الأول ، عسكري وهو مطاردة بقايا الثورة في سجستان والقبض

---

(١) بإزاء دير الجماجم على مقربة من الكوفة . معجم البلدان ج ٢ ص ٥٢٦ .
(٢) المسعودي ، مروج الذهب ج ٣ ص ١٣٣ .
(٣) وقعت هذه المعركة في العام ٨٢ أو ٨٣ هـ . الطبري ج ٨ ص ١٤ .
(٤) بظاهر الكوفة . معجم البلدان ج ٢ ص ٥٠٤ .
(٥) الطبري ج ٨ ص ٢٦ .
(٦) المصدر نفسه ج ٨ ص ٢٨ .

على قائدها بأي ثمن . والآخر ، داخلي حيث شهدت الكوفة محاكمات مثيرة أودت بالكثيرين من الثوار الذين وقعوا في قبضة السلطة بعد « دير الجماجم » ، حيث تحوّل قصر الامارة الى مسرح دموي استهدف بشكل خاص ، الأسماء البارزة في المعارضة العراقية التي أراد الحجاج استئصالها والقضاء على أي أمل لها في التحرك[1] .

وبالفعل ، فان القوى المناهضة للامويين في العراق تلقّت ضربة عنيفة ، لم تعد معها قادرة على استعادة الحد الادنى من مواقعها السياسية في ظل تلك الظروف ، حيث قبضة الحجاج اشتدت في ملاحقة أعداء النظام ، حتى الذين في موضع الاشتباه . كذلك لم يعد هذا الأخير أميناً على وجوده وسط هذه البحيرة من الكراهية ، فلجأ مباشرة بعد الانتهاء من تصفية جيوب الثورة ، الى استبدال العاصمة التقليدية للولاية ، واتخاذ مركز آخر له في « واسط »[2] (الاسم الذي اختاره لعاصمته الوسطية الجديدة في العراق) ، تجسّدت فيه ملامح الشخصية الجديدة سياسيا وعسكريا لهذا الأقليم . ولكن « واسط » على ما يبدو لم تنجح في منافسة الكوفة ، فبقيت مجرد قاعدة للجنود الشاميين ، حيث أصبح لوجودهم ضرورة ملحة من أجل حماية النفوذ الأموي في العراق ، منذ أن تهدّد عمليا أثناء هجوم الخوارج الصفرية على الكوفة .

ولكن ثمة شعوراً بعدم الارتياح، كان لا يزال يخالج والي العراق ببقاء عبد الرحمن خارج دائرة العقاب التي طالت رفاقه في الثورة. وكان الحجّاج توّاقاً لبذل المزيد من الثمن ، من أجل الحصول على رأس خصمه الهارب ، واستحضاره بين يديه ، ليلقى جزاءه المحتوم . كما أن بقاءه في بلاط « رتبيل » حيث يجد العطف والترحاب ، من شأنه أن يستثير مخاوف الحجاج من متاعب مستقبلية ، قد يؤدي اليها هذا التعاطف ، وذلك في منطقة تعجّ بالعناصر المضطهدة والحاقدة على الوالي الأموي بصورة خاصة . وهنا يضطر الحجاج الى اعفاء عدوه التقليدي « رتبيل » من ضريبة سبع سنوات[3] ، مقابل تسليمه قائد الثورة المنفي في بلاطه . ولم يجد ملك الترك بدّاً

Voir, Beydoun. I, la Révolte d'ibn Al - Ach - Ath , PP 160- 170

(٢) سميت بذلك لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة ، او لأن موضعاً كان يعرف بهذا الاسم فبنيت على انقاضه . معجم البلدان ج ٥ ص ٣٤٧ .

(٣) الطبري ، ج ٨ ص ٤٠ .

من الرضوخ ، لأمر لم يعد من الحكمة المضي في تحمل أوزاره . ومن المثير حقاً أن يبلغ التناقض هذا الحدّ في العلاقة بين الحجاج ورتبيل ، بحيث قضى على أية معادلة مفترضة يمكن استنتاجها في هذا الشأن . فبينما كان الاول متشددا حتى الاصرار في اعلان الحرب على الثاني ، متلمساً ذريعة الامتناع عن دفع الجزية وهو أمر غير مؤكد[1]، مما أدى الى دفع حملتين في مهمة غامضة وخطرة ، يتناسى الحجاج هنا عداوته لرتبيل ، ويتجاهل جدية المعركة التي افتعلها ضده ، وما أعقب ذلك من تعبئة عسكرية في العراق تحت شعار القضاء عليه ، دون ان يعنيه من هذه الصورة حينذاك ، سوى إرضاء رتبيل لحمله على تسليم قائد الثورة الملتجىء لديه .

وكان لا بدّ من الافتراق بين عبد الرحمن ورتبيل ، بعد أن آثر الأخير مصالحه ، في الاعفاء من الضرائب وفي تجنّب الحرب . فقام بتسليم صاحبه الى قوات الحجاج ، ومعه آخر فصول الثورة الكبرى ، التي لم يزل وجود قائدها في المنفى يبعث القلق لدى الوالي الأموي . غير أن عبد الرحمن ، كان لا يزال يمتلك لحظة الاختيار الأخيرة ، فلم يشأ لعملية المساومة التي كان بطلها ، أن تأخذ المجرى الذي يشتهيه الحجاج ، ولكنه فضّل اختصار الفصل النهائي من حياته ، وذلك بإلقاء نفسه من مكان مرتفع في غفلة عن الحرس ، على نحو ما ترجحه أكثر الروايات التاريخية[2] .

وهكذا فشلت محاولة أخرى من محاولات المعارضة العراقية ، التي ناضلت طويلا من أجل التغيير والاطاحة بالحكم الأموي . وخرج الحجاج ، الهدف المباشر في هذا التحرك الثوري ، سالماً من أخطر مواجهة مسلحة في تاريخه السياسي . غير أن خروجه جاء متوكئاً على النظام ، لا يملك معه القدرة على الاستمرار ، دون تغطية عسكرية دائمة من الجيش المركزي في الشام . مما سيفقد الكثير من القضايا الحيوية توازنها في دولة الأمويين ، خاصة على المدى المستقبلي القريب والبعيد .

والواقع أن ثورة العراق الكبرى التي قادها عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ،

---

(١) الطبري ج ٧ ص ٢٨٢ .

(٢) ٨٥هـ / ٧٠٤م يعرف المكان الذي انتحر فيه عبد الرحمن بن الاشعث باسم (الرُخج) ، وقد دفن هناك بينها حمل رأسه الى الحجاج ، حيث يقول أحد الشعراء : هيهات موضع جثة من رأسها رأس بمصر وجثة بالرخج . الامامة والسياسة ج ٢ ص ٤٣ . الطبري ج ٨ ص ٤١ .

كانت وراءها عدة خلفيات متنوعة الملامح ، بحيث أن عوامل ثلاثة اسهمت في قيامها وتطورها الذي آلت اليه :

١ ـ ان الموالي ، الفئة المضطهدة في المجتمع العراقي وجدت متنفسها الطبيعي في الثورة ، للتعبير عن واقعها الاجتماعي المسحوق ، بعد أن تهيأت لذلك عبر مشاركات بدائية في انقلاب المختار وانتفاضة ابن جارود .

٢ ـ الحساسية التي خلّفتها السياسة الأموية في العراق إزاء التيارات المعارضة ، بحيث إن خلافة دمشق افتقدت اطارها الاسلامي ومضمونها الواعد على الصعيدين السياسي والاجتماعي ، وتحولت الى نظام اسروي قبلي ، يتوسل القمع كأفضل الأساليب لحماية نفسه من السقوط . وهذا الموقف أخذ يتجاوز « الحركة الشيعية » ، ليصبح موقف الأغلبية الساحقة من المجتمع العراقي وملحقاته الشرقية .

٣ ـ ان تجييش العراقيين في حملات غامضة ولا تخلو من الخطورة في بلاد « كابلستان » البعيدة ، في وقت كانت الحاميات الشامية في العراق محصورة المهمات في حماية الوالي ونظامه ، كان من الأسباب المباشرة التي فجرّت الوضع في حملة عبد الرحمن ، ومن ثم تحوّلها الى ثورة مسلحة . وهذا ما يفسر استعجال الثوار في طرح موقفهم من الحكم الأموي وليس من الحجاج فقط .

لقد تضافرت هذه الأسباب بشكل مباشر والتقت مع طموحات قائد متحدّر من بيت « ارستقراطي » ، على مجابهة أقوى ركائز النظام الأموي . فكانت ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، ثورة العراق بكل ما تعنيه هذه العبارة ، من حيث المشاركة الواسعة والاستجابة العظيمة ، على نحو لم تشهده المحاولات الثورية السابقة . ولا بدّ كي نعي بصورة أكثر وضوحا خلفيات هذه الثورة الحقيقية ، من التوغّل قليلا في ماضي المجتمع العراقي قبل الاسلام . ذلك أن هذه المنطقة الغنية تراثاً وحضارة ، اتخذت منذ وقت مبكر موقعاً جاذباً للأفكار الجديدة والحركات الثورية والاصلاحية . فقديما عاشت في العراق عناصر عربية تأثرت برغم تبعيتها السياسية للفرس ، بالثقافتين الاغريقية والبيزنطية ، فضلاً عن العقيدة المسيحية . وأقامت قبلها والى جوارها ، عناصر أخرى سواء من الفرس ، وهم أغلبية السكان في المنطقة ، أو من الجاليات الأخرى من يهود ونصارى من أصحاب المذهب

النسطوري لا سيما هؤلاء الذين كان لهم دور كبير في مجرى التعايش الحضاري ، الذي اختمر في تلك الارض منذ مئات السنين .

وكان أن ساهم هذا التشابك بين مختلف الأفكار ، من شرقية متأثرة بعقائد ومذاهب الفرس (مجوسية ومانوية ومزدكية) ، الى غربية تستمد بريقها من الحضارات الاغريقية والرومانية والبيزنطية ـ المسيحية ، وما رافقها من عادات وتقاليد وآداب وفنون . . كل ذلك أدّى الى نوع من التمازج الثقافي ، أوجد في النهاية مناخا مميزا ، من حيث الحد الأدنى للحرية الفردية ، أو من حيث الغليان الفكري الذي أصبح مع الوقت أبرز سمات المنطقة . ومع انطلاق حركة التغيير في شبه الجزيرة العربية ، كان العراق أول الاقاليم المجاورة اتصالا بالاسلام ، بعد أن امتدت اليه بواكير الفتوح مع المثنى بن حارثة الشيباني . وما لبث أن تصدّر الأحداث في الدولة الجديدة ، بقيام انتفاضة الكوفة ، أول احتجاج علني استهدف الخليفة الراشدي الثالث عثمان . ومنذ ذلك الحين لم يفقد هذا الأقليم المبادرة ، سواء كان مركز الحكم مع انتقال العاصمة الى الكوفة ، أم كان محور المعارضة بعد تحوّل الخلافة الى الأسرة الأموية في دمشق . ولا يمكن أن تتجاهل هنا الدور الذي قامت به حركتا الشيعة والخوارج في بلورة مفاهيم المعارضة السياسية في العراق ، التي انتقلت بثقلها لاحقاً الى الموالي . واذا كان الخوارج قد فشلوا لأسباب باتت معروفة في التغلغل بين الفرس ، فان الشيعة نجحوا الى حد كبير في اجتذابهم ، حيث لاقت طروحاتهم الاجتماعية التعاطف العفوي والاستجابة العريضة في أوساطهم .

وهكذا فإن هذه الشخصية الخاصة قبل الاسلام وبعده . كانت وراء تلك النزعة الثورية التي جعلت من العراق الاموي بؤرة للعنف والاضطرابات المتواصلة ، دونما تقدير تام احياناً ، لخلفيات التحرك وأسبابه الموضوعية . ولعل العباسيين كانوا أكثر استيعاباً لهذه الحقيقة ، فجعلوا من العراق مقر ثورتهم الاول قبل انتقالها الى خراسان ، ثم اتخذوه مركز دولتهم الجديدة بعد القضاء على الامويين .

وباختصار فان ثورة العراق التي تزعمها عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، لم

تكن غير تحالف مرحلي بين شخصية « أرستقراطية » ذات مصالح محددة ومرتبطة عضويا بالفئة الاجتماعية التي تحدرمنها، المنتمية بدورها سياسياً للتيار القبلي الذي تقوده الاسرة الأموية الحاكمة ، وبين جماهير الثورة التي وحّد بينها ذلك الشعور « الوطني » وصهرها موروث المشاكل المزمنة ، قبل تلاحمها في اطار هدف حيوي وجامع . كذلك فإن الثورة من خلال قائدها ، التقت بدون تنسيق ، مع قضية مصيرية عاشت في ضمير العراقيين ، مما ادى الى فشل احداها . وبقاء الاخرى في انتظار ثورات لاحقة[1] .

وتبقى بضعة استنتاجات لا بد من الاحاطة بها في نطاق التعليق على هذه الثورة ، وهي تسير في الاتجاهات التالية :

١ ـ لقد استقطبت الثورة كما عرفنا طاقات هائلة من القواعد والقيادات الشعبية ، التي احتلّ بعضها موقعاً جذرياً في المجتمع العراقي في ذلك الوقت . ولذلك فان انتصار الحجاج في « دير الجماجم » ، أوجد فرصة فريدة امام الأمويين ، لسحق الحركات الثورية الخطيرة على مدى نصف قرن من الزمن . أي أن احدى النتائج الأولية لهزيمة الثوار ، هي تدمير العنصر القيادي في المعارضة العراقية ، المؤهل للقيام بحركات مستقبلية في العراق .

٢ ـ من النتائج الفورية التي أفرزتها هذه الثورة على صعيد النظام الأموي في العراق ، تمثّلت بانشاء الحجاج مدينة « واسط » كمقر لادارته بعد استنكافه عن البقاء في الكوفة . وكان الدافع الى انشائها ، عسكريا في المقام الأول ، حيث شاءها الحجاج قاعدة خاصة بالقوات الشامية في العراق ، الجاهزة للتدخل في الوقت المناسب . ذلك أن الحاكم الأموي بعد هذه الأحداث المتتابعة ، فقد قدرة السيطرة على العراق بدون تغطية عسكرية من الشام ، وهو المؤشر السلبي الذي حدّ كثيرا من كبرياء الحجّاج وحجّم تأثيره لدى الخلافة .

٣ ـ التحوّل الجذري في أفكار ومواقف الموالي ، بحيث إن هذه الثورة زادتهم التصاقا بمشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية . ومن ناحية أخرى فان الشعور العدائي ضد الأمويين ، تصاعد مع ازدياد عمليات الاضطهاد التي مارسها الحجاج ضدهم بعد

(١) I. Beydoun, Elements d'Analyse de l'irrèdentisme Iraqien sous les Omayyades pp. 174 - 176

فشل الثورة . كما كان لهذه السياسة القمعية ، مردود سلبي لم يخلُ من الخطورة ، حيث دفعت بالعراق الى بداية تفريغه من سكانه الموالي فضلاً عن العرب ، وذلك بهجرة أعداد كبيرة منهم الى المناطق الشرقية البعيدة ، ليصبح تجمّعهم في تلك الجهات أحد أبرز مصادر الخطر ضد الدولة الاموية .

٤ ـ الانعكاس السلبي لسياسة الحجّاج الداخلية عامة ، وثورة عبد الرحمن خاصة ، على الاقتصاد العراقي . ومن المعروف أن العمران ، انما هو محصّل حتمي للاستقرار السياسي ، الذي كان ذلك أبعد ما يكون عن العراق بوجه عام ، في السنوات العشرين التي سيطر خلالها الحجاج على مقدّرات هذا الاقليم . فلقد انحسرت مشاركة الموالي في الانتاج الزراعي والصناعات اليدوية ، بعد ان كانت لهم الأسبقية في هذا المجال ، وبلغ الانهيار الأقتصادي حدّاً ، جعل حكم العراق بعد الحجاج على شيء من الصعوبة . فهذا الأخير شغل نفسه بتطويع المعارضة ومجابهة الحركات الثورية ، متجاهلا في المقابل الأسباب التي كانت عملياً مادة هذا الاضطراب السياسي .

٥ ـ ان الهوة الكبيرة التي أخذت تتبلور إثر القضاء على هذه الثورة ، بين الموالي وبين الحكم الأموي ، زادت في ترويج الأفكار الاصلاحية التي تبنّتها ودعت اليها زمناً الحركة الشيعية . ومع الوقت أصبحت من طروحات الموالي ، خاصة بعد فشل الأمويين في تثبيت الاستقرار الاقتصادي والسياسي في العراق ، حيث تطور ذلك الى قيام الموالي بدورهم التاريخي في الثورة العباسية .

المحاولة اليائسة

ان تـاريخ العـراق السياسي ، كـأحد المحـاور الاستقـطابيـة الأولى التي نـاوأت الحكم الاموي ، يكاد يكـون المدخـل الضروري لـدراسة هـذا العصر وتبيـان ملامحـه الخاصة . فقد بدأ هذا النظام كدولة موحدة من العراق ، ولكنها كـانت بدايـة الغالب والمغلوب ، التي لم تلبث أن أصبحت نهج السياسة الاموية بجميع مراحلها المتلاحقة . ولعل النهاية ستأخذ طريقها ايضاً من هـذا الاقليم ، كنتيجة لـذلك الصـراع الطويـل بين العراق والشام ، وما ينطوي عليه من تنافر في الاهداف والمصـالح والمستـوى الاجتماعي . فالتحرك المتواصل عبر الاتجاهات السياسية المختلفـة ، التي كانت تمثلهـا الشيعة والخوارج ، فضلا عن بعض حركات « الارستقراطيين » التي كانت لهـا دوافعها الخاصة ، ولكنها عمليا كانت قادرة على شحن الجماهـير وتفجيرهـا بصرف النـظر عن التباين المصلحي بين الطرفين . كل ذلك جعـل من العراق البؤرة الثـورية الخـطيرة ، التي أنهكت نظام الامويين واستنزفت طاقاته في معركة جانبية ، ولكنها مستمرة .

وفي بدايات القرن الثاني للهجرة ، كان على المعارضة السياسيـة في العراق ، أن تأخذ مسارا جديدا ، اكثر بلورة في نضـالها التقليـدي ضد السلطة الامـوية . غـير أن التغيير قد تناول الأطر العامة للمعارضة ، دون أن يستهدف المضامين المبدئيـة ، الّا في جوانب محددة ، أكثر ما أصـابت الاتجاه الاسـلامي ، وذلك مـع ازدياد تـأثير الفئـات المسحوقة في المجـرى العام للتحـرك الثوري . فـالموالي الـذين عاشـوا في اطار التبعيـة المطلقة للاقلية الحاكمة في العراق ، أخذوا يتحررون تلقائيـا من هذا المـوقع المهـزوم ،

حيث اصبحوا جزءاً من المجتمع العربي الاسلامي ، على الرغم من المحاولات المضادة التي بذلها بعض المتطرفين في الادارة الاموية ، للحد من نتائج هذا الانقلاب التي هددت مباشرة معادلات النظام التقليدية .

وكان مؤشر التناقض بين السلطة الاموية ، التي رفضت عمليا الاعتراف بمبدأ المساواة في العراق وبين الموالي ، القوة الفاعلة في المعارضة السياسية ، هو انتقال التيار الثوري قيادةً وجماهيراً الى العناصر غير العربية . ففي المشرق ، اخذ الموالي يتحركون بحثا عن شخصيتهم المفقودة في اطار ما عرف بتيار « الشعوبية » ، التي ظهرت في أواخر العصر الأموي[1] ، متلمّسين طريقهم الى الثورة ، عبر النضال السري الطويل في الدعوة العباسية . وفي المغرب أخذ البربر وهم اكثر حداثة بتراثهم الاسلامي ، يتحسّسون بدورهم طريق التغيير ، خاصة وان هجرة الخوارج بأفكارهم المعروفة الى هذه المنطقة ، قد تركت بصماتها الواضحة على أفكار البربر وموقفهم من السلطة ، التي مثلتها متطرفو الحزب القيسي من الولاة الأمويين[2] .

وهكذا حدث تحول ملموس في حركات المعارضة التي ناهضت الحكم الاموي ، وذلك باتخاذها اتجاهات غير عربية ، بعد انتقال ثقلها الجماهيري الى الموالي في المشرق والبربر في المغرب . وهذا ما أدى الى اكتساب التيار الثوري بُعداً اجتماعيا في الصميم ، خلافا للحركات الثورية السابقة ، حيث كانت مضامينها الراجحة سياسية او عقائدية . وكان ذلك نتيجة حتمية لانتقال المبادرة في هذا المجال الى الفئات المسحوقة ، التي استغلت الاختلال في قاعدة المساواة ، للمطالبة بحقوقها في المجتمع ، متوسلة لذلك مختلف الطرق ، بما فيها الثورة .

ولعل التساؤل يفرض نفسه ، لمعرفة مدى الجدية في موقف الخلافة الاموية إزاء هذا « الانقلاب » الخطير في هيكلية المعارضة ، الذي تبلور في الثلث الأخير من تاريخها ؟ ذلك أن أي خليفة أموي لم يكن لديه التصور الواقعي لمشاكل دولته ، التي

---

(١) زاهية قدورة ، الشعوبية ص ٤٥ .

(٢) امتازت هذه الفترة بتعاقب عدد من الولاة القيسيين على حكم المغرب ، الذين ساهموا بتعصبهم في انفجار ثورة البربر الكبرى ، المعاصرة للخليفة هشام بن عبد الملك ، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ٢٩٣ ـ ٢٩٤ . ابن عذاري ، البيان المغرب ج ١ ص ٥٢ .

أخذت تستفحل مع تزايد مساحتها وارتفاع عـدد سكانها . فقـد ظلّت المعادلـة الأولى التي استخدمها معاوية ـ المعتمدة على التوازن النسبي بين القبائل ، والمتجـاهلة أوضاع الشعوب غير العربية وموقع الحكم منهـا ـ هي السائـدة لدى خلفـائه حتى الكبـار منهم امثال عبد الملك والوليد . ولا شـك ان طبيعة النـظام الاموي ، الـذي قام أسـاسا في ظـروف غـير عـاديـة ، كـانت وراء الاسبـاب التي جعلت من الخلفـاء يلتبسـون تلك الشخصية الصدامية ، محافظةً على هذا النظام المهدد دائما بالسقوط . ولـذلك نستـطيع القول ان جهود الخلفـاء الأمويـين انصبت في اتجاهـين : الاول هو التصـدّي للتيارات السياسية المناوئة ، وإحباط محاولاتهم الثـورية ، والآخـر هو تشجيـع الاتجاه التـوسعي الذي تحوّل الى هدف في ذاته ، وليس مدخلا الى علاقة متكـافئة ، تـأخذ في الاعتبـار مصالح مختلف الاطراف بمن فيها الشعوب « المغلوبة » .

وكان عمر بن عبد العزيز ، اول خليفة في الأسرة الامويـة ، يشذّ عـلى القاعـدة التقليدية ، ويعطي هذه المشكلة نصيبهـا من الاهتمام ومن الجـدّية . فهـو يختلف عن اقرانه في الاسرة الحاكمة ، حتى في حياته الخاصة التي وصفت بالبسـاطة والابتعـاد عن المظاهر الملكية[١] . وقد يبدو من أسباب ذلك أن الخلافـة سعت اليه ، دون أن يلهث في الوصول اليها ، حيث كان للصدفة ربمـا الدور الـرئيسي في اختياره . فثمـة ظروف غير عادية تدخلت في هذا الأمر ، أهمها موت الخليفة سليمان في « دابق » ، وهو يتابع أخبار حملته الى القسطنطينية ، التي كان أحد قادتها ابنه داوود[٢] ، وهـو على الارجـح وليّ عهـده . فكان ان استغـل هذا الفـراغ أحد الفقهـاء المقرّبـين منه وهـو رجـاء بن حيوة ، الذي توصل الى اقناعه بتعيين عمر بن عبد العزيز خليفة لـه . وجاء القـرار صدمة لابناء عبد الملك ، وفي طليعتهم هشـام الذي رفض في البـدء الاعتراف بـالأمر الواقع ، ولم يبايع الا مرغَما[٣] الخليفة الجديد . وهذا المـوقف يكشف ذهنية الحكم لـدى الأسرة المروانية ، التي وجدت في هذا الاختيار أمرا غير مألوف في الاعراف السائـدة ،

---

(١) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٣٨ ـ ٣٩ . ابن طباطبا ، الفخري ، ص ٢٩) .

(٢) الطبري ، ج ٨ ص ١٢٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ج٨ ص ١٣٠ ، عبد العزيز سيد الاهل ، الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز . ص ٩٤ ـ ٩٥ .

التي تضع عادة المقاييس المناسبة للخليفة المرشح .

ومن البديهي ان الموقف المرواني لم يناقش حق الافضلية في خلافة عمر بن عبد العزيز ، بقدر ما كان اعتراضا على ما يمثله من اتجاه اصلاحي ، لا بد أن تكون الأسرة بامتيازاتها الواسعة ، المتضررة الأولى من قوانينه الصارمة . والخليفة عمر من هذا المنطلق ليس جديدا على المسرح السياسي ، فقد كان ابوه عبد العزيز بن مروان ، والياً على مصر ومرشحا للخلافة بعد عبد الملك ، فضلاً عن دوره الكبير في توجيه « الفتوحات » الافريقية . وكانت وفاته في حياة أخيه ، قد حسمت الجدل الذي اثاره هذا الاخير بصدد ولاية العهد ، ومحاولته استبدال عبد العزيز بابنه الوليد[1] . وقد يكون عبد الملك ، أحسّ بالمرارة او كاد إزاء هذا الموقف ، مما دعاه الى الاهتمام بابن أخيه عُمر وإصهاره من ابنته[2] . ولكن حياة القصر على فخامتها في عهد هذا الخليفة ، لم تؤثّر في شخصية عُمر الذي كان منصرفا عنها الى قضايا جدّية ، جذبت اهتمامه منذ يفاعته الاولى . ذلك أن ثقافته القرآنية التي اخذها عن مجموعة من كبار فقهاء « المدينة »[3] تركت أثرها البارز على مجرى حياته في ذلك الوقت ، الا أنه لم يبلغ في سلوكه الاجتماعي مرحلة من الصوفية ، كما تحاول اظهاره معظم الكتابات القديمة والحديثة[4] ، مما يترك انطباعا في ذهن المتتبع لأخباره ، انه كان ثائرا على أسرته الأموية ، أكثر منه خليفة وممثلا للنظام .

ولعل المبالغة في هذا التقويم كانت من صنع المعارضة التي وجدت متنفساً لها في عهد هذا الخليفة ، سواء من حيث رفع القيود السياسية وتوقيف الاجراءات القمعية المختلفة ، أم من حيث الاصلاحات المتعددة الوجوه التي أفادت منها على الأخص ، الفئات المضطهدة والمسحوقة في المجتمع الأموي . ويكاد يصل الأمر ببعض

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٤٧ .

(٢) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ٢٢٩ .

(٣) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢٥ . عبد العزيز سيد الاهل ، الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز ص ٣٢ .

(٤) ابن طباطبا ، الفخري ص ١٢٩ . عماد الدين خليل ، ملامح الانقلاب الاسلامي ص ٣١ .

المؤرخين ، الى التشكيك أصلاً بوجود اتجاهات اصلاحية لهذا الرجل في مطلع حياته، يمكن الاعتماد عليها في بناء تصوّر خاص حول ما يمكن أن نسميه « ثورة من داخل النظام » . ومن هؤلاء « بلياييف » الذي يتبنّى فكرة متناقضة تماما مع الانطباع التقليدي ، الذي أظهر عمر بن عبد العزيز مترافقاً وتلك الشخصية الزاهدة والمتقشفة[1] . وهو يعتمد في تصوّره على رأي المؤرخ « بارتولد » ، الذي يعتقد بدوره أن خلافا واضحاً بين جدّية هذا الرجل ومثاليته في الخلافة ، وبين ترفه واشباع هواياته حتى العبث قبل ذلك[2]. ويبدو أن رواية المؤرخ العربي القديم « ابن عبد الحكم » قد أوحت بهذا الاعتقاد ، حيث تشير فقط الى تأنقه في مظهره ، مع النفي لأي ابتذال في حياته الخاصة[3].

ولا ريب أن عمر بن عبد العزيز الذي جاء الى الخلافة ومعه تراث من التجربة ورصيد من التقدير في الأوساط الدينية والعملية على الخصوص ، من ثم علاقة وثيقة بـ« المدينة » التي كانت من المراكز الثقافية الهامة ، اكتسب من خلال ذلك كله ، موقعاً خاصاً ومكانة مميزة عن اقرانه من البيت الأموي . ولعل الخلافة ، كما رأينا جاءته عن طريق الفقهاء ، الذين استهوتهم شخصيته الرصينة ، وليس عبر التأييد المرواني ، الذي كان شبه مفقود في بادىء الامر . وكان رجاء بن حيوة المقرّب من عمر بن عبد العزيز القوة الاساسية وراء وصوله الى الخلافة حيث كانت لديه ادوات التنفيذ لهذا الهدف ، انطلاقاً من موقعه كقائد لجند الاردن في ذلك الحين[4] .

وكانت أول تجربة ادارية ناجحة لعمر بن عبد العزيز ، ومنسجمة مع أفكاره الاصلاحية ، عندما عُيِّن والياً على « المدينة » في خلافة الوليد بن عبد الملك . فقد

---

(١) أ . بلياييف ، العرب والاسلام والخلافة العربية ص ٢٤٥ .
(٢) المرجع نفسه .
(٣) يروي ابن عبد الحكم في هذا السبيل : « وكان مع ذلك يعصف ريحه ويرخي شعره وهو مع ذلك لا يغمص عليه بطن ولا فرج ولا حكم » . سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢٥ .
(٤) شعبان ، صدر الاسلام ص ١٤٧ .

ظهرت حينذاك بواكير سياسته الاقتصادية المتشددة[١] وحرص على ان تكون ولايته ، مركزا مثاليا للتعايش المتكافىء بين مختلف الفئات ، وذلك في اطار القوانين الاسلامية ، متأثّراً الى حد كبير بشخصية عمر بن الخطاب ونهجه في الحكم . وما لبثت « المدينة » أن أصبحت خلال وقت قصير ، مجتمعا مفتوحاً ، يلتجىء اليه المضطهدون والملاحقون، خاصة من قبضة الحجاج في العراق ، واجدين فيها الاستقرار الذي افتقدوه . ولكن ذلك كان سبباً في توتير العلاقة مع « الأرستقراطية » المروانية التي بدأت تتضايق من ممارسات هذا الوالي ، حيث رأت فيها « شذوذا » على التقاليد وانقلابا على النهج المتوارث . وجاء الحجاج ، الوالي الاثير لدى الخلافة ، يحتج بدوره لدى الوليد ويطالب بعزله[٢] . فترك منصبه ليعتكف في منزله في « المدينة » ، مبتعداً عن أجواء السياسة في الشام ، حتى استدعائه وبيعته بالخلافة بعد موت سلفه[٣] .

لقد عاش عمر بن عبد العزيز تجربة الحكم ، في وقت بلغت فيه العلاقة بين الأسرة الحاكمة وبين الفئات الشعبية العريضة ، حدّاً كبيرا من التعثر والانهيار . وأدرك عن وعي جسامة الخطر الذي يتربص بالنظام الأموي ، مع استمرار الأقلية الحاكمة معزولةً ، خلف جدران الترف والامتيازات ، عن الأغلبية المتذمرة، الفاقدة أحيانا أبسط قواعد الاستقرار والحياة الكريمة . فكانت أثقل همومه بعد أن أصبحت في يده السلطة العليا ، الإحاطة بهذه المشكلة وتطويق أسباب النقمة ما استطاع الى ذلك سبيلاً ومن البديهي ، أن محاولته الاصلاحية كانت « ثورة » من أجل النظام وليس عليه ، مستهدفة تقويم المسار الذي انحرف به أسلافه الخلفاء عن قصد أو عن غير قصد .

وكان القرار الأول الذي اتخذه عمر بن عبد العزيز ، بانسحاب مسلمة بن عبد الملك ، قائد الحملة العسكرية عن أسوار القسطنطينية[٤] ، المدخل الى معرفة موقفه من قضية الفتوح ، وسياسة الخلفاء الأمويين التقليدية منها . ففي عهده انكفأت

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٦١ - ٦٦ .
(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ٩٠ .
(٣) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٣٣ .
(٤) الطبري ج ٨ ص ١٣ . ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٣٧ .

الحركة التوسعية وأصاب الجمود ، الا قليلاً[1] جبهات الحدود المختلفة . ولم تكن دوافع ذلك زهداً في هذا الاتجاه ، بقدر ما كانت تصحيحا لا بدّ منه ، لحماية هذه المكاسب والدفاع عنها من الأخطار الداخلية والخارجية . فهو يحذّر عامله على خراسان[2] من المضي بعيدا في غزواته الشرقية وراء نهر جيحون بقوله : « فلا تغزُ بالمسلمين فحسبهم الذي قد فتح الله عليهم »[3] . فهذه العبارة تجسّد واقعية الخليفة في نظرته الى الفتوح ، وهي مبنية على قناعات ثابتة بضرورة التوقف عند حدّ في هذه السياسة ، التي فقدت محتواها المبدئيّ عبر ذلك الامتداد الأفقي ، الذي استنفد طاقات الدولة وجعل سن علاقاتها مع بعض الشعوب المغلوبة موضع اتهام[4] .

وكانت ضريبة الأرض أو ما يعرف بالخراج ، أحد الموارد الرئيسية لبيت المال في العصر الأموي ، وحيث اعتاد أسلافه الخلفاء فرض هذه الضريبة حتى في الحالات غير المشروعة ، أي بعد تحوّل أصحابها الى الاسلام[5] . وكان ذلك من الأسباب التي أبطأت عملية التلاحم في المجتمع الاموي، بعد فتور العامل المشجع لدى الموالي في الانضمام الى العقيدة الاسلامية . ومن ناحية أخرى فان هذه السياسة الاقتصادية كان لها مردود سلبي على الانتاج الزراعي ، الذي أصابه الاهمال بدوره ، نتيجة الصدمة التي مني بها اصحاب الاملاك من الموالي (المسلمين) في ارغامهم على دفع الخراج ، دون ان ننسى تأثير الاضطرابات السياسية خاصة في مناطق الخصب ، كالسواد في العراق ، مسهمة كذلك في تحجيم العائدات المالية والعينية ، التي كان مصدرها الارض ، مما جرّ الدولة الى البحث عن مختلف المنابع لتغطية حاجتها الى المال .

لقد تناول هذا الخليفة في اصلاحاته مختلف جوانب المجتمع الأموي ، بحيث أعاد النظر في النهج والأسلوب ، اللذين تحكما في سياسة أسلافه الخلفاء . فجاء عهده ثورة على الذهنية الأموية بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، سواء في انفتاحه على المعارضة

---

(١) حملة السمح بن مالك الخولاني الى فرنسا . ابراهيم بيضون ، الدولة العربية في اسبانية ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٢) عبد الرحمن بن نعم . الطبري ج ٨ ص ١٣٩ .

(٣) المكان نفسه .

(٤) المصدر نفسه ج ٨ ص ١٣٣ - ١٣٤ . اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٣٠١ - ٣٠٢ .

(٥) الطبري ج ٨ ص ١٣٤ . ضياء الدين الريس ، الخراج في الدولة الاسلامية ص ٢٢٨ .

بالتخفيف من عدائها التقليدي للامويين، كالشيعة - في تجنب استفزازهم بعد ايقاف التعريض بالزعماء العلويين[1] - أو الخوارج في أخذهم بالحوار والدعوة الى حقن الدماء[2] ، أو التسامح الديني مع أصحاب العقائد غير الاسلامية ، لا سيما النصارى (أهل الذمة) الذين تعزّزت مواقعهم الاجتماعية في عهده بشكل محسوس[3] . وكذلك في محاولته الزائدة لايجاد طبقة ادارية متطورة ، متأثرة بأفكاره الاصلاحية ، بينما كان العقاب ملاحقا الذين يشذّون من الولاة ، ويسيئون استخدام السلطة وتطبيق القوانين[4] .

على أن مشكلة الاراضي المفتوحة كانت في طليعة المشاكل التي عالجها عمر بن عبد العزيز بحكمة ورصانة ، مستوحياً أهميتها من اختلال التوازن بين الاتساع العظيم للدولة الأموية وبين طاقاتها الادارية والعسكرية المحدودة . فجعل في مقدمة الأولويات ، الاهتمام بالانسان قبل الأرض ، كونه القوة القادرة على الاحتفاظ بها والدفاع عنها ، وليست الحاميات الأموية هي المؤهلة ، بحكم منطق الغلبة ، لتحقيق هذا الهدف . ولقد كان القاسم المشترك لجميع أطراف المحاولة الاصلاحية الرائدة التي قام بها هذا الخليفة ، الوصول الى تهيئة الأجواء المناسبة أمام انتشار الاسلام وتثبيته بين شعوب البلاد المفتوحة ، وإقامة مجتمع متحرر من العقد الاجتماعية والحساسيات القومية والقبلية . ففي هذا المجتمع وحده تنبت الحلول الجذرية لمشاكل النظام الأموي وتبتعد أشباح الخطر ، التي عاشت على هذا الاختلال المتوارث في العلاقة بين الحاكم والمحكوم .

وهكذا كانت خلافة عمر بن عبد العزيز ، احد أهم المنعطفات في التاريخ الأموي ، لما تمثله من محاولة رائدة في استيعاب المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، التي أفرزتها الفتوحات والعلاقة المتدهورة بين النظام وخصومه . ولكنها محاولة ، رغم أهميتها ، لم يتح لها الوقت الكافي لإعطاء نتائجها على المدى البعيد .

---

(١) ابن طباطبا ، الفخري ص ١٢٩

(٢) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١

(٣) المصدر نفسه ص ٦٨ .

(٤) الطبري ج ٨ ص ١٣٢ - ١٣٣ . ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٥ .

فكانت تجربـة مرحليـة ، عاشت مـع خلافـة صاحبهـا القصيرة وانتهت معـه بعد نيف وعامين من الجهود المتواصلة . فقد جاء الى الحكم في ظروف ، كانت الـدولة الأمـوية قد بلغت معها أبعد مراحل الانتشار والتوسع . ومن هنا اتخذت هذه المبادرة ، تـوقيتها الضروري ودورها التـاريخي ، في وقت اشتدت الحـاجة الى اصـلاح جذري ، يتنـاول أولا ذهنية الحكم ونظرتـه الى القضايـا المصيريـة الخطيـرة . ولا شك أن مـلامح هـذه المحـاولة ، انمـا هي في جوهـرها أمـوية ، استهـدفت عمليا انقـاذ النظام وحمـايتـه من الأخطار الداخلية والخارجية المتربصة به . ومن الخـطأ أساسـا مناقشـة الانجازات التي قام بها عمر بن عبد العـزيز خـارج اطار الأسـرة الأمويـة ، حيث كان أحـد رجالا تهـا الكبار في الحكم .

ولكن نقطة الخلاف على الصعيد الأمـوي تجسّدت في التبـاين بين خـطين يفترق كـلاهما عن الآخـر : احدهمـا اسلامي اصـلاحي ، تأثّـر الى حـدّ كبـير بنهـج الخلفـاء الـراشدين ، وهـو الخط الذي تبنـاه عمر بن عبـد العزيـز ، والثاني دنيـوي سياسي ، اقتصرت اهتماماته على رعايـة مصالـح « الأرستقراطيـة » القبلية ، وتـدعيم امتيازاتهـا المتـوارثة ، وهـو الاتجاه الممثـل بالبيت المرواني ، الذي لم يشـأ التعاطف مـع « الثـورة الاصلاحية » ، التي تـزعمها هـذا الخليفة ، والهـادفة من حيث المبـدأ الى تحجيم نفوذ الأسـرة الحـاكمـة ، انسجـامـا مـع نـظريـة المسـاواة والغـاء الفـوارق الاجتمـاعيـة والاقتصـادية(١) . وجـاء موتـه المبكر وهـو لم يتجاوز الأربعـين بعد ، ربمـا نتيجة لهـذا التصادم المبدئي بين هذين الاتجاهين(٢) .

وجيء بيزيد بن عبد الملك الى الخلافـة(٣) ، التي كانت عـلى ما يبـدو نوعـاً من المساومة بين الاتجاه المؤيد لعمر بن عبد العزيز ، وبين الاتجـاه المرواني الـرافض انتقال السلطة من بني عبـد الملك الكـثر . وثمـة من يعتقـد بـأن الاتجـاه الأول راهن عـلى

---

(١) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ٤٦ .

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص٣٨. ويذكر الحصني ، ان بني أمية تخوفوا من « أن تكون عاقبة سيرة الرجل خروج الامر عنهم ، ولم يأمنوا ان يعهد به الى من يرتضي دينه وأمانته من أهل البيت ، وتبين لهم ذلك بالقرائن والامانات وما كان يبديه عمر بن عبد العزيز حب اهـل البيـت » منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٥

(٣) ١٠١هـ ٧١٩م .

الوقت ، الذي خانه بوفاة عمر المبكرة والغامضة ، قبل استبعاد وليّ العهد (يزيد) ، المدعوم من الاتجاه الثاني[1] الذي كانت لديه الارادة المسبقة في العودة الى الخط التقليدي الأموي ، خاصة وان عمر بن عبد العزيز لم يشأ لثورته الاصلاحية أن تكون على حساب النظام الوراثي في أسرته ، بل كانت في مصلحته أولا وأخيراً . ولكن الخليفة الجديد عاد كنهج سياسي الى الوراء ، بخطوات ربما تجاوزت السرعة التي أرادتها المشيئة الأموية . وجاء حكمه يمثّل انقلاباً مضادا للمتطرفين من « الأرستقراطية » القبلية ، استهدف القضاء على انجازات العهد السابق بكل تفاصيلها . والواقع أن يزيد الثاني ، مثّل العقلية الأكثر تحجّرا في البيت الأموي ، لا سيما انه أول خليفة يُظهر تعاطفه العلني مع الخط القيسي ، المعروف بعصبيته الشديدة ، وذلك خلافاً لأسلافه المتعاطفين بشيء من التفاوت مع الخط اليمني المنفتح بصورة نسبية . وكان ارتباطه بعلاقة مصاهرة مع الأسرة الثقفية ، التي ينتمي اليها الحجّاج ، الزعيم القيسي الشهير ، اضافة الى الخلفية القبلية المتجذّرة فيه ، قد جعل من الخلافة طرفاً مكشوفاً في الصراع التقليدي بين الاتجاهين القيسي واليمني . ومن ناحية أخرى ، فان شخصية هذا الخليفة كما أرزتها كتابات المؤرخين ، هي شخصية عبثية منصرفة بكل طاقاتها الى مجالس الغناء والجواري[2] ، أكثر من ارتباطها بمشاكل الناس وقضايا الدولة وبقية الاهتمامات الجدّية . وقد تحمل هذه الصورة بعض المبالغة ، أو أن هذه الكتابات التي تناولت بصورة خاصة ، الفترة المتأخرة من العصر الأموي ، كانت تهدف الى التركيز على مساوىء الخلفاء الأمويين وتضخيم أخطائهم ، وذلك لإضفاء نوع من التسويغ على الدعوة العباسية ، التي أُريد لها أن تكون ثورة على الظلم والانحراف .

ولكن يزيد الثاني كان على الأرجح أسير عصبيته القبلية ، وهو ما أظهرته الأحداث البارزة في عهده ، لا سيما أن مجيئه بعد خليفة اصلاحي متنوّر هو عمر بن

---

(١) شعبان ، صدر الاسلام ص ١٥٢ .

(٢) يرتبط اسم هذا الخليفة في الكتابات التاريخية بجاريتين هما : حبّابة وسلامة القسّ ، خاصة الاولى التي قيل ان موته كان حزناً عليها لشدة تعلقه بها . الطبري ج ٨ ص ١٧٩ . ابن طباطبا ، الفخري ص ١٣١ .

عبد العزيز ، قد أضفى عليه تلك الصورة القاتمة ، التي ظهر من خلالها وكأنه متجرد من الكفاءة التي تؤهله لهذا المنصب الكبير . ذلك أن أعماله خارج الاطار الخاص ، اقترنت بالتعصب الشديد للاتجاه القيسي ، حيث كان من نتيجتها حركة يزيد بن المهلب أحد كبار زعماء اليمانية . وتعود الأسباب الأولى لهذه الحركة التي في مطلع القرن الثاني الهجري[١]،الى ذلك الخلاف القديم[٢] بين الحجاج والي العراق الأسبق ، وبين يزيد ابن المهلب حاكم خراسان في ذلك الحين (٨٢ هـ/ ٧٠٢ م)[٣] ، الذي جرّ الى عزل هذا الأخير لأسباب غير واضحة ، ولعل الخلافات القبلية كانت وراء تدهور العلاقة بين الرجلين ، حيث كلاهما كان زعيماً بارزا في قومه . ويبدو أن الحجاج اصطدم حينذاك بموقف عبد الملك المتعاطف مع الأسرة المهلبية ، قبل أن ينجح في انتزاع موافقته وهو في آخر أيامه على عزل يزيد ومن ثم القبض عليه في وقت لاحق . فبقي في سجن الحجاج حتى سنة ٩٠ هـ ، عندما هرب الى الشام والتجأ لدى وليّ العهد حينذاك سليمان بن عبد الملك ، حيث إن صداقة قديمة جمعت بين الرجلين ، خاصة وان سليمان كانت له ميول يمنية واضحة[٤] . واستطاع هذا الأخير بفضل نفوذه ، انقاذ صديقه من ملاحقة الحجاج ، حتى اذا تولى الخلافة أعاد اليه الاعتبار ، بتعيينه والياً على العراق والمشرق ، وهو المنصب الذي احتله طويلا الحجّاج . وكان مفترضا ان يكون لابن المهلب دوره البارز مع أسرته في النظام الأموي ، لولا غياب سليمان المبكّر ، مما أعاده مجددا الى مأزق الملاحقة ، خاصة وان عمر بن عبد العزيز لم يكن يستسيغ كثيرا هذا النوع من الرجال ذوي النزعة « الأرستقراطية » البارزة . فعاد مجدّدا الى السجن بتهمة إخفاء اموال ، لم يقم بتسليمها الى الخلافة منذ العهد السابق[٥] .

وهكذا حُكم على يزيد بن المهلب ، أن يظلّ طريد السلطة وسجينها من عهد الى آخر . ولكن الكارثة كانت تتربّص به على يد يزيد بن عبد الملك ، انطلاقاً من كراهيته لليمنيين ، حيث كان مجيئه الى الحكم كافياً لارهاب ابن المهلب ، الخصم

(١) ١٠٢ هـ / ٧٢٠ م .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ٥٠٢ ـ ٥٠٦ .
(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٤٧٥ .
(٤) المصدر نفسه ج ٤ ص ٥٤٦ ـ ٥٤٧ .
(٥) الطبري ج ٨ ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .

الشديد للقيسية ولجماعة الحجاج على الخصوص ، بعد أن أشبعهم تنكيلا أثناء ولايته على العراق . فأدرك انها النهاية القريبة ، ولم يجد لنفسه سبيلا غير الهرب[1] . بيد أن الزعيم اليمني ، لم يشأ الاستكانة طويلاً وهي مطلب في النهاية غير يسير ، بل توجّه الى البصرة التي ارتبط بعلاقة تاريخية بها ، منذ أيام والده المهلب بن أبي صفرة ، قاهر الخوارج ودافع خطرهم عنها ، مما أعطى الأسرة المهلبية مكانة خاصة في المدينة . فعمل على تفجير الوضع في العراق معتمداً على أنصاره في هذه الأخيرة ، رافضاً دعوة أخيه[2] الى خراسان ، الأرض الصالحة ، حسب رأيه ، لمقارعة النظام الأموي . فآثر أن يكون العراق محور تحركه العسكري ، معتمداً ربما على انهيار سمعة الخلافة الأموية في هذا الاقليم ، المزدحم بشتى « الاتجاهات » والتكتلات المعارضة .

وكان سقوط البصرة وإخراج واليها الأموي ، ومحاورة الخليفة له بشأن العفو تجنّباً للانفجار المسلح ، عاملاً مشجعا للمضي في حركته ، خاصة بعد التعاطف الذي لقيته في الكوفة من عدد من زعماء « الشيعة » وبعض « الأرستقراطية » القبلية[3] . ولقد أظهرت الأجواء المحيطة بهذه الحركة ونوعية التأييد الذي حظيت به ، وكأنها ثورة انتقامية ضد تراث الحجاج ، الذي بُعث مجددا في هذا العهد . فكان الموقف العدائي من الوالي الأسبق ، هو القاسم المشترك بين يزيد بن المهلب وأنصاره العراقيين[4] بصورة عامة .

غير أن هذه الحركة لم تكن سوى تدبير ارتجالي كان قائدها مضطرا الى اتخاذه ، خوفاً من العقاب المتربّص به على يد الخليفة في وقت لم يجمع بين الاثنين سوى الحقد والتعصب القبلي . ولذلك لم يكن لها من مقومات التنظيم ما يؤ من لها الوقوف في وجه القوات

---

(١) الطبري ج ٨ ص ١٤٢ .

(٢) حبيب بن المهلب . المصدر نفسه ج ٨ ص ١٠ .

(٣) كان أبرز الذين انضموا الى ابن المهلب النعمان بن ابراهيم الاشتر وقد كان الاخير من كبار زعماء الشيعة في الكوفة ومن « الارستقراطية » ، اسحاق بن محمد بن الاشعث . الطبري ج ٨ ص ١٥٢ .

(٤) لقد أورد الطبري شعار الحركة بأنه بيعة « على كتاب الله وسنّة نبيه وعلى أن لا تطأ الجنود بلادنا ولا بيضتنا ولا يعاد علينا سيرة الفاسق الحجّاج . فمن بايعنا على ذلك قبلناه ومن أبى جاهدناه » . ج ٨ ص ١٥٢ . ثابت الراوي ، العراق في العصر الاموي ص ٢١٦ ـ ٢١٧ .

الأموية ، التي لا زالت تحتفظ بمواقعها الثابتة في العراق . فتمّ تصفيتها بغير صعوبة على يد مسلمة بن عبد الملك . ولم يخيِّب هذا القائد الاموي الشهير آمال الخليفة الانتقامية ، فارتكب مجزرة دموية ليست أقل جرأة من مجازر الحجاج المعروفة ، التي كان يلجأ اليها غالبا في أعقاب انتصاراته[1] . ويبدو أن مسلمة تطلع الى إرضاء أخيه الضعيف ، ليتاح له من خلال طموحه في السيطرة على العراق مركز الثقل في الخلافة ، أن يكون رجل هذا العهد القوي . وبالفعل جاءت المكافأة كما اشتهاها مسلمة ، حيث واتته الفرصة كي ينتقل للمرة الاولى من عمله التقليدي في الجيش ، الى الميدان السياسي كوالٍ على العراق والمشرق . ولكن الخليفة الذي كان مرتهنا لتحالفاته القبلية ، وهي مصدر قوته بشكل أساسي ، ما لبث أن استبدل مسلمة ، بوالٍ آخر وُصف بأنه من تلامذة الحجاج ومعاونيه الكبار، هو عمر بن هبيرة الفزاري[2] .

كانت حركة يزيد بن المهلب الارتجالية ، احد أهم الأحداث الداخلية في هذا العهد . واذا استثنينا ما قام به الخوارج من تحرك محدود بقيادة شوذب[3] ، فان خلافة يزيد بن عبد الملك كانت خالية من أي نشاط توسعي أو اصلاحي يمكن التوقف عنده . فالتصارع القبلي ، الذي كان الخليفة أحد الأطراف الأساسية فيه ، يعتبر الطابع المميَّز لهذا العهد . وقد لا يكون بعيداً عن الواقع في رأي بعض المؤرخين ، أن النهاية المأساوية للنظام الأموي ، أخذت تنسج خيوطها على يد هذا الخليفة ، حيث تبلورت حينذاك معالم ما يسمى بالتيار « الشعوبي » ، وذلك في اعقاب ارتفاع موجة التذمر لدى الفئات غير العربية ، التي عانت ارهاب الولاة وثقل الضرائب .

---

(١) الطبري ج ٨ ص ١٥٩ .
(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ١٦٦ - ١٦٧ .
(٣) المصدر نفسه ج ٨ ص ١٤٢ - ١٤٣ .

آخر الملك

بعد وفاة يزيد الثاني[1] بدت الدولة الأموية متعثرة الخطى ، سائرة نحو مصيرها القلق . فالسنوات الأربع التي قضاها هذا الخليفة على رأس الدولة ، كانت كافية لاختصار رحلة السقوط . ولكن الأسرة المروانية كانت لا تزال تملك القدرة على مزيد من التحدي ، عندما قدمت خليفة آخر ، استطاع ايقاف التدهور وكبح الانفجار المتربّص بها ، هو هشام بن عبد الملك ، رابع الأخوة من أبناء الخليفة الأسبق الذين تعاقبوا على الحكم . فعمل هشام بجدّية لانقاذ دولته من الحرب الأهلية ، وتطويق التيار الانفصالي الذي أخذ ينمو بشكل خاص في الولايات البعيدة . ولعل هذه المرحلة الأخيرة من دولة الأمويين ، تكاد تكون انعكاسا لشخصية هذا الخليفة القوي ، الذي أسهم بشكل أو بآخر من خلال هذا الموقع ، في عرقلة مشاريع الدعوة العباسية ، التي كانت قد بدأت كحركة سريّة في عهد سليمان بن عبد الملك[2] ، مما جعل العباسيين، بعد نجاح ثورتهم التي أطاحت بالخلافة الأموية ، موتورين بشكل خاص من هذا الخليفة ، من دون إنقاص في تقويم شخصيته الكبيرة، التي أعجب بها أبو جعفر المنصور ، دون ان يتردّد في وصف هشام بأنه « رجل بني أمية »[3] .

ومن أولى المبادرات الاصلاحية التي قام بها هشام بن عبد الملك ، هي محاولة

---

(١) ١٠٥ هـ / ٧٢٤م .

(٢) فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ص ١١١ - ١١٤ .

(٣) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ج ٢ ص ٢٨١ .

اعادة التوازن بين التيارات القبلية في الدولة . وكان خلافا لسلفه يتعاطف نسبياً مع الخط اليمني على غرار معظم الخلفاء الأمويين ، الذين وجدوا في القبائل اليمنية دعامتهم السياسية الأولى . بيد أنه كان يميل الى الاعتدال ، دون أن يثير بموقفه هذا حفيظة القبائل القيسية أو يضعها في الجبهة المضادة للخليفة ، حيث كانت ادارته مزيجا من الاتجاهين بصورة عامة . ففي خراسان أخطر الولايات الأموية ، لاستقطابها معظم العناصر المتطرفة والمناوئة للدولة ، عيَّن عددا من الزعماء القيسيين[1] ، بينما استعان في المغرب ببعض اليمنيين من الأسرة الكلبية، بعد فشل ولاة الحزب القيسي في تهدئة الوضع المضطربُ . واختار للعراق أحد المقربين منه وهو خالد بن عبد الله القسري ، الذي يتحدّر من قبيلة يمنية (بجيلة)، ولكنها محايدة نسبيا وغير متورطة في الصراعات السياسية الضارية في ذلك الحين[2] .

العراق في عهد هشام :

لقد تابعت السياسة الأموية خطّها التقليدي في العراق ، من خلال الأدوات البشرية المنتقاة ، والمعدّة لمهماتها الدقيقة تحت ضغط الأحداث والمتغيرات السياسية المتلاحقة . غير أن ثلاثةً من كبار الولاة الأمويين ، لم يكن مرورهم عابرا في هذا الأقليم ولكنهم كانوا جزءا بارزا من تاريخه ، انطبعت عليه بصماتهم دون ان تنل منها القرون الطويلة . ولقد حظي اثنان منهم (زياد والحجاج) بنصيب غير قليل من الجدل والاهتمام ، واختلف بشأنهما التقويم التاريخي . أما الثالث (خالد بن عبد الله القسري) ، فكانت له رؤ يته المنفردة في الحكم ، وتميَّز عن سلفيه بأنه كان خارج اطار المدرسة الثقفية المعروفة ، سياسة وأسلوبا وذهنية . واذا كان لكل خليفة قوي ممثّله القوي أيضا في العراق ، فلا بدّ أن هشام بن عبد الملك اختار بدوره « القسري » أحد قلائل اليمنيين الذين عبروا الى السلطة في العراق ، بعد ان كانت في معظم مراحلها قيسية الملامح .

ولو أردنا ملاحقة أخبار القسري خارج دائرة الولاية ، لوجدنا اسمه يتكرر في

---

(١) الطبري ، ج ٨ ص ٢٠٤ ـ ٢٥٧ .
(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ١٨٨ .

سجلات الادارة الأموية منذ خلافة الوليد بن عبد الملك . ويبدو أن الأحداث السياسية في العراق حملته الى هذا الأقليم ، كما حملت غيره من رجالات الدولة الأموية . فعاش عن كثب تجربة الحجاج ، وأدرك على ما يبدو الضعف والفشل في سياسة الوالي الثقفي . وكان أول امتحان لكفاءته الادارية ، عندما نصح الحجّاج الخليفة بتعيينه والياً على الحجاز ، إثر إستبعاد عمر بن عبد العزيز ، المتّهم حينذاك بمحاباة العراقيين ، الفارّين الى الحجاز من قبضة الوالي الأموي[1] .

وفي مطلع عهد سليمان بن عبد الملك ، بقي خالد لوقت قصير في منصبه ، قبل أن يدفع ثمن علاقته بالحجاج في نطاق المحنة التي عصفت بجماعة هذا الأخير ، أثناء الحملة الضارية على العهد السابق ، حيث عزل من منصبه ، ولكن دون أن يتعرض لأي نوع من الملاحقة أو الاضطهاد . وهنا يكمن مؤشر الاعتدال في سلوك هذا الرجل ، الذي حظي - في أصعب الظروف - برضى الأصدقاء وتفادى غضب الخصوم . فكانت هذه الصفة عاملا رئيسيا من عوامل نجاحه ، وبلوغه أرقى درجات الطموح في وقت لاحق . وفي خلال السنوات العشر التالية ، تقوقع خالد في بيته معتزلاً السياسة أو مرغماً على اعتزالها ، حتى اذا جاء هشام بن عبد الملك الى الخلافة ، أُعيد اليه الاعتبار ، بتعيينه والياً على المشرق بما فيه العراق . وكان هذا المنصب من أخطر المناصب وأكثرها حساسية ، خاصة في تلك الفترة ، حيث بدايات التحرك السرّي للحركة العباسية ، التي اتخذت هذه المنطقة ، الأرض الخصبة لدعاتها وأنصارها .

تسلم خالد منصبه من سلفه الوالي القيسي عمر بن هبيرة ، ومعه صلاحيات واسعة[2]، متخذاً من «واسط»عاصمة الحجاج[3] مقر ادارته. بعد ان آثر الابتعاد عن تيارات الكوفة وأجوائها المشحونة بالعداء للسلطة الأموية . وكان على الوالي الجديد ، المتحدر من قبيلة يمنية الأصل ، حيادية الانتماء السياسي ، أن يبدأ صفحة جديدة في العلاقات بين العراق والخلافة الأموية ، بعيداً عن العقد القبلية الأقليمية حيث يملك

(١) الطبري ج ٨ ص ٦٧ .
(٢) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٣١٦ .
(٣) ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ٢٢٣ .

المعطيات الكافية والشروط المطلوبة ، لتحقيق هذا الهدف وتسهيل المهمة التي يحمل أعباءها الثقيلة .

واذا ما تساءلنا عن مواقف الفئات السياسية في العراق من تعيين القسري ، فلا بد أن القيسيين كانوا أكثر الفئات تشنجا وأسرعهم الى التعبير عن المعارضة الشديدة ، خاصة وانه ورث السلطة من زعيم قيسي كبير (عمر بن هبيرة)(١) . فاعتبر هؤلاء تعيينه بمثابة تحدٍ مباشر لهم ، في وقت كان هشام يظهر تعاطفه النسبي مع الاتجاه اليمني . أما الفئات السياسية الأخرى ، فكانت تراقب عن كثب ، وتتثاقل ربما لأول مرة في اعلان موقفها الصريح ، بعد أن وجدت طرازاً غير مألوف من الولاة في شخصية « القسري » المرنة والايجابية . فسقطت المجابهة الأولى لغير مصلحة المعارضة ، التي اكتشفت ما وراء هذا الرجل الهادىء من صلابة ، وقدرة على استعمال القبضة الحديدية ، اذا ما دعت الحاجة . ذلك أن « القسري » جاء الى العراق ، يحمل وقارا فرضته السنون ، ويتسلح بكفاءة عالية وتجربة طويلة في الحكم . ولعل أبرز أعماله التي حقق من خلالها نجاحا خاصا ، هي تحرير النفوس من الخوف ، وتقريب المسافة بين السلطة الأموية الحاكمة وبين جمهور المعارضة العراقية المقهور ، حيث كان ذلك ثمرة اسلوبه الحواري الذي امتاز به ، وكان من أوضح ملامح عهده الذي يصح أن نسميه « عهد القسري » في العراق .

والواقع أن ثمة تحوّلاً شهده العراق الأموي بصورة ما في ذلك الحين ، في وقت كان على السلطة المروانية أن تعيد النظر في سياستها الاقتصادية والاجتماعية ، التي اثبتت فشلها الذريع في العهود السابقة ، على الرغم من بعض المحاولات الجدّية ، لتجنب الكارثة أو تطويقها ، سواء تلك التي انخذت اتجاهاً تنظيمياً مع عبد الملك ، أو اتجاهاً اصلاحياً اكثر جذرية مع عمر بن عبد العزيز . ويبدو أن القسري الذي خلف في وقت سابق الأخير في ولاية الحجاز ، كان متأثراً بنهج سلفه ، الذي ظهرت بعض ملامحه في العراق بعد تولي القسري له ، مراعياً من خلال ذلك التكوين البشري والعمراني لهذا الأقليم الهام ، الذي كانت له فرادة ما ، بالمقارنة مع الأقاليم الأموية الأخرى . ولعل أحد وجوه التأثر بهذا النهج ، تمثله مسألة الضرائب ، ولكن في ظلّ

---

(١) الطبري ج ٨ ص ١٨٠ .

مراعاة لمصلحة العليا للدولة ، التي كانت تعتمد في تغطية نفقاتها على هذا المورد ، مما جعل الجباية تتم احياناً بطرق غير عادلة ، إن لم نقل غير مشروعة[1] ، لا سيما في الأقاليم الشرقية من الدولة .

وكان تراجع الانتاج الزراعي والحرفي . نتيجة الاضطراب السياسي شبه الدائم في هذه المنطقة ، قد انعكس سلبياً ، ليس على الوضع الاجتماعي فقط ، ولكن على مداخيل بيت المال التي اصبحت منطلق تقويم النجاح والفشل في مهمة هذا الوالي أو ذاك . من هنا تكتسب تجربة القسري اهميتها ، حيث الزراعة بدت محور جهوده التي انصبت على استصلاح الأرض وتحسين اساليبها ونظمها وتشجيع العاملين فيها[2] ، وغير ذلك من عوامل الاستقرار التي توفرت لهذه الولاية في عهده وصرفتها عن ضروب الجدل ومقارعة السلطة . واذا كان الحجاج قد اعتمد في عهده على اشغال الناس بحملات عسكرية لم يكن ما يسوّغها أحيانا ، وذلك من أجل امتصاص المعارضة ، فان القسري ، بجهوده الايجابية ، حقق هذا الهدف ، مضافا اليه علاقة ودية ومصلحية مع الاتجاهات السياسية والقبلية المختلفة .

لقد نجح اذن في كسر التقليد السائد في العلاقات الأموية ـ العراقية ، وذلك عبر المسيرة الطويلة التي قضاها في الحكم ، معاصراً الجزء الأكبر من خلافة هشام . فكانت هذه الرؤ ية الجديدة من أهم العوامل التي ساعدته على تنفيذ برنامجه الاصلاحي ، متوفراً لديه المتّسع من الوقت لقطف حصيلة جهوده الدائبة ، على الصعد السياسية والأمنية والاقتصادية . ولعل هذه الفرصة كانت تخون معظم الولاة الأمويين في العراق ، الذين غالبا ما تقاذفت بهم المتغيرات وفقدوا مناصبهم تحت ضغط الاحداث وحركات التمرد ، التي كان لبعضهم طرف ما او ضلوع فيها .

ومن الواضح ان سياسة الحوار التي طبقها القسري خلال عهده الطويل ، والجسور التي اقامها مع الاتجاهات السياسية المتباينة ، هي العنوان الرئيسي لذلك العهد . واذا كانت علاقته بالخوارج ـ تلك الفئة الرافضة ـ لم تتجاوز الاطار التقليدي المعروف للسياسة الأموية إزاء هؤلاء وموقفهم المتطرف منها ، فان موقفه من

---

(١) ثابت الراوي ، العراق في العصر الأموي ص ٧٥ ـ ٧٧ .

(٢) البلاذري ، فتوح ص ٢٨٩ .

المعارضة الشيعية في الكوفة ، كان موضع نقاش وتأمل . فهذه الأخيرة التي التقت مع الخوارج في الموقف العدائي من الحكم الأموي ، كانت تتجاذبها أكثر الاتجاهات السياسية في العراق ، مقدرة على الاستقطاب وتحريك العواطف الشعبية ، وذلك في ضوء فلسفتها الخاصة في الحكم ، حيث كان النضال من أجل هذا المبدأ قضية لا تقبل المساومة ولا التردد[1] .

ومن الأهمية الاعتراف ، بأن الكوفة التي استوعبت مختلف الاتجاهات السياسية في ذلك الحين ، نعمت لأول مرة في تاريخها الأموي بأجواء التسامح وتحررت من قيود الملاحقة ، مما أوجد مناخا طيباً للعلاقات العامة ، بين السلطة وبين بقية الأطراف فيها . وإذا ما انتقلنا الى وضع الفئات غير الاسلامية في العراق ، سنجد وجهاً آخر ايجابياً لهذه السياسة ، حيث نعمت هذه الفئات بظروف جيدة ، شجعتها على الانتاج والعطاء . غير أن هذه السياسة وجدت من تعرض لها عبر تقويم خاطىء من المؤرخين التقليديين ، الذين افترضوا أن وراءها ، خلفية معينة لدى القسري المولود من أم تدين بالنصرانية ، وأشاروا أنه بدافع من التكريم لوالدته ، أقام لها كنيسة على مقربة من مسجد الكوفة[2] ، حيث كان ذلك من اسباب تألب السلطة عليه في وقت لاحق .

ولقد أصابت هذه السياسة الجديدة من هم في أقصى المعارضة ، فنجحت في كبح مواقفها العدائية المتطرفة من السلطة ، رغم أن القسري تابع التقليد الأموي السائد في التهجّم على زعماء البيت العلوي في الخطب والمناسبات الرسمية ، مما يدفع الى التساؤل إذا كان هذا الاجراء نابعاً من قناعة ذاتية أم أنه كان يلجأ الى تغطية مواقفه ، بالتزام الموقف الرسمي المفروض عليه ؟ . ذلك أن سياسته العلوية أغرقته لاحقا في خضم الاتهامات ، ووضعته موضع الشك لدى خصومه ، حيث لم يتورع خليفته يوسف بن عمرالثقفي ،عن التهديد بكشف علاقاته مع العلويين والمساعدات المالية التي قدّمها الى زعمائهم[3] .

---

(١) ابراهيم بيضون ، التوّابون ص ١٠٦ .
(٢) الطبري ج ٨ ص ٢٤٦ . بيه عاقل ، تاريخ خلفاء بني أمية ص ٣٠٩ .
(٣) اليعقوبي ج ٢ص ٢٢٣ .ابن الأثير ، الكامل ج ٥ ص ٢٠٩ ـ ٢٢٠ .

واذا ما حاولنا البحث عن جوانب الحقيقة في هذا التعاطف المزعوم ، نجد أن الموضوع يتحول الى قضية لدى الوالي الثقفي الذي كان أكثر ما يعنيه تشويه تلك الثقة التي منحها هشام لسلفه[1] . ومن البديهي أن تلويح الثقفي لهذا الأخير بقضية حساسة هي الخلافة ، قد أصاب منه الهدف المطلوب ، لما كانت تثيره من تشنج لدى الأمويين ، خاصة عندما يتعلق الأمر ببني هاشم منافسيهم التقليديين . وهذا التشنج انعكس على موقف الخليفة السلبي بعيد ذلك من الزعيم العلوي زيد ، رافضاً اعطاءه الفرصة للدفاع عن نفسه[2] .

لقد جاء يوسف بن عمر الى السلطة في العراق ، بعد نجاح القيسيين وحلفائهم في توتير العلاقة بين الخليفة وعامله القسري[3] . فاستجاب هشام متردداً تحت تأثير الحملة المفتعلة التي ازدادت تصعيدا مع انتقال ابن عمر الى مركزه في « الحيرة »[4] . وكان هذا التحوّل للإدارة الأموية في العراق الى عاصمة المناذرة القديمة ، ربما بداية افتراق جذري بين العراقيين وبين المكاسب الاقتصادية والسياسية التي حققها الوالي السابق ، كما كان مؤشرا لعودة النظام الأموي الى خطه التقليدي المعروف . ذلك أن الوالي الجديد الذي حمل ذهنية قريبه « الحجاج » ، اثر الابتعاد عن « واسط » أو الكوفة (الحاضرتان القديمتان) ، حيث التأييد للقسري في الأولى وللعلويين في الثانية ، ودأب على اجتثاث الانجازات التي حققها سلفه ، والتي اعتبرت احد المنعطفات البارزة في تاريخ العراق الاموي .

ان علاقة « القسري » ، بزعماء البيت الهاشمي ، كانت منسجمة الى حد كبير مع تفكيره ، وجزءاً لا يبتعد عن نهجه السياسي العام . فقد تطلع الى تحقيق حد نسبي من التفاهم بين السلطة الأموية وبين المعارضة العراقية ، عبر عملية احتواء لهذه الأخيرة ، تصبّ عمليا في اتجاه المصلحة العامة للدولة . ومن هنا كان القسري شاذا بين أقرانه الامويين ، في محاولته الرائدة لاقرار السلام في العراق ، ودفعه الى مرحلة جديدة ،

---

(١) الطبري ، ج ٨ ص ١٨٠ .
(٢) الاصفهاني ، مقاتل الطالبيين ص ٩٠ - ٩١ .
(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ٢١٩ - ٢٢٠ .
(٤) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٢٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٧٩ .

كان من أبرز سماتها التعايش والانفتاح والاستقرار السياسي والاقتصادي .

وبعد عزله ، ظلت سياسته العلوية ، الجانب البارز في عهده الطويل[1] ، لما أثارته من جدل في الحياة السياسية الأموية بصورة عامة . فالحملة « القيسية » التي استهدفته كانت في منتهى الشراسة وفي غاية الاتقان . وتشابكت التهم من حوله ، مطوّقة عهده بما فيه الايجابيات ، لتلقي عليه ستارا كثيفا من الضباب ومن التساؤلات . . من تهمة التواطؤ مع الزعماء العلويين واغداق الأموال عليهم ، وأخيرا محاباة الفئات غير الاسلامية وتكثيفها في جهازه الاداري ، مظهرة القسري لخصومه ، وكأنه اخترق التقاليد التاريخية ، بتحرّره من رواسب التعصب القبلي والاقليمي .

وهكذا كان على القسري أن يسدّد حسابات أفكاره المتقدمة ، حيث عزل من منصبه تحت ضغط الحملات المتصاعدة والمركّزة ، في غياب الدعم الخلافي الرادع . وكان خصمه الوالي الجديد (يوسف بن عمر الثقفي) يتطلع الى دور غير عادي في العراق ، متلمّسا خطى قريبه الحجّاج ، ومعجبا حتى التشبث بأسلوبه الصدامي المعروف . ولعل أكثر ما يستلفت الانتباه في التجانس النوعي بين الثقفيين ، تلك المبادرة الهجومية المشتركة بين خطبة الحجاج الشهيرة في الكوفة ، وبين خطبة ابن عمر المنسوبة له عند قدومه الى الحيرة ، حيث شابهت الأولى في المزاج النفسي العام وحتى في المفردات اللغوية المختارة ، كقوله مثلا : « يا أهل العراق ، لأقتلن منافقيكم بالسيف وجناتكم بالعذاب »[2] .

لقد كشفت هذه السياسة الجديدة ، أبعاد المخطط المحبوك الهادف الى تصفية المواقع التي استمد منها القسري قوته السياسية والمعنوية . فأُرسل الى السجن ، بتهمة الاختلاس والاثراء الفاحش على حساب منصبه[3] ، في الوقت الذي كانت قبضة الوالي الجديد ، تشتد فوق المعارضة الشيعية في محاولة لاستدراجها الى مجابهة أخرى ، وذلك عبر توريط زيد بن علي بن الحسين ، أحد زعمائها البارزين ، في مأزق مع

---

(١) (١٠٦ - ١٢٠ هـ / ٧٢٤ - ٧٣٨م)
الطبري ج ٨ ص ١٨٢ - ٢٥٣ .
(٢) المصدر نفسه . ج ٨ ص ٢٥٨ .
(٣) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٢٣ .

السلطة ، ومن ثم دفعه الى الثورة . وكان زيد أكثر العلويين تأهيلا في ذلك الوقت ، للقيام بدور ما على الساحة العراقية . فبينما كان القسري يتنقل تحت وطأة التعذيب في السجن ، بين واسط والحيرة[١] ، كان الزعيم العلوي يدفع ضريبة علاقته الودية مع الوالي السابق ، ويُلاحَق بتهمة التواطؤ معه في اخفاء مبلغ كبير من المال ، زعم ابن عمر أن سلفه قد أودعه لدى زيد في وقت سابق[٢] .

وهكذا ، لم تكن التهمة مستهدفة القسري وحده ، بل كان لها هدف أبعد من مجرد محاكمة سلوكية لوالٍ معزول . ذلك أن زيداً صاحب الشخصية القوية ، كان يثير بجرأته وطموحه حفيظة النظام الأموي وهواجسه التقليدية[٣] . فهو أول زعيم علوي يمارس تحرّكا سياسيا شبه علني ، خارج الدائرة المفروضة على أسرته منذ النكبة التي حلت بها في كربلاء . وهذا القلق الأموي ، لا يلبث أن يتجلى في انفعال الخليفة هشام من زيد ، ورفضه التجاور معه بشأن التهمة المذكورة ، واصراره بشيء من الاهانة على أن يكون والي العراق الثقفي ، هو المرجع المباشر لهذه القضية[٤] .

ولم يكن أمام زيد سوى الامتثال لأوامر الخليفة والتوجّه الى الحيرة ، حيث كان يعرف سلفاً أية مقابلة عقيمة ستكون مع الوالي القيسي المتشنّج ، ويدرك أي مخطط تنسجه له أصابعه في ذلك الوقت . فالعلاقات بين الثقفيين والعلويين كان لها سجل حافل في ذاكرته ، تزدحم فيه الكوارث والتصفيات . ولم تلبث مخاوفه أن تحققت بعد استدعاء يوسف بن عمر لطرفيّ التهمة (زيد وخالد) ، في محاولة لانتزاع الاعتراف منهما تحت التهديد والتلويح بالعقاب . ولكن أحداً من الرجلين لم يحقق له هذه الرغبة ، بعد أن رفضا التهمة بجرأة واصرار ، ليعود القسري الى سجنه ويقبض على زيد وقتا ما ، قبل أن الافراج عنه بأمر من الخليفة[٥] ، حيث وجد ثورة تنتظر قيادته ، وتلقى عنده الاستجابة والتسويغ .

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٦١ .
(٢) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .
(٣) راجع قول هشام لزيد : « لقد بلغني أنك تؤهل نفسك للخلافة ، وأنت ابن أمه » اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٣٢٥ .
(٤) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٣٢ .
(٥) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٢٦

وقد لا نجد صعوبة في تقويم الاحداث التي كانت مسرحها مدينة الكوفة بعيد ذلك . فالتهمة التي حققت للوالي الثقفي ابن عمر ذريعة الملاحقة لخصومه السياسيين في العراق ، وجدت من اكتشف سذاجتها حتى في أوساط الخلافة ، التي ترددت في الانسجام أحياناً مع قرارات واليها المغرصة . أما القضية في جوهرها ، فلم تكن غير وسيلة لتحقيق هدف سياسي ، يجري توظيفه في خدمة المصالح المستقبلية لوالي العراق . واذا رجعنا الى متابعة الشريط المتزامن مع الموقف الذي اتخذه هذا الاخير من القسري ، لوجدنا انه يتمحور حول نقطة اساسية ، وهي التشكيك بالولاء الأموي لسلفه ، والتركيز على صلاته الودية مع العلويين .

ويبقى موقف القسري غامضا يحتاج الى معطيات ، تتجاوز الحملة الهادفة ، الى حقائق ليست مطروحة من هذا المنطلق . ذلك أن والي العراق السابق الذي حظي بتقدير أحد أقوى الخلفاء الأمويين ، ورافقه جانباً من ولايته المديدة ، لم يكن موضع شك في انتمائه الفكري أو السياسي ، أو ارتياب في سلوكه العام . ولم تكن تهمة التواطؤ والضلوع مع العلويين ، سوى تغطية لهدف أبعد وأكثر خطورة من التهمة الساذجة الملصقة به ، مما دفع الخلافة الى التضحية بواليها القوي والمخلص ، وصولاً الى أهداف تعتبرها مصيرية وحاسمة .

لقد خسر العلويون زعيماً آخر ، ذهب ضحية المسألة التي أثارها يوسف بن عمر بُعيد تعيينه على العراق ، كما خسرت (بجيلة) ـ القبيلة اليمنية ـ أحد زعمائها المتنوّرين ، الذي كان من أقدر موظفي الادارة المروانية وألمعهم ذكاء وأبعدهم نظرا . أما الأول فقد خرج من سجن الثقفي ، ومعه كبرياؤه المهان ورغبته في الانتقام ، فإذا الكوفة متعطشة بدورها للثورة ، في وقت غاب عنها مركز الحكم وظل السلطة الثقيل ، حيث كان في قلب أحداثها يعدّ نفسه منذ زمن لعمل ما على أرضها . غير أن الفكرة لم تكن ناضجة ، فوقع زيد في التجربة نفسها التي عصفت بأسرته في ظروف مشابهة ، مع بعض الاختلاف في التفاصيل ، وذلك قبل أكثر من نصف قرن من الزمن[1] .

---

(١) احبطت ثورة الكوفيين وقتل زعيمها زيد سنة١٢٢هـ/٧٣٠م . راجع اخبار هذه الثورة في : الطبري ج ٨ ص ٢٧١ ـ ٢٧٩ راجع ايضاً ناجي حسن ، ثورة زيد بن علي . المقرّم ، زيد الشهيد .

أما القسري ، شريك زيد في التهمة التي حوّلها يوسف بن عمر الى قضية سياسية ، استنزف من خلالها مواقع الرجلين ، فقد أُفرج عنه بعيد القضاء على حركة الكوفة التي تزعّمها زيد . وعلى الرغم من أن الخليفة كان وراء ذلك القرار ، الا أنه رفض فتح ملف القضية مع صديقه القديم ، الذي أقام حينا في « القرية »[1] في محاولة لتبرئة نفسه أمام الخليفة ، ولكن دون طائل . فقد ظل شبح والي العراق الثقفي يلاحقه ، حتى بعد انتقاله الى دمشق ، ويطارده بالاتهامات والشكوك . ولم يعد هشام كثير الحرص على علاقته بالقسري ، بقدر حرصه على التجاوب مع رغبات واليه المتصلب في العراق ، حيث كان على ما يبدو بحاجة الى هذا النوع من الولاة ، لا سيما بعد تدهور الموقف السياسي على أكثر جبهات الدولة الأموية .

وفي دمشق ، تنقّل القسري ما بين داره والسجن ، منكفئاً وراء جدران الصمت ، وذلك في أواخر عهد هشام حيث بقي هذا الخليفة حافظاً ، برغم كل الظروف بعض التقدير لواليه السابق . ولكن وفاته[2] انعكست سريعاً على مصير القسري ، مفقدةً اياه الغطاء الأخير الذي صدّ عنه شبح التصفية . ذلك أن الخليفة الجديد[3] ، القيسي المتطرف والاكثر انسجاماً مع افكار الثقفي والي العراق ، منح الاخير حرية التحرك في ملاحقة القسري ، حيث قبض عليه واعاد محاكمته بالتهمة ذاتها ، قبل اعدامه في الحيرة مع عدد من جماعته[4] .

وأخيراً لا جدال في أن القضاء على اصلاحات القسري على يد أحد المنتمين الى المدرسة التقليدية « الأرستقراطية » ، وهو يوسف بن عمر الثقفي ، قد مثّل انكفاء الى الوراء وعودة حتمية بالعراق الى المجابهة المباشرة مع النظام الأموي . ولم يعد خافياً ما ينتظر هذا الأخير ، وقد أخذت أركانه حينذاك في الاهتزاز ، ليصبح بعد بضع سنوات امام السقوط المرتقب . ولعل المؤرخ الألماني يوليوس فلهوزن Julius Wellhausen ، قد أصاب هذه الحقيقة بعبارته التالية : « كان سقوط خالد بن عبد الله القسري ،

(١) قرية على مقربة من الرصافة(مصيف هشام)الواقعة غربي الرقّة .

(٢) توفي هشام في الرصافة في ربيع الاول سنة ١٣٥ هـ . تاريخ خليفة بن خياط ج ٢ ص ٥٣٣ .

(٣) الوليد بن يزيد من عبد الملك . الطبري ج ٩ ص ١٧ ـ ٢٢ .

(٤) تاريخ خليفة بن خياط ج ٢ ص ٥٤٦ .

فاتحة الفترة الأخيرة المحمّلة بالكوارث ، والتي انتهت بسقوط الدولة الأموية »[1] .

(١) فلهوزن ، الدولة العربية وسقوطها ص ٤٥٠ .

خراسان تسقط الدولة الاموية

خضعت خراسان(1) لسيطرة العرب المسلمين في ثلاثينات القرن الأول الهجري(2)، وذلك انطلاقاً من قاعدة البصرة التي كان لها الدور الاساسي في فتحها(3)، ممثلة في الغالب بالأكثرية القبلية المنتمية الى عرب الشمال (قيس ، تميم ، ربيعة). وهكذا فإن حركة الاستيطان الأولى في خراسان ، كانت في بداياتها قيسية(4) الملامح ، حيث كانت طليعة هجراتها على المستوى الجماعي ، قد حدثت في منتصف القرن الأول ، عندما قام زياد بن أبيه ـ عامل العراق على المشرق ـ بابعاد بعض القيسيين من البصرة والكوفة ، فيما يشبه النفي الى خراسان ، في محاولة لتشتيت القوى السياسية المعارضة للحكم الأموي ، وذلك تحت شعار القضاء على احدى حركات

(1) وردت في معجم البلدان لياقوت انها «بلاد واسعة، أول حدودها مما يلي العراق ... وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان ، وليس ذلك منها، انما هو أطراف حدودها ، وتشتمل على امهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو وهي كانت قصبتها ، وبلخ وطالقان ونسا وابيورد وسرخس وما يتخلل ذلك من المدن التي دون جيحون» . ج ٢ ص ٣٥٠.

(2) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ١٦٦ ـ ١٦٧ . البلاذري ، فتوح البلدان ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩

(3) يبدو ان ثمة محاولة قامت من هذه المدينة بقيادة احد زعمائها الكبار وهو الاحنف بن قيس، ولكن اخبارها غير واضحة تماماً ، خاصة الوقت الذي تمّت فيه ، حيث لم يكن العرب قد سيطروا تماماً على الجهات الواقعة الى الغرب منها . راجع معجم البلدان ج ٢ ص ٢٥١ ـ ٣٥٢ .

(4) البلاذري ، فتوح ص ٣٩٩، فلهوزن ، الدولة العربية ص ٣٩٥ شعبان، صدر الاسلام من ١٩٨

التمرد هناك[1].

غير أن هذا التواجد العربي الاسلامي في خراسان ، لم يترك تأثيره الجذري على تركيبة المنطقة السكانية ، حيث ظلّت العناصر الخراسانية في موقع التفوق العددي المطلق . على أن الهجرة القيسية لم تكن التشكيلة القبلية الوحيدة في خراسان ، فقد اعقبتها تشكيلات جديدة من العرب الجنوبيين ، خاصة في السنوات الأخيرة من القرن الأول ، عندما ارتبط الاقليم الخراساني بالاسرة المهلبية ، المتحدرة من الأزد اليمنية . فكان المهلب بن أبي صفرة (والي خراسان سنة ٧٩ ـ ٨٢ هـ) ، ومن ثم ابنه يزيد دامت ولايته نيفاً وعامين) [٢] قد انتهجا ، سياسة تدعيم الوجود العربي اليمني في المشرق الاسلامي ، أمام الوجود القيسي المكثف . فتوافدت حينذاك هجرات واسعة ومتكررة من العرب اليمنيين الى خراسان ، خاصة من قبائل الأزد وهمدان وكندة[٣] .

ولقد انتقلت مع هذه الهجرات رواسب العصبية والتناقضات القديمة بين هذه القبائل ، متأثرة على الخصوص بصراعاتها في العراق ، مركز الولاية الشرقية في خلافة بني أمية ، حتى ان (فلهوزن) يجدها ـ أي خراسان ـ نسخة اخرى عن شبه الجزيرة العربية[٤] ، تتجه هذا الوضع القبلي المعقد والمتشابك . بيد ان خلفية هذا التكوين السكاني في خراسان ، لم تكن قيسية ـ يمنية بصورة عامة ـ بل كان الموقف القبلي مُخترقاً في الغالب ، كالتحالف الذي كان قائماً بين الأزد اليمنية وربيعة القيسية ، ضد تحالف قيس وتميم من العرب الشماليين ، ومن ثم تكتل الحلف الاخير ضد ربيعة بقيادة زعيم قيس عبد الله بن خازم السلمي[٥]. وما لبث الانقسام ان دب في حلف القبائل الشمالية القيسية، حين قام ابن خازم

---

(١) اورد البلاذري ، ان زياداً ولى «الربيع ابن زياد الحارثي سنة احدى وخمسين خراسان وحوّل معه من أهل المصرين (الكوفة والبصرة) زهاء خمسين ألفا بعيالاتهم» فتوح ص ٤٠٠ . .

(٢) خليفة بن خياط ج ١ ص ٣٨٦ .

(٣) فلهوزن ، الدولة العربية ص ٣٨١ .

(٤) تاريخ الدولة العربية ص ٣٩٤

(٥) الطبري ج ٧ ص ٤٥ ، ٩١

بانقلابه وقضى على حركة مضادة قامت بها تميم[١] ، متسلماً زمام الحكم بعض الوقت في مرو - عاصمة خراسان - بموافقة الخليفة وقتذاك عبد الملك بن مروان[٢] .

وكانت هذه الأحداث متزامنة ، مع حركة ابن الزبير التي كان المشرق الاسلامي بما فيه خراسان تابعاً لها من الناحية الجغرافية على الأقل ، وذلك منذ أن أحكم مصعب قبضته على العراق في اعقاب القضاء على حركة المختار الثقفي . غير أن النفوذ الزبيري لم يكن قوياً في خراسان ، حيث أدى الصراع مع الأمويين فضلا عن سد الفراغ السلطوي ، الى تشجيع حركات التمرد القبلي فيها . ولذلك جاء اعتراف عبد الملك الأكراهي بابن خازم - ومقايضته على هذه الولاية حسب مروية الطبري «ان لك خراسان سبع سنين على أن تبايع لي»[٣] - جزءاً من الخطّة التي استهدفت مصعب وإحكام الطوق عليه في العراق . ولكن هذا الحلف لم يدم طويلاً ، إذ قتل ابن خازم في العام نفسه (٧٢ هـ / ٦٩١ م) الذي قتل فيه مصعب ، وذلك على يد رجل من تميم[٤] .

وإذا كان العرب الخراسانيون قد تأثروا دائماً بأجواء الصراع السياسي في العراق ، فإنهم تأثروا كذلك وبصورة أعمق بالانقسامات داخل السلطة الأموية وتذبذب مواقفها مع تغيّر المواقف بين خليفة وآخر . فكان ولاتها في خراسان ، مرآة لسياسة الخلفاء الأمويين والوجه الحقيقي لهم ، ربما بصورة أكثر تعبيراً من الولايات الأموية الأخرى . فهم يمنيون إذا كانت ميول الخليفة يمنية ، وقيسيون إذا كان الأخير كذلك . ولعل أشهر الولاة الأمويين في خراسان ، الذين تركوا بصماتهم القبلية في المشرق ، المهلب ابن أبي صفرة ، من الأزد اليمنية ، وقتيبة بن مسلم من باهلة القيسية . فلم يتورع كلاهما عن التورط مباشرة أم غير مباشرة في المسألة العصبية ، على الرغم مما أصاباه من مكانة عالية ، وما امتازا به من الدهاء ، وهي صفة السياسي المحنك في ذلك الحين[٥] . بيد أن ولاية الأول على خراسان ، كانت أكثر تأثيراً في التركيب القبلي ،

(١) الطبري ج ٧ ص ٩١ .

(٢) خليفة بن خياط ج ١ ص ٣٨٦. الطبري ج ٧ ص ١٩٦

(٣) الطبري ح ٧ ص ١٩٦ .

(٤) المكان نفسه .

(٥) اليعقوبي ، تاريخ ج ١ ص ٢٨٥. الطبري ج ٧ ص ٢٨٠ . فلهوزن ، الدولة العربية ص ٤٠٨

الذي أصبح للأزديين فيه الشأن القوي ، لا سيما بعد تحالف هؤلاء مع بكر وربيعة ضد التكتل المصري بجناحيه البارزين (تميم وقيس)[1] . وكان لهذا التفوق الأزدي تأثير هام في التطورات الخراسانية ، خلال السنوات الأخيرة من الحكم الأموي ، الا أن هؤلاء لم يثبتوا في الموقع نفسه الذي رسم حدوده المهلب ، بعد ان جنحوا الى المعارضة المتطرفة في مطالع القرن الثاني الهجري .

وتجلّت حينذاك ظاهرة لافتة ، وهي ارتفاع نسبة العرب ، بعد استمرار التدفق القبلي على خراسان ، التي توفرت لها كافة عناصر الاستقطاب في ذلك الحين ، بدءاً بخصوبة الأرض والثراء وانتهاءً بالحصانة الجغرافية ، حيث شجع بعدها عن مركز الخلافة ، معارضي هذه الأخيرة على الهجرة اليها ، بحثاً عن الأمان لدى قبائلها القوية وذات النفوذ الكبير في اقليم المشرق . ولكن الظاهرة الأهم حينذاك ، كانت في الامتزاج السكاني ، خاصة بين العرب والفرس ، وكان هؤلاء لا يزالون في موقع التفوق العددي ، على الرغم من كثافة التحرك القبلي الى هذه المنطقة . وكانت بوادر هذا التمازج ، قد ظهرت في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ، الذي كانت له سياسة اصلاحية واضحة في هذه المسألة . وعلى الرغم من حساسيات العلاقة أو بعضها التي تجلت بين العرب والموالي الفرس في العراق ، تلك التي بلغت ذروتها في ثمانينات القرن الأول ، فإن ثمة نهجاً آخر شهدته هذه الولاية ، عندما فرض التعايش العربي - الخراساني نفسه ، ليصبح نواة تيار اسلامي متجانس في المصالح (اشتغال بعض العرب في الزراعة - حرفة الموالي -نتيجة للاستقرار وركود العمليات العسكرية) ، وفي العقيدة (مع تحوّل الكثيرين من الفرس الى الاسلام ، وهو ما لم يحدث بالحماسة ذاتها على الأقل في العراق) .

ومن هذا المنظور ، فإن العلاقة الاجتماعية بين العرب والفرس ، تصبح أقل تعقيداً في خراسان من علاقة العرب ببعضهم الذين أوغلوا في الانقسام ، كلما ظهرت بوادر التقارب والتعايش مع الفرس او غيرهم في هذه البلاد . ولعل دلالة هذه الظاهرة ، انها جعلت المجتمع الخراساني يمثل اتجاهين مختلفين في التركيب والطرح والمفهوم : الاول ، هو الاتجاه القبلي ، الذي انطلق من أرضيته الصراع الشمالي -

---

(١) فلهوزن ص ٤٠٨ .

الجنوبي او القيسي ـ اليمني ، ذلك الصراع الذي أحس استغلاله في وقت لاحق ابو مسلم الخراساني في الاجهاز على الدولة الأموية . الثاني ، هو الاتجاه الاسلامي الذي يمثل العرب كما الفرس ، متجاوزاً حدود القبيلة العربية وقضية الموالي الفارسية ، وداعياً الى قيام دولة اسلامية عادلة ومتوازنة .

الحارث بن سريج ، مجسّد الاتجاه الاسلامي

شهد الربع الأول من القرن الثاني الهجري ، انعطافاً اساسياً في العلاقة بين الاسرة الأموية الحاكمة والقوى المتحالفة معها ، وبين المعارضة السياسية التي اتخذت منذ مطلع هذا القرن ، طابعاً اجتماعياً ظاهراً ، بعد أن غلب الصراع السياسي على الحقبة السابقة ، سواءً تمثّل بالمعارضة الشيعية أو الخوارجية أو الحجازية (حركتا ابن الزبير المدينة) . واذا كانت السياسة المالية قد فجرت الوضع في الجناح الغربي من الدولة ـ بقيام ثورة البربر الكبرى (١٢٢ ـ ١٢٥ هـ)، التي كانت مفتاح ذلك التحّول في العلاقة مع الحكم الاسلامي المركزي ، تلك التي اصبحت مضطربه حيناً ، منقطعة في أغلب الأحيان ـ فإن الجناح الشرقي من هذه الدولة ، كان أكثر جذرية في تحرّكه ونضجاً في طروحاته ، التي اختمرت أخيراً في إطار تيار اسلامي عام ، منسجم مع التغيير الذي طرأ على بنية هذه المنطقة الاجتماعية. فقد كان من مؤشرات الخلل الذي أصاب مؤسسة الخلافة وما رافقه من تحجيم دورها المتكامل ـ بعد طغيان الجانب الدنيوي فيها على الجانب الديني ـ ذلك الفرز السياسي والاجتماعي بين فئتين متناقضتين في الرؤية والمصلحة ، الأولى ممثلةً بالسلطة (الولاة والدهاقين)، والثانية ممثلة بـ «الحركة الشعبية» بعناصرها المختلفة ، من العرب والفرس والترك على السواء .

وهكذا كان الاختلاف واضحاً ، بين «الحركة الشعبية» في المغرب وبين مثيلتها في خراسان . فالأولى كانت أسيرة اقليميتها وتأثّرها بالفكر الخوارجي المتطرف والمهزوم في المشرق ، مما أدّى الى ذلك النطاق من العزلة الذي احاط بها ، ومن ثم فشلها في اتخاذ صفة تمثيلية عامة ، على غرار الحركة الأخرى المتزامنة معها ، التي لم تمسّ الصيغة القائمة للنظام السياسي شبه الأمبراطوري ، وفي الوقت نفسه كانت مدخلاً الى التشرذم والتمزق السياسي ، حيث كان المغرب الاسلامي ، رائد تلك النماذج

الاستقلالية المبكرة ، التي قامت في اعقاب ثورة البربر الآنفة الذكر .

ومن الواضح أن التصدي للتجربة الرائدة ـ أي الخلافة ـ وهي في مراحل نموها وبدايات استقرارها ، قد انعكس بصورة خاصة على العلاقة بين العرب الحاكمين ، وبين شعوب البلدان التي خضعت لهم ، وبالتالي فقد أسهم في ضعضعة الاطار الاحتوائي لهذه المؤسسة ، وهو ابرز مفاهيمها السياسية التي تبلورت في العهد الراشدي المبكر . فلم يكن ثمة تمايز آنذاك بين العقيدة وأصحابها الأوائل ، الذين حملوها الى مناطق النفوذ الفارسي والبيزنطي ، كما لم يكن ثمة استلاب لها أو تأقلم أو تدجين ، على الرغم من شيوع النمط الامبراطوري في ذلك الزمن . فسقط هذا النظام أمام صيغة الخلافة المبتكرة ، تلك الاداة التنفيذية والنموذجية للدعوة ، التي كان العرب مؤهلين حينذاك لقيادتها والقيام بهذا الدور التاريخي ، عبر مجموعة متضافرة من العوامل النفسية والجغرافية والاقتصادية . ولم يكن ثمة ما يحول ايضاً دون انتقال هذا الدور أو بعضه الى شعب آخر ، ليست له تلك الريادة ولا ذلك الرصيد الحضاري المتكافىء معه . فقد كانت العقيدة الاسلامية ، الاطار الجامع الذي يستوعب مختلف الشعوب ، دون تناقض بين عالمية الدعوة وبين الشخصية القومية والحضارية لكل منها ، بحيث «تصبح القوميات المتعددة التي يدين اصحابها بالاسلام ، أشبه ما تكون بالجزر وسط محيط من التضامن الأخوي الذي تحكمه العقيدة الاسلامية السمحة ، مما ينفي التناقض العدائي بين القومية وبين العقيدة المليّة في الاسلام» كما عبّر عن ذلك مؤرخ معاصر[١] .

ومن البديهي أن حركة التوسع أو الفتوح ، قد اسهمت بدون مجال للتردد ، في إحياء النزعة الأمبراطورية ، مع اختلال نظام الخلافة الذي وضع موضع التنفيذ لبنة الولاء للدولة ـ المؤسسة . وقد جاءت الانتصارات العسكرية نتيجة ذلك الانسجام والتعاطي المتكافىء مع الدولة ، خلافاً للفتوح الأموية التي خضعت لاعتبارات متفاوتة ، سواء ارتبطت بسياسات خاصة للخلفاء والولاة ، أو إشباع رغبات الجند أو امتصاص النقمة الشعبية ، بافتعال حملات عسكرية قد لا يكون ما يسوّغها في كثير من الأحيان[٢] .

(١) محمد عمارة ، مسلمون ثوار ص ١٥٨ ـ ١٥٩ .

(٢) سيف بن عمر ، الفتنة الأولى ووقعة الجمل ص ٥٣ .

كذلك ارتبطت الفتوحات بقضية أخرى ليست أقل تعقيداً ، وهي العلاقة مع الشعوب التي خضعت للدولة الاسلامية . حيث كانت محورها سياسة الضرائب ، وهي من أبرز عوامل التفجير للأزمات بين هذه الشعوب والولاة الأمويين . فقد انهارت كل الضوابط والأطر التنظيمية ، وفي طليعتها كبح الإثراء غير المشروع ومراقبة المداخيل (المقاسمه)[1] . وبذلك أصبح الخروج على قواعد الجباية عرفاً مألوفاً ، لا تتورع الدولة عن توجيهه والاعتراف به ، كواقع أو كضرورة للمحافظة على مصادرها المالية . وكان يحدث أن تحاول التصدي أحياناً لهذه المشكلة ، الا أن محاولاتها اتخذت اتجاهاً توفيقياً في معظمها ، وكانت تنتهي لمصلحة العرب الحاكمين ، الذين تقع عليهم مسؤولية اضطراب معادلة المساواة وفشلها .

بيد أنه على الرغم من اختلال العلاقة بين العرب وشعوب البلدان المفتوحة في ذلك الوقت ، فإنها لم تصل الى المستوى الذي تصوره مستشرقو القرن التاسع عشر ، وفي طليعتهم فون كريمر VON KREMER وغولدزيهر GOLDZIHER وفان فلوتن VAN VLOTEN[2] ، الذين بالغوا كثيراً في تجسيم الخلل في علاقة الأمويين بالموالي ، حيث انحدر هؤلاء ، حسب تعبيرهم الى مستوى الرقيق[3] . وهذا التصور مرفوض من عدة جوانب شديدة الوضوح ، وفي اولها أن كلمة «مولى» التي أطلقت على المسلم غير العربي ، خاصة من سكان الولايات الشرقية ، لم يكن باعثها الاحتقار أو الاسترقاق ، كما يوحي بذلك التفسير اللغوي للكلمة ، بل كان لها مدلول الالتحاق بالقبيلة والموالاة لها والالتزام بموافقها في السلم والحرب[4] ، وذلك لاعتبارات أمنية في المقام الاول ، حيث تتوفر لها الحماية في مجتمع يقوم عملياً على التوازن القبلي . كذلك فإن الرقيق باشكاله الأوروبية التي الفها المستشرقون في عهود الأقطاع ، لم تعرفه المجتمعات الشرقية ، حتى في «جمهورية مكة» التجارية قبل الاسلام[5] . ومن المعروف ان الرّق

(١) النظام الذي طبّقه الخليفة عمر بن الخطاب Van Vloten, la Domination Arabe P 10

(٢) Goldziher, le Dogne et la loi de L'Islam p 123. Van Vloten, I bid pp P P 13 - 14.

Van Vloten Ibid pp 13 - 14.

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ص ٩٦

(٤) Lammens, la Mecque à la veille de L'hégire pp 164 - 165

تحجمّ كثيراً في ظلّ المجتمع الاسلامي ، الذي نحا خطوات جريئة في تحرير الانسان ، مهما اختلفت مشاربه وظروفه الاجتماعية . وخلافاً للمجتمع الكسروي الذي عانت منه الفئات المسحوقة حتى الاسترقاق ، فإن المجتمع العربي الاسلامي ، كانت له المقدرة والاستعداد لاستيعابها ، موفراً لها ـ حتى في عهود سيطرة «الثقفيين» على العراق والمشرق ، حيث الأغلبية من الموالي ـ الحد الأدنى من الحرية الشخصية والدينية .

ومن البديهي أن الموالي دفعوا الثمن باهظاً في الصراع على السلطة ، بعد أن كان خيارهم الوحيد ، هو التحالف مع المعارضة السياسية ، مهما كان شكل هذا التحالف ، وذلك انطلاقاً من بضعة عوامل :

١ ـ العامل الجغرافي ، حيث الأكثرية متعايشة مع التيار الشيعي ومتأثرة بأفكاره ، ذلك التيار الذي اتخذ من العراق امتداده الجماهيري الاساسي .

٢ ـ لقد جسّد تيّار التشيع آمال الموالي ، خاصة في المساواة ، وكان يمثل نقطة الجذب الدائم من خلال المعاناة المشتركة والانفتاح السياسي

٣ ـ كان التشيع ، عدا الطموح الى السلطة، يحمل هموم هذه الفئة ، وذلك عبر برنامج اصلاحي مطروح ، ليس بالنظرية فقط ولكن بالممارسة الثورية .

وفي الموقع الآخر ، كانت السلطة الأموية التي دانت في قيامها لتحالفات ومساومات سياسية وقبلية وارتهنت لها الى حدٍ ما ، غير قادرة على تحقيق مجتمع متجانس ومتوازن ، مما أدى الى اتساع الهوة مع خصومها والى افتراق جذري في المصالح والأهداف . وكان ثمة دور بانتظار الموالي ، ما لبثوا ان تحسّسوا بداياته ، في وقت كانت فيه حركة المعارضة تتنبه أيضاً الى القوة الجماهيرية التي يمثلون . فتحولوا في مطلع العهد المرواني ، من أكثرية صامتة الى قوة ضاغطة ، تؤثر جذرياً في مسار التيار الثوري الذي عصف أخيراً بدولة الأمويين[1] .

---

(١) ابراهيم بيضون ، الدولة الأموية والمعارضة ص ١٩ .

ولكن رياح الثورة لا تستقر في دائرة المعارضة والحركة الشعبية فقط ، بل تسللت الى معاقل النظام نفسه . فتلقاها بعض أركانه ، ممن رفضوا المضي بعيداً في ركاب الانحراف أو السكوت عليه ، وكذلك من الاصلاحيين بالفطرة والمنشأ ، حيث السلطة ، وهم في ذروتها ، لم تؤثر في ايمانهم أو تمسّ قناعاتهم ، بل زادتهم قوة وصلابة. ومن نماذج التحرك الأول ، انتفاضة المطرّف بن المغيرة الجريئة ، باكورة الحركات التصحيحية من موقع السلطة(1). والمطرف يلتقي مع الخوارج في الثورة على الحكم الأموي ،وفي النظرة الى المرحلة المبكرة من العهد الراشدي، كنموذج مثالي للمجتمع العادل ، ولكنهأختلف معهم على «قرشية» الخلافة ، ذلك العرف الذي رفضه الخوارج منذ اعلان حركتهم في صفّين . أما النموذج الثاني ، فتمثله محاولة الخليفة عمر بن عبد العزيز ، الهادفة الى تحقيق «ثورة فوقية»، تعيد الأشياء الى أحجامها وتلغي كافة انواع الاستغلال والأضطهاد لشعوب البلدان المفتوحة .

كانت منطلقات المحاولة التي قام بها هذا الخليفة داخلية بحتة ، حيث كانت أزمة النظام الأموي وعلاقاته مع الفئات غير العربية ، جوهر المشكلة أو المعضلة التي تطلبت حلولاً موضوعية وسريعة . ومن ناحية أخرى ، فقد عملت على توجيه العرب ، الطاقة المقاتلة والمتفرغة للشؤون العسكرية ، الى مجالات انتاجية في ذلك المجتمع. ولعل ما هو أكثر أهمية ، احتواء الدولة للجند وليس العكس ، حيث كان هؤلاء يتعاملون مع تلك الفئات من خلال نزعة فوقية ، وشعور المنتصر نحو المهزوم . ومن هذا المنظور ، كان فشل معظم العسكريين ، عندما آلت اليهم مهمات ادارية ، في تحقيق الحدّ الأدنى من العلاقة المتوازنة بين الدولة وبين الشعوب التي خضعت لها . وهناك امثلة عديدة ، كان مسرحها منطقة ما وراء النهر على وجه الخصوص(2).

على أن القرار العملي الذي توّج هذه المحاولة ، هو الموقف من « إسلام » هذه

---

(1) ابن الاثير ، الكامل ج ٤ ص ٢١١ .

(2) راجع عصيان سمرقند . الطبري ج ٨ ص ١٩٦ ـ ١٩٧ . وكذلك قمع المسلمين الجدد في بخارى . فان فلوتن ، السيطرة العربية . ترجمة ابراهيم بيضون ص ٩٧ ـ ٩٨.

الفئات ، والذي كان موضع طعن العهود الاموية السابقة ، لما يعْكسه من تأثير على مصادر الدولة المالية . فغالباً ما لجأ بعض الولاة الذين تمتعوا بشيء من الاستقلالية ـ تحت تأثير العامل الجغرافي المساعد ـ الى « تعهد » الضرائب والتزامها أمام الخلافة ، بحيث تتحول مهمة الوالي الى عملية تجارية ، يجتهد بأن تكون رابحة ، ما استطاع سبيلاً الى ذلك .

أما المعضلة الأساسية في النظام الاموي ، فهي مشكلة الأراضي المفتوحة التي كانت مصدر الخلل الدائم ، وانعدام التوازن بين محدودية القدرات الادارية وحتى العسكرية ، وبين الاتساع العظيم لهذه الدولة ومعها الطاقة السكانية الهائلة التي تعيش على هامش الانتاج فيها . وكان التوجه اليها واستيعابها كقوة فاعلة ومنتجة ، أحد أبرز ملامح هذه المحاولة الاصلاحية ، حيث كانت المؤهلة ، دون الحاميات العربية لضمان الاستقرار الفعلي والدائم في مناطق الفتوح .

غير أن هذه التجربة ـ على الرغم من الشمولية والاستيعاب لمعظم مشكلات الفتوح ، وكذلك جدّيتها في انقاذ النظام الأموي من أزمته المستعصية ـ فشلت في تثبيت أقدامها ، بعد أن اصطدمت بالنظام نفسه ، حيث اختار أركانه النمط «الأمبراطوري» ورفضوا مرة أخرى النمط «الخلافي»، الذي سقط مع قيام الدولة الأموية . وإذا تخطينا المسافة الزمنية القصيرة التي رافقت هذه المحاولة ، وهي بدون ريب غير كافية لارساء قواعدها على اسس ثابتة ومستقبلية ، فإننا نراها ، وقد افتقدت العنصر التطوري حيث كانت الحركة في جوهرها سلفية ، متأثرة بكل تفصيلاتها بالتجربة الرائدة التي قام بها الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب ، دون مراعاة التفاوت في الظروف والمراحل التي بلغتها الدولة بين عصر وآخر .

ولكن الفكر الاصلاحي «السلطوي»، لم يتوقف مع غياب عمر بن عبد العزيز ، حيث ظهرت محاولات أخرى ، كانت من الجرأة ومن التأثر بالحركة الفاشلة ، وفي طليعتها حركة الوالي الأموي في خراسان ، الأشرس بن عبد الله السلمي[1]، التي كانت واضحة الاتصال بسياسة الخليفة المتنّور ، ودعوة في الصميم

---

(١) تولى الأشرس ادارة خراسان سنة ١٠٩ هـ . الطبري ج ٨ ص ١٩٥ .

الى انتشـار الاسلام وراء النهـر ، وبصورة خـاصـة في سمـرقنـد . ولكن حـاكم هـذه الأخيـرة (غـوزك)، المتحـالف مـع السلطة الأمـويـة ، والأداة المنفّـذة لهـا في استيفـاء الضرائب من جماعته الأتراك ، كان يقف حائـلاً ، شأن أقـرانه ، دون تسهيـل النجاح لمحـاولة كهـذه ، عندمـا اخطر الـوالي الأمـوي بـ «إنكسـار الخـراج»[1]. فقـد أوحى (غوزك) الى هذا الأخير ، أن الترك لم يعتنقوا الاسلام الا تخلّصاً من الجزيـة ، مما حمـل الأشرس على تجميد محاولته وصرف النظر عن الحملة التبشيرية التي كان في صـددها ، بعدما وجد نفسه في مـأزق الاختيار الصعب ، بـين رغبته في الاصـلاح وبين استعـداء الخـلافة عـلى سياستـه الماليـة ، مكتفياً بـالمقولـة المنسـوبـة اليـه : «إن في الخـراج قـوةً للمسلمين»[2] .

ومن المثير أن ترتد هذه المحاولة عليه ، وتكون مـدخلاً الى اضـطرابات طـويلة في خراسان والمناطق الواقعـة وراء نهر جيحون . فقـد ظهرت حينـذاك حركـة مناوئـة من مسحوقي مدينة بخارى ومتوسطي الحالي فيها، ضد الوالي الأموي وسياسته الضرائبيـة . ولم يكن ممثـل[3] هذا الأخـير والمكلّف بتنفيذ بـرنامجـه الذي أشـرنـا اليـه ، بعيـداً عن التعاطف معها وعن تحريكها ضد الوالي المتـراجع . ثم تـطور الأمر الى ثـورة شاملة ، امتدت من مدينة الى أخرى ، بعد فشل وسائل الاحتجاج السلمية ، متجـاوزة بذلـك الاطـار الاجتماعي لحـركة هـدفها التحـرر من أعباء الجـزية ، الى ثـورة ذات ملامـح سيـاسية تعمـل على انشـاء جبهة مـوحدة وراء نهر جيحـون ، ومن ثمّ اسقـاط النـظام الأموي في المنطقة . وعلى الـرغم من أن الأشرس نجـح بصعوبـة بالغـة في اخماد هـذه الثورة وهي في بدايتها ، الا أنه دفع الثمن باهـظاً بافتقـاده منصبه بعيـد ذلك[4]، كـما دفعت الدولة الأموية ، بسياستها الاقتصادية العقيمـة ، نصيبها الكبـير من نتائـج تلك الانتفاضة ، التي كانت المدخل الجدّي الى متغيرات مستقبلية حاسمة في المنطقة .

وما لبثت الحركة الاصلاحية ان اتخذت منحىً جديداً وطليعياً في السنوات التالية عـلى يد الحـارث بن سريـج ، التميمي الأصل والقـائد البـارز في حروب الـترك وراء

(١) الطبري ج ٨ ص ١٩٦ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) ابو الصيداء صالح بن طريف . الطبري ج ٨ ص ١٩٦ .

(٤) المصدر نفسه ج ٨ ص ٢٠٥

النهـر ، لا سيما الحملة القمعيـة الأخيرة التي استهـدفت بخارى وحلفـاءها[1] . فكـان ذلك سبباً مباشراً لأعلان ثورتـه وتحديـد موقفـه من السلطة التي كان من أركـانها وكبار قادتها ، بعد معايشة طويلة لأبرز مشكلاتها ، وإدراكٍ محسوس للثغـرات التيتهب منها رياح النقمة والتمرد . والحارث فضلاً عن ذلك ، حمل معه تراثه النضـالي ، المتجسدة فيه المعاناة والنزعة الثورية منذ وقت مبكر . فهو يلتقي حيناً مع الخوارج ، الاّ انه يجـد في أفكارهم تطرفاً لم يألفه ، ويجد بعدها في نفسه ميلاً نحو المرجئـة ، حيث نُسبت اليه مناظرات[2] حول آرائها ، أظهرته على درجة عالية من التفقه . ولعل هذه المؤثرات ، جعلت من الحـارث شخصية تميـل الى الاعتدال أكـثر من التطرف ، ممـا انعكس على سلوكه بصورة جلية في ثورته الرائدة . ومن المفيد الاشارة ، الى أن الفكـر «الإرجائي» الذي تأثر به الحارث في خراسان ، انعكست عليه الظروف السياسيـة والاجتماعيـة في هذا الأقليم ، الذي كان مصدر الأضطراب الدائم والغليـان المكبوت ، وذلـك خلافـاً للأقاليم الأخرى ، حيث عاشت المـرجئة ونحت منهجـاً توفيقيـاً إزاء القضايـا الجدليـة المطروحة في ذلك الوقت[3] . أما في خراسان ، فقد تحولت المرجئة مع الحارث ، المتأثر بـالطرح الخـوارجي الداعي الى «مقـاومة السلطان الجـائر»، الى دعـوة صريحـة للثـورة المسلحة ، ضد السياسة القمعية التي انتهجها الولاة الأمويون في هذا الأقليم .

وهكذا كانت منطلقات الثورة الاصلاحية التي تزعمهـا الحارث بن سـريج ، في اسبابها المباشرة ، ثورة على الأضـطهاد والـظلم ودعوة الى مجتمـع يحكمه العـدل وتعمّه المساواة ، دون أن تمسّ الأطار العـام للنظام السيـاسي . ومن هنا كـانت خطورة هـذه الحركة التي أقلقت الخلافة الأموية ، بعد أن رأت فيها اتجاهاً واقعياً ، لا يقارن بغيرها من الحركات الثورية ، التي عاش بعضها مرتهناً لمثـاليته والآخـر لتطرفـه ، فإذا بحـركة الحارث تخاطب حتى اولئك المحافظين ، المتمسكين بشرعية الدولة . . أية دولة! .

ولن نحاول الدخول في تفاصيل الأحداث المشحونة ، التي رافقت هذه الثورة ، خلال نيف واثنتي عشر عاماً (١١٦ ـ ١٢٨ هـ)[4] . فما يهمنا هو التوقف عند ظاهـرتين

(١) الطبري ج ٨ ص ١٩٨ .
(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ٢٢٣ . فلهوزن ، الدولة العربية ص ٤٤١ .
(٣) البغدادي ، الفرق بين الفرق ص ٥٥ .
(٤) كانت ثورة الحـارث في مضمونها، ثـورة على الاضـطهاد ، مجسـدة أبرز شعـاراتها في تحقيق =

اثنتين لعلهما ابرز سماتها : الأولى ، انها بدأت عربية القيادة والجماهير ، قبل أن تتوسع كحركة اصلاحية شاملة وتستقطب مختلف المضطهدين من العرب والترك والفرس ، حيث كانت المطالبة بانصافهم ورفع الظلم عنهم ، المحرّك المباشر للثورة ، والثانية ، أنها كانت «ديموقراطية» النزعة ، حريصةً على المشاركة الجماعية ومعالجة القضايا المطروحة مع السلطة ، ومن ثمّ الحوار معها ، كلما سنحت ظروف الاتصال بين الطرفين[1].

وعلى الرغم من فشل الولاة الأمويين حيناً ، في القضاء على ثورة الحارث التي عاشت في وجدان الفقراء والمسحوقين وراء نهر جيحون ، الا أنها في الوقت نفسه لم تتجاوز الى دائرة أوسع من الاستقطاب الشعبي ، والى تكتّل عربي أكثر فاعلية ، حيث كان ذلك من أبرز نقاط الضعف فيها ، وأدى بالتالي الى اتهامها بالفئوية القبلية ، وبأنها مجرد تجمع مضري بقيادة الحارث التميمي النسب . ولكن هذه الثورة ظلت الرائدة في التيار الاصلاحي ، الذي ارتبط بالقيادات الأموية ، قبل انعطافه الى المطالبة بحقوق الفئات المسحوقة وإعطاء شعار المساواة مضمونه الحقيقي في الفكر والممارسة .

وإذا كان الزعماء القبليون المتصارعون ، من الأزديين والقيسيين ، قد مثّلوا حينذاك الاتجاه العربي ـ القبلي[2]، فإن ثورة الحارث بن سريج ، مثّلت بدون شك ،

= المساواة الاجتماعية والعودة الى «الكتاب والسنة والبيعة للرضى». ولقد تحالف قائدها في العام ١١٨ هـ مع خاقان الترك ، إثر تحولات عسكرية لم تكن في مصلحته واضطراره للتراجع الى طخارستان (وراء النهر). وفي اثناء ولاية عاصم بن عبد الله على خراسان ، جرت مفاوضات بينه وبين الأخير ، بغية الوصول الى اتفاق بين الطرفين . ولكن تغيير الوالي ومجيء أسد بن عبد الله القسري في قوات جديدة ، كان وراء التطورات التي انتهت لتحالف الثورة مع الترك . وعلى الرغم من تدعيم موقعه العسكري في وقت لاحق وهزيمته للوالي الأموي الذي خلف أسد بن عبد الله (نصر بن سيار) وطرده من (مرو) ، فان هذه الثورة انتهت الى الفشل ، وذلك بعد موت قائدها ، في وقت كانت الدولة الأموية على وشك النهاية ايضاً . راجع الطبري ج ٨ ص ٢١٩. ابراهيم بيضون ، الدولة الأموية والمعارضة ص ٢٥ ـ ٢٨ .

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٢١

(٢) راجع عهد الاضطراب القبلي في خراسان والصراع الضاري بين القيسيين واليمنيين ، الذى بلغ ذروته في السنوات الأخيرة من عمر الدولة الأموية . فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ص ١٦٢ ـ ١٦٤ .

الاتجاه الاسلامي ، الذي امتد بجذوره في عمق الأرض الخراسانية ، وانصهرت فيه العصبيات والشعوبيات ، مستهدفاً تحقيق وجوده السياسي وأفكاره الاصلاحية عن طريق الثورة . ومن هذا المنظور ، سيكون لحركة الحارث ، على الرغم من فشلها في تحقيق السلطة العادلة ، اسهام كبير في بلورة هذا الأتجاه ، الذي وقع عليه عبء التغيير بعد بضعة اعوام ، حيث اتخذ مسرحه المركزي في خراسان ، تلك الأرضية المتشبعة بالفكر الاصلاحي المتطور ، الذي زرع الحارث أول بذوره المثمرة .

وهكذا فإن الثورة العباسية ، التي كانت المستفيدة الكبرى من الصراعات القبلية في هذه البؤرة الفريدة ، كانت مرتكزة في المقام الأول الى الاتجاه الاسلامي الصاعد الذي تجاوز المسألة العصبية برمتها . ومن هذا المنطلق يسقط المنطق الانتمائي للنقباء[1] ـ زعماء الحركة العباسية ومنظّريها ، ـ عرباً كانوا أم فرساً ـ الذين استلهموا تجربة الحارث ، ويصبح خارج دائرة النقاش أو الاهتمام . فإذا كانت أكثرية هؤلاء من العرب ، فإن جنود ثورتها ومادتها العسكرية كانت في غالبيتها الساحقة من الفرس . وفي مقدمة ما يعني ذلك ، هو اختفاء الحساسيات القومية بين الطرفين ، واندراجهم معاً في البوتقة الخراسانية،دون ان يكون ثمة منتصر فارسي او مهزوم عربي أو بالعكس ، بل كان هنالك منتصر وحيد هو الاسلام والقيم الجديدة ، التي رهصت بها الدعوة ، في مراحلها التكوينية الأولى ، وذلك قبل أن تسقط شعاراتها في الفراغ وتصبح البديل الأسوأ للنظام الذي ثارت عليه ، بعيد انتقالها من مرحلة الدعوة الى مرحلة الدولة .

---

(١) كان عددهم اثني عشر نقيباً من مرو عاصمة خراسان وهم : ابو عبد الحميد فحطبة بن شبيب الطائي من بني نبهان ، أبو النجم عمران بن اسماعيل مولى آل أبي معيط ، أبو محمد سليمان ابن كثير الخزاعي ، ، أبو نصر مالك بن الهيثم الخزاعي ، ابو منصور طلحة بن زريق مولى طلحة الطلحات ، أبو الحكم عيسى بن أعين مولى بريدة خصيب الأسلمي ، أبو حمزة عمرو بن أعين ، جعل مكان العلاء بن الحريث ، أبو داود خالد بن ابراهيم الربعي ، أبو علي شبل بن طهمان مولى بني اسد ، ويقال مولى الأزد ، او عُينية موسى بن كعب التميمي من بني امرىء القيس بن زيد مناه ، ابو جعفر لاهز بن قريظ التميمي من بني امرىء القيس ، أبو سهل بن مجاشع من بني امرىء القيس جُعل مكان بُكير بن العباس حين عمي بكير . اخبار الدولة العباسية لمؤلف مجهول . تحقيق عبد العزيز الدوري ، عبد الجبار المطلبي ص ٢١٦ ـ ٢١٧ .

خاتمة

تحاول هذه الدراسة ، ملامسة الاتجاهات السياسية في الدولة الاسلامية بعيد وفاة النبي ، حيث كانت بداياتها الخجولة في «السقيفة» مع ظهور أول تجمّع اسلامي بزعامة «الأنصار» . فقد شعر هؤلاء بأن مشاركتهم الفاعلة في «دولة النبي»، قد لا تكون كذلك في «دولة الخلافة» التي حظيت أو كادت بالاجماع القرشي ، لمصلحة المسلمين الروّاد من «المهاجرين». على أن «الأنصار» لم يحققوا ، لاسباب عديدة ، اتجاهاً سياسياً مستقلاً ، على الرغم من وضوح موقفهم ، المناهض عملياً للسلطة ، التي أخذت تميل لمصلحة الاسرة الأموية ، منذ تولي عثمان للخلافة ، وبلوغ هذا الموقف ذروته من العداء في ثورة «المدينة» على خلافة يزيد (الحرّة). فقد اثبت المهاجرون أنهم القوة المعنوية والمادية المتفوقة في الدولة الصاعدة ، دون إغفال ما كان لموقعهم «التجاري» القديم ـ المرتبط بالنفوذ والزعامة في الحجاز ـ فضلاً عن موقعهم «الاسلامي» الريادي ، من تأثير على المعادلة المستجدة والقدرة على إمساكها باحكام شديد .

وكان من البديهي أن يتعاطف «الأنصار» مع الاتجاه غير المنتصر في السقيفة ، الذي تزعمه عليّ بصورة طبيعية . فهو على الرغم من انتمائه لمجموعة «المهاجرين» التي حسمت « قرشية » الخلافة ، فقد بدا واضحاً ان ثمة اتجاهاً يقوده عليّ ويلتزم بالدفاع عنه ، وهو الاتجاه الاسلامي ، الذي كان من أبرز تطلعاته ، استمرار الصيغة ـ النموذج ، التي حققها النبي في « المدينة » والمحافظة على موروثها السياسي

والاجتماعي ، المتجسّد في « المؤاخاة » والمساواة والعدالة ، وشتى القيم التي ظهرت في السنوات العشر الاولى من القرن .

لقد شدت المعاناة المشتركة «الأنصار» الى عليّ ، انطلاقاً من هذا الموقع وعبر هذا الالتزام ، مشكلين معاً النواة الكبرى «الشعبية» للاتجاه الاسلامي ، الذي أخذ ينتشر مع تطور الدولة واتساعها ، وما انطوى عليه ذلك من مشاكل وعقد وتناقضات ، لم يكن التصدّي لها على جانب من السهولة . وإذا كان الاتجاه الذي كسب معركة الخلافة في السقيفة ، قد حقق ذلك من خلال مبادرته السريعة ، واختراقه «الوسطي» للاتجاهات والكتل الأخرى ، فإن ذلك لم يعد قائماً بعد نحو سنوات قليلة فقط، حيث أسقط هذه المعادلة عنصران اثنان : الأول، غياب الروّاد[1] الذين عكسوا وهجهم على هذا الاتجاه ، وكانوا مصدر قوته ، إن لم نقل مصدر وجوده ، والآخر إعادة الاتجاه القبلي المهزوم ، تكوين نفسه مجدداً وبروزه قوياً في اعقاب اغتيال عمر بن الخطاب واختيار خليفة له ، مما أدّى الى ذلك الفرز السياسي الواضح ، الذي كان الأخير (عمر) والاتجاه الوسطي من ضحاياه الكبار .

وهكذا فإن الاتجاه القبلي ، تظاهر بالهزيمة دون الاعتراف فعلياً بها ، خاصة وأن سقوط مكة (٨ هـ) تمّ بصورة غير قهرية ، وفي ظلّ شيء من إعادة الاعتبار للبيت الأموي وحلفائه ، الذين قادوا حرب التصدّي لدعوة الاسلام ودولته . ولعل السنوات العشر الأولى من قيام خلافة الراشدين ، كانت فترة ترقّب لزعماء هذا الاتجاه ، حيث سقطت رموزهم فقط (ابو سفيان، ابو جهل ، عتبة بن ربيعة)، في الوقت الذي أتيح للجيل الثاني منهم ، الدخول مبكراً الى قلب الأحداث ، وشغل ادوار هامة ، على المستوى العسكري (يزيد بن أبي سفيان)، أو الاداري (معاوية). وليس ثمة شك أن ارتباط الأخير بالولاية الشامية واتخاذه موقفاً شبه مستقل فيها ، حتى في أوج المركزية الراشدية ، قد عزّز من موقعه السياسي واعطاه حجماً خاصاً الادارة الراشدية . فما لبث الشام أن تحوّلت الى معقل عسكري وشهدت بدايات تكوين الاسطول العربي الاسلامي ، وذلك تحت مظلة التصدي للخطر البيزنطي المستهدف هذه الولاية ،

---

(١) ابو بكر ، عمر، ابو عبيدة بن الجراح ، معاذ بن جبل . .

الذي تبيّن أنه لم يكن الهاجس الحقيقي للقائمين عليها ، بعد أن كشفت التطورات ما يطمح اليه والي الشام من هذه القوة العسكرية الصاعدة .

ولم يكن عثمان، وهو من جيل الأوائل في الاسلام ، يمثّل مطلقاً الاتجاه القبلي التقليدي ، الذي دأب على استعادة نفوذه واتخاذ دور قيادي في المتغيرات الجديدة ، التي كاد يدفع ثمنها الباهظ ، لولا المرونة الحاذقة التي أظهرها زعماؤه في ذلك الحين . أما الممثل الحقيقي ، فلم يكن في دائرة الضوء تماماً ، حيث كان يعمل بهدوء وحذر ، مخططاً لما بعد مرحلة الخليفة الضعيف والمسّن ، ومستفيداً ما أمكن من تلك الظروف غير العفوية .

وهكذا كان لدى معاوية الموقع السياسي (زعامة الاتجاه القبلي) والمادة المقاتلة (قبائل الشام) والتعبئة النفسية (مقتل عثمان) ، فضلاً عن المسوغ « الشرعي » (ولاية الدم) الخ . . من أجل تفجير أزمة سياسية في مستوى الخلافة ، دون التورّع عن استخدام مختلف الوسائل لتحقيق اهدافه .

وكان مقتل عثمان في اعقاب انتفاضة مسلحة ، المنعطف الأكثر خطورة في التاريخ الاسلامي ، ذلك الذي بدأت ملامحه في اغتيال عمر بن الخطاب ، الذي جاء اغتيالاً في الوقت نفسه لمشروعه السياسي المتكامل . فقد كان من نتائجه البارزة تهميش الحجاز ، بعد أن فقد دوره المؤثر مع انتشار العرب المسلمين في اطار حركة الفتوح . ومعنى ذلك أن الصراع على الحكم ، قد انتقل الى الأمصار (الجمل وصفين)، حين خاض عليّ الحرب بالقبائل العراقية ، بينما خاضها معاوية بالقبائل الشامية .

ومن المفارقات اللافتة، أن يكون العراق ، وتحديداً الكوفة ـ على الرغم من انتصار الأمويين السياسي وإعلانهم الخلافة في الشام ـ البداية والنهاية معاً للدولة الأموية ، عبر فرعيها السفياني والمرواني ، فقد بدأت الأولى (السفيانية) مع صلح الحسن وانتهت في اعقاب كربلاء ، بينما تكرّست الثانية (المروانية) عملياً ، بعد القضاء على مصعب بن الزبير ، وانتهت بقرار إسقاطها الذي أعلنه ابو سلمة الخلّال في مسجد الكوفة . ولعل أبرز ما تنطوي عليه هذه المفارقة ، هو أن المعارضة الدؤوبة التي قادتها الحركة الشيعية في هذه المدينة ، كانت الهاجس اليومي للخلفاء الأمويين ،

الذين لم يجدوا سوى القوة سبيلاً للدفاع عن نظامهم ، الذي استمد «شرعيته» من السيف ، ولم يجدوا غيره سبيلاً للمحافظة عليه . وكان من الطبيعي ان يتلقى العراق ، اقسى الضربات في هذه المواجهة الطويلة والحادة ، بين الأمويين والمعارضة ، سواءً كانت شيعية أم زبيرية أم خوارجية .

وإذا ما انتقلنا الى «الفتوح» الأموية ، سنجد أمامنا ـ على الرغم من الانبهار ببعض من منجزاتها (الأندلس على سبيل المثال) ـ اعمالاً توسعية ، أكثر ما توخى السيطرة والفخامة وشتى المظاهر «الأمبراطورية»، وكل ما رافق هذا الامتداد الأفقي للفتوحات الأموية ، المصحوبة بضمور الدور الاسلامي الى حدٍّ كبير .

وكان الخليفة الوحيد الذي تصدى لهذه المسألة الهامة ، هو عمر بن عبد العزيز ، الذي وعى جسامة الأخطار المهدِّدة للنظام الأموي . فكانت محاولته الاصلاحية ، بمثابة إنذار من الداخل لتقويم المسيرة المتعثرة . فمن الوقوف بجرأة في وجه السياسة التوسعية ، الى معالجة مشكلة الأرض ورفع الضرائب غير المشروعة ، كان عمر بن عبد العزيز ، يدفع بالنظام الى مفترق جديد ، في ظل مفهوم آخر للسلطة ، أكثر تأثّراً بالمفهوم الراشدي ، على الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ولكن هذه المحاولة ، التي كانت ثورة من داخل النظام ، بغية تقويم مساره وتعزيز مواقعه ، لم تلق الترحيب لدى البيت الأموي ، الذي يبدو أنه تآمر عليها وحال دون بلوغها الهدف المرتقب . فلعلها ليست مصادفة أن يغيب صاحبها فجأة ، وفي ظلّ ظروف لم تكن خالية من الأرتياب ، وليست مصادفة كذلك ، أن يأتي الى الخلافة نقيض للسلف ، فكراً ونهجاً وسلوكاً ، وهو يزيد بن عبد الملك ، الذي شهد عهده بداية ظهور مراكز النفوذ الفعلية ، سواءً على الصعيد العائلي (مسلمة بن عبد الملك) أو القبلي (بنو ثقيف في العراق)، أخذت تستقوي على الخلافة وتزيد في عزلتها الشعبية ، التي بلغت حدّاً كبيراً خارج النطاق الشامي . ذلك أن توقف الحركة التوسعية ، دون إشغال الجنود والقبائل المعارضة بمشاريع إنتاجية ، في الوقت الذي ساءت أحوالها الاقتصادية الى حَدٍ كبير ، أدّى الى انفجار الوضع السياسي على مختلف الجبهات ، خلال ربع القرن الأخير من تاريخ هذه الدولة .

ولعل ما هو جدير بالانتباه ، أن الحركات الثورية التي شهدتها تلك الفترة ، غلب عليها الطابع الاجتماعي ، واتخذت الفئات غير العربية (الموالي والبربر) دوراً بارزاً فيها ، في الوقت الذي ارتفعت فيه حدّة القمع لدى الحكم الأموي ، والإمعان في ذلك التجاهل لحقوق هذه الفئات السياسية والاجتماعية .

لقد نجح الخلفاء الأمويون في ضرب العراق ـ بؤرة المعارضة الأولى ـ ولكن دون النجاح في إنهاء دوره السياسي الذي بلغ امتداده الفكري والثوري حتى خراسان في المشرق . فالشعور العدائي ضد الموالي ، وازدياد عمليات القمع التي تجلّت في عهد الحجّاج ، دون أن تتوقف في عهد خليفته الثقفي الآخر (يوسف بن عمر) . كل ذلك ادّى الى تفريغ العراق من الجزء الأكبر من سكانه الموالي ، الذين هربوا من الاضطهاد الى المناطق الشرقية البعيدة . وكانت خراسان ، انطلاقاً من تكوينها السكاني والجغرافي ، مؤهلةً للقيام بدورها التاريخي ، الذي لم يولد فجأة أو يتمّ بالمصادفة ، ولكن نواته كانت تلك الحركة الاصلاحية الفذّة ، التي قادها الحارث بن سريج التميمي ، والتي كانت رائدة ، ليس فقط في طرحها الثوري المتطور ، ولكن في التشكيل النموذجي لقاعدتها الشعبية ، التي ضمّت العرب والفرس والترك ، في ظّل شعار المساواة . . ذلك الموروث الذي استلهمه روّاد الحركة العباسية الأوائل .

المصادر والمراجع

مصادر :

القرآن الكريم .

ابن الاثير ، عز الدين ابو الحسن علي ت ٦٣٠ هـ .

ـ اسد الغابة في معرفة الصحابة (٤ ج) القاهرة ١٢٨٥ هـ .

ـ الكامل في التاريخ (١٣ ج) ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٩ .

ابن اسحاق ، محمد بن المطلبي . ت ١٥١ هـ .

ـ كتاب السيرة والمغازي . تحقيق سهيل زكار . دار الفكر بيروت ١٩٧٨ .

ابن اعثم الكوفي ، ابو محمد أحمد . ت ٣١٩ هـ .

ـ كتاب الفتوح . مخطوطة اسطنبول رقم ٢٩٥٦ .

ابن تغري بردي ، جمال الدين ابو المحاسن الأتابكي ت ٨٧٤ هـ .

ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٦ ج). وزارة الثقافة . القاهرة د . ت .

ابن الجوزي ، ت ٥٩٧هـ .

ـ تاريخ عمر بن الخطاب. تحقيق حسن الهادي حسين . طبعة القاهرة د . ت .

ابن حبيب ، أبو جعفر محمد بن حبيب الهاشمي البغدادي . ت ٢٤٥ هـ .

ـ كتـاب المعبّر . تصحيـح ايلزه ليختن شتيتر . دار الآفـاق الجديـدة . بيروت . د . ت .

ابن حمدون ، محمّد بن الحسن بن محمد بن علي . ت ٥٦٢ هـ .

ـ التذكرة الحمدونية . تحقيق احسان عباس . معهد الانماء العربي بيروت ١٩٨٣ .

ابن حوقل ، ابو القاسم محمد النصيبي ت ٣٧٦ هـ .

ـ كتاب صورة الأرض . طبعة بيروت ١٩٦٣ .

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون المغربي ، ت ٨٠٨ هـ .

ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (٧ ج) دار الكتاب اللبناني ١٩٧٩ .

ابن خياط ، خليفة بن خياط العصفري ت ٢٤٠ هـ .

ـ تاريخ خليفة بن خياط (٢ ج) . تحقيق سهيل زكّار . دمشق ١٩٦٨ .

ابن رجب ، ابو الفرج عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي ت ٧٩٥ هـ .

ـ الاستخراج في احكام الخراج . تحقيق عبد الله الصديق . بيروت د . ت .

ابن سعد ، ابو عبد الله محمد بن سعد البصري الزهري . ت ٢٣٠ هـ .
ـ الطبقات الكبرى (٩ ج) . دار صادر . بيروت د. ت .

ـ غزوات الرسول وسراياه دار بيروت ١٩٨١ .

ابن سيد الناس ، فتح الدين أبو الفتح ابن سيد الناس الشافعي الاشبيلي ت ٦٧١ هـ .

ـ عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير البابي الحلبي ـ القاهرة

ابن طباطبا ، محمد بن علي المعروف بابن الطقطقى ، ت ٧٠٩ هـ .

ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية . بيروت ١٩٦٦ .

ابن طولون ، شمس الدين محمد . ت ١٠٤٦ هـ .

ـ قيد الشريد من أخبار يزيد مخطوطة جامعة الدول العربية رقم ٧٥٨ .

ابن عبد البر ، ابو عمر يوسف ٤٦٣ هـ .

ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب . تحقيق علي البجاوي . مطبعة نهضة مصر . د. ت .

ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبد الله القرشي ت ٢١٤ هـ .

ـ سيرة عمر بن عبد العزيز ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٧ .

ـ فتوح مصر وأخبارها ـ ليدن ١٩٢٠ .

ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي ، ت ٣٢٨ هـ .

ـ العقد الفريد (٨ ج) تحقيق محمد سعيد العريان . المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة ١٩٥٣ .

ابن عذاري ، ابو عبد الله محمد المراكشي . ت . في مطلع القرن الثامن الهجري .

ـ البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب (٤ ج) تحقيق ومراجعة : ج . س كولان ـ ليفي بروفنسال ، دار الثقافة . بيروت . د . ت .

ابن عساكر ، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله عبد الله الشافعي . ت ٥٧١ هـ .

ـ تاريخ مدينة دمشق (٧ ج) تحقيق شكري فيصل مع آخرين.مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق . د . ت .

ابن قتيبة ، ابو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري . ت ٢٧٦ هـ .

الامامة والسياسة (يُنسب له) (٢ . ج) المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة . د . ت .

ابن كثير ، ابو الفداء الحافظ . ت ٧٧٤ .

ـ البداية والنهاية (١٣ ج). مكتبة المعارف . بيروت ١٩٦٦ .

ابن الكلبي ، هشام بن محمد ت ٢٠٤ هـ .

- جمهرة النسب . تحقيق عبد الستار فراج ، الكويت ١٩٨٣ .

ابن منظور ، ابو الفضل محمد بن مكرم الأفريقي المصري ت ٧١١ هـ .

- لسان العرب (١٥ ج) . دار صادر ، بيروت ، د . ت .

ابو عبيد ، القاسم بن سلام ، ت ٢٢٣ هـ .

- كتاب الأموال . تحقيق محمد خليل هراس . مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ١٩٦٢ .

ابو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم . ت . ١٨٢ هـ .

- كتاب الخراج . المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٩٦ هـ .

الأزدي ، محمد بن عبد الله الأزدي البصري ت نحو ١٦٥ هـ

- تاريخ فتوح الشام . تحقيق عبد المنعم عامر . القاهرة . د . ت .

الاصفهاني ، علي بن الحسن أبو الفرج . ت ٣٥٦ هـ .

- مقاتل الطالبيين . النجف ١٣٨٥ هـ .

البغدادي ، عبد القاهر بن طاهر . ت ٤٢٩ هـ .

- الفرق بين الفرق ، دار الآفاق الجديدة . بيروت ١٩٨٠ .

البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي ت ٢٧٩ هـ .

- انساب الأشراف . تحقيق احسان عباس . بيروت ١٩٧٩ .
- انساب الأشراف تحقيق محمد باقر المحمودي ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ١٩٧٤ .
- انساب الأشراف . تحقيق محمد حميد الله . دار المعارف بمصر ١٩٥٩ .
- فتوح البلدان ، تحقيق محمد رضوان . المكتبة التجارية الكبرى ، د . ت .

الجهشياري ، ابو عبد الله محمد بن عبدوس ت ٣٣٠ هـ .

- كتاب الوزراء والكتاب . تحقيق : مصطفى السقا ، ابراهيم الابياري ، عبد الحفيظ

الشلبي . القاهرة ١٩٣٨ .

الحميري ، محمد بن عبد المنعم ، ت . في النصف الثاني من القرن التاسع .

- كتاب الروض المعطار في خبر الأخطار . تحقيق احسان عباس . مؤسسة ناصر للثقافة . بيروت ١٩٧٥ .

الدينوري ، ابو حنيفة ت ٢٨١ هـ .

- الأخبار الطوال . تحقيق عبد المنعم عامر . القاهرة ١٩٦٠ .

الزبير بن بكار ، ت ٢٥٦ هـ .

- الأخبار الموفقيات . تحقيق سامي العاني . مكتبة العاني بغداد ، د . ت

سيف بن عمر ، ابن عمر الضبي الأسدي ، ت ٢٠٠ هـ .

- الفتنة ووقعة الجمل . جمع وتصنيف أحمد راتب عرموش دار النفائس . بيروت ١٩٧٢ .

السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر . ت ٩١١ هـ .

- تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٩٦٩ .

- كتاب الاتقان في علوم القرآن . القاهرة ١٩٤١ .

الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ .

- تاريخ الأمم والملوك (١٣ ج) . مكتبة خياط بيروت د. ت .

الغلابي ، محمد بن زكريا بن دينار البصري ت ٢٩٨ هـ .

- وقعة الجمل ، تحقيق محمد حسن آل ياسين . مطبعة المعارف . بغداد ١٩٧٠ .

الفاسي ، ابو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد المكّي ت ٨٣٢ هـ .

- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام . تحقيق لجنة من كبار العلماء والأدباء . مكتبة النهضة الحديثة . مكة .

القلقشندي ، ابو العباس أحمد بن علي . ت ٨٢١ هـ .

- صبح الأعشى في صناعة الانشا (١٤ ج) المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩١٩ .

الماوردي ، ابو الحسن علي بن محمد . ت ٤٥٠ هـ .

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية . المطبعة المحمودية القاهرة د. ت

- قوانين الوزارة وسياسة الملك . تحقيق رضوان السيد، دار الطليعة . بيروت ١٩٧٩ .

المبرّد ، ابو العباس محمد بن يزيد ت ٢٨٥ هـ .

- الكامل في اللغة والأدب (٢ ج). مكتبة المعارف ، بيروت د. ت .

المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسن ت ٣٤٦ هـ .

- مروج الذهب ومعادن الجوهر (٤ ج) . تحقيق يوسف اسعد داغر . دار الأندلس بيروت ١٩٧٣ .

المنقري ، نصر بن مزاحم ت ٢١٢ هـ .

- وقعة صفين . تحقيق عبد السلام هارون . طبعة ايران ١٣٨٢ هـ .

المقريزي ، تقي الدين ابو العباس أحمد بن علي . ت ٨٤٥ هـ .

- النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم . القاهرة ١٩٣٧ .

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . بولاق ١٢٧٠ هـ .

مؤلف مجهول :

- أخبار الدولة العباسية . تحقيق عبد العزيز الدوري ، بيروت ١٩٧٠ .

الواقدي ، محمد بن عمر بن واقد. ت ٢٠٧ هـ .

- كتاب المغازي ، تحقيق مارسون جونس (٣ ج). عالم الكتب، بيروت . د . ت .

ياقوت الحموي ، شهاب الدين بن عبد الله الرومي . ت ٦٢٦ هـ .

- معجم البلدان (٥ ج) دار صادر بيروت ١٩٥٧ .

اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب ت ٢٨٤ هـ .

ـ تاريخ اليعقوبي (٢ ج) . دار صادر بيروت ١٩٦٠ .

مراجع عربية :

الأمين ، حسن :

ـ دائرة المعارف الاسلامية الشيعية . بيروت ١٩٧١

بخيت ، عبد الحميد :

ـ عصر الراشدين . مكتبة الأنجلو ـ المصرية ١٩٦٩ .

بيضون ، ابراهيم :

ـ التوّابون . دار التعارف ١٩٧٨ .

ـ الحجاز والدولة الاسلامية . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر . بيروت ١٩٨٣ .

ـ الدولة الأموية والمعارضة ، مدخل الى كتاب السيطرة العربية للمستشرق الهولندي فان فلوتن ، دار الحداثة ١٩٨٠ .

ـ الدولة العربية في اسبانيا ، دار النهضة العربية . بيروت ١٩٧٨ .

حسن ، ناجي :

ـ ثورة زيد بن علي . مكتبة النهضة ـ بغداد . د. ت .

حسين ، طه :

ـ عليّ وبنوه . القاهرة ١٩٥٣ .

الحصني ، محمد اديب آل تقي الدين

ـ كتاب منتخبات التواريخ لدمشق . دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٧٩ .

الخربوطلي ، علي حسني :

ـ تاريخ العراق في العصر الأموي . القاهرة ١٩٥٩ .

خالد ، خالد محمد

ـ ابناء الرسول في كربلاء القاهرة ١٩٦٨ .

خليل ، عماد الدين

ـ ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز. الدار العلمية . بيروت ١٩٧١ .

دكسن ، عبد الأمير

ـ الخلافة الأموية . دار النهضة العربية . بيروت ١٩٧٩ .

الراوي ، ثابت

ـ العراق في العصر الأموي . مطبعة الارشاد . بغداد ١٩٧٠ .

رستم ، أسد

ـ الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وعلاقتهم بالعرب . بيروت ١٩٥٦ .

الرفاعي ، أحمد فريد

ـ عصر المأمون . مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٢٧ .

الريّس ، ضياء الدين

ـ الخراج في الدولة الاسلامية حتى منتصف القرن الثاني الهجري . مكتبة نهضة مصر ١٩٧٧ .

ـ عبد الملك بن مروان ، موحد الدولة العربية . سلسلة اعلام العرب . القاهرة ١٩٦٢ .

سالم ، عبد العزيز

ـ تاريخ الدولة العربية . دار النهضة العربية ١٩٧١ .

سرور ، محمد جمال الدين

ـ الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة . دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٦٦ .

سيد الأهل ، عبد العزيز

ـ الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٦٩ .

صالح ، أحمد عباس

ـ اليمين واليسار في الاسلام ، المؤسسة العربية للدراسات . بيروت ١٩٨٠ .

شعبان ، محمد عبد الحي
ـ تاريخ صدر الاسلام والدولة الأموية . الأهلية للنشر . بيروت ١٩٨٣ .

صبحي ، أحمد
ـ نظرية الامامة عند الشيعة الأثني عشرية ، دار المعارف ـ القاهرة .

عاقل ، نبيه
ـ تاريخ خلفاء بني امية ، دمشق ١٩٧٢ .

عاشور ، سعيد عبد الفتاح
ـ اوروبا في العصور الوسطى . القاهرة ١٩٦٤ .

عبادي ، عبد الحميد
ـ المجمل في تاريخ الأندلس . القاهرة ١٩٦٤ .

عبادي ، أحمد مختار
ـ في التاريخ العباسي والأندلسي القاهرة ١٩٧١ .

عبادي ، (أحمد مختار) ـ سالم (عبد العزيز) :
ـ تاريخ البحرية الاسلامية . منشورات جامعة بيروت العربية ١٩٧٢ .

العدوي ، ابراهيم
ـ الأمويون والبيزنطيون . الدار القومية ، القاهرة .

العزيز ، حسين قاسم
ـ البابكية أو انتفاضة الشعب الأذربيجاني ضد الخلافة العباسية . دار الفارابي . بيروت .

عمارة ، محمد
ـ مسلمون ثوار . المؤسسة العربية ـ بيروت .

عمر ، فاروق
ـطبيعة الدعوة العباسية . دار الارشاد ـ بيروت ١٩٧٠ .

فرج ، محمد
ـ الفتح العربي للعراق وفارس . دار الفكر العربي . القاهرة ١٩٦٩ .

فيصل ، شكري

ـ حركة الفتح الاسلامي في القرنالأول ـدار العلم للملايين . بيروت ١٩٥٢ .

قدورة ، زاهية

ـ الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الاسلامية في العصر العباسي الأول . دار الكتاب اللبناني ١٩٧٢ .

ماجد ، عبد المنعم

ـ التاريخ السياسي للدولة العربية . القاهرة ١٩٦٠ .

لواساني ، أحمد

ـ الاشكانيون . مُسْتَلّة من دائرة المعارف للبستاني . بيروت ١٩٨٢ .

مؤنس ، حسين

ـ فجر الاندلس . القاهرة ١٩٥٩ .

ـ فتح العرب للمغرب . القاهرة ١٩٤٧ .

ـ المقرم ، عبد الرزاق .

ـ زيد الشهيد . النجف ١٣٧٢ هـ .

مراجع مترجمة

بلييايف :

ـ العرب والاسلام والخلافة العربية .
ترجمة انيس فريحة ـ مراجعة محمود زايد الدار العالمية بيروت ١٩٧٣
إلى كتاب بلييايف .

بينر ، نورمان

ـ الأمبراطورية البيزنطية ، تاريخها وحضارتها وعلاقتها بالاسلام ترجمة حسين مؤنس ـ محمود زايد . القاهرة ١٩٥٧ .

باركر ، ارنست

ـ الحروب الصليبية . ترجمة . السيد الباز العريني . دار النهضة العربية بيروت ١٩٦٧ .

بتلر :

ـ فتح العرب لمصر ترجمة محمد فريد أبو حديد . القاهرة ١٩٦٦ .

حسيني ، مولوي
ـ الادارة العربية ترجمة ابراهيم العدوي مراجعة عبد العزيز عبد الحق . القاهرة د . ت
دوزي . رينهارت
ـ تاريخ مسلمي اسبانيا . ترجمة حسن حبشي . القاهرة ١٩٦٣ .
سيديو : ل . أ
ـ تاريخ العرب العام ترجمة عادل زعيتر الطبعة الثانية ١٩٥٦ .
علي ، أمير :
ـ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ترجمة رياض رأفت ، القاهرة ١٩٣٨ .
فلهوزن ، يوليوس :
ـ الدولة العربية وسقوطها . ترجمة عبد الهادي ابو ريدة . مراجعة حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٨ ٧
الخوارج والشيعة ترجمة عبد الرحمن بدوي . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٨ .
كاهن ، كلود :
ـ تاريخ العرب والشعوب الاسلامية . ترجمة بدر الدين القاسم . دار الحقيقة . بيروت ١٩٧٢ .
لاندو ، روم :
ـ الاسلام والعرب ، ترجمة منير بعلبكي ، دار العلم للملايين . بيروت ١٩٦٢ .
لويس ، ارشيبالد :
ـ القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط . ترجمة أحمد عيسى . مراجعة وتقديم محمد شقيق غربال . مكتبة الانجلو ـ المصرية ١٩٦٠ .
لويس ، برنارد :
ـ اصول الاسماعيلية . ترجمة خليل أحمد الرجب ، جاسم الرجب القاهرة ١٩٤٧ .
نولدكه :
ـ امراء غسان . انيس فريحة ـ قسطنطين زريق . بيروت ١٩٣٩ .

وات ، مونتغمري :
ـ الفكر السياسي في الاسلام . ترجمة صبحي حديدي دار الحداثة ١٩٨١ .

ويد جيري :
ـ المذاهب الكبرى في التاريخ .ترجمة ذوقان قرقوط . دار القلم . بيروت ١٩٧٢ .

مراجع اجنبية :

Beydoun I :
- La Révolte d'ibn Al- Ach' ath. Element d'analyse de l'irredentisme iraquien sous les Omayyades. Grénoble. 1971- M. S.

Cheira, A :
- La lutte en Arabes et Byzantins Alexandrie 1947.

Choufani, E
- Al - Riddah and the conquest of Arabia. University of taronto Press. 1972.

Caetani :
- Studi di storia orientale. Milano 1911.

Dozy, R :
- Histoire de Musulman d'Espagne. Lyde 1932.

Donner, F. M :
- The Bakr B. Wa'il and Polities in north eastern. Arabia on the Eve of Islam. Studia. islamica, fase t 39 P. Paris. S. D.

Gabrielli, F :
- Les Arabes. Paris 1963.

Goldziher. I :
- Le dogme et la loi de Li'Islam Traduction de Febix Arin, Paris 1920.

Kister, M. J :
- Studies in Jahibi yya, and Early islam E. d. Variorum. London. 1980.

Lambard. M :
- L'Islam dans sa Premiere grandeur. Paris 1971

Lammens. H :
- L'Arabie Occidentale avant L'Hégire. Beyrouth 1928.
- Etudes sur le règne du califa Omayyde Ma' awiya Ler, Beyrouth 1908.

Etudes sur le siècle des Omayyades. imp. cath. Beyrouth 1930
- Etudes sur le califat de Yazid 1er. imp. cath. Bey. 1921.
- La République marchande de la Mécque vers l'an 600 de notre ère. Bulletin de l'institut Egyptien. Tome IV, Alexandrie, 1910.
- La Syrie, Précis Historique. Bey. 1921.

Levi - Provençal :
- Histoire de l'Espagne musulmane. Paris 1950

O' leary. D :
- Arabia Before Muhammad. London 1927.

Perier, J :
- Vie d'al - Hadjdjadj ibn Yousof. Paris 1904.

Roux. J. P :
- L'Islam au proche orient. Paris 1960.

Sanhoury, A :
- Le Califat. Paris. 1926.

Van Vloten. G :
- Recherches, sur la domination arabe, le chiitisme et les croyances messianiques sous le Khalifat des Omayyades. Amesterdam, 1894.

Vasiliev :
- Byzance et les Arabes, Paris 1953.

Velsey, J:
- AL - Ansar, in ersten juhrhendert des Islam. Archiv, arientalni, 1973.

١ ـ الاعلام

(أ)

- ت -

- ج -

- ح -

- خ -

- ش -

- ص -

- ض -

- ط -

- ع -

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

٢ ـ الأماكن

ـ أ ـ

ـ د ـ

ـ ذ ـ

ـ ر ـ

- ز -

- س -

- ش -

- ف -

- ق -

ـ ك ـ

ـ ل ـ

-م-

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

محتويات الكتاب

المؤلف :

من مواليد بنت جبيل ١٩٤١ .

دكتوراه حلقة ثالثة ١٩٧١ .

دكتوراه دولة ١٩٨١ .

استاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة اللبنانية .

استاذ في قسم الدراسات العليا في الجامعة اليسوعية .

استاذ في جامعة بيروت العربية (١٩٧٧ ـ ١٩٨٠) .

استاذ محاضر في دائرة العلوم الانسانية والاجتماعية ـ جامعة اليرموك ١٩٨٣ .

استاذ زائر في مركز الدراسات الاسلامية ـ جامعة اليرموك ١٩٨٤ .

عضو الهيئة الادارية للمجلس الثقافي للبنان الجنوبي .

عضو هيئة التحرير المشرفة على مجلتي« دراسات »و « ابحاث» في الجامعة اللبنانية .

اسهم بدراسات ومقالات وندوات، عدد بعض المنابر الثقافية والمجلات العلمية .

الكتب المنشورة :

١ ـ تاريخ العرب السياسي ، من فجر الاسلام حتى سقوط بغداد . بالاشتراك مع د. سهيل زكار . دار الفكر ، بيروت ١٩٧٤ .

٢ ـ التوّابون ، الطبعة الأولى ، دار التراث الاسلامي ـ بيروت ١٩٧٥ . الطبعة

التانية ، دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت ١٩٧٨ . صدر بـاللغة الفـارسية عن كلية الحقوق ـ طهران ـ ١٩٧٩ .

٣ ـ الدولة العربية في اسبانيا ، من الفتـح حتى سقوط الخـلافة . الـطبعة الأولى : دار النهصة العربية ١٩٧٨ . الطبعة التانية : دار النهضة العربية ١٩٨٠ .

٤ ـ ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري .

الطبعة الأولى : دار النهضة العربية ١٩٧٩ .

الطبعة الثانية : دار النهضة العربية ١٩٨٣ .

٥ ـ صفحات من تاريخ جبل عـامل (مـع آخرين) . المجلس الثقـافي للبنان الجنـوبي ١٩٨٠ .

٦ ـ الـدولة الأمـوية والمعـارضة ، مـدخل الى كتـاب « السيطرة العـربية » للمستشـرق الهولندي فان فلوتن مع ترجمة له .

الطبعة الأولى: دار الحداثة ـ بيروت ١٩٨٠ .

الطبعة الثانية : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٨٤ .

٧ ـ الحجاز والدولـة الاسلاميـة ، دراسة في إشكـالية العـلاقة مـع السلطة المركـزية في القرن الأول الهجري .

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٨٣ .

٨ ـ حركة المعارضة في الكوفة دراسة في التكوين .

معهد الانماء العربي ـ بيروت ١٩٨٤ .

٩ ـ تكـوّن الاتجاهـات السياسيـة في الاسـلام الأول ، من دولـة عمـر الى دولـة عبـد الملك . دار اقرأ بيروت ١٩٨٤ .

كتب غير منشورة :

١ ـ ثورة ابن الأشعث (اطروحة الحلقة الثالثة) .

٢ ـ المرثية الجنوبية ، خواطر أدبية في الهمّ الجنوبي .

هذا الكتاب

لعل مرحلة «السقيفة» كانت غير قادرة على إحداث الفرز المطلوب، وما يؤدي اليه من وجود فريق في السلطة وآخر في المعارضة او بمعنى آخر من تجسيد واقع المنتصر والمهزوم تماما. ولكن حظا وافرا للاتجاه «الوسطي» هيأته المرحلة للخروج من الأزمة السياسية، بالقليل من الجدل ومن المعارضة. ولقد مثل اصحابه، بما لديهم من رصيد معنوي وتراث نضالي في الاسلام، الدعامة الاساسية لهذا الاتجاه، حيث أصبح ارتباطه عضويا بهم، واستمراره خاضعا لوجودهم، مما شكل ابرز نقاط ضعفه، وأدى الى ان يكون مجرد تكتل مرحلي، وأن تظل جذوره على وجه الارض. ومن هذا المنظور، فإن الاتجاه التوفيقي او التوازني هذا، طرح نفسه بين اتجاهين متعارضين في العمق: احدهما يمكن تسميته بـ «الاتجاه الاسلامي»، الذي مثلته النخبة المقربة من النبي، وثانيهما، «الاتجاه القرشي»، وهو من بقايا حلف «المطيبين» الذي فقد نفوذه بعد فتح مكة، على الرغم من المحاولة لتمويه الهزيمة التي حلت به. وتجدر الاشارة الى أن سياسة الاتجاه الوسطي بعد ارتقائه سدة الحكم، تقاطعت مع سياسة الاتجاه الاسلامي او الكثير منها، مؤديا ذلك الى معادلة فريدة، حيث يتم التحول عادة من موقع السلطة، نحو الاتجاه المحافظ او التقليدي، لما يوفره من القواسم المشتركة، خلافا للاتجاه الآخر، الذي تعاطى مع القضايا المطروحة بصورة جذرية وحازمة.





للنشر والتوزيع والطباعة